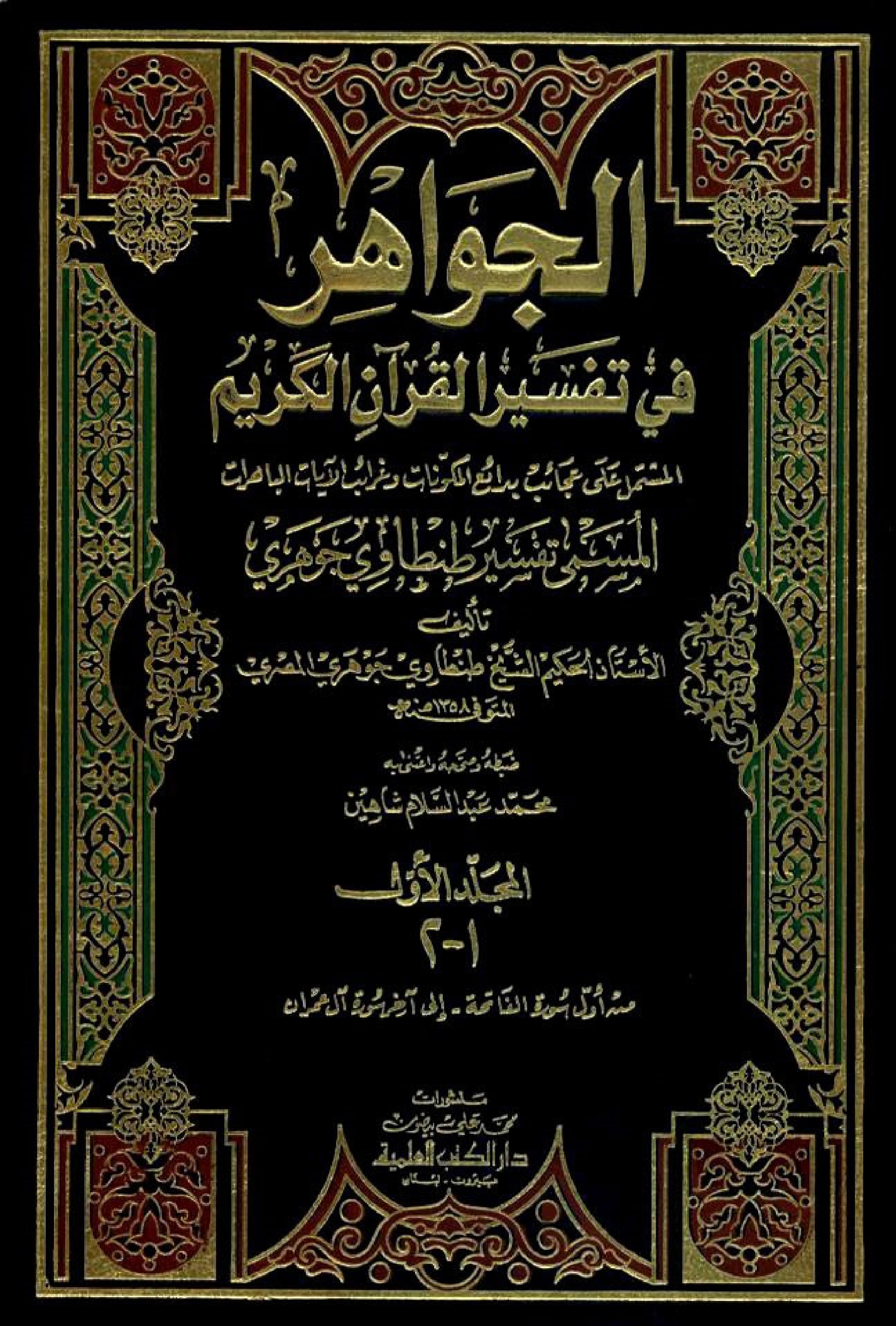


الجواهر
في تفسير القرآن الكريم
المشتمل على عجائب بدائع المكونات وغرائب الآيات الباهرات
المسمى تفسير طنطاوي جوهري
تأليف
الأستاذ الحكيم الشيخ طنطاوي جوهري المصري
المتوفى ١٣٥٨هـ
ضبطه وصححه واعتنى به
محمد عبد السلام شاهين
المجلد الأول
١-٢
من أول سورة الفاتحة - إلى آخر سورة آل عمران
منشورات
محمد علي بيضون
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

الجواهر

في

تفسير القرآن الكريم

المشتمل على عجائب بدائع المكونات وغرائب الآيات الباهرات

تأليف

الأستاذ الحكيم الشيخ طنطاوي جوهري المصري

المتوفى ١٣٥٨هـ

ضبطه وصححه واعتنى به

محمد عبد السلام شاهين

الجزء الثاني

المحتوى:

سورة آل عمران

منشورات

محمد علي بيضون

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾[النحل:٤٤]

تقسيم سورة آل عمران
وهي عشرة أقسام

القسم الأول: معنى ﴿ الٓمٓ ﴾.

القسم الثاني: الإيمان إما تقليدي بالكتب السماوية، وإما يقيني بالعلوم الطبيعية من قوله: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ (٢) ﴾ إلى قوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ (٩) ﴾.

القسم الثالث: التخلية من الرذائل كالشهوات، والتحلية بالفضائل من الأعمال الصالحة والعلوم، وأن هذا هو الإسلام الحق في كل العصور، وهذا من قوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ (١٠) ﴾ إلى قوله: ﴿ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ (١٩) ﴾.

القسم الرابع: كيف يعامل المعاندون والمجادلون، وهذا من قوله: ﴿ فَإِنْ حَآجُّوكَ (٢٠) ﴾ إلى قوله: ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَـٰفِرِينَ (٣٢) ﴾.

القسم الخامس: قصة مريم، وزكريا، ويحيى، وعيسى، والحواريين، من قوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ (٣٣) ﴾ إلى قوله: ﴿ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ (٥٨) ﴾.

القسم السادس: المحاورة المرتبة على هذه القصة، كمحاجة النصارى في عيسى، وإقامة الحجة على أهل الكتاب، وتكرار النداء لهم ست مرات بقوله: ﴿ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ ﴾ من قوله: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ (٥٩) ﴾ إلى قوله: ﴿ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٩٩) ﴾.

القسم السابع: توجيه الخطاب للمؤمنين بقوله: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ﴾ وتكراره ثلاث مرات ليجتنبوا ما يقترفه أهل الكتاب من الإثم من قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ (١٠٠) ﴾ إلى قوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (١٢٠) ﴾.

القسم الثامن: مخاطبة الله النبي صلى الله عليه وسلم ليعلم المؤمنون نعم الله عليهم في غزوة أحد من قوله: ﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ (١٢١) ﴾ إلى قوله: ﴿ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١٧٥) ﴾.

القسم التاسع: ذكر المنافقين واليهود وكيدهم، وأن ذلك ابتلاء من الله للنبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين ليصبروا فتقوى النفوس، وترفع إلى العلى من قوله: ﴿ وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ (١٧٦) ﴾ إلى قوله: ﴿ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (١٨٩) ﴾.

القسم العاشر: التفكر في خلق السماوات والأرض، والعروج إلى عالم القدس بعد الصبر في القسم قبله، كأنه تعالى يقول: الصبر أولاً، والعروج إلى عالم الأرواح آخراً من قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ (١٩٠) ﴾ إلى آخر السورة.

ملخص هذه السورة

كأن الله عزّ وجلّ يقول في القسم الأول: هذه الحروف الهجائية «ا ل م» ونحوها، قد كررتها في أول السور، وجعلتها من الأسرار التي توجب أن تفكروا فيها تدريباً لعقولكم، وتوجيهاً لنفوسكم إلى المعاني المختلفة التي تحتملها، فإن الكتب السماوية لهذا أنزلت، أنزلت لترمز تارة وتصرح أخرى، وتفتح للعقول مجال الفكر، فعلينا الوحي بالإشارة والتصريح، وعليكم الفهم والتفكر تارة، والعمل والامتثال أخرى، وسيأتي هنا بعض سر هذه الحروف.

ويقول في القسم الثاني: لقد أنزلت الكتب السماوية لكم أيها الناس، فمنها ما نزل على نبيكم، ومنها ما نزل على من قبله من الأنبياء، لأفتح لكم باب الفهم فتؤمنوا بي كما نصبت لكم دلائل التوحيد في السماوات والأرض ليظهر لكم جمالي، وتبهركم حكمتي، وتتأملوا في أنفسكم، وتعقلوا العجائب في الأعضاء الجسمية التي صوّرتها في الأجنة في بطون أمهاتها، ألا وإن هذه الكتب السماوية وهذه العجائب الطبيعية منها ما تفهمونه بسهولة كالآيات المحكمات، وكالأعضاء المفصلة الواضحة في أجسامكم، ومنها ما يشتبه عليكم علمه مثل «ا ل م» التي في أول هذه السورة، ومثل تكوين الجنين في بطن أمه، وكيف يمرّ على درجات مختلفة من الرقي الحيواني، فيشتبه هذان على كثير من الناس، وليس يعلم ما اشتبه فيهما إلاّ الله وأكابر الحكماء والعلماء، فتوجهوا إليّ أهدكم وقولوا: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾[آل عمران:٨].

وكأنه تعالى يقول في القسم الثالث: لا يغرنكم هؤلاء الكافرون، ولا تعجبكم أموالهم ولا أولادهم، فهذه كلها لا تغني، وحسبكم ما ترون من خذلان الكافرين يوم بدر كما خذل آل فرعون. واعلموا أيها الناس أنكم محبوسون مسجونون في هذه الدنيا في سجون سبعة: النساء والبنين والذهب والفضة والخيل والأنعام والزرع، ولا يخرجكم من هذه السجون المؤصدة عليكم إلى النعيم والحرية والسعادة إلاّ الصبر والاستغفار والعبادة والصدق، والفكر في هذه العوالم المحيطة بكم حتى تقفوا على العدل الذي نصبناه، والحكمة التي أبرزناها في الأنفس والآفاق، فإن هذا هو دين الإسلام العام الذي أنزلناه على الأنبياء، وهو الذي يخرج الناس من سجن الشهوات والجهالات إلى نعيم الحكمة والعلم، فيعلمون أن ملكنا ذو نظام جميل، وأننا عادلون في عملنا، وأن هذا العالم جنة المفكرين، كما أنه سجن المغفلين.

ويقول في القسم الرابع: أسلم وجهك يا محمد لله، ومن معك من المؤمنين، ولا يضركم من ضلّ من هؤلاء الكافرين من العرب واليهود، فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب. واعلم يا محمد أنت ومن معك أني سأملككم أرض الحيرة والفرس واليمن والروم فلا تخافوا ولا يتخذ بعضكم من الكافرين بطانة، فإني أعلم سركم ونجواكم، واتبعوا نبيي محمداً أحبكم وأغفر لكم ذنوبكم.

ويقول في القسم الخامس: لقد مننت على حنة زوجة عمران بما طلبت من ربها فرزقتها بمريم، ورزقت زكريا الذي كفلها استجابة لدعائه بيحيى، واصطفيت مريم، وخلقت منها عيسى، وأجريت المعجزات على يديه كخلق الطير على يديه، وإبراء الأكمه والأبرص، وإخباره بالغيب، وجعلته

مصدقاً للتوراة، ومصلحاً دينياً ليحل بعض ما حرم في التوراة، ويخرج الناس من الظلمات التي أحاطت بهم من علماء السوء المقلدين الغافلين، ويفتح لهم طريقاً إلى العلم لترتقي الأمة، ولتسعى إلى الفلاح والنجاح، فكفرت طائفة من بني إسرائيل كما كفر بعض العرب بمحمد صلى الله عليه وسلم. وقال الحواريون: نحن أنصار الله، وأما الكافرون بعيسى فإن الله جازاهم ورفع عيسى إلى السماء، وجعل الذين اتبعوه فوق الذين كفروا به، هكذا سيكون أتباعك يا محمد فوق الذين كفروا بك، وسيعلو دينك ويمحق الكفر، ويحل محله الإسلام في جزيرة العرب، وما شاء الله من البلدان.

ويقول في القسم السادس: يا أهل الكتاب قد عرّفناكم حقيقة عيسى، وهذا هو القصص الحق، فكيف تقولون إنه مصلوب مقتول، دعوا الافتراء على الله في عيسى وفي إبراهيم، إن إبراهيم كان قبل اليهودية وقبل النصرانية، فإن موسى وعيسى من ذريته، وكيف يكون الأب على دين الابن الذي لم يخلق؟ إن إبراهيم هو الذي بنى الكعبة التي يجب على الناس الحج إليها، فليكن الاتباع له، ولينته أهل الكتاب عن الكفر، فالحق أحق أن يتبع.

وكأنه يقول في القسم السابع: إياكم أيها المسلمون أن تصغوا لأهل الكتاب فإنهم يريدون أن يردوكم عن دينكم، وكيف يكون ذلك، وفيكم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فاعتصموا بحبل الله وكونوا يداً واحدة، وليكن منكم هداة يكونون بمنزلة العقل من الجسم، وأنتم كجسم واحد ونفس واحدة، واحذروا أن تكونوا كأهل الكتاب الذين تفرقوا بعد أنبيائهم فاحذروهم فأنتم سليمو القلوب، وهم يكرهونكم ويفرحون لحزنكم، ويحزنون لفرحكم.

وكأنه تعالى يقول في القسم الثامن والتاسع: إنك يا محمد قد غدوت إلى أحد لمحاربة الكافرين وهمت بنو سلمة وبنو حارثة أن تفشلا وكانا جناحي العسكر، ولكن الله عصمهما من هذا الفشل فثبتهما، ولما انهزم عدوكم اختلف الرماة منكم فترك أغلبهم مواقفهم التي أمروا بالبقاء فيها، وعمدوا إلى نهب الغنائم، فأصابتكم الهزيمة ابتلاء من الله وامتحاناً، ولقد نصرتكم في بدر على قلتكم، فلئن خذلتم في أحد لقد نصرتم في بدر، ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ ﴾[آل عمران: ١٤٠] وهذا الخذلان فيه تعليم للصبر على الشدائد، ولقد هلعتم لما سمعتم أن محمداً قتل، وكيف يكون ذلك وهو رسول، والرسل إن ماتوا أو قتلوا يقوم أتباعهم بما دعوا إليه. ثم اعلموا أن النصر من عند الله، فلا القلة تمنعه، ولا الكثرة توجبه، والمصائب مقدّرة في الأزل فلا تحزنوا، ومن قتلوا في سبيل الله أحياء، فلا تخافوا من الموت، ولا تثبطكم الأراجيف عن مواصلة القتال، والمؤمنون يصابون بالشدائد ليظهر الخبيث من الطيب، وأصول الإيمان كلها راجعة إلى الصبر.

وكأنه يقول في القسم العاشر: أيها الناس إن هذه الغزوات والعداوات ومحاجة الكفار ليست مقصودة لذاتها، وإنما المقصود الأهم أن تنظروا في خلق السماوات والأرض، واختلاف الليل والنهار، وتذكروا ربكم على كل حال، ولا يغرنكم ظهور الجاهلين والكافرين في هذه الحياة الدنيا، فإن الإنسان يمتاز عن الحيوان بالعقل والعلم، وهؤلاء إنّما امتازوا بالتقلب في الأعراض الدنيوية، وهو متاع قليل،

فالإنسان خلق ليعلم الأشياء على ما هي عليه، فاصبروا على الشدائد، وصابروا، واتقوا الله لعلكم تفلحون. اهـ ملخص السورة الإجمالي.

تفسير السورة

مقدمة في مناسبة هذه السورة لما قبلها

(١) اعلم أن هذه السورة كالمتممة لسورة البقرة، ألا ترى أن لفظ البقرة يدل على بقرة بني إسرائيل التي ذبحت لإظهار القتيل، وأن القصة التي تخللت السورة هي قصة بني إسرائيل، وقد قدمت لك في البقرة أنها مرتبة ترتيباً تاريخياً على حسب العصور، فترى أن أول البقرة اشتمل على قصة بني إسرائيل لما كانوا في مصر، ثم الخروج منها، ثم ذكر أزمان حكم الشيوخ السبعين، ثم جاء في أواخر السورة فذكر ملكهم بعد أن كانت حكومتهم شورية، فملك الله عليهم طالوت، ثم داود وسليمان، واستفحل ملكهم كما أوضحته هناك، وليس بعد هذا التاريخ إلاَّ خروج عيسى ابن مريم، فجاءت سورة آل عمران التي تلي قصة بني إسرائيل السابقة. فانظر كيف كان لفظ البقرة دالاًّ على تاريخ بني إسرائيل، كما أن آل عمران رمز إلى قصة مريم وزكريا وحنة ويحيى وعيسى، ثم تبع ذلك محاجة أهل الكتاب ونصيحة المسلمين أن لا يطيعوهم، وأن تلك القصص تذكر للاستنتاج والعظة والاعتبار، كما ستراه مفصلاً في الآيات.

(٢) أن أول البقرة وآخرها مشابهان لأول آل عمران وآخرها. فابتداء البقرة بالإيمان بالغيب وذكر الكتب السماوية، وهكذا افتتاح آل عمران، وختم بالبقرة بأن النبي ومن معه قد آمنوا بالله وجميع الكتب السماوية، وختم آل عمران بمدح التفكر في خلق السماوات والأرض، وأن هؤلاء المتفكرين يقولون: ﴿ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيٗا يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ أَنۡ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمۡ فَـَٔامَنَّاۚ ﴾[آل عمران:١٩٣] فهاهنا قالوا ﴿ ءَامَنَّا ﴾، وفي البقرة قالوا ﴿ ءَامَنَّا ﴾[البقرة:٨]، انتهت المقدمة.

فلنبتدئ في تفصيل التفسير في هذه السورة فنقول:

القسم الأول

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ الٓمٓ ۝١ ﴾

إن هذه الحروف التي ذكرت في أول السور قد أطال العلماء الكلام عليها؛ فمن قائل: لا علم للبشر بها، ومن قائل: كلا، بل لا بد أن يكون لها معنى يعرفه الناس، وهذا هو الحق.

فاعلم أن القرآن كتاب سماوي، والكتب السماوية تصرح تارة وترمز أخرى، والرمز والإشارة من المقاصد السامية والمعاني العالية والمغازي الشريفة، وقديماً كان ذلك في أهل الديانات، ألم تر إلى اليهود الذين هم كانوا منتشرين في المدينة وفي بلاد الشرق أيام النبوة كيف كانوا يصطلحون فيها بينهم على أعداد الجمل المعروفة اليوم في الحروف العربية، فيجعلون الألف بواحد، والباء باثنين، والجيم بثلاثة، والدال بأربعة، هكذا مارين على الحروف الأبجدية إلى الياء بعشرة والكاف بعشرين، وهكذا

إلى القاف بمائة والراء بمائتين، وهكذا إلى الغين بألف كما ستراه في هذا المقام، كذلك ترى أن النصارى في إسكندرية ومصر وبلاد الروم وفي سوريا، قد اتخذوا الحروف رموزاً دينية معروفة فيما بينهم أيام نزول القرآن، وكانت اللغة اليونانية هي اللغة الرسمية في مصر، وكانوا يرمزون بلفظ «أكسيس» لهذه الجملة: يسوع المسيح ابن الله المخلص، فالألف من «أكسيس» هي الحرف الأول من لفظ «أيسوس» يسوع، والكاف منها هي الحرف الأول من «كرستوس» المسيح، والسين منها هي حرف الثاء التي تبدل منها في النطق في لفظ «ثيو» الله، والياء منها تدل على «أيوث» ابن، والسين الثانية منها تشير إلى «ثوتير» المخلص، ومجموع هذه الكلمات: يسوع المسيح ابن الله المخلص، ولفظ «أكسيس» اتفق أنه يدل على معنى سمكة، فأصبحت السمكة عند هؤلاء رمزاً لإلههم.

فانظر كيف انتقلوا من الأسماء إلى الرمز بالحروف، ومن الرمز بالحروف إلى الرمز بحيوان دلت عليه الحروف. قال الحبر الإنكليزي «صموئيل مونتنج» إنه كان يوجد كثيراً في قبور رومة صور أسماك صغيرة مصنوعة من الخشب والعظم، وكان كل مسيحي يحمل سمكة إشارة للتعارف فيما بينهم. اهـ. فإذا كان ذلك من طبائع الأمم التي أحاطت بالبلاد العربية وتغلغلت فيها، ونزل القرآن لجميع الناس من عرب وعجم، كان لا بد أن يكون على منهج يلذ الأمم، ويكون فيه ما يألفون، وستجد أنه لا نسبة بين الرموز التي في أوائل السور، وبين الجمل عند اليهود ورموز النصارى، إلاَّ كالنسبة بين علم الرجل العاقل والصبي، أو بين علم العلماء وعلم العامة. فبهذا تبين لك أن اليهود والنصارى كان لهم رموز، وكانت رموز اليهود هي حروف الجمل.

لطيفة

قال ابن عباس رضي الله عنهما: مر أبو ياسر بن أخطب برسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يتلو سورة البقرة ﴿ الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾[البقرة:١-٢]، ثم أتى أخوه حيي بن أخطب وكعب بن الأشرف، فسألوه عن ﴿ الٓمٓ ﴾ وقالوا: ننشدك الله الذي لا إله إلاَّ هو أحق أنها أتتك من السماء؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: نعم، كذلك نزلت، فقال حيي: إن كنت صادقاً إني لأعلم أجل هذه الأمة من السنين، ثم قال: كيف ندخل في دين رجل دلت هذه الحروف بحساب الجمل على أن منتهى أجل أمته إحدى وسبعون سنة؟ فضحك النبي صلى الله عليه وسلم، فقال حيي: فهل غير هذا، فقال: نعم ﴿ الٓمٓصٓ ﴾[الأعراف:١]، فقال حيي: هذا أكثر من الأول، هذا مائة وإحدى وستون سنة، فهل غير هذا؟ فقال: نعم، ﴿ الٓرۚ ﴾[يونس:١]، فقال حيي: هذا أكثر من الأولى والثانية، فنحن نشهد إن كنت صادقاً ما ملكت أمتك إلاَّ مائتين وإحدى وثلاثين سنة، فهل غير هذا؟ فقال: نعم، ﴿ الٓمٓرۚ ﴾[الرعد:١]، قال حيي: فنحن نشهد أنا من الذين لا يؤمنون، ولا ندري بأي أقوالك نأخذ، فقال أبو ياسر: أما أنا فأشهد على أن أنبياءنا قد أخبرونا عن ملك هذه الأمة، ولم يبينوا أنها كم تكون، فإن كان محمد صادقاً فيما يقول، إني لأراه سيجتمع له هذا كله، فقام اليهود وقالوا: اشتبه علينا أمرك كله فلا ندري أبالقليل نأخذ أم بالكثير.

فبهذا تعرف أيها الذكي أن الجمل كان متعارفاً عند اليهود، وهو نوع من الرموز الحرفية، فكانت هذه الحروف لا بد من نزولها في القرآن ليأخذ الناس في فهمها كل مذهب، وتتصرف الفكر فيها. ولأقتصر لك مما قرأته على ثلاث طرائق فيما ترمز إليه هذه الحروف:

الطريقة الأولى: أن تكون هذه الحروف مقتطعات من أسماء الله، كما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: الألف: آلاء الله، واللام: لطفه، والميم: ملكه، وعنه أن ﴿ الٓر ﴾ [يونس:١] و﴿ حمٓ ﴾[الزخرف:١] و﴿ نٓ ﴾[القلم:١] مجموعها الرحمن، وعنه أن ﴿ الٓمٓ ﴾ معناه: أنا الله أعلم ونحو ذلك في سائر الفواتح، وعنه أن الألف من الله، واللام من جبريل، والميم من محمد، أي: القرآن منزل من الله بلسان جبريل على محمد عليهما الصلاة والسلام. أقول: إن ابن عباس رضي الله عنهما إنّما أراد بذلك أن تكون الحروف مذكرة بالله عزّ وجلّ في أكثر الأحوال، وذكر الله أجلّ شيء، ويرجع الأمر كله إلى أنها أسماء مرموز لها بالحروف كما تقدم عن الأمم السالفة، من النصارى في إسكندرية ورومة، ولكن لا بد أن يكون هناك ما هو أعلى وأعلى.

الطريقة الثانية: أن هذه الحروف من أعجب المعجزات والدلالات على صدق النبي صلى الله عليه وسلم، وهذا مما ترضاه النفوس، ألا ترى أن حروف الهجاء لا ينطق بها إلاّ من تعلم القراءة، وهذا النبي الأمي قد نطق بها، والذي في أول السور ١٤ حرفاً منها، وهي ٢٨ حرفاً إن لم تعدّ الألف حرفاً برأسه، و١٤ نصفها، وقد جاءت في ٢٩ سورة، وهي عدد الحروف الهجائية إذا عدّت فيها الألف، وقد جاء من الحروف المهموسة العشرة وهي «فحثه شخص سكت» بنصفها، وهي الحاء والهاء والصاد والسين والكاف. ومعلوم أن الحروف إما مهموسة وهي ما يضعف الاعتماد عليها وهي ما تقدم، وإما مجهورة، والمجهورة ١٨ نصفها ٩، وهذه التسعة ذكرت في فواتح السور، ويجمعها «لن يقطع أمر»، والحروف الشديدة ثمانية، وهي «أجدت طبقك»، وأربعة منها في الفواتح وهي «أقطك»، والحروف الرخوة عشرون وهي الباقية، نصفها عشرة وهي في هذه الفواتح يجمعها «حمس على نصره»، والحروف المطبقة أربعة «الصاد والضاد والطاء والظاء» وفي الفواتح نصفها «ص ط»، وبقية الحروف وهي ٢٤ حرفاً تسمى منفتحة ونصفها وهو ١٢ في الفواتح. فانظر كيف أتى في هذه الفواتح بنصف الحروف الهجائية إن لم تعدّ الألف، وجعلها في ٢٩ سورة عدد الحروف وفيها الألف، وكيف أتى بنصف المهموسة ونصف المجهورة ونصف الشديدة ونصف الرخوة ونصف المطبقة ونصف المنفتحة، ولقد ذكرت لك قلاً من كل مما ذكره العلماء في هذا المقام، ولا أطيل عليك خيفة السآمة والملل، وكفاك ما أمليته عليك في هذه الطريقة الثانية، لتعرف كيف أتى بهذه الأنصاف، وكيف وضعت الحروف على هذا النظام، وإني موقن أن المتعلم لو طلب منه أن يأتي بهذه الحروف منصفة على هذا الوجه ما استطاع لذلك سبيلاً، فإنه إن راعى نصف الحروف المطبقة، فكيف يراعي الحروف الشديدة، وكيف يراعي نصف المجهورة في نفس العدد؟ إن ذلك دلائل على صدق صاحب الدعوة صلى الله عليه وسلم، ففائدة هذا الوجه أهم من الوجه الأول، فالأول فائدته تذكير الإنسان بأسماء الله تعالى. وأما الوجه الثاني ففيه إعجاز للعقول وحيرة، فيقال: كيف تنصف الحروف الهجائية وتنصف أنواعها

من مهموسة وشديدة الخ، وهذه الأنواع لم يكن ليدرسها أحد في العالم أيام النبوة، ولما ظهرت وافقت تلك الحروف بأنصافها، إن ذلك ليعطي العقول مثلاً من الغرابة الدالة على أن هذا لا يقدر عليه المتعلمون، فإذن هو من الوحي، وهذا الوجه على قوته يفضله ما بعده.

الطريقة الثالثة: أن الله تعالى خلق العالم منظماً محكماً متناسقاً متناسباً، الكتاب السماوي إذا جاء مطابقاً لنظامه موافقاً لإبداعه سائراً على نهجه، دل ذلك على أنه من عنده. وإذا جاء الكتاب السماوي مخالفاً لنهجه منافراً لفعله منحرفاً عن سننه، كان ذلك الكتاب مصطنعاً مفتعلاً متقوّلاً مكذوباً ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾[النساء: ٨٢].

والعالم المشاهد فيه عدد (٢٨) في:

(١) مفاصل اليدين في كل يد ١٤.

(٢) وفي خرزات عمود ظهر الإنسان، منها ١٤ في أسفل الصلب، و١٤ في أعلاه.

(٣) خرزات العمود التي في أصلاب الحيوانات التامة الخلقة كالبقر والجمل والحمر والسباع وسائر الحيوانات التي تلد وترضع أولادها، منها ١٤ في مؤخر الصلب، و١٤ في مقدم البدن.

(٤) وهكذا عدد الريشات التي في أجنحة الطير المعتمدة عليها في الطيران فإنها ١٤ ظاهرة في كل جناح.

(٥) وعدد الخرزات التي في أذناب الحيوانات الطويلة الأذناب كالبقر والسباع.

(٦) وعمود صلب الحيوانات الطويلة الخلقة كالسمك والحيات وبعض الحشرات.

(٧) وعدد الحروف التي في لغة العرب التي هي أتم اللغات ٢٨ حرفاً، منها ١٤ يدغم فيها لام التعريف وهي: ت ث د ذ ر ز س ش ص ض ط ظ ل ن، و١٤ لا تدغم فيها وهي: ا ب ج ح خ ع غ ف ق ك م هـ و ي.

(٨) والحروف التي تخط بالقلم قسمان، منها ١٤ معلم بالنقط ب ت ث ج خ ذ ز ش ض ظ غ ف ق ن، و١٤ غير معلمة وهي: ا ح د ر س ص ط ع ك م و هـ ل لا، وهذا الحرف هو الألف التي هي من حروف العلة، أما الأولى فهي الهمزة، فهذه ١٤ حرفاً، بقيت الياء وهي تنقط في وسط الكلمة، ولا تنقط في آخرها، فأصبحت الحروف المعلمة ١٤ وغير المعلمة ١٤، والحرف التاسع والعشرون معلم وغير معلم لتكون القسمة عادلة، والفضل في هذا العدل للحكيم الذي وضع حروف الهجاء العربية، فإنه كان حكيماً، والحكيم هو الذي يتشبه بالله بقدر الطاقة البشرية، وهذا جعل ٢٨ حرفاً مقسمة قسمين كل منها ١٤ كما في مفاصل اليدين وفقرات بعض الحيوانات.

(٩) ومنازل القمر ٢٨ منزلة، في البروج الشمالية ١٤ وفي البروج الجنوبية ١٤، فهذا يفيد أن الموجودات التي عددها ٢٨ تكون قسمين كل منهما ١٤، فهكذا هنا في القرآن جاءت الحروف العربية مقسمة قسمين: قسم منها ١٤ منطوقاً به في أوائل السور، وقسم منها غير منطوق به في أوائلها، وكأنه تعالى يقول: أي عبادي، إن منازل القمر ٢٨ وهي قسمان، ومفاصل الكفين ٢٨ وهي قسمان، وهكذا والحروف التي تدغم في حرف التعريف وهكذا التي هي معلمة، كل منها ١٤ وضدها ١٤.

فلتعلموا أن هذا القرآن هو تنزيل مني ، لأني نظمت حروفه على النمط الذي اخترته في صنع المنازل ، والأجسام الإنسانية والأجسام الحيوانية ، ونظام الحروف الهجائية ، فمن أين لبشر كمحمد أو غيره أن ينظم هذا النظام ، ويجعل هذه الأعداد موافقة للنظام الذي وضعته ، والسنن الذي رسمته ، والنهج الذي سلكته؟ إن القرآن تنزيل مني ، وقد وضعت هذه الحروف في أوائل السور لتستخرجوا منها ذلك ، فتعلموا أني ما خلقت السماوات والأرض وما بينهما باطلاً ، بل جعلت النظام في العالم وفي الوحي متناسباً ، وهذا الكتاب سيبقى إلى آخر الزمان ولغته ستبقى حية معه إلى آخر الأجيال ، إن اللغات متغيرة ، وليس في هذا العالم لغة تبقى غير متغيرة إلاّ التي حافظ عليها دين ، وهل غير اللغة العربية حافظ عليها دين؟ .

حكاية

حدثني عالم فاضل أنه قرأ رواية باللغة الألمانية ، ملخصها : أن المؤلف الألماني تخيل رجلاً من هذه الأجيال نام فاستيقظ سنة ٨٥٣٢ ميلادية مثلاً ، فطاف في أنحاء المعمورة وصار يخاطب الناس ، ويسمع لهجات لم يألفها ، ولغات لم يسمعها ، ويرى وجوهاً لم ينظرها ، وأشكالاً لم يعرفها ، ومناظر لم يعهدها ، ويبحث عن إنكلترا وفرنسا وألمانيا ودول أوروبا ، فلم يجد أرضها ، وإنما وجدها كلها بحراً ملحاً أجاجاً فيه السمك العظيم ، فحار في أمره ، وأخذ يفكر ويقول : يا عجبا كل العجب ، ألم يكن لهؤلاء من آثار ، ألم يكن لهم عمل ، ألم يتركوا ما يدل عليهم؟ وبينما هو سائر في سهل من السهول ، وقد ألم من الحر وقت الظهيرة ، فلجأ إلى كهف ليستريح فيه بجبل مشرف على هذا السهل ، فجلس وهو يفكر في أمر نفسه وأمر الأمم الدارسة ، واللغات الذاهبة ، والعلوم الميتة ، والمدينة الخالية ، إذ لمح على صخرة بجانبه حروفاً ، فقال في نفسه : يا ليت شعري ، أيّ لغة هذه ، ومن أيّ اللغات هي؟ إن جميع اللغات متغيرة لا يستقر لها قرار ، فأخذ يقابل هذه الحروف التي على الصخرة بالحروف التي استصحبها معه ، وتذكرها مما كان يدرسه وهو مستيقظ أولاً ، إذ هي تشبه اللغة العربية .

هناك أخذ يفكر ويقول : عجب ، أتفنى اللغات وتبقى العربية ، وأيّ شيء العربية ، ولماذا بقيت؟ ثم قال : نعم نعم ، إن اللغة العربية قبل نزول القرآن كانت تتغير على طول الزمان وتمسخ ، فلا يعرف الأواخر ما قاله الأوائل إلاّ بشق الأنفس ، هكذا سائر لغات أوروبا ، فلما نزل القرآن وكان لا بد من حفظ العربية التي نزل بها ، حفظ المسلمون أصولها ، فلم تتغير ، فأما الأمم الأخرى فإنها تغيرت ، ولم يبق إلاّ اللغة العربية حافظة شكلها حتى انقرضت الأمم ، وأصبحت أرضها بحاراً ، وصارت البحار يابسة ، وجاءت أمم فلم أعرف كيف أخاطبها ، وقرأت كثيراً من الآثار فلم أعرف حرفاً واحداً من لغات الأمم الذاهبة الدارسة التي بقيت آثارها مطموسة في الأرض ، ثم أتى بالنتيجة ، والمقصود من هذه الرواية ، فقال : من أراد من علماء أوروبا أن يخلد علمه واختراعه ونتيجة عمله ، فليؤلفه باللسان العربي ، لأنه هو الباقي ، أما لغات أوروبا فلا بقاء لها ولا دوام . اهـ.

فانظر كيف اتفق رأي علمائنا السابقين مع آراء بعض علماء الألمان ، وكيف يقول علماؤنا : إن ٢٨ في العالم السماوي والأرضي مقسمة ١٤ و١٤ ، والقرآن فصلها كذلك ليدل على أنه هو الباقي

الظاهر فوق كل دين إلى يوم القيامة، وأن المنظم لذلك كله واحد، وكيف يرى هذا الرأي عالم ألماني ويقول: إن لغة العرب باقية بعد سائر اللغات. فانظر كيف اتفق الرأيان، الأول علمي والثاني عملي، وكلاهما يرمي لبقاء القرآن ولغة العرب إلى آخر الزمان.

تحقيق هذا المقام

اعلم أيها الذكي أن الطريقة الثالثة لخصتها من كتب أسلافنا، لا سيما كتاب إخوان الصفاء. ولما كانت تلك الأعداد يعوزها التحقيق وتفتقر إلى التدقيق وإلا لم يرافقها الصدق، ولم يؤيدها الحق، أردت أن أبحث عنها بنفسي، فأما مفاصل اليدين فهي كما ذكروه، وأما خرزات العمود الفقري في الإنسان فهي كما سيأتي:

الرقبة ٧ الظهر ١٢ القطن ٥ الملتحمة ٥ العصعص ٣ أو ٤، فتكون فقرات الظهر في الإنسان ٣٣ لا ٢٨، فكيف يقولون إنها ٢٨، فنقول إن الخمسة التي هي الملتحمة تكون منفصلة قبل ولادة الجنين، فإذا ولد اتصلت فصارت واحدة ظاهراً، وإذا اعتبرنا أن العصعص ٣ لا أربعة، لأن الثلاثة هي الثابتة، أما الرابعة فلا ثبات لها، تكون فقرات الظهر ٢٨، كما قاله القدماء، فهذا تحقيق ما في (١) وفي (٢)، وأما السابع والثامن والتاسع فهي محققة كما تقدم، وأما ٣ و٤ و٥ و٦ فهي التي تحتاج إلى التحقيق.

ولقد نقلت لك الجدول الآتي من الكتب الإنجليزية في الحيوانات الآتية من علم الزيولوجي:

	الحيوان	الرقبة	الظهر	القطن	الملتحمة	العصعص
١	الحصان	٧	١٣	٥ أو ٦	٥	١٥ ـ ١٨
٢	الثور	٧	١٣	٦	٥	١٦ ـ ٢٠
٣	النعجة	٧	١٣	٦ ـ ٧	٤	١٦ ـ ٢٤
٤	الماعز	٧	١٣	٦	٤	١١ ـ ١٢
٥	الجمل	٧	١٢	٧	٤	١٥ ـ ١٨
٦	الخنزير	٧	١٤	٦ ـ ٧	٤	٢١ ـ ٢٣
٧	الكلب	٧	١٣	٧	٣	١٦ ـ ٢١
٨	القط	٧	١٣	٧	٣	٢١
٩	الأرنب	٧	١٢	٧	٤	١٦ ـ ١٨

وجاء ما يوافقه في كلام العلامة جيرار الفرنسي إذ قال:

إن سلسلة الحيوان الذي حافره مشقوق ليس فيها إلاّ ستة وعشرون فقرة، منها: ٧ للعنق وثلاثة عشر للظهر وستة للقطن. وقال: إن سلسلة الكلب والهر مركبة من ٢٧ فقرة، منها: ٧ للرقبة و١٣ للظهر و٧ للقطن، وقد يكون القطن مركباً من ٨ فقرات، وقال: إن للخنزير سلسلة مركبة من ٢٨ فقرة: ٧ عنقية و١٤ ظهرية و٧ قطنية، فتبين من هذا أن العالم الفرنسي موافق علماء إنكلترا، لأن المعلوم مشاهد محسوس.

وتكون النتيجة أننا إذا حسبنا الملتحمة فقرة واحدة في هذه الحيوانات كما اعتبرناها في الإنسان، كانت الأعداد هكذا: للإنسان ٢٨، وللثور ولكل ذي حافر مشقوق ٢٧، وللكلب والهر ٢٨ أو ٢٩، وللخنزير ٢٩، وللجمل ٢٧، وللأرنب ٢٧، فيكون كلام القدماء في هذا المقام كلاماً تقريبياً.

وعددت ريش الطائر فوجدت في كل جناح ٢١ ريشة، وهكذا قال علماء البيطرة، ولكن قدماءنا رحمهم الله قالوا: إن ما يعتمد عليه الطائر ١٤ لا ٢١، وأما ذيل الحيوانات فإنك قد رأيته في الجدول السابق، وهو مختلف من ١٨ إلى ٢٤، فهذه المسائل الأربعة الخاصة بالحيوانات الفقرية بعضها يوافق كلام القدماء وبعضها يقاربه.

إيقاظ: اعلم أن هذا التحقيق لا يخالف أصل الموضوع، ولا ينافي حقيقة المسألة، فحروف أوائل السور من العجائب، فقد وافقت المنازل السماوية، ومفاصل اليدين، وخرزات ظهر الإنسان، وظهر الكلب والهر والحيوانات الكاسرة، والحروف الهجائية المعلمة وغير المعلمة، والمدغمة في لام التعريف، والتي لم تدغم، وهكذا. فتعجب من العلم والحكمة وغرائب الإبداع وعجائب العلوم.

موازنة رموز المسيحيين برموز المسلمين

تأمل كيف كانت رموز المسيحيين قد دعت في آخر أمرها إلى تقديس الرمز نفسه والإعجاب به واتخاذه مقدّساً، فالسمكة التي وافقت حروفها الخمسة في اللغة اليونانية أوائل حروف الجملة التي في ذكر المسيح، أصبحت مقدّسة، أما الرموز في القرآن فإن المسلمين الصادقين والحكماء المحققين أخذوا يبحثون بسببها في علم الطبيعة وفي علم الفلك وفي علم التشريح، وقالوا: إن كتابنا يرمز بهذه الحروف إلى نظام السماوات والأرض، وإنه موافق للطبيعة، وإنه باق ببقاءها، وإنه خير الأديان.

فانظر كيف كان قدماؤنا يدرسون، وكيف أصبح المتأخرون يجهلون، وبعضهم صم بكم عمي فهم لا يعقلون. كان قدماؤنا يجعلون الطبيعة والفلك من أوضح ما يطبق على الرموز القرآنية، فأما المتأخرون فإنهم في التيه غافلون، وفي الحضيض نائمون، وبالجهل قانعون، وللموت يحتضرون، وبالشقاوة ينعمون، وفي الضلال يعمهون، وفي القيود يرسفون، وفي الذلة يعيشون، وفي السلاسل يسحبون، وفي جهنم الاستعباد يحرقون، وقد آن أوان السعادة، وأقبلت أيام السيادة، وسيبدّل الأمن بالخوف، والعلم بالجهل، والله يقدر الليل والنهار مالك الملك ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٢٦-٢٧].

كيف نام المسلمون في القرون الأخيرة

انظر كيف كان قدماؤنا يجعلون هذه العلوم دراسة للقرآن ومعاني له، ولكن يا حسرتا أن أولئك العلماء كانوا قليلاً؛ فأما العامة والملوك وصغار العلماء فإنهم كانوا معرضين عن هذه العلوم ويظنونها كفراً، ولو كانت حكوماتهم جمهورية نظامية لانتشرت هذه الآراء، ولظهرت أجيال منهم

لم يعرفها الإنسان، ولكن قد آن أوانه، وجاء إبانه، وسيظهر العلم عما قريب، وسيدرس المسلمون هذا التفسير وأمثاله من مؤلفات العلماء في أقطار الإسلام، وسيكون في هذه الأمة جيل ونظام لم يألفه الإنسان ولم يعرفه أبناء الزمان ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾[الرحمن:٢٩] ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾[آل عمران:١٤٠] ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ﴾[ص:٨٨] ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾[التوبة:٣٣].

جمال هذه الحروف وعجائبها

فانظر كيف حمل هذا الرمز بهذه الحروف في أوائل السور العلماء على التفكير؛ فمن رمز إلى أسماء الله الحسنى إلى أنها فيها نصف المجهورة والمهموسة والشديدة والمطبقة والمنفتحة الخ، ثم كيف اعتلوا فوق ذلك إلى سماء الخيال وسافروا في باحات الجمال فنظروا فقرات الحيوان ومنازل السماء وحروف الهجاء، وبحثوا ودققوا وفكروا وحققوا، ثم انظر كيف كان عدد ٢٨ الذي نصفه القرآن في أوائل السور في علم الارتماطيقي من الأعداد العجيبة القليلة النظر، النادرة المثال، المبهجة للناظرين، المعجبة للقوم المفكرين.

وكيف يرون أن هذا العدد ليس له نظير في العشرات، كما أن عدد ٦ ليس له نظير في الآحاد و(٤٩٦) ليس له نظير في المئات و(٨١٢٨) ليس له نظير في الألوف، فإن كل عدد إذا جمعت أجزاؤه كانت أكثر منه أو أقل، أما هذه الأعداد الأربعة فإن أجزاءها إذا جمعت كانت مساوية لها، وبيانه: إن ٢٨ مثلاً نصفها ١٤ وربعها ٧ ومخرج الربع ٤ ثم الجزء من ٢٨، فيكون الجميع ٢٨ وهذا معنى كونه تاماً وأما بقية الأعداد فإنها إما ناقصة وإما زائدة، فأما التامة فهي نادرة كما يندر المعدن المسمى «راديوم» الذي يظهر خفايا الأجسام، إن في ذلك لذكرى لقوم يعقلون ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾[العنكبوت:٤٣].

فانظر لو لم تكن تلك الرموز لم نبحث تلك المباحث، ولم نوازن ما بين كلام قدمائنا وكلام العالم الألماني، وكيف ينصح العلماء أن لا يؤلفوا أعز آرائهم إلاَّ بلغتنا لأنها باقية ما بقي الحدثان ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾[الرحمن:١٣].

ملخص هذا المقال

انظر أيها اللبيب وتفكر في العلم وجماله، وفي هذه الحروف التي ينظر إليها الناس نظرهم إلى أجسامهم، يعيشون ويموتون وهم لا يفكرون، وكل حزب بطعامه وشرابه وشهواته مفتون، وهذه الحروف في أوائل السور سكت عنها صاحب الشرع صلى الله عليه وسلم ليطلق الحرية للعقول في فهمها، ويذر الناس يبحثون علمها، فأخذوا يلتمسون معانيها ويصيدون بشباك العلم شواردها، لا بطريق البرهان ولا مقدمات اليقين، بل بمجرد المناسبات والمشاكلات والمناظرات، فماذا فعلوا، ولماذا وصلوا؟ وصلوا إلى علم غزير ومقام رفيع شريف، فرأوا هذه الحروف التي جاءت في أوائل السور واحدة واحدة، أو مثنى، أو ثلاث، أو رباع، أو خماس، مثل: ﴿قٓ﴾[ق:١]، و﴿حمٓ﴾[الدخان:١]، و﴿الٓمٓ﴾[البقرة:١]، و﴿الٓمٓرۚ﴾[الرعد:١]، و﴿حمٓ ۝ عٓسٓقٓ﴾[الشورى:١-٢]، وأنها ترجع بعد حذف المكرر منها إلى أمر عجيب:

(١) هي نصف الحروف العربية . (٢) وفيها نصف المطبقة . (٣) وفيها نصف المنفتحة . (٤) وفيها نصف الحروف الشديدة . (٥) وفيها نصف الرخوة . (٦) وفيها نصف المهموسة ، وفيها نصف المجهورة . (٧) وأنها وضعت في أول ٢٩ سورة عدد ٢٩ حرفاً في اللغة العربية بعد الألف اللينة من الحروف . (٨) وكيف كانت تقسم الثمانية والعشرون كقسمة منازل القمر . (٩) ومفاصل اليدين . (١٠) وفقرات الظهر من الإنسان . (١١) وفقرات الظهر في بعض الحيوان على ما قدمناه . (١٢) ثم كيف كانت الحروف الهجائية منها المدغم في لام التعريف ، ومنها غير المدغم ، وهذان موافقان لهذا العدد من حيث القسمة . (١٣) والمنقوط كذلك وغير المنقوط . (١٤) وكيف كان عدد ٢٨ الذي قسم إلى قسمين صحيحين في القرآن من الأعداد النادرة الوجود الشريفة التي تساويها أجزاؤها كما تقدم ، وأن جميع الأعداد إما زائدة وإما ناقصة . ولما كان هذا العلم مفقوداً في الأمم الإسلامية اليوم إلاّ مسائل ضئيلة في علم الحساب ، أردت ذكر مسألتين للعدد الزائد والعدد الناقص لتكون على بصيرة في الأمر :

العدد الزائد مثل ١٢ ، نصفها ٦ ، ثلثها ٤ ، ربعها ٣ ، سدسها ٢ ، ونصف سدسها ١ ، فجملة الأجزاء ١٦ ، وهي أكثر من ١٢ . أما العدد الناقص فهو مثل ٨ ، نصفها ٤ ، ربعها ٢ ، ثمنها ١ ، وجملتها ٧ فهي أقل من ٨ .

فالأعداد جميعها إما زائدة وإما ناقصة وليس فيها تام إلاّ هذه الأربعة في الآحاد والعشرات والمئات والألوف . فتعجب من القرآن لماذا لم يذكر في أول السور ١٢ حرفاً أو ١٥ بل ذكرها ١٤ ، وكان من نتائجها أن نظر العلماء في الفلك وخواص الأعداد وعدد الفقرات والحروف الهجائية وأقسامها ، وأن هذا القرآن ثابت ما بقي الفرقدان وما دام الملوان .

الأسرار الكيميائية في الحروف الهجائية للأمم الإسلامية في أوائل السور القرآنية

هاأنت أيها الذكي قد اطلعت على ما سطره القدماء وآباؤنا الحكماء من الأنوار الإلهية في الحروف الهجائية ، وفهمت أنهم في فهمهم درجات ليؤتوا كل عاقل ما يواتي طبعه ويناسب عقله ويشابه درجته العلمية وتعاليمه العقلية .

فهل لك أن أبرز لك الجوهر المكنون والسر المصون ، وأفتح لك بتوفيق الله بعض خزائن العلم ، لتستخرج منها المعارف الحكمية ، والأنوار القدسية ، والمنح السنية ، والدرر البهية ، والسعادة الدنيوية ، والنعم الأبدية للأمم الإسلامية .

أقول : سترى إن شاء الله في سورة العنكبوت وفي سورة يس ، وما بينهما من أسرار هذه الحروف ما يشرح الصدر ويوضح الأمر ، ولكني الآن لا أدع هذه الفرصة تمر بدون أن أذكر لك لمحة يزدان بها تفسير هذه السورة فأقول : أنزل الله هذا القرآن ذكرى للناس وقال : ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾[القمر:١٧] ، وقال : ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾[يوسف:١٠٤] ، وقال : ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ ﴾[المؤمنون:٦٨] ، وقال : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾[محمد:٢٤] ، فهذه الآيات وغيرها أعلمتنا أن القرآن إنّما هو للذكر وللتفكر ، ولا يحرم من الفكر إلاّ القلوب المقفلة .

تفكرنا في هذه الحروف التي في أوائل السور، وتفكرنا فيما سطره قدماؤنا، وعلمنا أنها جعلت مثاراً للنظر، وقدحاً للفكر، فالأولون والآخرون يفكرون ولا نكير عليهم ولا رادّ لقولهم؛ فكما صنف علماؤنا في الفقه آلاف الكتب ولا نكير ولا منازع، هكذا هذه الحروف ونحوها، تنوعت فيها الآراء ولا منكر.

نقول أيضاً إذا كان مثار الفكر والعلم فهذه الحروف الهجائية المذكورة في أول السور لم جيء بها؟ ومعلوم أن الحروف على قسمين: حروف لها معنى، وحروف لا معنى لها، فهذه من القسم الثاني والأنبياء جاؤوا مشرعين ولم يرسلوا لتعليم مبادئ القراءة والكتابة وإنما ذلك لطائفة تقوم به في مبادئ التعليم، فإذن هذه الحروف للذكر وللتفكر، فلننظر نظرة عامة تشمل جميع الأقوال السابقة وتضم الآراء المختلفة والمذاهب المتشعبة، وهي الكبريت الأحمر والمسك الأذفر، هي رقي الإسلام ومناط السلام وسعادة الأمم وبهجة المسلمين.

انظر رعاك الله، تأمل، يقول الله: ا ل م، ا ل ر، طس، حم، وهكذا يقول لنا: أيها الناس إن الحروف الهجائية إليها تحلل الكلمات اللغوية، فما من لغة في الأرض إلاّ وأرجعها أهلها إلى حروفها الأصلية، سواء أكانت اللغة العربية أم اللغات الأعجمية شرقية وغربية، فلا صرف ولا إملاء ولا اشتقاق إلاّ بتحليل الكلمات إلى حروفها الأصلية، ولا سبيل لتعليم لغة وفهمها إلاّ بتحليلها، وهذا هو القانون المسنون في سائر العلوم والفنون، ولا جرم أن العلوم قسمان: لغوية وغير لغوية، فالعلوم اللغوية مقدمة في التعليم لأنها وسيلة إلى معرفة الحقائق العلمية من رياضية وطبيعية وإلهية، فإذا كانت العلوم التي هي آلة لغيرها لا تعرف حقائقها إلاّ بتحليلها إلى أصولها، فكيف إذن تكون العلوم المقصودة لنتائجها المادية والمعنوية فهي أولى بالتحليل وأجدر بإرجاعها إلى أصولها الأولية، لا يعرف الحساب إلاّ بمعرفة بسائط الأعداد، ولا الهندسة إلاّ بعد علم البسائط والمقدمات، ولا علوم الكيمياء إلاّ بمعرفة العناصر وتحليل المركبات إليها، فرجع الأمر إلى تحقيق العلوم.

بهذا وحده ارتقت أوروبا، وبهذا وحده يرتقي الإسلام. انظر وتفكر فيما ألقيه عليك الآن. تأمل فيما ستسمعه مما يقرؤه أكثر الناس في مصر وغير مصر، وأكثرهم ساهون لاهون، لأذكر لك مسائل من علم الكيمياء.

المخاليط المعدنية

ما هي المخاليط المعدنية، لأضرب لك منها أمثالاً:

أولاً: هناك معدن يقال له «كدميوم»، وهناك القصدير والرصاص وهما معروفان، ورابع يسمى «بزموت»، هذه المعادن إذا خلطت بنسب معلومة أمكن صهرها على درجة بين ٦٦ و٧١ درجة، مع أن كلاً منها وحده يصهر على درجة أكثر من هذه الدرجة؛ فأعلاها على درجة ٣٦٠ وهو «كدميوم»، وأدناها وهو القصدير على درجة ٢٢٩، فاجتماعها وتركبها بنسب خاصة بأن يكون بعضها ٨ أجزاء، وبعضها ٢، وبعضها ٤، هكذا: ٢ : ٤ : ٨، وهي النسبة الهندسية العجيبة هو الذي أكسبها هذه الخاصية وهي أنها تصهر على درجة غير درجات كل واحد من العناصر الداخلة فيها.

ثانياً: النحاس الأحمر مثلاً لين يصنع بسهولة، ولكن ليس فيه صلابة كافية، فإذا صهر جزءان منه مع جزء من الخارصين تكوّن مخلوط معدني صلب هو النحاس الأصفر، سهل الصنع لونه أصفر، وإذا تغير مقدار الخارصين أمكن إكسابه لون الذهب. ثم إن النحاس الأصفر لا يمكن برده لأنه يلتصق بالمبرد كالجسم الدسم، وإذا أضيف إلى مائة جزء منه جزء أو ثلاثة أجزاء من القصدير أو الرصاص زال منه هذا العيب.

ثالثاً: الرصاص يصهر بسهولة، ويمكن عمل أحرف الطبع منه بصبه في القوالب المعروفة بالأمهات، لكن هذه الأحرف لا تتحمل ضغط الطبع فتهبط ويتغير شكلها بسبب رخاوة الرصاص، وإذا عملت أحرف الطبع من الأنتيمون وحده، فإن هذه الأحرف تتفتت بضغط الطبع لهشاشة الأنتيمون، فإذا مزجت أربعة أجزاء من الرصاص بجزء من الأنتيمون تحصل مخلوط صالح لأن تصنع منه أحرف الطبع بصبه في الأمهات، وهذه الأحرف تتحمل ضغط الطبع فلا تهبط ولا تتفتت.

رابعاً: صنع المدافع يحتاج إلى معدن صلب غير هش، يمكن إصهاره وخرطه، والنحاس وحده فيه معظم هذه الأوصاف، غير أنه رخو، فإذا خلطت ٩٠ جزءاً منه بعشرة أجزاء من القصدير، تحصل مخلوط معدني أكثر صلابة من النحاس وفيه المقاومة الكافية لأن تصنع منه المدافع وهذا المخلوط يسمى «برونز»، وكلما زاد مقدار القصدير في هذا المخلوط زاد صلابة، ولكن يكون أكثر قابلية للكسر.

خامساً: إذا أضيف ٧٨ جزءاً من النحاس و٢٢ جزءاً من القصدير، كان المخلوط صلباً له رنة تعمل منه الأجراس والنواقيس.

هذه الأمثلة الخمسة ذكرتها لك لتنظر في أمرها، كيف كان المركب في المثال الأول إذا كان على هيئة مخصوصة بمقادير محدودة، كان صهر المركب فيه أسهل من صهر كل واحد من العناصر وحده.

انظر كيف كان النحاس الأحمر في المثال الثاني لا يكسب الصلابة الكافية ولا لون الذهب إلاّ إذا خلط بمقدار من الخارصين معين، فيكون نحاساً أصفر، ثم كيف كان النحاس الأصفر غير قابل لبرده بالمبرد إلاّ بإضافة القصدير أو الرصاص إليه لكل مائة جزء جزء أو ثلاثة، فبالخارصين صار نحاساً أصفر، وبالقصدير أو الرصاص صار قابلاً لعمل المبرد. وانظر إلى حروف الطبع في المثال الثالث كيف كان الرصاص وحده رخواً لا يتحمل الطبع، والأنتيمون وحده يتفتت، وكيف كان أربعة أجزاء من الأول وجزء من الثاني إذا خلطا تم الطبع، فهذا التفسير لا يمكن طبعه إلاّ بهذه النسبة التي لو زادت أو نقصت أو انفرد أحد المعدنين لم يمكن طبع هذا التفسير. وانظر إلى صنع المدافع كيف كان النحاس الأحمر وحده لا يجدي فيه، فإذا أضيف إليه الخارصين لكل تسعة أجزاء جزء واحد بحيث لا يزيد ولا ينقص، أمكن صنع المدافع.

هاأنت ذا قد كشف لك أمر صنع المدافع وأحرف الطبع والأجراس والنحاس الأصفر، هذه الأمثلة منظار معظم أو مرآة تنظر بها صور العلوم كلها، وهذه العلوم ترجع مركباتها إلى أصولها، فكما رجعت الكلمات والجمل في النثر والنظم إلى الحروف الهجائية، هكذا رجعت جميع المركبات في العلوم الطبيعية والرياضية إلى أصولها الأولية، فجلّ الله وما أبدع العلم، وما أجمل الحكمة.

علم الله أن الأمم الإسلامية سيأتي لها زمان تصبح فيه نائمة، لا ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعاً، بل ستمائة سنين وازدادوا ثمان عشرة بل أكثر من ذلك. فأنزل الله هذه الحروف وأمرنا بقراءتها، ولم يرد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقيدنا بمعنى مخصوص فيها، بل إن اليهود لما حسبوها بالجمل تبسم ضاحكاً ولم يتكلم، تلك حكمة وأية حكمة، آية وأية آية، كأن الله يقول: أيها المسلمون، هذه الحروف إذا تركت بلا تركيب تكون بلا معنى «ا ل م»، فإذا ركبت على نسب مخصوصة كانت لها معان على مقتضى التركيب، فزيادة حرف أو نقصه من الكلمة تغير المعنى، ومن لم يعرف الحروف التي هي أصول الكلمات لم يتبين حقائق اللغة، مع أن من الناس من يتكلم ولا يعرف الحروف الهجائية، هكذا العلوم والصنائع ترجع إلى أصولها، فإذا لم يعرف الناس خصائص الرصاص والأنتيمون، فكيف يصنعون حروف الطبع؟ وإذا جهلوا خواص النحاس والقصدير فمن أين يتأتى لهم عمل البرونز الذي يصنعون منه المدافع؟ وإذا جهلوا خواص الخارصين إذا اجتمعت مع خواص النحاس الأحمر، فمن أين يتأتى لهم النحاس الأصفر، أو جهلوا خواص الرصاص مع ما تقدم، فمن أين يصلحون العيب الطارئ عليه؟.

هذه أمثلة تبين لك أيها الذكي أن الله تعالى جعل عالم الماديات كعالم اللغات، وأن خصائص المركبات تفارق خصائص المفردات، فكما لا يكون ألف ولا لام ولا ميم مفيدة للمعاني متفرقة، هكذا لا يصلح النحاس وحده لصنع المدافع، ولا الرصاص وحده لصنع حروف الطبع، وكما أن ترتيب حروف الألف مع اللام المشددة بعدها مدة مع الهاء على هذا الترتيب، تفيد معنى الذات الواجب الوجود، وإذا غير التركيب أو العدد أو شكل الحروف تغير المعنى، هكذا إذا زاد النحاس على تسعين جزءاً في صب المدافع أو نقص، وهكذا القصدير إذا زاد عن عشرة أجزاء أو نقص، لا يصلح المخلوط لصنع المدافع. ولقد علمت أن هذه العلوم والصناعات جميعها نبغ فيها الفرنجة، والمسلمون لم يوقظهم أحد إلى درسها مع أن علماء المذاهب جميعاً أجمعوا على أنها فرض كفاية، وأن آيات القرآن طافحة بذكر عجائب الصنعة الإلهية، فأنزل هذه الحروف سبحانه حتى تكون رمزاً يظهر به سره العجيب وإبداعه الغريب وإتقانه العالي.

عجباً لك، الحمد يا الله، ركبت النبات ونظمته وجعلته من عناصر بموازين محدودة، وهكذا الحيوان، وألهمت عبادك أن ينهجوا نهجك ويصنعوا بأجزاء محدودة، وأنمت المسلمين آماداً وآماداً، ثم كنزت لهم في كتابك كنزاً أظهرت سره لهم الآن، وقلت: أي عبادي، ادرسوا نظامي وتخلقوا بأخلاقي وحللوا العناصر وادرسوها، واقرؤوا العلوم وافهموها، فقد وعظتكم بالمدافع القاتلة والطيارات الفاتكة والأمم الظالمة، كل هؤلاء أرسلتهم رحمة لكم لا عذاباً. إن ما يفتح باب العلم ليس تعذيباً إنه تهذيب، نعم، يكون تعذيباً إذا لم تتعظوا ولم تتذكروا، فيكون الهلاك حتماً عليكم، لأنكم لا تصلحون للحياة ولا تصلحون للوجود، وكيف يصلح للوجود من ينظر ولا يعقل؟ أليس هذا التفسير يطبع بحروف مركبة تركيباً منظماً من معدنين، فكيف تطبعونه وغيره إذا لم تدرسوا هذه العلوم والصناعات؟ أفلا تبصرون، أفلا تسمعون؟. مدافع أرسلتها وطيارات بعثتها وغازات خانقة أطلقتها وآيات بينات

فصلتها وحروف هجائية أنزلتها ، أفلا تتذكرون؟ نظرتم بأنفسكم المدافع وحروف الطبع ، ولكن أكثركم عن التفكر فيها معرضون ، فإذا لم تعقلوا المبصرات فهاأنا ذا أسمعتكم الحروف الهجائية في أول السور لأذكركم بذلك ، أفلا تتذكرون؟ .

منطق حروف الطبع بلسان حالها

لو نطقت حروف الطبع لقالت بلسان فصيح : قد ركبت سورتي من عناصر بحساب ، كما ركبت الحاصلات الزراعية والأعضاء الحيوانية والعقاقير الطبية وسائر المصنوعات الإنسانية ، فهاأنا ذا اليوم أمثل ذلك التركيب والتحليل بنظام في الأحرف الهجائية ، اقرؤوا إن شئتم : ﴿ مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴾[الملك:٣] ، كل ذلك إشارات قدسية في الحروف العربية بأوائل السور القرآنية .

حكمة

لا تظن أيها الذكي أن هذه المعاني التي ذكرناها تجول بخواطر علماء الكيمياء أو علماء النبات أو علماء الصناعات ، والذين يصبون المدافع صباً أو الذين يقرؤون علم التشريح ، إن هؤلاء يقرؤون علومهم ولا يخطر ببالهم ما ذكرناه ، لأنها علوم جزئية والعلم الكلي هو الذي يسميه القدماء علم ما وراء الطبيعة ، أو العلم الأعلى ، وهو الباحث عن النظام العام ، فأهل هذا العلم وهم الحكماء أشبه بمنشئ القصيدة والخطب ، وأهل تلك العلوم أشبه بعالم النحو أو الصرف أو الخط ، فكل منهم لا يهمه إلا العلم الجزئي من اللغة الذي هو بصدده ، وهذا هو السبب في أن أكثر من قرؤوا العلوم الطبيعية يجهلون العلوم الإلهية ، كما أن المختص بعلم النحو أو الصرف من المدرسين وقضى حياته فيه منكباً عليه لا يتعداه ، لا يحسن قرض الشعر ولا الخطب ولا النثر كما هو معروف مشهور .

وكما أن الشاعر والخطيب والناثر يكفيهم من النحو والصرف وأمثالهما ما به يصلح لفظهم ، هكذا الحكماء يجزئهم من العلوم الطبيعية والرياضية ما به يدرسون نظام الوجود فحسب ، ولا يعنيهم التبحر في العلوم الجزئية والفريقان خلقوا في كل أمة ودين رحمة للناس ، وكما أن الشاعر وأخويه يحثون الجمهور على الأدب والأخلاق والنظام المدني ، هكذا الحكماء الذين هم صفوة الله في الأرض بعد الأنبياء يلقون في القلوب الحكمة ويوحدون عقائد الخواص في الأمم والأديان ، كما يوحد الوعاظ الحقائق عند العوام .

إن الناظر نظرة عامة في العلوم الطبيعية والفلكية ومقدماتها هو الذي يفهم قوله تعالى في هذه السورة : ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِ ﴾[آل عمران:١٨] ، وهو الذي يعرف قوله تعالى : ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾[الحجر:٢١] ، وقوله : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾[غافر:١٧] ، وقوله : ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴾[الرعد:٨] ، وقوله : ﴿ وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطْغَوْاْ فِي ٱلْمِيزَانِ ﴾[الرحمن:٧-٨] .

هاأنت أيها الذكي بما يذكر في هذا المقام وفي غيره من هذا الكتاب رأيت الميزان والحساب ،

واطلعت على رتبة أولي العلم الذين عطفوا على الملائكة حتى يلحقوا بهم:

على نفسه فليبك من ضاع عمره | وليس له منها نصيب ولا سهم
ما الناس سوى قوم عرفوا | وسواهم همج الهمج

انتهى الكلام على القسم الأول من سورة آل عمران وهو: ﴿ الٓمٓ ﴾.

الكلام على القسم الثاني من سورة آل عمران

﴿ الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۝٢ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۝٣ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ ۗ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ۝٤ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۝٥ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٦ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٧ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ۝٨ رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ۝٩ ﴾

قوله: ﴿ الٓمٓ ﴾ تفتح الميم في المشهور بنقل حركة الهمزة في اسم الجلالة إليها، وقرئ بكسرها على توهم التقاء الساكنين، وقرئ بسكونها والابتداء بما بعدها وهو الأصل ﴿ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾ تقدم في آية الكرسي ﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ القرآن على مقتضى الوقائع ﴿ بِٱلْحَقِّ ﴾ بالعدل والصدق في أخباره والحجج المحققة أنه من عند الله ﴿ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ من الكتب السماوية المنزلة على الأنبياء ﴿ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴾ على موسى وعيسى ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ أي من قبل تنزيل القرآن ﴿ هُدًى لِّلنَّاسِ ﴾ عامة ونحن منهم إذا قلنا إنا متعبدون بشرائع من قبلنا أو قومهما فقط إن لم نقل ذلك فهما رأيان ﴿ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ ﴾ جنس الكتب الإلهية من هذه الثلاثة وغيرها ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ من كتبه المنزلة وغيرها ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ بما كفروا ﴿ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴾ أي غالب ذو انتقام عظيم لا نظير له ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ فليس يغيب عن علمه كلي ولا جزئي ولا ذرة ولا أصغر منها ولا أكبر ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ﴾ من الصور المختلفة، فهو الذي يتقن خلق الجنين ويتم تصويره بحكمة وإبداع ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ كامل القدرة تام الحكمة ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ ﴾ لم تكن مجمل العبارات ولا محتملة المعاني ﴿ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ أصله الذي يردّ إليه ما عداه ﴿ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ﴾ محتملات غير متضحات مجملة العبارات أو مخالفة للظواهر، ولا يدرك المراد منها إلا باستنباط العلماء والموازنة بينها وبين المحكمات، وقوله في آية أخرى: ﴿ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ﴾[هود: ١] حفظت من فساد المعنى وركاكة اللفظ،

وقوله في أخرى: ﴿ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا ﴾[الزمر:٢٣] أي يشبه بعضه بعضاً في صحة المعنى وجزالة اللفظ ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ ﴾ عدول عن الحق من أهل البدع ﴿ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ﴾ ناظرين إلى ظواهره، أو مؤولين تأويلاً باطلاً ﴿ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ ﴾ طلب أن يفتنوا الناس في الدين ويوقعوا الشك في قلوبهم بالتلبيس، ومناقضة المحكم للمتشابه أو طلب الغرام به والافتتان بحيث لا يصغون لنصح الناصحين ﴿ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ ﴾ الذي يجب أن يحمل عليه ﴿ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ ﴾ أي الذين ثبتوا وتمكنوا فيه ﴿ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ ﴾ أي حال كونهم يقولون آمنا به ﴿ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ ﴾ ويصح أن تكون الجملة مستأنفة لتوضيح حال الراسخين، وهذا على أن الراسخون معطوف على لفظ الجلالة، ويصح الوقف على لفظ الجلالة ويكون الراسخون مبتدأ، خبره يقولون آمنا به، ويكون المتشابه بمعنى ما استأثر الله بعلمه كمدة بقاء الدنيا ووقت قيام الساعة وخواص الأعداد الواردة كعدد الزبانية ﴿ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ وهم الراسخون في العلم الذين جاءت أذهانهم وحسن نظرهم فهم مستعدون للاهتداء إلى تأويله ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا ﴾ أي يقول الراسخون في العلم: ربنا لا تمل قلوبنا عن الحق والهدى إلى اتباع المتشابه بتأويل لا ترضاه. قال عليه الصلاة والسلام: «قلب ابن آدم بين أصبعين من أصابع الرحمن إن شاء أقامه على الحق وإن شاء أزاغه عنه»، أو لا تبلنا ببلايا يزيغ قلوبنا فيها ﴿ بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا ﴾ أي وفقتنا لدينك والإيمان بالمحكم والمتشابه في كتابك ﴿ وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ ﴾ تزلفنا إليك ونفوز بها عندك بإعطائنا توفيقاً وتثبيتاً للذي نحن عليه من الإيمان والهدى وبغفران ذنوبنا ﴿ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴾ والوهاب من يعطي بلا عوض ولا غرض، والله يعطي كل أحد على قدر استحقاقه ﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ ﴾ لحساب يوم أو لجزائه ﴿ لَّا رَيْبَ فِيهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴾ وهذا من بقية دعاء الراسخين في العلم، طلبوا من الله ألا يزيغ قلوبهم وأن يهديهم ويرحمهم، وذلك من مصالح الدين والدنيا معاً، ثم ذكروا نتيجة ذلك في الآخرة وقالوا: إنك جامع الناس للجزاء ووعدك حق، فمن أزغت قلبه فهو هالك، ومن مننت عليه بالرحمة فهو سعيد. انتهى التفسير الإجمالي للقسم الثاني من السورة.

تفصيل الكلام على هذه الآيات في القسم الثاني

اعلم أن هذه الآيات اشتملت على نمطين:

النمط الأول في هداية العامة من سائر الأمم والأجيال وتلك الهداية تكون بالحجج التي اشتملت عليها تلك الكتب ثم الإنذار والتخويف بالوعيد والزجر والعقاب الشديد؛ فذكر الكتب السماوية من القرآن والتوراة والإنجيل وسائر الكتب، ثم أنذر بالعذاب الشديد، وختم ذلك بأنه عزيز ذو انتقام.

النمط الثاني: هداية الخواص من تلك الأمم التي أنزلت عليها الكتب، وذلك راجع إلى علمهم بأمرين: سعة علم الله تعالى، وسعة حكمته وقدرته، فأشار إلى الأول بقوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾ وهذا هو سعة علمه جل جلاله، وإلى الثاني بقوله: ﴿ هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ ﴾، وبقوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ الخ، فهو يقول: إن الخواص

من الناس وأرباب العقول يعرفون ربهم بسعة علمه وإحكام قدرته وانتظام أعماله انتظاماً تاماً، كما يرى في تصوير الأجنة في الأرحام، وإبداع العقول العظيمة في تلك النفوس، لتفقه الكتاب وتبين المتشابه وترجعه إلى المحكم، فنظام الأجسام وجمال العقول من عجائب قدرته عزَّ وجلَّ وإحكامه لخلقه.

ولنفصل الكلام على الأمرين:

الأول قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾.

الثاني قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾.

الكلام على الأمر الأول

لقد عرفت فيما مضى أن العامة غير مهتمين بالنظر، فالكتب السماوية كافلة بإيمانهم، أما الخاصة فهم المجدون بحثاً وتنقيباً في الأرض وفي السماء، فيعرفون سعة علم الله تعالى من علم الطبيعة وعلم الفلك وعجائب هذه الدنيا التي خلقنا فيها، وهؤلاء هم أكابر الحكماء وعظماء الأمم القائمون بانتشالها وإسعادها وإعزازها، وفي القرآن آيات كثيرة دالة على سعة علم الله، داعية ومشوقة لذوي العقول الكبيرة أن يبحثوا ويجدوا بقرائحهم في هذا العالم كقوله تعالى في سورة لقمان: ﴿ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾ [لقمان:١٦]، وكقوله: ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ [يونس:٦١]، وكقوله تعالى: ﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي ٱلصُّدُورُ ﴾ [غافر:١٩]، وكقوله تعالى: ﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأنعام:٥٩].

فيرى العقلاء أنه ذكر أنه يعلم ما في السماوات وما في الأرض كالرطب واليابس والأجسام التي لا يحصى عدّها من الورق النابت في الشجر الساقط من اليبس، بل ما هو أقل من ذلك كالحبة من الخردل، بل ما هو أصغر منها، وتجاوز ذلك إلى ما هو أبعد من المادة غوراً، ألا وهو ما في النفوس من الآراء والاعتقادات والمقاصد.

فهذه الآيات يقرؤها العقلاء فيرون أنها تصف الله بعلم الأجرام الكبيرة والصغيرة، وما تناهى منها في الدقة، وهكذا ما وراءها من المعاني والأفكار، فينظرون فيرون ذلك إنّما يعرف بعلم الطبيعة في العصر الحاضر، وبه وبعلم الفلك يعجبون من هذا النظام البديع المملوء من الغرائب والبدائع.

واعلم أن الله لما أنزل القرآن بالوحي على نبيه، أنزل أيضاً نوراً على العقول، فأبرزت مكنون العلم في هذه العوالم المشاهدة حتى يوازن ذوو العقول الكبيرة ما بين الوحي النبوي في الكتاب السماوي وبين العلم العقلي المضيء بالعقول السليمة المستخرجة لكنوزه من جواهر الطبيعة، وهنا التقى البحران واتحد المنهجان: منهج العقول السليمة والنفوس الشريفة، ومنهج الوحي الإلهي، وهنا يحسن الكلام في مبحثين: المبحث الأول فيما هو أصغر من الذرة، المبحث الثاني فيما هو أكبر من الذرة.

المبحث الأول وفيه لطائف

اللطيفة الأولى: اعلم أن المادة لها صفات عامة وصفات خاصة. إذا سحبنا مسماراً حتى صار شريطاً؛ فصفات الحديد الخاصة لا تتغير، وأما إذا وضعناه في الماء فإن صفاته تتغير، ويصير أحمر ليناً قصفاً خشناً بالصدأ؛ فالأول يسمى تغيراً طبيعياً، والثاني يسمى تغيراً كيمائياً، وعلى ذلك يكون هناك علمان: الطبيعة والكيمياء. فالطبيعة: علم يبحث فيه عن تغير المادة تغيراً طبيعياً، والكيمياء: علم يبحث فيه عن تغير المادة تغيراً كيماوياً، وللأجسام صفات عامة كالامتداد، وعدم التدخل، والتجزئة، وأن فيها مسام.

اللطيفة الثانية: إن العلماء قد بحثوا في تجزئة المادة حتى وصلوا إلى ما يدهش العقل، ويحير الفكر، فقد رأوا بعض العناكب تنسج خيوطاً دقيقة عجيبة جداً محيرة للناظرين، مدهشة للمفكرين، فإنها تنسج بيتها من خيوط، كل خيط منها مؤلف من أربعة خيوط أدق منه، وكل واحد من هذه الأربعة مؤلف من ألف خيط، وكل واحد من الألف يخرج من قناة مخصوصة في جسم العنكبوت، فانظر كيف كان الخيط الواحد مؤلفاً من ٤ في ١٠٠٠ تساوي ٤٠٠٠.

ومن عجب أن بعض علماء الألمان قال: إنه إذا ضم ٤,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠ أربعة بلايين خيط إلى بعضها لم تكن أغلظ من شعرة واحدة من شعرات لحيته، ولقد علمت أن كل خيط من تلك الخيوط مؤلف من أربعة آلاف خيط، فكل خيط إذن من هذه الخيوط يساوي غلظه $\frac{١}{١٦,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠}$ واحد من ستة عشر تريليوناً، ثم تعجب كيف كان كل واحد من الألف يخرج من قناة مخصوصة في جسم العنكبوت، وكيف يسع جسم العنكبوت ألف ثقب فيها ألف خيط. أليس ذلك من العجب؟ أوَليس من أعجب الحكم أن العنكبوت في هذا تمثل نظام العالم الجميل، يخرج الخيط الدقيق من ثقبه فيخيل للرائي أنه خرج بلا حكمة، فإذا انضمت إلى بعضها وكونت خيطاً؛ والخيوط الأربعة أنتجت خيطاً أكبر، وباجتماع الخيوط أنشأت بيتاً، فكان مسكناً ومحل صيد للعنكبوت، ومع ذلك تسمع للقرآن يقول: ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾[العنكبوت:٤١] وصف بيت العنكبوت بأنه أوهن البيوت، ثم أردفه بقوله: ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾.

ألا تعجب كيف ذكر العلم المقرون بـ«لو» بعد مسألة العنكبوت، أفليس هذا الوهن قد ظهر في التحليل والتجزئة، فقد جاوزت خيوط العنكبوت الحد في الدقة وتناهت في التجزئة، فالوهن هنا إشارة إلى قبول التجزئة قبولاً مطرداً بحيث لا يمتنع عنها ذلك، هو السر في قوله: ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾. فليس يدرك الناس تلك التجزئة التي أشار لها الوهن مجرد إشارة إلاَّ بعلم الطبيعة الذي يأتي بالعجب العجاب.

اللطيفة الثالثة: إن قمحة من الستركنين، وهو ضرب من السم مستعمل في الطب كثيراً، إذا وضعناها في ١٧٥٠٠٠٠ قمحة من الماء، شعرنا بطعمها في كل قمحة، وعلى ذلك يكون في كل قمحة من الماء $\frac{١}{١,٧٥٠,٠٠٠}$ من قمحة من الستركنين، ومع ذلك يشعر به من يذوقه.

اللطيفة الرابعة: إذا أذبنا قطعة من الفضة بقدر $\frac{1}{1,000,000,000}$ من القيراط المكعب في الحامض النتريك، ثم صببناه في مائة قيراط مكعب من الماء، وأذبنا فيها قليلاً من ملح الطعام، فإن المذوب يتعكر ويصير أبيض لبنياً، ويبقى هذا اللون ظاهراً للعين ولو فيما يساوي $\frac{1}{100}$ من القيراط المكعب، وفي ذلك من الفضة $\frac{1}{1,000,000,000,000}$ من القيراط المكعب.

اللطيفة الخامسة: إننا نرى الهباء الذي يسطع في البيوت من ضوء الشمس الداخل من النوافذ، ونحن عادة لا نفكر فيه مع أن فيه كثيراً من بزور النباتات، فإذا وقع هذا البزر على أرض رطبة كانت منه عفونة، وهذه العفونة إذا نظرناها بالمكروسكوب وجدنا غابات كثيرات الأشجار مشتبكة الأغصان وأعيننا لا تميز شيئاً من ذلك.

اللطيفة السادسة: إن آلاف الآلاف من الحيوانات تعيش في نقطة ماء صغيرة تعلق برأس الإبرة مثلاً وتنمو هناك وتتكاثر وتموت، كما تعيش حيوانات البر في القفار، وحيوانات الماء في البحار، ويسطو بعضها على بعض، ويقاتل ويفترس بعضها بعضاً، كالكواسر والجوارح وهي كثيرة الوجود، وقلما يخلو منها مستنقع أيام الصيف، وهي تصعد في البخار الذي يتصاعد عن الماء بحرارة الشمس، وتطير في الجو مع الهباء، ثم تعيش وتكثر حيثما تركت ووافقتها الرطوبة والحرارة.

اللطيفة السابعة: إن الحيوانات السابقة مع تناهي صغرها قد تحجرت منها طوائف لا تحصى، حتى كانت منها طبقات كبيرة من الصخور الطباشيرية في الأرض ولا يساوي هيكل الحيوان الواحد منها أكثر من $\frac{1}{187,000,000}$ من القمحة، ومع هذا الصغر المتناهي لهذه الحيوانات كان لكل حيوان منها معدة أو أكثر لهضم طعامه، وأعضاء باطنة وأخرى ظاهرة، فإذا تناهى الحيوان في الصغر فماذا تكون تلك الأعضاء؟ وهذا داخل في قوله تعالى: ﴿ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾[يونس: ٦١] وكيف يعزب عنه ذلك.

وقد ظهر أن تلك الحيوانات الطباشيرية مثلاً عند خلقها وموتها لم تكن لها فائدة واضحة، فلما أن كثرت وكان منها الطباشير، وانتفع به الناس عرفنا أن خلق ذلك الحيوان كان مقصوداً لحكمة كما كان خيط العنكبوت الذي هو واحد من ألف خيط خارج من جسمه لا يشعر بمنفعته إلاّ بعد ما انضم إلى الخيوط الأخرى، ثم كان النسيج فظهرت المنفعة حينئذ، فإذا رأى الناس عالم الحيوان وعالم النبات وعميت عليهم طرق الصواب في فهمها وقالوا: لم خلق نبات كذا، وما فائدة هذه الحيوانات الكثيرة؟ قلنا لهم: ما طوائف الحيوانات والنباتات التي لم تظهر حكمتها لنا إلاّ كطوائف الخيوط الدقيقة العنكبوتية قبل التئامها، فإذا فهمنا العنكبوت وخيوطه والطباشير ومنفعته، فهمنا فهماً إقناعياً أن لهذه العوالم حالاً عالية تظهر فيها فائدتها وهذا داخل في قوله: ﴿ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾[يونس: ٦١] وإنما كان في كتاب مبين لأنه سائر لغاية، والغايات لا تكون إلاّ تابعات للعلم، والعلم لا بد له من عالم.

اللطيفة الثامنة: إن المادة مع صغرها ليست متصلة ذراتها اتصالاً تاماً، بل هناك فضاء متسع بين أجزاء الماء والهواء والحجر والحديد والذهب، وقالوا: لو أن حيواناً عاش على سطح ذرّة من ذرات أيّ

جسم من حديد أو حجر أو ذهب، وأراد أن يرفع رأسه إلى الذرّة الأخرى لرآها بعيدة بعد ما بيننا وبين الشمس أو النجوم، وأنت ترى أن هذا القول الذي قالوه لا تصدّقه العقول ولا تدركه الأبصار، ولكن العلم أثبته، ويقرّبه لك ما أذكره فأقول:

(١) إذا وضعنا في إناء ماء، ثم وضعنا في الماء ملحاً، ثم بعد ذوبانه وضعنا فيه سكراً، فإن الماء لا يزيد حجمه، لأن دقائق الماء وسعت الملح، ودقائق الملح وسعت السكر لأنه أدق من الملح، فدلّ هذا على مسامّ الماء ومسامّ الملح.

(٢) أتى بعض العلماء بكرة من الذهب مجوفة فملأها ماء، ثم ضغطها فسطحت قليلاً وخرج الماء من مسامها وتجمع كنقط الندى.

(٣) والذين يجربون المدافع، يضغطون الماء فيها حتى يرتشح ويصير زبداً على سطوحها ثم يتجمع ويقطر عنها.

(٤) والأعمدة الحجرية تقصر إذا كانت تحت بناء عظيم لزيادة ثقله.

اللطيفة التاسعة: اعلم أن الذهب والفضة والبلاتين أقبل المعادن للسحب، وأن ٣٦ درهماً من الذهب يمكن أن يعمل منها خيط طوله مائة ميل، والبلاتين وهو أثقل من الحديد نحو ثلاث مرات يمكن أن يستل منه شريط طوله مائة ميل من قمحة واحدة، والنحاس ينسج من شريطه نسيج كالشبك بحيث يكون فيه سبعة وستون ألف خرب في مساحة قيراط مربع.

اللطيفة العاشرة: إن أشد المعادن قبولاً لطرقه وترقيقه، الذهب، حتى إنهم صنعوا من اثني عشر درهماً منه ٣٦٠,٠٠٠ قطعة بحيث كان سمكها كلها معاً قيراطاً واحداً.

تذكرة: فتعجب من المادة وكيف تناهت في صغرها إلى درجة بعيدة الغور، فمن خيط العنكبوت المتمادي في الدقة، بحيث تكون خيوطه التي تكون منها أربعة آلاف خيط خارجات من جسمه على هيئة عجب، إلى أن واحداً من مليون وسبعمائة وخمسين ألفاً من قمحة من الستركنين تتجزأ في قمحة من الماء بحيث يظهر فيها طعمها، إلى ذلك الهباء الذي يظهر في البيوت الحامل بزوراً تخرج بعد سقوطها بساتين ذات أثمار وأزهار وأوراق وسوق، والناس لا يرونها بأعينهم إلاّ عفونة، يأنفون من منظرها، إلى حيوانات تعدّ بالملايين، تعيش في قطرة ماء على رأس إبرة، ولقد شاهدت أنا بنفسي بعض ذلك بالمجهر وهو الآلة المعظمة، وهذه الحيوانات من بعضها يكون الطباشير مثلاً، فانظر وتعجب وافهم قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾[يونس: ٦١].

وهذه المذكورات من الذي هو أصغر من الذرة، ولا يدري إلاّ الله إلى أي حد تنتهي المادة في الصغر، وأنت ترى أن ما يساوي واحداً من مائة من قيراط مكعب من الماء يتلون بمقدار واحد من عشرة ترليون من القيراط المكعب من الفضة، وأنت خبير أن هذا المقدار لا يتصوره الوهم، حتى إن العلماء قالوا: لو أن آدم وحواء أخذا يعدان هذا العدد واحداً واحداً كل ثانية من يوم أن خلقهما الله ولم يناما ليلاً ولا نهاراً على الحال المذكورة ما ذاقا النوم إلاّ بعد مضي عشرة آلاف سنة، وهذا في عدد

١,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠ فما بالك بهذا العدد الذي معنا وهو ١٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠ إذا عرفت هذا فإن المادة لا يعرف منتهى صغرها .

ولقد فرض العلماء لها نهاية سموها بالجوهر الفرد ، والجوهر الفرد شيء تصوّروه بعقولهم ولم يقسموه بآلاتهم . وقالوا : إنه منه تتألف الذرة التي رأيتها في الفضة مثلاً فيما تقدم ، فهذه الذرات في العدد المتقدم كل منها مركبة من جواهر فردة ، والجوهر الفرد مركب على رأي الأستاذ «جون ملز» في مؤلفه الحديث المسمى «ويلدن ذي أتم» من نوعين من الكهرباء الإيجابي والسلبي والكهرباء مادة ذات تركيب حبيبي وحبيباتها دقيقة إلى درجة لا يتصورها العقل ، وتسمى حبيبات الكهرباء الإيجابية «البروتنات» وحبيبات الكهرباء السالبة «الإلكترونات» وأكثر الجواهر الفردة مكونة من عدد من البروتنات يكون معها أحياناً ألكترون واحد أو أكثر ، وحول هذه عدد آخر من الإلكترونات تدور في مناطق ثابتة منظماً لتحفظ التوازن بين البروتنات التي تتكون منها نواة الجوهر ، وبمقتضى هذه النظرية إذا وجد مجهر قوى إلى درجة فوق العادة ، بحيث يستطيع تكبير الجواهر الفردة إلى حجم كبير جداً ، فإن أي مادة تمتحن تظهر كأنها فارغة وفيها مقادير هائلة من أشياء سابحة كالكواكب السابحة في الفضاء وعلى نظامها .

ألا ترى أن نواة الجوهر أشبه بالشمس ، والإلكترونات أشبه بالكواكب تدور حول النواة في مدار واحد ، ثم قال : إن الجوهر الفرد في عنصر الصودا مؤلف من نواة فيها ٢٣ بروتوناً و١٢ إلكتروناً ، ويدور حولها في مدار واحد عدد من إلكترونات ، وفي مدار ثان ٨ إلكترونات ، ثم في مدار ثالث إلكترون واحد ؛ ويقال أيضاً : إن الكهرباء الإيجابية في النواة قد تكون ١١ ويعادلها أحد عشر إلكتروناً وهي الكهرباء السالبة دائرة حولها ، وقد ثبت أن الكهرباء السالبة في الجواهر الفردة تدور بسرعة مدهشة حول النواة ، والمسافات بين الإلكترونات والنواة كالمسافة بين الشمس والسيارات .

ويقال : إن الجوهر الفرد لو تمكن العلماء من تحليله لخرجت منه قوة هائلة جداً لا يتصورها الناس بل ربما كان في إطلاق قوته إطلاق قوات جواهر أخرى ، فتتحول الأرض حالاً إلى كوكب جديد ، ويقول الدكتور «استون» : إنه لو حدث ذلك وكان في كوكب المريخ سكان لشاهدوا منظراً غريباً للأرض أثناء تحولها إلى الشكل الجديد ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴾[الرحمن:٢٦] .

فانظر كيف سعى الإنسان إلى أن عرف أن ما هو أصغر من الذرة الواردة في الآية صار حبيبات من الكهرباء السالبة والموجبة ، وأصبح الحديد والنحاس والبلاتين والذهب مثلاً في نظر العلماء عبارة عن كهرباء سريعة الحركة جداً ، ولسرعة الحركة ظن الناس أنها جامدة وما هي بجامدة . والله إن هذا بعينه قوله تعالى : ﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ [النمل:٨٨] فالجبال والمعادن مركبات من الجواهر الفردة ، والجواهر من حبيبات من الكهرباء ، وكلما كانت أسرع جرياً كانت أصلب ملمساً ، فذرات الحديد ، وبعبارة أخرى ، الكهرباء التي نراها أمامنا حديداً ما هي إلاَّ أنها أسرعت إسراعاً شديداً فصارت صلبة ، فقلنا هذا حديد ، فأما ذرات الماء فهي غير مسرعات ، كذرات الحديد ، فقيل هو سائل ، والهواء أقل إسراعاً ، فقيل هو غاز ، وهذا الكشف الحديث

منطبق تمام الانطباق على القرآن، فالجبال من جهة جاريات مع الأرض حول الشمس، ومن جهة أخرى جاريات جواهرها مسرعات حول النواة، ومن تلك الجواهر الجارية تكون الذرات، ومن الذرات تكون الصخور، ومن الصخور تكون الجبال. وما تكون من جار فهو جار، فالأرض جارية والشمس جارية والجبال جارية والحصى جارية ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن:٢٦-٢٧] وهذا سر قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [فاطر:٤١].

وهذا وإن كان من أسرار القرآن ومنطبق عليه، لم يزل من الأبحاث التي تحتاج إلى مباحث أدق، فلذلك جاء في القرآن: ﴿مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ﴾ [الكهف:٥١] فهو من جهة يقول: إنه واسع العلم حيث قال: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ﴾ [يونس:٦١] فعبر بلفظ ﴿أَصْغَرَ﴾ وهذا الذي ذكرناه هو الأصغر، ولكنه لما انتهى إلى ما وصلنا إليه قال: إنكم أيها الناس لا طاقة بكم بما فوق عقولكم ﴿مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ﴾ [الكهف:٥١] وهذا بعينه كلام العلماء في أوروبا، فإنا قدمنا لك أن هذا الجوهر الفرد لم يروه، وإنما استنتجوه ولم يشاهدوه. انتهى الكلام على المبحث الأول أي ما هو أصغر من الذرة في قوله تعالى: ﴿وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [يونس:٦١].

المبحث الثاني فيما هو أكبر من الذرة في الآية وفيه لطائف

اللطيفة الأولى: اعلم أن الذرة منها تتركب هذه الأجسام، وقد قلنا: إنها مركبة من الجواهر الفردة، ومن الأجسام تكون هذه الأجرام العظيمة من السماوات والأرض، أما الشموس والأقمار والأرضون فقد استوفيناها في قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٩]، إنّما الذي يهمنا الآن أن نبحث فيما هو فوق ذلك مما كشف حديثاً، ولأذكر لك خلاصة ما قيل عن العوالم السديمية في آخر تقرير رفع إلى أكاديمية العلوم بفرنسا في هذا العام فأقول:

إذا أرسلت نظرك إلى السماء في ليلة صافية الأديم أبصرت غيوماً بيضاء كأنها لبن، وهي عبارة عن سدم، أي: سحب سابحة في الفضاء الذي لا يتناهى، كما كانت أرضنا وشمسنا في الأحقاب والدهور قبل ملايين الملايين من السنين، ثم إن المسافات التي تفصل هذه العوالم عنا لا تقع تحت حصر، فالكيلومتر لا يصلح فيها مقياساً ولا قطر الأرض ولا قطر دائرتها حول الشمس، قد اصطلحوا على مسافة لهذا القياس تبلغ ثلاث سنين وسدس سنة نورية وسموها «برسك»، والسنة النورية أمر يفوق الوصف، فإن النور يسير في الثانية بسرعة ٣٠٠ ألف كيلومتر، فما بالك إذا جرى سنة ثم ثلاث سنين وسدس سنة الذي جعلناه مقياساً.

فانظر الآن ما جاء في ذلك التقرير الذي رفع في شهر مارس سنة ١٩٢٣ أثناء تفسير القرآن، فقد جاء فيه أن سديم «ماجلون» يبعد عن الأرض ٣٥ ألف برسك، أي نحو ١١٠ ألف سنة نورية، وأن السدم التي تمكن العلم من قياسها هي كما يأتي:

(١) ستة سدم تبعد عنا ٦٥ برسكاً أي نحو ٢٠٧ سنة إذا نحن سرنا إليها بسرعة النور.

(٢) ثلاث نجوم سديمية معروفة باسم «نوفا» تبعد عنا ١٧٥ برسكاً أي نحو ٤٣٥ سنة نورية.

(٣) خمسون سديماً مظلماً ونيراً تبعد عنا ٣٢٠ برسكاً أي نحو ١٠١٤ سنة نورية.

(٤) سبعون سديماً تبعد عنا ٩٠٠ برسكاً.

(٥) تسعة وستون سديماً تبعد عنا ٢٣ ألف برسك أي نحو ٧٢٨٤٧ سنة نورية.

(٦) سديمان حلزونيان على بعد ٢٠٠ برسك أي نحو ٦٣٥ سنة نورية.

(٧) ستة عوالم سديمية تبعد عنا ١٥٠ ألف برسك أي نحو ٤٧٥ ألف سنة نورية.

ويبعد السديم «اندروميد» عنا ٤٥٠ ألف برسك، أي نحو مليون وأربعمائة وخمسة وثمانين ألف سنة نورية، ويسير هذا السديم بسرعة ١٢٠٠ كيلومتر في الثانية، وكذلك السديم المعروف باسم ماجلون، إنه يبعد عن النظام الشمسي بسرعة ٥٦٨ كيلومتراً في الثانية، وتسير المجرة التي يعد النظام الشمسي والسيارات وفي جملتها الأرض من توابعها بسرعة ٥٦٠ كيلومتراً في الثانية جاذبة وراءها الشمس والسيارات مع الأرض وكل نجوم السماء.

هذه هي الخلاصة التي رفعت إلى أكاديمية العلوم، فانظر كيف اطلعنا على أصغر الكائنات وعلى أعظم الكائنات، واتصل أصغرها بأكبرها في النظام وسرعة الجري، وأصبح في نظر العالم أنه لا فرق بين السيارات في مداراتها وحبيبات الكهرباء الجاريات حول النواة في الجوهر الفرد، فاتصل أولها بآخرها. أوَليس هذا بعينه هو قوله تعالى: ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ أي تناقض ﴿فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾ شقوق ﴿ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾[الملك:٣-٤].

ألم تر كيف أشبه أعظم العوالم أصاغرها وصار العالم كله جارياً على قاعدة واحدة، وهذه هي الوحدة العامة التي ظهر الكون بمظهرها، أوَليس هذا هو البرهان على وحدة صانعها، فإن النظام لم يتغير، فالأول هو الآخر ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[الحديد:٣].

اللطيفة الثانية: قوانين كبلير ونيوتن: قد تبين لك فيما سبق في اللطيفة الأولى وما قبلها، أن الأجرام العليا السماوية والأجرام الصغيرة الذرية ذات حركات سريعة منتظمة بهية المنهج، ذات قوانين سارية جميلة. والآن نبين بعض تلك القوانين التي تربط العوالم بعضها ببعض، فالشمس جاذبة، والأرض مجذوبة، والقمر تابع الأرض، والشمس وما حولها تجري حول كوكب آخر، والعالم كله جار بقانون عام يسمونه الجذب، ومن أهم تلك القوانين هذه الثلاثة التي تنسب للعلامة كبلير:

(القانون الأول) شكل مدارات السيارات: جميع السيارات ترسم حول الشمس في جهة واحدة منحنيات مقفلة مستديرة تقريباً مستوياتها مائل بعضها على بعض قليلاً. وهذا القانون الأول يتعلق بشكل المدارات، ونصه: أن مدار كل سيار قطع ناقص، تشغل الشمس إحدى بؤرتيه، ومعلوم أن ذلك هو مدار الأرض المعلوم بتغير بعدها عن الشمس أو بالتغيرات التي تحصل للقطر الظاهري للشمس. وتوضيحه: أن الأرض لا يكون قربها من الشمس واحداً في جميع السنة، بل هي كل يوم، بل كل ثانية، مختلفة البعد؛ فهي في الصيف بعيدة وفي الشتاء قريبة وفي الخريف والربيع متوسطة، وهذا

هو بعينه القطع الناقص، وينتج من هذا القانون كما أوضحته لك أن بعد سيار عن الشمس يتغير دائماً في مدة دورة، وأن هذا البعد يأخذ جميع المقادير المحصورة بين مقدارين نهائيين مطابقين لوضعين يشغلهما السيار حينما يوجد في طرفي المحور الأكبر للمدار، ويسمى الوضعان المذكوران الرأس والذنب وبعبارة أخرى أن الأرض مثلاً حينما تكون بعيدة من الشمس يقال إنها في الرأس، وحينما تكون قريبة يقال إنها في الذنب. والبعد المتوسط هو المساوي نصف المحور الأكبر للقطع الناقص.

(القانون الثاني) قانون المساحات: وهو المساحات المرسومة بأنصاف الأقطار البورية لسيار حول البورة الشمسية مناسبة للأزمنة المستعملة لقطعها. وبيان ذلك أن أقول:



إن هذا القطع الناقص بشكل ١، فترى ش هي الشمس ودار سيار كالأرض حولها، وقد قلنا إن هذا السيار في كل لحظة يتغير بعده عن الشمس كما هو ظاهر لأن البعد يكون ثابتاً في الدائرة، أما ههنا فهو متغير، فوجد كبلير والعلماء قاطبة أن القوس ق ٥ ق ٤، والقوس ق ٢ ق ٣ التي قطعها السيار في أزمنة مختلفة بأوقات متساوية فكان ق ٥ ق ٤ حينما كان السيار في الرأس وق ٢ ق ٣ حينما كان السيار في الذنب الذي هو قريب من الشمس، وهكذا، تكون غير متساوية؛ فأما المثلثات المرسومة وهي ق ٥ ش ق ٤ وق ش ق ١ وق ٢ ش ق ٣ التي قواعدها مرسومة في أزمان متساوية فإنها تكون متكافئة، فإذا صارت المدد الضعف أو ثلاثة الأمثال، فإن مسائح المثلثات المتكونة بأنصاف الأقطار تكون متساوية، فتأمل في هذا تجد أن السيار لما بعد عن الشمس كانت المساحة التي قطعها بنصف القطر كالمساحة التي قطعها وهو قريب منها، وإن كان بطيئاً في الأولى مسرعاً في الثانية، فلحسن النظام والدقة في السير، صار المثلثان متساويين مساحة لتساوي الزمنين.

فعلى هذا تكون الأقواس المرسومة في أزمنة متساوية صغيرة كلما كان السيار بعيداً عن الشمس وكبيرة كلما كان السيار قريباً منها، وبعبارة أخرى، إن سرعة السيار تزداد بنقص بعده عن البؤرة، وتكون في نهايتها الصغرى في الذنب، وفي نهايتها العظمى في الرأس.

(القانون الثالث): مربعات مدد دورات السيارات حول الشمس مناسبة لمكعبات أبعادها المتوسطة عنها أو لمكعبات المحاور الكبرى لمداراتها.

البعد المتوسط هو المساوي نصف المحور الأكبر للقطع الناقص

وبواسطة هذا القانون العجيب يكفي معرفة مدد دورات السيارات لنستخرج منها أبعادها المتوسطة عن الشمس أو مقادير محاورها الكبرى منسوبة إلى أحدها المأخوذ وحده.

وقد ظهر نيوتن بعد كبلير، وبين أن القوانين الثلاثة المتقدمة ناتجة بالطبع من قاعدة الجذب، فالجذب العام هو قوة تنقاد لها جميع الأجسام السماوية، وتتأثر بها، والتثاقل إلى الأرض ليس إلاّ نوعاً منها. وقد استنتج نيوتن من قاعدة القصور الذاتي للمادة التي تستلزم كون حركة الجسم المطلق بالضرورة مستقيمة منتظمة أن السيارات التي ليست حركتها منتظمة ولا مستقيمة يجب أن تكون متأثرة بقوة خارجية.

وأثبت بالقانون الثاني أن القوة الحافظة للسيارات في أفلاكها لا بد أن تتجه نحو الشمس، واستنتج من القانون الأول أيضاً أن القوة المذكورة تختلف شدتها في نقط المدار الذي يجري فيه السيار وأنها مناسبة لعكس مربعات أبعاد السيار عن بؤرة الجذب، فكلما كان مربع البعد أكبر، كانت القوة المذكورة أضعف، وكلما كان المربع أقل كانت القوة أكبر، وهذا ظاهر للمتعلمين، صعب على من لم يمارس هذا الفن. واستنتج نيوتن أيضاً من القانون الثالث أن هذه القوى مناسبة لمجسمات الأجسام التي هي واقعة عليها. وقد لخص هذه القاعدة مما تقدم فقال:

جميع أجزاء المادة ينجذب بعضها إلى بعض بقوة مناسبة طرداً لمجسماتها وعكساً لمربعات أبعاد بعضها عن بعض، وهكذا حركات التوابع حول السيارات وحركات ذوات الأذناب حول الشمس تجري فيها هذه القوانين الثلاثة لكبلير وكذلك قانون الجذب العام.

إيضاح ما تقدم

يظهر لي أيها الذكي أن هذه القاعدة لم تظهر لك واضحة، وأنا الآن أبينها لك في الأمور المشاهدة فأقول: خذ فلينة واقطعها قطعتين إحداهما صغيرة والأخرى كبيرة، وضعهما على الماء فإنك تراهما تقتربان من بعضهما، والكبيرة تجذب الصغيرة، والصغيرة تجذب الكبيرة، وكل منهما يجذب على مقدار جسمه لا غير، هذا معنى قولنا إن الجذب مناسب للمجسمات، وإذا بعدت إحداهما عن الأخرى بمقدار ذراعين؛ فإن الجاذبية تكون أقل مما لو كان بينهما ذراع واحد، بعكس المربع، فمربع الواحد واحد، ومربع الاثنين أربعة، فتكون السرعة في الجذب إذا كان بينهما ذراع بمقدارها إذا كان بينهما ذراعان أربع مرات، ففي الاثنين تكون ربع ما إذا كانت بواحد، وقس عليه ٢ و٣ يكون في أولهما أكثر مما في ثانيهما بنسبة ٩ إلى ٤، فالإسراع في الأول ٩، وفي الثاني ٤، فكل منهما يعطي في السرعة مربع الآخر، فالاثنان لها مربع الثلاثة، والثلاثة لها مربع الاثنين. فهذا معنى قولهم إنها تنجذب عكساً لمربعات أبعاد بعضها عن بعض، فإذا عرفت هذا فقس عليه نظام الكواكب، وجذب بعضها لبعض على هذا النمط، ولقد بينت لك هذا المقام بإيضاح، فتعجب من هذه الجاذبية العامة أيها الفطن، واعلم أن جميع الأجرام السماوية مرتبط بعضها ببعض بالجاذبية العامة.

اللطيفة الثالثة: هناك جاذبية تسمى جاذبية الثقل، وهي بعينها كالجاذبية العامة، فإذا كان الجسم في مركز الأرض فإنه لا ثقل له لأنه مجذوب من سائر الجهات بالتساوي، وإذا كان مرتقياً عن سطح الأرض نقص ثقله بابتعاده عن السطح المذكور كزيادة مربع بعده عن مركزها.

ويعد سطح الأرض عن المركز نحو ٤٠٠٠ ميل، فإذا كان جسم يزن مائة رطل وهو على سطح الأرض، ثم رفعناه في طيارة عن وجه الأرض ألف ميل، فإننا نقول نسبة $٥٠٠٠^٢$ كنسبة ١٠٠ رطل إلى ٦٤، وهو الجوال الآتي من قسمة ١٠٠ في $٤٠٠٠^٢$ على $٥٠٠٠^٢$ وهو المطلوب، فقد نقص الجسم بارتفاعه عن سطح الأرض ألف ميل، وصار ٦٤ بعد أن كان مائة.

انظر أيها الفطن وتعجب لهذا النظام والاتفاق، تعجب من الجاذبية الماسكة السائرة بنظام تام، فيكون الجسم عند خط الاستواء أخف، وعند القطبين أثقل، لأن خط الاستواء بعيد عن المركز أكثر من القطبين لأن حركة الأرض هناك سريعة، وبالعكس يكون القطبان، فإن الأرض منبعجة عندهما، فالجسم يكون أقرب إلى المركز، والحركة هناك الطاردة ضعيفة عنها في خط الاستواء، وعليه تكون الأجسام في مصر أثقل منها في خط الاستواء، أخف منها في القطبين، لأن أرض مصر أبعد من القطبين عن المركز، والحركة فيها أشد، وعلى هذا فقس.

اللطيفة الرابعة: إن سرعة الأجسام الساقطة إلى الأرض تكون بحساب ١٦ قدماً مضروبة في (١) للثانية الأولى، وفي (٣) للثانية الثانية، وفي (٥) للثالثة، وفي (٧) للثالثة الرابعة، وبعبارة أخرى: ضرب ١٦ في الأعداد الوترية ١، ٣، ٥، ٧، ٩، ١١، ١٣، ١٥ وهكذا لكل ثانية على التوالي.

وإذا ضربنا عدد الثواني مربعاً في ١٦ قدماً كان ذلك هو البعد الذي سقطه الجسم، فالثانيتان يكون البعد فيهما ٤ في ١٦، والأربعة ١٦ في ١٦، وبعبارة أخرى: ١ و٣ و٥ و٧ و٩ و١١ و١٣ و١٥ إذا ضرب كل منها في ١٦ كان الحاصل هو الذي سقطه الحجر في تلك الثانية، ففي الأولى ١٦ في ١، وفي الثانية ١٦ في ٣، وفي الثالثة ١٦ في ٥ وهكذا.

وإذا جمعنا الثلاثة كان هكذا: ٩ في ١٦، وهو مساو(٥+١+٣)×١٦ وهذا من أعجب العجب في علم الطبيعة، كيف يتصافح علم الارثماطيقي وعلم الطبيعة، كيف يجتمع العلمان وكيف تكون الأعداد الفردية المتلاحقة إذا جمعت كانت هي بعينها المربعات الزمنية، وكيف يكون هذا قانوناً عاماً كيف يكون في الثانية الرابعة سقوط الحجر يساوي٧×١٦ وإذا ضم إلى ما قبله كان هكذا (٧+٥+٣+١)×١٦ يساوي ٤×٤×١٦ فمربع٤ هو عينه مساو لجمع المفردات الأربعة من ١ إلى سبعة. إن عجائب الحساب من الفرد والزوج ظهرت هنا في سقوط الأحجار. عجائب الحساب وخواصه ظهرت في قوانين نيوتن وكبلير وفي الأحجار الساقطة والجاذبية العامة، أليس هذا بعينه هو قوله تعالى: ﴿ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴾[الأنبياء:٤٧]، فما المناسبة بين الإتيان بمثقال حبة من خردل وبين كفاية الحساب، فما دخل الحساب هنا؟ أفليس هذا هو السر في مثقال حبة من خردل وأكبر منها وأصغر، كل ذلك لا يأتي إلاّ بحساب، هذا هو الحساب وهذا هو السر الذي حجب عن الجهال وكشفه الله للناس في هذا الزمان، ثم انظر كيف يقول الله: ﴿ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ﴾[الفجر:٣] أليس هذا هو سر الشفع والوتر، هذا الشفع وهذا الوتر ظهر سرهما في هذا العالم العجيب هنا ظهر سر الشفع والوتر، فللوتر سلطان في عدد الأقدام في سقوط الثانية الواحدة، وللشفع سلطان عند تربيع جميع الثواني، إن الطبيعة ممتزجة بالحساب امتزاجاً تاماً، هذا هو من سر قوله تعالى: ﴿ وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴾[الأنبياء:٤٧] وهذا هو سر

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾[غافر:١٧] وقوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾[فاطر:٤١]، أليس هذا هو سر القرآن كيف يقول الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَاۚ ﴾ وكيف يكون هذا العلم الذي ظهر بالعقول البشرية موافقاً له، فإن المادة كلها ليست إلاَّ كهرباء، والكهرباء تكاد تكون أمراً معنوياً وكأنها حركات، وتلك الحركات منها كانت الذرات بجواهرها والأجسام، وبسرعتها ونظامها دامت موجودة فالله هو الممسك لها.

هاهنا تبين لك أيها الذكي كيف كان هذا العالم نظاماً واحداً أوله يشبه آخره وكبيره يشبه صغيره والحيرة في الحقير كالحيرة في العظيم، فانظر كيف كانت القمحة من الفضة فيما تقدم وأن جزءاً صغيراً منها يقسم على ماء غزير فيلوّنه، وأن هذا العدد من أجزائه يتعذر عدّه كما يتعذر عدّ نجوم السماء، فقد بهرنا العظيم وبهرنا الحقير، كما أدهشنا نظام الكواكب في قوانين نيوتن وكبلير، أدهشنا سقوط الحجر بحساب بديع، فهناك يقال: إن المثلثات التي يرسمها الكوكب في الأوقات المتساوية في أزمان مختلفة تكون متكافئة المساحة، وهنا يقال: إن الحجر في سقوطه يحسب تارة بالإفراد وتارة بمربع الأزواج.

إلى هنا انتهى الأمر الأول وهو تفسير قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾، وقد أتممنا الكلام على المبحثين، مبحث ما هو أصغر من الذرة، ومبحث ما هو أكبر من الذرة، وفصلنا في الأول عجائب الذرات وصغرها، وخيوط العنكبوت ودقتها، وفي الثاني عجائب الكواكب والسدم والأحجار الساقطة وقوانين السيارات، فلنشرع في الأمر الثاني.

الأمر الثاني

وهو تفسير قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ قد قلنا: إن الخاصة ينظرون في علم الله بما يطالعون من عجائب الفلك والطبيعة والذرات البديعة، وفي قدرته وهو ما أردنا في هذه الآية. فالله هو الذي يصور الناس في الأرحام ويحكم الخلق، وذلك أنه غالب قاهر لهذه العوالم، وقهره لها بحكمة لا بمجرد اللعب ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الدخان:٣٨-٣٩]، وكيف يعرف الناس أن السماوات والأرض وما بينهما مخلوقة بالحق والعدل والنظام إلاَّ بهذه العلوم؟ وكيف يعقل الناس أن هذه العوالم سائرة بقصد إلاَّ بالعلم؟ فانظر كيف يقول: ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾.

ومما يؤسف له ويحزنني أن يكون أكثر المسلمين هم الذين ينطبق عليهم قوله تعالى: ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ فيا ليت شعري من أين يعرف الناس قوله تعالى في هذه السورة: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[آل عمران:١٨-١٩]، كيف يعرفون أنه قائم بالقسط وأنه عزيز يغلب هذه الكائنات ويقهرها بعزه وجبروته، حكيم بدقة وإحكام ونظام، كيف يعرفون ذلك إلاَّ بمثل ما بسطناه في هذا المقام؟ كيف ينام المسلمون عن هذه العلوم؟ يا قوم، إلى هذا دعا القرآن، وبهذا أمر الله، فيا أسفا على أمة هلكت وربوع خلت ومدن

أقفرت، فليرجع المسلمون إلى مجدهم، فالله قد غضب على مجموعنا بسبب جهلنا، والإفرنج هم المفكرون، ولكني أبشركم بأنه قد آن أوان ظهور ذلك المجد الباذخ، والله هو الولي الحميد.

سلطان القدرة والمحبة العامة

هذه الآية قد أظهرت سلطان القدرة في خلقة الجنين في الرحم، ومن هذا القبيل قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾[فصلت:١١] هنا يقول الله: إنه قال للسماوات وقال للأرض لتأتيا طوعاً أو كرهاً، فأتتا طائعين. ويقول في آية أخرى: ﴿ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ﴾ [لقمان:١٦]، وقال في آية أخرى: ﴿ بَل لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴾[البقرة:١١٦] وفي أخرى: ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾[النحل:٤٩] وقال في أخرى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ﴾[فاطر:٤١] فهذه الآيات كلها داعية للنظر في هذا العالم، فقد عبر مرة بالطاعة ومرة بالإمساك ومرة بالقنوت ومرة بالسجود ومرة بأنه يأتي بحبة الخردل من أي مكان.

فانظر أيها العالم وانظر أيها الحكيم وانظر أيها المسلم من أين نفهم أن حبة الخردل يأتي بها الله ومن أين نعرف أن من في السماوات والأرض يأتون الله طائعين لا مكرهين، وما السر في هذا، ولم عبر بالطاعة ولم يجعل امتثالها لله إكراهاً. أقول: لا يفهم هذا المقام إلاّ بما سأوضحه لك في هذه اللطائف: لطيفة الجاذبية، ولطيفة الماء، ولطيفة الثلج، ولطيفة علم التشريح، ولطيفة السمع، ولطيفة البصر، ولطائف الرحمة في قلوب الوالدين، ولطائف الحب في أفئدة المتعلمين والحكماء والعلماء والأنبياء، ولطائف الشهوات الغريزية، ومنها ما في آية: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ ﴾ إلخ [آل عمران:١٤]، ولطائف خلق الآساد ونحوها، ولطائف الغرام بزرع الأشجار التي يكتسي بثمرها الإنسان، وبذلك يخدم عوالم من الحيوان كما خدم النحل الإنسان و﴿ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴾[الروم:٢٦] ثم لطائف الحب العام المرتب على ما تقدم، وكيف السبيل إلى نشر العلوم والفضيلة بين الناس، وإن ذلك لا يكون إلاّ بالمحبة وعمومها في أفئدة الناشئين تبعاً للنظام العام.

اللطيفة الأولى: لطيفة الجاذبية العامة

لقد تبين لك فيما أسلفته لك الجاذبية العامة، وكيف كانت لم تذر الكواكب في أفلاكها ولا الأحجار في مساقطها إلاّ سلطت عليه تلك الجاذبية، فأنت ترى أن الكوكب السيار وهو يجري حول الشمس منقاداً لها متأثراً بها حار على نظام؛ فإن بعد عنها فهو إليها ناظر يجري على نهج معلوم، وإن اقترب منها كان مسرعاً أشد إسراع لطاعته لها، فهذا هو قوله تعالى: ﴿ قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾[فصلت:١١] فالكواكب طائعات الشمس، والشمس وما حولها طائعات كوكب آخر، والحجر الساقط من أعلى إلى أسفل نراه يجري طائعاً، فالجاذبية عبر عنها القرآن بالطاعة. هذا هو معنى القرآن، وقوله: ﴿ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ﴾[لقمان:١٦]،

ظاهر فيما مضى أن الذرات الصغيرة المسماة إلكترونات تجري بأدب وطاعة حول النواة التي تقدم ذكرها كما تجري السيارات حول الشمس ، فهذه المخلوقات الصغيرة التي كانت في الكهرباء التي هي أصل المادة يأتي بها الله ، والإتيان فيه معنى الحركة ، فتراها متحركة حول أصولها ؛ فالسماوات طائعات ، والذرات طائعة يأتي بها الله على سبيل الطاعة ، ولولا أنها مطيعة ما كانت منتظمة لأن المطيع مؤدب ، ، العاصي غير منتظم ، والأدب ظاهر في قوانين كبلير ونيوتن في جري السيارات كما أوضحته لك ، وظاهر أيضاً في سقوط الأحجار ، وإلا فما هذا النظام

١	٣	٥	٧	٩	١١	١٣	١٥
٢	٢	٢	٢	٢	٢	٢	٢
١	٢	٣	٤	٥	٦	٧	٨

فالحجر الساقط كما أوضحته لك فيما مضى يجري على هذين القانونين ، فالقانون الأول لجريه في الثواني ، فالثانية الأولى ١٦ قدماً في ١ ، والثانية ١٦ في ٣ ، والثانية الثالثة ١٦ في ٥ وهكذا الرابعة في ٧ الخ . وجميع ما قطعه الحجر يتضح في الصف الثاني ، فيكون في الثانية الأولى ١ في ١٦ ، في الثانية الثانية $٢^{٢}$ في ١٦ ، وفي الثانية الثالثة $٣^{٢}$ في ١٦ ، وفي الرابعة $٤^{٢}$ في ١٦ وهكذا .

أنا وإن ذكرت لك سابقاً أعدته هنا ليجري الجدولان معاً ، ويتضح معنى الطاعة في قوله : ﴿ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾[فصلت: ١١] . أما الإتيان فبالحركة ، وأما الطاعة فبالنظام الذي تراه في هذين الجدولين . بمثل هذا فليفهم القرآن وبمثل هذا فليرتق المسلمون .

هذه الطاعة أيضاً ظاهرة في الجسمين اللذين يلتقيان على سطح الماء من نوع واحد كالفلين ، ففيه عكس التربيع المتقدم ذكره ، ويظهر أيضاً في رقاصي الساعة اللذين قصر أحدهما وطال الآخر ، فإن بينهما نسبة كما هنا ، وكذلك ميزان القبان ، فالنظام تام في هذه الكائنات من حيث طاعتها ، فهذه هي الطاعة ، فالجاذبية هي الطاعة ، ﴿ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴾[الأحزاب: ٤] .

اللطيفة الثانية : لطيفة الماء

(١) إن الماء يعدل هواء البلاد فيقيها تعاقب الحر والبرد عليها تعاقباً فجائياً ، لأنه يمتص حرارة كثيرة في الصيف فيلطف حره ويلطف برد الشتاء ، وفي الربيع يذوب الثلج والجليد فيمتص ماؤهما حر الشمس فلا تخرج الأشجار براعمها سريعاً ولا تتعرض لتقلبات البرد والحر . إن الثلج والجليد لا يذوبان إلا بحرارة شديدة ، وعلى ذلك لا يذوبان إلا ببطء في الربيع ، ولولا ذلك الناموس لكانت مياههما تطغى على الأرض فتجرف تربتها وتهلك المخلوقات الحية التي عليها ؛ إن الماء وضع بهيئة عجيبة حافظ لحالة الجو بنظام عجيب .

(٢) إن الماء فيه هواء وذلك يعيش فيه السمك ولو خلا الماء من الهواء لكان يفرقع كثيراً كلما تجاوزت حرارته ٢١٢° ف أعني درجة الغليان ، فكان الناس لا يتجرؤون أن يغلوه في وعاء إلا وهم مراقبون درجة حرارته بالترمومتر كما يراقبون الآن الآلات البخارية ، مخافة أن ينحصر بخاره فيشق القدر ويتلف ما حولها ، وإنما لوجود الهواء فيه كلما زادت حرارته عن ٢١٢° فارقه الزائد وتركه على درجه ٢١٢° ف .

ومن العجب أن الماء قد شذ عن بقية السوائل : إن السائل إذا برد جمد وهكذا الماء إذا وصل إلى درجة ٣٩° ف تقلص بالبرد ثم يأخذ في التمدد بزيادة البرد حتى يصل إلى درجة ٣٢° ف فيجمد، فجميع السوائل ومنها الماء تمدد بالحرارة وتتقلص بالبرودة، والماء وحده قد شذ عنها في أنه إذا تقلص مثلها بالبرودة، ثم ازدادت برودته تمدد ثانياً إلى حد محدود، وانظر أيها الذكي لهذا الشذوذ العجيب، شذوذ به حياة كل حي، شذوذ عليه تتوقف حياتنا وحياة الحيوان والنبات، أفليس ذلك داعياً للتفكر؟ لم اختص الماء بأن الثلج الناجم من تقلصه يصير كبيراً مخالفاً في ذلك بقية السوائل؛ ذلك أن الماء لو كان يجري مجرى بقية الأجسام إذا برد لكان إذا برد سطحه تنزل دقائقه الباردة إلى قعره وتصعد دقائقه الأخرى من قعره إلى سطحه حتى تبرد كلها إلى درجة الجليد فتجمد معاً ويصير الماء كله قطعة واحدة من الجليد، فيقتل ما فيه من الحيوان والنبات، ثم إذا جاء فصل الصيف وتعاظم حر الشمس يذوب وجه ذلك الجليد فقط فيصير ماء لكن ما تحته يبقى جليداً لأن الماء غير موصل للحرارة فيصد الشمس عما تحته ولا يمكنها من تذويبه، وعلى ذلك يبقى الجليد في البحار والبحيرات والأنهار وفي الأماكن الباردة طول الأيام . فلهذا الشذوذ يتمدد بالبرد فيخف ويجمد ويعوم على الوجه ويبقى ما تحته من الجمود لأنه جليد وهو موصل رديء للحرارة فتبقى حرارة الماء العميق تحته على درجة واحدة، ولو اشتد البرد فلم يمت ما فيه فلولا خفته وعومه لم تكن هذه المنافع .

(٣) إن الندى إذا تكوّن على النبات منعه من الإشعاع فلا تبرد أوراقه برداً شديداً ولا تصقع، فالندى نافع لأنه يمنع الإشعاع، ثم الماء يرتقي من البرد والبحر بخاراً فيبرد الهواء ويرطبه صيفاً ويعدل برده شتاءً كأنه ميزان يزن الله به الحرارة، والغيم المتكاثف منه يظلل الأرض من شعاع الشمس نهاراً، وينجيها من شر الإشعاع الزائد ليلاً، وينقي مطره الهواء ويحيي النبات أو ينزل ثلجاً فيحتضن الأعشاب وبراعم الأشجار لتنجو من الموت، وينبع عيوناً تروي العليل وينقي الأبدان ويحيي به الأرض بعد موتها ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ ﴾[المؤمنون:١٤] .

وبهذه الخاصية المخالفة لبقية السوائل إذا برد فصار ثلجاً في جرة كسرها، وبهذه الطريقة يكسر الأحجار في الجبال فتنبع العيون، فانظر لهذه الخاصية كيف منعت ماء البحر من أن يكون ثلجاً، وشقت بها العيون فنبعت ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ ﴾[المؤمنون:١٤]، وهذا داخل في قوله تعالى:﴿ قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ ﴾[فصلت:١١] فالماء بخضوعه لتلك النواميس لطف الحرارة، وشق العيون، وجرى في الأنهار، وأحيا النبات والإنسان، كل ذلك طاعة وتسخير، ولله الأمر وهو على كل شيء قدير.

اللطيفة الثالثة : الثلج وأشكاله

لقد رأيت في كتب الطبيعة أشكال الثلج، فحار لبي فيها، وفكرت في أمرها، وعجبت من نظمها وأدهشني جمالها ونظامها، لو أن خلقاً كثيراً اجتمعوا في قاعة صغيرة في البلاد التي اشتد بردها، وكان البرد شديداً، وفتحت نافذة من نوافذ القاعة لجمد البخار في هوائها ووقع ثلجاً بأشكال تدهش الناظرين ولقد رأيت رسمها على ستة أشكال، وكلها أشكال مسدّسة، فمهما اختلفت الأشكال فالتسديس ثابت

فتارة تكون بهيئة أشجار منظمة بديعة، وتارة بهيئة أزهار في غاية الجمال ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤]، ولما رأيتها قلت في نفسي: لم كان هذا النظام لا يختلف في الثلج، وهل كان الأوكسوجين والأودروجين عند اتحادهما قد تحالفا أن يكون وقت الجمود على هيئة منظمة، ولعل الماء لما كان فيه حياة كل شيء كان مستعداً للنظام التام كما نرى في الحيوان والنبات أنها مشتركات في أمور مختلفات في أخرى حافظات للأصول كالتغذية والتوالد، مختلفات في غيرها كالحواس والعقل، وهكذا، فكذلك هنا نرى الأشياء في الثلج تحفظ الشكل السداسي مهما اختلفت أوضاعها، وكأن هذا يرمز له قوله تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ كُلَّ شَيۡءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠]، والحياة لا تكون إلا مع النظام، وهذا داخل في قوله تعالى: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ﴾ [لقمان: ١٦]، فبهذا اللطف والخبرة نظم الثلج وأحكمه، ولقد أتى الله بذرات الماء وحكم عليها فخضعت للنظام وأطاعت واجتمعت بشكل يسر الناظرين، كما خضع الحجر الساقط للقوانين السابقة في التربيع في الأعداد الفردية، وكما خضعت السيارات لقوانين كبلير ونيوتن، وأي فرق بين خضوع ذرات الماء في ذلك الشكل المنظم وبين خضوع الإلكترونات المتقدم شرحها حول نواتها في الجوهر الفرد والسيارات في مداراتها والأحجار في مساقطها، كل يطيع على مقتضى القوانين السماوية وقوانين السقوط وقوانين الثلج وتجمده ﴿وَلَآ أَصۡغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٍ﴾ [يونس: ٦١] ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٖ مَّعۡلُومٖ﴾ [الحجر: ٢١].

انظر صور الثلج في الشكل الثاني وهو هذا:



(شكل ٢)

اللطيفة الرابعة: لطيفة علم التشريح

التي وردت بها هذه الآية التي نحن بصدد الكلام عليها، يقول الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ كَيۡفَ يَشَآءُۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾.

إن الله جعل جسم الإنسان كمدينة، فابتدع لها أربع طبائع منفردات، ثم ألف بين كل اثنين منها فكانت أربع أركان مزدوجات، ثم كان منها أربعة أخلاط سببت تسعة جواهر وبتركيبها بعضها فوق بعض كانت عشر طبقات أقيمت على مائتين وثمانية وأربعين عموداً، ثم مد لها سبعمائة وخمسين حبلاً، وجعل فيها إحدى عشرة خزانة مملوءة من الجواهر وجعل لها ثلاثمائة وستين مسلكاً لسكانها وجعل أنهارها ثلاثمائة وتسعين جدولاً وفتح على سورها اثني عشر روزناً مزدوجات مسالك لجريانها وجعل لها خمسة حراس وجعلها على عمودين فهذه ثلاثة عشر نوعاً: الطبائع، الأركان، الأخلاط، الجواهر، الطبقات، الأعمدة، الحبال، الخزائن، المسالك، الأنهار، الأبواب، الحراس، العمودان.

(١) الطبائع أربع: الحرارة، البرودة، الرطوبة، اليبوسة.

(٢) الأركان على رأي القدماء أربعة: النار، الهواء، الماء، الأرض، والعلم الآن جعل هذه الأربعة مركبات من عناصر تبلغ نحو ٧٥ ولكن نتيجة العلم واحدة لأن المتقدمين والمتأخرين يرجعون الجميع إلى أصل واحد وهو الهيولى، وبعبارة أخرى شيء لا وزن له ولا لون بل يكاد يكون فرضياً.

(٣) الأخلاط الأربعة المتعادية وهي: الصفراء. والدم. والبلغم. والسوداء. والمتأخرون زادوا غير ذلك ولكن نحن الآن في مقام الإجمال لا التفصيل إنما ذلك يهم الأطباء ونحن في مقام الإلمام بالأمور العامة.

(٤) الجواهر تسعة: عظم، مخ، عصب، عرق، دم، لحم، جلد، ظفر، شعر.

(٥) الطبقات عشر: رأس، رقبة، صدر، بطن، جوف، حقو، وركان، فخذان، ساقان، قدمان.

(٦) الأعمدة: ٢٤٨ هي العظام.

(٧) الحبال: ٧٥٠ حبلاً هي الرباطات الممتدة المشدودة على العظام وهي الأعصاب.

(٨) الخزائن الإحدى عشرة هي: الدماغ، والنخاع، والرئة، والقلب، والكبد، والطحال، والمرارة، والمعدة، والأمعاء، والكليتان، والأنثيان.

(٩) والمسالك والشوارع والطرقات هي العروق الضوارب ٣٦٠.

(١٠) وأنهارها هي الأوردة ٣٩٠.

(١١) والأبواب الاثنا عشر: العينان، الأذنان، المنخران، السبيلان، الثديان، الفم، السرة.

(١٢) الحواس هي الحواس الخمس: السمع والبصر والشم والذوق واللمس.

(١٣) العمودان هما الرجلان.

وليس في تعداد هذه إلا إجمال القول في الجسم، أما التفصيل فبعيد الغور، فلنقتصر على حاسة السمع وحاسة البصر للاستدلال بهما على الباقي.

اللطيفة الخامسة: لطيفة السمع وهي الأذن

كما أنك فيما مضى حار فكرك في العنكبوت، مع دقة جسمه وضموره وحار في الكواكب السابحة في الفضاء، بحيث لا يرى فرق في الحيرة بين العظيم والصغير، هكذا هنا رأيت الجسم الإنساني مركباً من أعضاء وحواس وعروق الخ، وترى حاسة السمع وحدها لا تقل عن جسم الإنسان، بل عن العالم كله في عجائب تركيبها وكثرة تفاصيلها، وبدائع دقتها وأنظمتها الدقيقة البديعة، فتأمل تجد أنك الآن أمام مدينتين وبحر، المدينة الأولى خالية من السكان، مقوسة البنيان، دائرية السور، ليس فيها إلاّ الهواء يغدو ويروح، ثم ترد عليها الرسل أفواجاً كل آن بأشكال مختلفة يريدون أن يتوصلوا إلى الملك المعظم الذي هو جالس خلف ذلك النهر على عرشه العظيم، وتلي هذه المدينة، المدينة الثانية وفيها ثلاث أماكن للبريد كل منها يوصل للآخر ما يرد له من الرسائل، ويلي هذه المدينة النهر، وهو أهم من السابقتين، فلو رأيته لأدهشك ما فيه من العجب، فإنك تراه نهراً عظيماً متلاطم الأمواج، وهذا النهر ليس كالأنهار يجري على شبه استقامة، بل هو ملتوي ثلاث ليات كما تلتوي الحيات من ناحية ومن

الناحية الأخرى ملتف كما تلتف القوقعة ، وبالجملة إن هذا النهر كثير الانعطاف ليس فيه استقامة وتجد في مائه كرات كثيرة من الحجارة وآلات برقية «تلغرافية» تبلغ ثلاثة آلاف منبثة في الجهة التي تشبه القوقعة ، وعلى شواطئ البحر تجد أسلاكاً أخرى برقية «تلغرافية» ووراء هذا البحر الملك ، وعنده أصحاب البريد ينبثون جهة الأسلاك البرقية التي على الشاطئ وجهة الأسلاك التي في البحر وترى أولئك الرسل الذين يأتون المدينة الأولى يرسلون الأخبار الخارجية إلى المحطة الأولى في المدينة الثانية ومنها إلى الثانية ومن الثانية إلى الثالثة ، ثم تنقل الأخبار إلى البحر خلفهما فتنقل في تلك الأسلاك التي هي ثلاثة آلاف بعد مرورها على تلك الكرات الحجرية النافعة لحفظها ، ويتلقفها رسل الملك المنبثون في تلك الجهات ، وبذلك يعرف أخبار الممالك الأخرى ، هذه هي أوصاف الأذن.

أما المدينة الأولى فهي التي يسمونها الأذن الظاهرة المؤلفة من الصيوان الذي يجمع أمواج الصوت ، ومن الصماخ السمعي الظاهر وهو خرق الأذن الذي يؤدي تلك الأمواج إلى الأذن المتوسطة ، وطوله نحو قيراط ، وأما الأفواج التي ترد عليها فهي الحروف الهجائية ومركباتها ، وأصوات الغناء والألحان وكل ما يسمع ، وهذه لا حصر لعدّها.

وأما المدينة الثانية فهي الأذن المتوسطة أو الطبلة ، وهي تجويف بين الأذن الظاهرة والباطنة ، وتنفصل عن الظاهرة بالغشاء الطبلي ، وأما الأماكن الثلاثة التي للبريد فهي ثلاث عظمات دقيقة يتصل بعضها ببعض تسمى إحداها المطرقة ، والثانية بالسندال ، والثالثة بالركاب للمشابهات بينها وبين هذه الثلاثة.

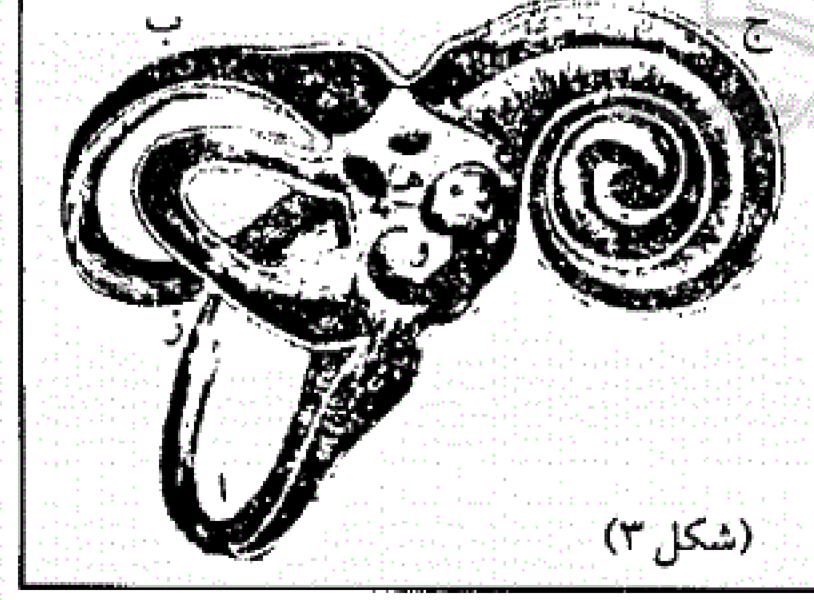
وأما البحر العظيم وراءها فهو المسمى بالأذن الداخلة أو التيه ، وهي عضو السمع الخاص ، وإنما سميت بالتيه لكثرة ما فيها من التجاويف والعجائب ، وفيها سائل فيه خيوط دقيقة مرنة شعرية ، وكتل متبلورة ، وفيه ثلاثة آلاف جسم صغير ، تسمى عصا «كورتي» فهذه العصا هي آلات البرق المذكورة فيما تقدم ، فإذا قرع الأذن الظاهرة صوت اتجهت أمواجه إلى الأذن المتوسطة بسبب حفظ الصيوان للصوت ، فيقع على الغشاء الطبلي فتهتز العظمات الثلاث في الأذن المتوسطة ، وينتقل إلى السائل ويصادف تلك الكرات الدقيقة التي سميناها حجارة فيما مضى ، وإذ ذاك يتلقف كل سلك من الأسلاك المسماة عصا «كورتي» التي تبلغ ثلاثة آلاف خبراً من الأخبار وصوتاً من الأصوات بحيث يكون مناسباً له فإن المسموعات كثيرة جداً من حيوان وشجر وحجر توزع على تلك الثلاثة الآلاف بحيث يمر كل صوت في السلك المناسب له ، وكأن هذه الثلاثة الآلاف مختلفات القوى كاختلاف الأصوات ، وكل صوت يتجه للسلك المناسب له ، ثم هذه تتصل بالشعرات التي في تلك القنوات التي عبرنا عنها بأسلاك برقية أيضاً ، وهناك يمتد العصب السمعي واصلاً من المخ فيلتقط تلك الأخبار ويوصلها للمخ الذي عبرنا عنه بالملك في عرشه. هذه هي حال السمع قد أوضحتها لك بما في الإمكان ، وهذا يكفيك إذا لم تجد متسعاً للدراسة العلمية ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ ﴾[المؤمنون: ١٤].

فانظر كيف جعل لأجل وصول الصوت بالكلام وبالنغمات وغيرها عجائب تبلغ ١٤ عجباً من صيوان وصماخ وطبلة وثلاث عظمات ودهليز وقنوات هلالية وأخرى قوقعية وسائل ورملات

حافظات للصوت وعصا كورتي وشعرات في القوقعة وغيرها ، وأعصاب سمعية ، فهذه أربعة عشر كأنها ليالي الهلال ليصير فيها بدراً كاملاً . ينتقل الصوت فيها حتى يصل إلى المخ ، فتعجب من الجسم الذي تسكنه كيف كان الهواء يحتاج إلى آلات ما ظهر لنا منها (١٤) مختلفات الصور والأشكال بحيل دقيقة ليصل الخبر إلى نفوسنا إذ لا سمع إلاَّ حيث يصل الصوت إلى المخ ، وانظر كيف نستعمل ما نجهل ، ولا أبالغ إذا قلت إن أكبر عالم بالطبيعة غافل عن هذه العجائب إلاَّ من علت مداركه وارتقت نفسه وفكر واعتبر وقرأ هذه الآية مثلاً وعرفها ﴿ هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ﴾ فالتصوير قد عرفته في الأذن ، وأما قوله : ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ فالعزة والقهر قد ظهر في التصوير ، فإنه نوّع أعضاء الأذن (١٤) نوعاً ، فقد قهرها وذللها لذلك ، وقوله : «حكيم» راجع للمشيئة ؛ فالعزة للتصوير والحكمة للمشيئة ، فكأنه يقول سبحانه إن تصويري لكم في الرحم لم يكن عن هوى ولكنه عن حكمة وعناية أوجبت دقائق الصنع .

والحق أن هذا الإبداع غفل عنه أكثر المسلمين وهم نائمون ، وترى أبناءهم الذين قرؤوا هذا يحفظونه لأجل نيل الشهادة ، أما قراءته لأجل الحكمة وارتقاء العقل فلا ، بل منهم من كفر إذ يظن المسكين أنه أعلم من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، قد اطلع على ما جهلوه ، وأدرك ما قاله الإمام الغزالي إننا أعلم بالطبيعة من أولئك الذين يدعون أنهم طبيعيون ، بل أقول أنا : إن أهل زماننا كثير منهم أهل مكابرة وادعاء ، وقد آن أن يرجع المسلمون لأيام مجدهم ﴿ وَهُوَ ٱلْوَلِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾[الشورى:٢٨] ، وهاك إيضاح الأذن .

أما الأذن الظاهرة فهي مشاهدة ، وأما الأذن المتوسطة أو الطبلة فقد وضحت فيما قدمناه بالتمثيل ، فأما الأذن الداخلة وتسمى التيه فتحتاج إلى المشاهدة ، وهاك رسمها :



(شكل ٣)

«ا ب ج» القنوات الهلالية الثلاث ، «ء» الدهليز «هـ» القوقعة ملفوفة لفتين ونصف لفة ، «و» الكوّة المستديرة «ز» الكوّة البيضية .

اللطيفة السادسة العين

تصور ثلاثة أطباق مستديرات أمامك على مائدة ، وهذه الأطباق كل منها أشبه بنصف كرة أقل أو أكثر ، ثم تصور أن كلاً من هذه الثلاثة قد وضعت أغطية مستديرة أيضاً مجوفة ، وهذه الأطباق الثلاثة موضوعة في داخل بعضها ، فماذا ترى ؟ ألست ترى أن عندك كرة في داخلها فراغ ، وفوق الفراغ ثلاثة أغشية وتحته كذلك ، فإذا وضعت فوق هذه الأغطية الثلاثة منديلاً أبيض مثلاً صارت الطبقات سبعة ، فإذا وضعت في جوف هذه الأطباق مادة رقية شفافة لا لون لها ، فكان أسفلها كالزجاج الذائب ووسطها جامد كالجليد وأعلاها كبياض البيض السائل إذا فعلت ذلك في هذه الأطباق فقد صورت طبقات العين وعرفتها .

وليست عين الإنسان شيئاً غير هذه الطبقات السبع والرطوبات الثلاث فمتى تصورت ما تلوته عليك من هذا المثل تصورت العين، وإنما ضربت لك هذا المثل لتفهم ما سيرد عليك بسهولة، لقد تقدم أن الدماغ منشأ الأعصاب التي للحس والتي للحركة، ومنها ما يكون من النخاع، وهناك في الدماغ للقوة الباصرة عصبتان متقابلتا الشكل هكذا:

(شكل ٤)

فإحداها تتجه جهة اليمين والأخرى تتجه جهة اليسار، وتصل كل منهما إلى العين التي في جهتها، وهذه العصبة مجوفة وعليها غشاءان غشاء أعلى غليظ وغشاء أسفل رقيق كما يكون للبيضة والجوزة ولسلك الكهرباء، وهذه قاعدة مطردة أن كل ما كان لطيفاً يجعل له أغشية قليلة أو كثيرة، فالغشاء الغليظ متى وصلت العصبة إلى العين فارقها، وكسا عظم العين بلباس، ويسمى إذ ذاك الطبقة الصلبة ولكنه لا يكون تام التكوير كما قدمنا، وهكذا يفارق العصبة الغشاء الرقيق ويصير لباساً وغشاء دون الطبقة المشيمية لأنها تشبه المشيمة، وأما العصبة نفسها فإنها تصير غشاء فوق الغشاءين المذكورين، ويسمى الغشاء الشبكي، أفلا ترى أن هذه الثلاثة أي الصلبة والمشيمية والشبكية هي التي ضربت لها فيما تقدّم مثل الأطباق الثلاثة التي هي مدورة فإذا فكرت في الأغطية الثلاثة فوق هذه الثلاثة فلنسمّ غطاء الصلبة وهي الأولى (القرنية) وهي جسم كثيف صاف شبيه بصفيحة رقيقة من قرن أبيض، ولنسمّ الجسم الذي تحت القرنية (بالعنبية) لأنه مثل العنبة أسود أو أزرق أو نحو ذلك، وإنما كانت ملونة لتحسن الأجسام المشفة من ورائها فلا ينتشر ما حصل فيها من الضوء والصور المنطبعة لأن سواد اللون يمنع انتشار الضوء، إن الضوء يدخل من ثقب في العنبية فيتضايق ويتسع بحسب كثرة الضوء وقلته، فكلما قل الضوء اتسع الثقب وكلما كثر الضوء ضاق الثقب، فهذه العنبية غطاء للمشيمية، ولنسمّ الغطاء الذي على الشبكية الذي هو تحت الغطاءين الآخرين بالعنكبوتي لأنه كخيوط نسج العنكبوت ولم يكن للإدراك بل لضبط السوائل التي تحته. فها هنا ست طبقات: القرنية، العنبية، العنكبوتية، الشبكية، المشيمية، الصلبة، فرجعت الطبقات الست إلى الأطباق الثلاثة وأغطيتها، والطبقة السابعة جسم أبيض اللون صلب يسمى الملتحمة وهو بياض العين وهو امتداد من الجلد الذي هو خارج القحف، فهو قد امتد إلى العين من جميع الجهات التي من خارج إلى قرب الوسط، ثم إنه لما لم يكن شفافاً لم يمتد على بقية العين، ولو امتد لمنع الإبصار فاستعمل منه مقدار ما يكفي في إحكام رباط العين، وترك موضع الإبصار مكشوفاً ليصل الضوء إلى آلات الإبصار من الطبقات والرطوبات. أما الرطوبات فهي ثلاثة:

(١) أولاً جسم كالزجاج الذائب الذي هو وسط الشبكية، ويسمونها (الجسم الزجاجي).

(٢) ويسمون الجسم الشفاف الذي لا لون له الصلب القوام المستدير الشكل المائل للتفرطح كأنه قطعة من الجمد (بالرطوبة الجليدية) وتسمى أيضاً (العدسية) وإنما سميت جليدية لأنها شبيهة بالجليد في صفائه، ثم إن الزجاجية تحيط بالجليدية بمقدار النصف، ويعلو النصف الآخر العنكبوتية المتقدمة.

(٣) ويسمون الجسم الثالث وهو السائل الأبيض الذي يشبه بياض البيض، وهو أرق من الأول الذي يشبه الزجاج الذائب (بالرطوبة البيضية) وهي التي يعلوها العنبية المتقدمة أي الغطاء الثاني في مثال الأطباق فكان جوف الطبق الداخلي فيه لبن يعوم فيه زبد قد غرق إلى نصفه، وفوقه بياض البيض.

فانظر كيف كان العصب الممتد إلى العين قد صار كأسلاك البرق «التلغراف» لينقل الأخبار الواردة إلى الجليدية فوقه، فترسم فيها الصور، وهو ينقلها مارة فيه إلى الدماغ، وكيف كان ما تحت الشبكية من الصلبة والمشيمية يأتيان بالغذاء للعين من الأوعية الشعرية الوريدية والشريانية، فلذلك عبرنا بالأطباق التي يتعاطى منها بالطعام.

فالعين إذن تستمد من العروق الوريدية والشريانية تلك المادة الصافية الزجاجية الشفافة المناسبة للإبصار وضوء الشمس، وقد وضعت تلك المادة على ثلاث درجات مقدرة في البعد والقرب بمقادير لو اختلت لاختل الإبصار، وكانت القرنية محدبة والرطوبة البيضية فيها تماسك ما، والجليدية مفرطحة فيها صلابة، والزجاجية وراءها مائلة للمكان لتوافق ارتسام الصور الواردة مع الضوء، فالتحدب يجمع الصور، والجسم الثخين يزيد الصور ثبوتاً وبقاء، وكما تستمد العين الغذاء من العروق، تستمد الإحساس من الدماغ، فلها من الغذاء والمواد الزجاجية الخالصة من الدم الوارد من الطعام المهضوم، ولها من الدماغ الإحساس الروحي الشريف. فانظر ما أعجب العلم والحكمة، وما أجملهما كيف عرفنا في العين من العلم ما لم يحلم به الغافلون. وكيف نرى أن طعامنا الذي نتعاطاه قد كانت فيه المادة التي تشبه الزجاج الذي هو مركب من الرمل مع المغنيسيا والقلي. فهذان الأخيران متى أضيفا إلى الرمل صار شفافاً، فكيف: (١) جعلت القوى التي في أجسامنا لها آلات لا نعرفها، خلصت من الطعام المهضوم، أي من الدم، تلك المادة المشبهة للزجاج. (٢) ثم اختير موضع العين في الحجاج. (٣) ثم كيف كانت العين التي دبرت هذا التدبير موضوعة أمام البدن لتكون حارسة للأعضاء الشريفة التي غطاؤها ضعيف كالبطن وغيره. (٤) وأيضاً عمل الأعضاء الخارجة كاليدين والرجلين من الأمام، فتكون العين مشاهدة لأعمالها، ولعمري إن من لم تطربه هذه الكلمات، ولم تشرح صدره تلك العبارات، ليلتحقن بالعجماوات، ومن لم يحركه العود وأوتاره، والربيع وأزهاره، فهو فاسد المزاج يحتاج إلى العلاج. (٥) ثم كيف جمدت الجليدية لتزيد النور انحصاراً. (٦) وليكون الجمود أعون على حفظ الصور، فتصل إلى الشبكية المتصلة بالدماغ. (٧) وكيف كان الجسم البيضي أمامها والزجاجي وراءها، ليكونا لها غذاء لأنها لا يتهيأ لها قبول الغذاء من الدم. (٨) وكيف يكونان سبباً لاستضاءتها. (٩) ولتكون هي بهما دائمة الرطوبة. (١٠) وليكونا ردءاً لها فلا تتصل بمحجر العين ولا غيره من كل صلب. (١١) وجعلت شعبة الدماغ المتقدمة شبكية لتضبط الزجاجية حتى لا تكون سائلة. (١٢) ولتتمكن المشيمية من تغذيتها أمامها. (١٣) وجعلت البيضية أرقّ قواماً، لتكون أعون على تأدية المبصرات. (١٤) والعنكبوتية جعلت لحفظ الرطوبة البيضية. (١٥) وألوان العنبية لتحفظ الصورة المرسومة، فلا تذهب وتضيع. (١٦) والثقب يضيق ويتسع بالاختيار كما تقدم. (١٧) وجعلت القرنية جسماً صلباً لتحفظ العين كلها، وهي تتلون بلون العنبية. (١٨) وجعلت مشفة لئلا تستر الثقب المؤدي

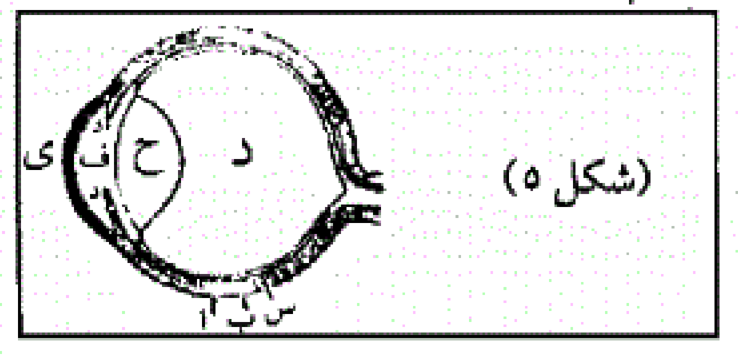
للصور من الأضواء الخارجة. (١٩) والملتحمة رباط يمسك العين أن تزول، إذ لا ممسك لها سواها. (٢٠) وهي غير شفافة فلذلك امتدت حولها من جميع جهاتها إلا الثقب، لأنها تمنع الصور عنه بخلاف القرنية. (٢١) والجفن ممتد من الجلد، وله عضلتان من جهة الموقين لينزلاه إلى أسفل. (٢٢) وعضلة من جهة وسطه لرفعها. (٢٣) وجعل الأسفل أصغر لئلا يستر شيئاً من الحدقة، وهو ساكن دائماً. (٢٤) ولئلا يجتمع الدمع وغيره من الفضلات داخله إذا كان كبيراً. (٢٥) والجفن يمنع الأذى عن العين والغبار والدخان والضوء عند الإقفال. (٢٦) والأهداب تمنع الغبار وتدخل الضوء عند الحاجة إليه، كما في أوقات هبوب الرياح.

فهذه (٢٦) حكمة من حكم العين، وهي بعض ما ظهر للناس من العلم فيها، والله يعلم ولكن أكثر الناس لا يعلمون، انظر رسم العين وطبقاتها في شكل ٥ الآتي.

موازنة العين بالخزانة المظلمة التي يستعملها المصوّر بالصور الشمسية «الفوتوغرافية»

اعلم أن النور يأتي من الشمس والكواكب، فيقع على الأجسام التي تنعكس على العين، ولقد ترى أن الراسمين في أيديهم الخزانة المظلمة، وفي بابها ثقب وراءه عدسية، وهناك لوح قابل للصورة على كيفية مخصوصة، والعين هي كنفس تلك الخزانة، وبؤبؤها أي ثقبها بمنزلة الثقب، وبلوريتها بمنزلة العدسية، وشبكيتها بمنزلة ذلك اللوح الذي تلقى الصور عليه باستعداده لذلك بمواد كيمائية، ثم إن النور إذا مر من وسط ألطف إلى وسط أكثف فإنه يكون أقرب إلى اجتماع أشعته، وإذا مر من وسط أكثف إلى وسط ألطف يكون أقرب إلى الافتراق والتباعد، وإذا مر من عدسية محدبة الوجهين كالمحارة أو محدبة وجه واحد كالأنف الأقنى، أو هلالية أي صورتها كصورة الهلال، فإن النور ينضم بدخوله فيها، وإن دخل من مزدوجة التقعير التي ترى، كالقوام الأهيف، أو من مفردة التقعير بأن كانت مستوية من ناحية مقعرة من أخرى أو من مقعرة محدّبة، فإن النور في هذه الثلاثة يكون مفرقاً منفرجاً، فهذه أربعة نواميس: ناموسان للاجتماع، وناموسان للافتراق، فلننظر ماذا حصل في العين، فإنا نرى أن القرنية أشبه بالهلال، وهو مما يجمع النور، والرطوبة المائية أكثف من الهواء، والبلورية محدّبة الوجهين جامعة للنور، والزجاجية جامعة أيضاً، فانظر كيف اختير في خلق العين ما يهيئها للإبصار، فالقرنية والرطوبة المائية والبلورية والرطوبة الزجاجية انطبق عليها ناموس اجتماع النور، اثنان من حيث الزجاجات وهي الهلالية، والعدسية محدبة الوجهين، واثنان من حيث إنهما جسم أكثف.

فإذا دخل النور انكسر أولاً في القرنية ثم في الرطوبة المائية ثم في البلورية كثيراً ثم في الزجاجية وبقع على الطبقة الشبكية، فترسم الصور عليها مقلوبة، ولم يعرف إلى الآن لماذا نرى الأشياء معتدلة.



(شكل ٥)

وهناك ناموس آخر، وهو أن السواد جامع للضوء يمتصه، فلونّت المشيمية به فهي تمتص النور لئلا يشوّش الصورة بانعكاسه من جهة إلى جهة داخل العين.

فما عبرنا عنه بالأطباق الثلاثة المستديرة في المثال المتقدم هو الصلبة «ا» والمشيمية «ب» والشبكية «س»، وما عبرنا عنه بالأغطية الثلاثة هو القرنية «ى» والقزحية «دد»، ولونها إما أسود وإما أزرق وإما أشهل، فأما العنكبوتية فلم توجد في هذا الرسم واضحة، فهي ملتصقة بالقزحية والفتحة «دد» هي البؤبؤ. وأما الملتحمة فهي التي تكون فوق القرنية، وليس لها في الرسم وجود هنا، وأما الرطوبة المائية وهي السائل الصافي، فهو موضوع في غرفة «ف»، وأما البلورية أو العدسية وهي الجسم اللدن الأملس الشفاف المزدوج التحديب، المؤلف من طبقات كالبصلة، وهي أكثف في الوسط منها في الجوانب، فهي «ح»، وأما السائل الزجاجي فهو جسم شفاف لزج كبياض البيض النيء، وهو يشغل متا بقي من الخلاء وراء البلورية داخل العين «د».

من عجائب العين إحكامها

اعلم أن العدسية المزدوجة التي تشبه البلورية في العين كلما قرب الشبح منها بعدت بؤرتها، أي محل تجمع النور المنعكس وراءها، فبعدت الصورة، وكلما بعد عنها قربت صورته منها.

وعلى هذه القاعدة لا يمكن أن يرسم المصور الأجسام في خزانته المطلقة إلاَّ على بعد مخصوص لو تركه لاختل، ولكن في العين رأينا عجباً، رأينا أن الإنسان منا يرى الشبح وهو بعيد عنه، كما يراه وهو قريب منه، لماذا هذا؟ لأن الإنسان أعطي كما أعطي الحيوان قدرة على تشكيل البلورية، فيزيد تحدّب العين في النظر إلى البعيد، ويقلله في النظر إلى القريب، بحيث تقع الصورة على الشبكية تماماً.

ألا ترى أنك إذا أدمت النظر إلى شبح قريب ثم حولته بغتة إلى شبح بعيد رأيته أولاً غير جلي، ثم ينجلي بعد قليل في مدة يمكن الرائي فيها أن يحكم عينه ويجعل بؤرتها مطابقة لذلك البعد، وهذا لن يكون في الخزانة المظلمة التي زجاجتها جامدة لا تحويل لها عن صورتها. فتعجب من الحكمة والنظام. نواميس النور والسواد والقدرة على تنويع البلورية والبعد المخصوص الذي وضعت فيه الشبكية بحيث تقع الصورة عليها، ولو اختل شرط من هذه لكان الناس والحيوان عمياً، ﴿إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [يوسف: ١٠٠].

لطيفة في عجائب العين

مما يجمل ذكره في هذا المقام ما جاء في كتاب مسرات الحياة للورد افبري الإنجليزي الذي نقلنا عنه سابقاً، قال في فصل كتبه في الصحة:

إن في الجسم الإنساني أكثر من مائتي عظم ولكل منها شكل مخصوص بها، ولولا حسن صنعها لعاقت حركاتنا التي نأتيها كل يوم ـ يقول مؤلف هذا التفسير: وسيرد عليك قريباً هندسة الأعضاء وقياسها العجيب منقولاً عن آبائنا حكماء الإسلام ـ ثم قال: وفيه (٥٠٠) عضلة كل منها تتغذى بمئات الأوردة والعروق، تدبرها أعصاب كثيرة، والقلب وهو بين هذه العضلات ينبض في السنة ثلاثين مليون مرة، فإذا توقف عن الخفقان قضي الأمر وانقطعت الحياة، ولو تأملنا في أدوات الحس كالعين مثلاً بما فيها من قرنية وعدسية وطبقات مائية وزجاجية تنتهي في الشبكية لتولانا العجب، فإن هذه الشبكية التي لا

تزيد عن ثخن الورقة، تتألف من تسع طبقات مختلفة، أبعدها يتألف من نحو ثلاث ملايين مخروط، ونحو ثلاث مليون أسطوانة، وأعجب من هذا كله الدماغ، فقد حسب أحد الفسيولوجيين أن المادة السنجابية التي في تلافيف الدماغ نحو ستمائة مليون خلية، تتألف كل منها من ألوف من الدقائق الظاهرة، وكل دقيقة تتكون من ملايين الجواهر، وقد قال بعد ذلك: لقد نحيا السنين الطوال، ولا نكاد نشعر أن لنا جسماً. اهـ.

مسارح الفكر

فانظر أيها الذكي الفطن وتأمل كيف يقول الله تعالى في هذا المقام: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ انظر كيف وضع البلورية والرطوبة المائية والزجاجية والقرنية والشبكية والمشيمية والقزحية، وكيف جعلها ملائمة لنواميس النور الذي لم يشاهده الجنين ولا يزال في الظلمات. تأمل أيها الذكي وغض النظر عن كتب الديانات وعن آراء الفلاسفة، وتأمل باستقلال في نفسك، ولا تقلدني ولا تقلد أحداً، بل حكم عقلك، فهل المادة التي هي مكوّنة من ذرات جارية أجزاؤها بعضها على بعض بسرعة مختلفة القدر هي التي كانت تدبر هذه الحكمة؟ وهل هي التي كانت قارئة نواميس النور وأحواله، فوضعت في الجنين تلك الحدقة ملائمة للنور الذي لم يصل له الطفل بعد، فتكون قد لاحظت ذلك كله، وخافت أن لا تقع الصورة على الشبكية فوضعتها قريبة منها، وحافظت على الصورة بالسواد، وأخذت تنتقي الأشكال الملائمة للأبصار. انظر بعقلك، فالفكر هو المسيطر الأكبر في هذا العالم.

على نفسه فليبك من ضاع عمره وليس له منها نصيب ولا سهم

هذه هي الحياة وهذه هي السعادة، وكأننا ونحن نقرأ هذا ننظر في أصول الحكم العالية والنواميس الشريفة الراقية. فيا ليت شعري، أمواج النور تجري من الكواكب سارية إلى الأرض، كيف كانت هي أهم ما ينتفع الناس به، لولا أنوار الشمس وحرارتها ما عاش حيوان ولا نبات، فالحرارة الشمسية تذيب الجليد، وبها تجري الأنهار، وبها الحياة، ثم ضوؤها جعلت العيون مناسبة له مناسبة تامة، فأبصر بها الحشرات وسائر الحيوان والإنسان، ﴿ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [يوسف: ١٠٠].

واعلم أن النور ينفذ في كل شفاف ولو اختلفت مصادره، وأما أشعة الحرارة فلا تنفذ في كل جسم شفاف إذا اختلفت مصادرها. إن حرارة الشمس تنفذ في كل الأجسام الشفافة كالنور، وأما الحرارة المنعكسة عن جسم في الأرض فإنها لا تنفذ في بعض الأجسام الشفافة.

وترى أن حرارة الشمس تنفذ في الهواء والبخار المائي الذي فيه وزجاج النوافذ، ثم تمصها الأرض وما عليها وتشعها أمواجاً طويلة بطيئة، وعلى ذلك لا تستطيع أن تخترق بخار الماء في الهواء بل تحبس فيه لتدفأ بها المخلوقات الأرضية.

فكيف نفذت الحرارة من البخار ثم وقعت على الأرض، وبقيت مخزونة بين البخار والأرض وأصبح البخار كالباب يفتح لحرارة الشمس ثم يقفل عليها لتنفع المخلوقات؟. و ياليت شعري لقد وجدنا فيما كتبناه هنا حكماً عالية وتدبيراً متقناً ضوء ينفذ، وحرارة تخزن، وماء في الهواء صار بخاراً،

وضوء يجري فتبصر به العين التي جمعت حكماً لا تحصى، فهل ذلك كله كان بتدبير تلك الذرات التي لا تملك إلا حركات، فهل تلك الحركات كانت تدرس كل هذه النظم، على العاقل أن يفكر ويتبصر ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾[التوبة:٢٨].

اللطيفة السابعة: الرحمة في قلوب الوالدين

قد ذكرنا فيما مضى أن ناموس الجاذبية عام في الكواكب وفي الأحجار وفي الذرات، ويتبع ذلك النواميس العامة في العين والأذن والماء والثلج والحرارة. كل هذه جارية على نواميس طائعة منقادة خاضعة، ومن هذا القبيل الرحمة التي نراها سارية في قلوب كل والد من حيوان وإنسان. فإذا انجذب الحجر إلى مسقطه، والكوكب في مداره، والنور جرى في العين بالصور المرئية، والهواء في الأذن بالأصوات، هكذا نرى كل أنثى مغرمة بولدها تفديه بنفسها، لم كان هذا الناموس عاماً؟. نعم إنه من قوله تعالى: ﴿ قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ ﴾[فصلت:١١]. فهذا انقياد وخضوع على سبيل المحبة والغرام لا الإكراه والله تعالى يقول: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ ﴾[البقرة:٢٥٦]، ويقول: ﴿ قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ ﴾[فصلت:١١]، فالعلوم تعرف بالميل إليها والحب لها، والولد يربى بالحب له والعطف عليه.

حكاية خادمة

كنت أكتب في هذا المقام إذ قصت عليّ الخادمة قصصاً وقت الإفطار في هذا الشهر «شهر رمضان» قالت: لقد رأيت عجباً، رأيت الأرنبة ومعها أولادها، فقدمت لهن خبزاً فأخذت تدفعه برأسها وتمنع أولادها من تعاطيه، فأخذتها خارج الحجرة، وأقفلت الباب على أولادها، وأخذت أضربها لمنعها أولادها من الأكل، ومع شدة الضرب كانت تجري نحو الباب، فقلت في نفسي: لا بد أن يكون هناك أمر، ففتشت الخبز فرأيت فيه دوداً، فعلمت خطئي وبكيت وقبلتها، ورميت الخبز وأبعدته عن أولادها، وأخذت هي تلحسهن عطفاً ومودة. انتهى كلام الخادمة، فالعجب كيف عرفت الأرنبة الضار وجهله الإنسان، وكيف كان العطف يعم كل حيوان!؟.

اللطيفة الثامنة: الشهوات الغريزية في الحيوان

إن الحيوان ومنه الإنسان ليس يأكل ولا يشرب ولا يقرب أنثاه إلا طوعاً بإرادته، وشهوته التي زينت له، فيخلق فيه الجوع والعطش والشبق، فيأكل ويشرب ويتزوج، كل ذلك طاعة لا جبر فيها، وحب لا كراهة فيه، ولو أن الناس كلفوا أن يأكلوا ليعيشوا وليس لهم داعية شهوية ما عاش إنسان ولا حيوان، وهذا من قوله تعالى: ﴿ قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ ﴾[فصلت:١١]، أطاع الإنسان غريزته فأكل، والأم وجدانها فربت الولد، والحجر مسقطه، والكوكب قانونه، كل ذلك حب واحد وغرام منتظم، ﴿ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلۡخَلۡقِ غَٰفِلِينَ ﴾[المؤمنون:١٧].

الله خلق الشهوات وزينها في القلوب، ليكون هذا النظام الإنساني والحيواني، ولذلك تراه يقول في هذه السورة: إنه سبحانه زين للناس شهواتهم، وعدد منها سبعة، وهي: النساء والبنون والذهب والفضة والخيل والأنعام والزرع.

الله زين ذلك في القلوب، فعشق الرجال في النساء، وحبب إليهم البنين والنقدين الخ، وذلك في قوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ﴾، ثم أخذ يزهد فيه فقال: ﴿ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾[آل عمران:١٤]. نعم حبب الله ذلك للناس، ولولا هذه الشهوات ما عاش حيوان ولا إنسان ولا كان دين ولا دنيا، ولم يكن علماء ولا أنبياء، وهذه الشهوات من الطاعة المذكورة في قوله تعالى: ﴿قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت:١١].

هذه منافع الشهوات التي سلطها الله على الأحياء، ولكن لما كانت مقصودة لغيرها لا لذاتها، والمقصود من العالم الإنساني التعارف والتواد، والغرض من المال بقاء الأجسام، والغرض من شهوة الجنسين إنَّما هو وجود الأولاد، لذلك سلط على الناس الروادع والزواجر القاهرة حتى لا يتمادوا في تلك الأشياء، فأنزل في العادات غالباً استقباح الزنا، وكشف العورة، والتلفظ بالقبيح، وأودع في النفوس احتقار الشره والفسق والجشع، وحبب إلى الناس كل عفيف قانع، ثم أنزل الديانات فأمر الناس بالإنفاق، وحرم عليهم الزنا وأمثاله، كل ذلك ليريهم أن تلك الشهوات مقدمات، والمقدمات لا يجوز التغالي فيها، كعلم النحو والصرف وأمثالها، وهي مقدّمات للقرآن والعلوم، فلتكن الإطالة في النتائج لا في المقدمات.

هكذا الحيوانات التي تأكل الحشيش، لما كانت في قديم الزمان قد كثرت وملأت السهل والجبل، وقد وجدت آثارها في علم طبقات الأرض، وأن تلك الحيوانات كانت تتراكم في غار واحد من كثرتها وتموت جوعاً لأن حشائش الأرض ما كانت لتكفيها. وبعد ذلك حدث خلق الآساد والنمور والضباع وما أشبه ذلك، لتأكل لحمانها فلا يتعفن الجو، فقلا يكون الوباء.

هكذا هنا سلط على الناس الشهوات رحمة منه، ثم أنزل الديانات وألهم العلماء الحكمة ليحفظوا الناس من غوائل التمادي فيها، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[التوبة:٢٨].

اللطيفة التاسعة: القطن وزراعته
إجابة لداعية حاسة اللمس والبصر

إنَّما خصصت الكلام على القطن وزرعه لما فيه من العجب العجاب، وإن الإنسان وهو يزرعه مدفوع بحب الزينة والمناظر البهجة وتوقي الحر والبرد، وهو مع ذلك أشبه بالنحل يجمع العسل من الزهر، وللإنسان منه حظ عظيم، هكذا هنا أصبح العالم الإنساني مغرماً بالقطن لدخوله في الثياب وهي زينة محبوبة، فدعا ذلك الناس لزرعه كسباً للمال عند الزارعين والحالجين والناسجين والصابغين والخائطين والبائعين وأصحاب العربات والقطرات والسفن للنقل، وكان ذلك لكل لابسة ولابس من الناس أجمعين. لذلك زرعه أهل بلادنا المصريون وأهل أميركا وأمم أخرى إجابة لداعية الاتقاء من الحر والبرد، ولداعية حب الجمال والزينة، ذلك كله جاء طوعاً لا كرهاً، ثم إنك تجد أن هذا القطن والناس يزرعونه قد جعل مرعى ومهداً وخصباً وبساتين وقصوراً وأرائك وحريراً لعوالم لا تكاد تحصى ولا تستقصى.

يقول الإنسان: إن القطن قد خلق لي وأنا زرعته لنعيمي وسعادتي، وهو في الحقيقة مسخر، وهو لا يشعر كما سخر النحل لجني العسل والناس يأكلون أكثره، هكذا القطن يظن الناس أنهم هم المتمتعون به، وفاتهم أنهم يعملون لمنفعة الدودة وحشرة أبي دقيق، تلم الأمم التي دخلت في جنات ونعيم في قصور الأشجار وحجرات الأوراق ومقاصير الأزهار ومخادع اللوز.

فترى رعاك الله أن الدودة قد تبوأت تلك الأرائك الحريرية الداخلة في تلك اللوزة، وهي فرحة متمتعة، وحشرة أبي دقيق تضع بيضاً على الورق منظماً، ثم يفقس بعد أيام ويصير دوداً، وذلك الدود يسمن وهو يرعى من الورق كما يرعى دود اللوز في أحشاء شعر القطن، وهو نائم فيه مستدفئ، وتلك الأمم سعيدة في قصورها نوائم في خدورها، والهواء عليل والجو جميل، كل هذا والإنسان المسكين يسعى لسقي القطن ويحاول جنيه، فلا ينال منه إلاَّ القليل، فدودة الورق ودودة اللوز في تبوّئها وأكلها الورق واللوز أشبه بالإنسان إذ يأكل العسل. والإنسان وهو يسعى لسقيه أشبه بالنحل وهو يجمع العسل من الزهر، أفلست ترى أن الحيوان والإنسان كل مسخر على سبيل الطاعة والحب والغرام؟ فالمرأة لحب ولدها ربته، والنحلة لحب عسلها جمعته، والإنسان لحب القطن زرعه طاعة لا قهراً، ولو كان ذلك قهراً لم يجمع النحل العسل، ولم يزرع الإنسان القطن حباً في سواد عيون الفراشة والدودة ولكن حباً في شهوته هو وبهجة نفسه، وفي الوقت نفسه انتفع الحيوان، ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾[مريم:٩٣].

ولقد ذكرت المجلة السورية التي تصدر في نيويورك فصلاً إضافياً في دودة القطن، فبينت أن هناك حشرة لا يتجاوز حجمها الذبابة ظهرت في بلدة مونكلوفا ببلاد المكسيك نحو سنة ١٨٩٢، وانتشرت كجيش من الجراد، حتى حرم أهل تلك الجهة زراعة القطن وهي ولاية تكساس، وقد فتكت بالقطن فتكاً ذريعاً، وانتشرت في الولايات المتحدة انتشاراً مريعاً، فتثقب الأنثى بإبرتها لوزة القطن فتعيق نموها، ثم تدخل وتعشش فيها وتبيض، فيلطخ بياض خيوط القطن، ثم يخرج صغار الحشرة وقد فتكن باللوزة؛ ولقد عملوا لها تجارب كثيرة لقتلها، ورشوا القطن بسائل فقتلها، ولكن الله غالب على أمره، والحشرة لا تزال تخرب المزارع ﴿وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾[الحج:٤١]، الإنسان هنا قد زرع لتلك الحشرة، ولما كثرت أخذ يقتلها ظاناً أنه يصون القطن، وهو في الحقيقة يفعل ما فعله الله عزَّ وجلَّ، إذ خلق الحيوانات الكاسرة لتفتك بالحيوانات المجترة رحمة بها وبالعالم، ليكفيها العشب الذي ينبت في الأرض هذه بعض الحكم، ﴿ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾[الملك:٤].

الإنسان مسخر لعيش هذا الحيوان على القطن، وجميع مزارع الإنسان نافعة للحيوان، وهو يزرع حباً لمنفعة نفسه، ولكن الله سخره لغيره، ومن نظائر هذا تلك الحيوانات العائشة في أجسامنا، الماصات دماءنا، فنحن نأكل حباً في الغذاء ودفعاً للجوع وطلباً للشهوات، ولكن تلك الحيوانات تشاركنا في داخل أجسامنا، فجميع الأمراض إنما تكون بحيوانات تعيش في أجسامنا، وأخص بالذكر الدود الذي يورث مرض البلهارسيا، فإنه يعيش في العروق الداخلة في الكبد، وفي فروعه الممتدة في المجاري البولية والأمعاء الغلاظ، وترى الحيوان مسلحاً بشوكة مدببة في جدر الأمعاء والمجاري البولية،

فتمزق الأوعية الدموية فيحصل النزف، ومتى قضى المريض حاجته، سقطت بويضات البلهارسيا مع البول أو البراز، وخرج الجنين بعد الفقس فيدخل القواقع، وبعد أيام تسبح تلك المخلوقات في الماء، فإذا صادفها إنسان خرقت جلده وباضت في جدر الأمعاء والمجاري البولية، وذلك دأبها إلى يوم الدين، فتقتل الآلاف وآلاف الآلاف في البلاد المصرية وغيرها من قديم الزمان.

الناس زرعوا القطن لمنفعتهم، وأكلوا الخبز وهضموا الطعام لشهواتهم، ولكن الحكمة المدبرة قد قضت أن يكون القطن مرتع الحشرات وأجسامنا مرابع للديدان الفاتكات ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ﴾[الروم:٢٢].

اللطيفة العاشرة: حب العلماء والحكماء والأنبياء للتلاميذ والأمم

ومن الطاعة المذكورة حب المعلمين للتلاميذ، والعلماء والمؤلفين للأمم، والحكماء والأنبياء للناس من سائر الأجناس، ليعلموهم ولينقلوهم من حال النقص إلى حال الكمال، كما فعلت الأم بولدها، والزارع بقطنه، والحجر في سقوطه، والسيار في جريه، والإلكترونات في الجوهر الفرد، كل ذلك طاعة، ولو نطق الحجر والكوكب لقال ما تقول الأم، ويقول العالم وزارع القطن إنهم جميعاً يعملون لشوق في أنفسهم، وغرام حلّ بقلوبهم، والأنبياء خاصة بشوق علوي روحي سماوي، لا كوحي النحل الذي هو من قبيل الغرائز، أما هؤلاء فمن قوة قدسية علوية. هذه اللطائف العشر تريك تلك الطاعة العامة في المخلوقات.

اللطيفة الحادية عشرة

لقد رأيت أن هذا العالم كجسم واحد وحيوان واحد، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾[لقمان:٢٨] هاأنا ذا قد اصطفيت لك من العلوم أجملها، ومن الحكمة أبهاها، ومن الطبيعة أغلاها، ومن الدر أثمنه، ومن الياقوت أبهره. قد عرض الله عليك جنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمفكرين. أسمعتك الخلاصة فاقرأها وفكر فيها، فهي من الجمال الأبهى والحسن الأجلى والنظام الأسنى، كل ذلك لإشراق نفسك وإسعاد حياتك وصفاء ذاتك، فالجاهلون كالفحم يحترقون، والعلماء كالماس يشرقون، ولا فرق بين الألماس والفحم في أصل المادة، ولكن الفرق في ترتيب الذرات عند تركيبها، هكذا الجاهل والعالم تشابها ذاتاً واختلفا في إشراق نفس بالعلم، وإظلام أخرى بالجهل، ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾[الزمر:٩].

إلى هنا انتهى الكلام على الأمر الثاني، وهو قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ وبه ختم الكلام في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ۝٥ هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

خاتمة هذا المقال

اعلم أن هذه المباحث هي التي يطلبها الإسلام، بل هي صبغة الله، كما قال تعالى: ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾[البقرة:١٣٨]، ألا ترى أن هذه النظم والعجائب

والحساب والهندسة والإبداع هي المعبر عنها بقوله تعالى في هذه السورة: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[آل عمران:١٨] ثم انظر كيف يقول بعدها: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾[آل عمران:١٩]، وأنت تعلم أن علماءنا قالوا: إن الإسلام هو كل دين نزل على نبي قبل النسخ، وانظر كيف ذكر الإسلام الذي هو الدين العام عقب ذكر هذه النظم العجيبة، فكأن الإسلام العام يدعو حثيثاً إلى معرفة هذه العوالم وإتقانها، وانظر كيف يقول في آية أخرى: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾[فاطر:٢٨] بعد قوله: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ﴾[فاطر:٢٧]. كل ذلك تذكير للمسلمين ليعلموا أن أجلّ العلم هو علم الطبيعة والفلك والحيوان والنبات، وأن العلماء بذلك هم أقرب إلى الله، وهم الذين صبغوا صبغة الله التي هي أحسن صبغة، وقد قال العلماء: الحكمة هي التشبه بالله بقدر الطاقة البشرية، والتشبه بالله يكون بالعلم مثل ما بينته لك في هذا التفسير، وبالعمل ونشر الفضيلة والاعتدال. هؤلاء هم الأولياء وهم هم الصالحون، وانظر كيف ابتدأ الله هذه السورة بوصف الله بأنه لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، وبأنه حكيم في صنعه.

ثم ختمها أيضاً بقوله: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[آل عمران:١٩٠] الآيات، وانظر كيف كان نبينا صلى الله عليه وسلم يقوم آخر الليل ويمسح وجهه وهو ينظر للنجوم ويقرأ هذه الآيات. أفليس ذلك يعرفك تقصير هذه الأمة البائسة النائمة، وأن المسلمين الحاليين لو عرفوا أنه صلى الله عليه وسلم كان نظره في الكواكب من آخر الليل يتقدم على صلاة التهجد كما في البخاري، لكانوا أغزر الأمم علماً بالعلوم الكونية ولم تدسهم الفرنجة، ولم يذلهم الطامعون.

تبصرة في التعليم في ديار الإسلام

تبين لك أن الحب به قامت السماوات والأرض، وبه انفلق الحب والنوى، وجرى النجم وهوى وسقطت الأحجار، وانجذبت الأجسام، وأرضعت الأمهات أولادها، وألف العلماء، وعلم الأنبياء، وبرهن الحكماء، فالحب هو أصل الكائنات وإبداع الموجودات، فليكن التعليم بطريق مشوق جميل سارّ للتلاميذ، مفرح لذيذ، أما التعليم الذي لا تقبله النفس فلا ثمرة فيه، وعلى ذلك يخصص كل امرئ فيما يميل إليه ويهواه، ويهيم به ويراه، كما قدمناه في سورة البقرة في قوله تعالى: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾[البقرة:٢٨٦].

ولعمري لا سعادة لنوع الإنسان في هذه الأرض إلاّ إذا كان العلم معشوقاً محبوباً مرغوباً فيه، وأجلّ ما يرغب فيه أن يكون بوازع ديني، فإذا اتفق في هذه الأرض أن ديناً يطلب العلوم ويعشق فيها، وقرنت لهذه الغاية، ارتقى الإنسان أربعة أضعاف ارتقائه الحالي، لأن الناس يقرؤون إذ ذاك العلوم كأنهم مجبولون عليها، وإذا كانت أمتنا الإسلامية لما أغرمت بالفقه نبغت فيه، فما بالك بها إذا ظهر أن العلوم التي هي أرقى من الفقه وألذ منه، وأقرب إلى رقي النوع الإنساني، وأملك لهواه، وأحق بعنايته من النجوم الباهرة والرياض الناضرة والبحار والسفن الماخرة والدر والمرجان وما فيه من كل فاكهة

زوجان، إذا عرف المسلمون ذلك تظهر فيهم أمة لم ينجبها التاريخ، ، تقود الأمم، وتعلو الثريا، وإذ ذاك يظهر سر قوله تعالى: ﴿ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة:٣٣].

الكلام على أن كل ركعة في الصلاة تتضمن دراسة علم الفلك وعلم التشريح وعجائب النفس ثم الغرائز والقوى في العوالم العلوية والسفلية والكلام في أن العقول موازين نصبها الله في الأرض

تبين لك فيما سبق أن حركات الذرات في الجواهر الفردة، وسقوط الأحجار، وجري الكواكب وانتظامها، والنسب التي بينها، راجعة إلى الجاذبية الطبيعية، وبعد ذلك تكون الغرائز الثابتة كرحمة الوالدين لأولادهما من حيوان وإنسان، وحب ما به الحياة من طعام وشراب وتزاوج ولباس ومسكن ودفع أعداء لما يطلب ذلك من غرائز الجوع والعطش والشبق والتأذي من الجو ومن العدو وما أشبه ذلك، ويتلو ذلك العقول الإنسانية المنظمة للقوى السابقة الحافظة لكيان هذه العوالم، وبعدها تأتي القوة القدسية والوحي الذي يختص به أناس لهداية الناس، وتأمل كيف كان العقل وسطاً، فلا هو منحط لدرجة الغرائز كالنحل والنمل والوالدات من سائر الحيوانات، ولا هو سام جداً لدرجة النبوة والقوة القدسية، وهو المسلط على ما تحته من غرائز، فبحث في النبات والحيوان والمعادن، واتخذ المساكن والملابس والدواء، واجتنب الداء.

فانظر كيف قام هذا العقل مقام الراعي، وكانت الغرائز الفطرية مقام الرعية، وكذلك نظر بفطنته في القوة القدسية التي اختص بها الأنبياء، وقال العقل: إنَّما بعض هذه إشارات فلأفكر فيما نزل من الوحي، ولأستخرج جواهره فأتحلى بها، مثلاً شريعتنا الإسلامية جاءت على لسان رسولنا صلى الله عليه وسلم، وسيكثر فيها ـ كما قلنا ـ أهل العقول، فيقولون: نحن نصلي وندعو الله ونخاطبه فنقول عند الاعتدال من الركوع: «ربنا لك الحمد ملء السماوات وملء الأرض وملء ما بينهما وملء ما شئت من شيء بعد» لماذا يشير هذا الحمد؟ يشير إلى أن الحمد على مقدار النعمة الواصلة للعبد، وقد تبين في هذا التفسير أن الشمس والقمر والكواكب الثابتة والسيارة متضامنة في نفع العوالم وحركاتها، مرتبطات ببعضها، وكأن الأرض ومن عليها مرتبطون بالشمس وما معها، بدليل الأنوار المقتبسة منها ﴿ وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ [الذاريات:٢٢]، فليس الرزق من الأرض وحدها، بل الشمس والنجوم تغدق علينا النعم بالتسخير، وذلك بأضوائها بإذن الله، والنجوم الثوابت نرى احتياجنا لها بالاهتداء بها في ظلمات البر والبحر، فكانت النتيجة لهذا أن السماوات والأرض وما بينهما وما فوق ذلك، كل ذلك متجاذب متحد في نفع الإنسان، فليكن الحمد ملء هذه العوالم، والحمد على المجهول رياء كاذب وعبث، فكأن هذا الدعاء وضع في الشريعة ليتنبه إليه ذوو العقول من المسلمين، ويقولون: كيف يكون ملء السماوات والأرض ونحن بذلك جاهلون؟ لا بد من العلم بها حتى نكون حامدين.

ثم إن العلم بها قد فتح لك بابه في هذا التفسير، ويستكمله المتعلمون في الأجيال المقبلة. هذا ما سيعرفه أبناؤنا بعدنا، ويقولون أيضاً: إننا عند الركوع نقول: «خشع لك سمعي وبصري ومخي وعظمي وعصبي وما استقلت به قدمي لله رب العالمين»، ونقول في السجود: «سجد وجهي للذي خلقه وصوّره وشق سمعه وبصره بحوله وقوته فتبارك الله أحسن الخالقين»، فيرونه في الركوع، يذكر المصلي أنه خشع سمعه وبصره ومخه وعظمه وعصبه وجميع جسمه، أليس معنى هذا أنه يقرأ علم التشريح حتى يعرف تفصيل هذه الأعضاء؟ أوَليس قوله في السجود: «سجد وجهي للذي خلقه وصوّره وشق سمعه وبصره» هو عين ما قدمناه من معرفة علم التشريح وخلق العين والسمع كما فصلناه.

ويا ليت شعري، هل يدرك المسلمون هذه الحكم؟ هل يعلمون لماذا كان ذكر السمع والبصر وما استقلت به القدم، وبعبارة أخرى، لماذا كان علم التشريح في حالتي الركوع والسجود؟ثم لماذا كان ذكر السماوات والأرض وما بينهما من العالم العلوي في حال الرفع والاعتدال؟ لو علموا ذلك لكانوا أمة عظيمة، ولكنهم يصلون وأكثرهم نائمون، ويعبدون وهم غافلون ﴿ صُمٌّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ﴾[البقرة:١٨]، ﴿ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۚ ﴾[البقرة:٢٤٦]، ﴿ وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴾[سبأ:١٣].

الجواب وإيضاح المقام وبعض أسرار الصلاة

لما كان المصلي رافعاً رأسه في حال الاعتدال واقفاً، ناسب أن يذكر السماوات العلى، ولما كان في حال السجود والركوع ناسب أن يذكر ما يخص جسمه من العجائب والتشريح، وكأن الصلاة درس للمسلم تذكره أنه تارة يبحث في المعلومات وتارة يبحث في السفليات؛ فإن رفع رأسه ففي السماوات يكون فكره، وإن ركع أو سجد فإلى النظر في أمر جسمه، وكأن الركعة الواحدة للمسلم هي الحكمة كلها والفلسفة أجمعها، إذ لا علم فيها بعد العلويات والسفليات وما يتصل بهما من العلوم. إن المسلمين في مستقبل الزمان غير من رأيتهم اليوم من النائمين، وقد سلكت سبيلاً سيسلكونها، وقصدت قصداً سيؤمونه. والله هو الولي الحميد.

فيجب على المسلمين بعدنا أن ينشروا علم الطبيعة وعلم الفلك والتشريح الخ، وليعط كل امرئ من العلم على مقدار طاقته، حتى العامة يكون لهم إلمام على مقدار حالهم، فهذا هو مقصود هذا المقال، وهو أن العقول تفكر فيما هو أسفل منها من الغرائز فتحفظ الحرث والنسل والمدن والقرى، وتفكر فيما هو أعلى منها وهو الوحي، فتنظر في رموزه، وتسير في طرائقه، ولا تقف عند لفظه. ﴿ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ﴾[الحج:٤١].

فكما نبغ آباؤنا في الأحكام الفقهية من آيات قليلة، فلينبغ في المستقبل المسلمون في آيات أكثر منها ولتستنر عقول المسلمين. ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾[التوبة:١٢٠].

فرجع الأمر في الركعة الواحدة في الصلاة إلى نظرتين: نظرة في الأنفس ونظرة في الآفاق، أما نظرة الأنفس ففي الركوع والسجود، وأما نظرة الآفاق ففي الرفع والاعتدال، فإذا رفع المصلي رأسه فذلك لدرس العالم من سماوات وأرضين، وإذا ركع أو سجد نظر في نفسه، والسجود أهم، وفي الآية: ﴿ وَٱسۡجُدۡ وَٱقۡتَرِب ﴾[العلق:١٩] ولا معنى للقرب إلا العلم، وفي الحديث: «أقرب ما يكون العبد من ربه

وهو ساجد» فالقرب كما قال الغزالي بالعلم، والعلم هنا علم النفس المرتبط بعلم التشريح المذكورين في قول المصلي: «وشق سمعه وبصره بحوله وقوته» ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ [المؤمنون: ١٤]، وفي الحديث: «من عرف نفسه عرف ربه» فالمصلي عند رفع رأسه ينظر نظرة نبينا صلى الله عليه وسلم كما قدّمنا عن البخاري، إذ كان يقف آخر الليل ويقرأ: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [آل عمران: ١٩٠] الآيات في آخر هذه السورة، وإذ ركع أو سجد فكأنما يفسر الآيات أول هذه السورة ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾. اهـ.

الكلام في تفسير قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ﴾ الآيات

إن الله عز وجل ذكر في هذا المقام العلوم الكونية والكتب السماوية، وبدأ بالثانية فذكر منها التوراة والإنجيل والقرآن، وثنى بالعوالم العجيبة من الأرض والسماء وتصوير الأجنة في الأرحام؛ وأنت خبير أن العلوم إما من الوحي الصادق وإما من الحكمة العقلية والمشاهدات الطبيعية، فالأولى للعموم والثانية للخصوص، ثم إن القسمين قد يكون العلم فيهما مشوباً بالإبهام مورثاً الشكوك محوجاً العقول إلى الكشف، فأبان سبحانه أن في الوحي ما هو محكم وما هو متشابه يرجع فيه إلى المحكم المفهوم. فللعقول فيه جولان، وللنفوس فيه موازين، بها يزنون الحق، ويعرفون مواضع الخطأ من القول. ولم يذكر سبحانه محكماً ومتشابهاً في العالم الطبيعي، فانظر كيف ذكر علم العموم وعلم الخصوص، وأبان المحكم والمتشابه من الأول ولم يبينه في الثاني.

وأنا الآن أبين لك ما قصه الله من المحكم والمتشابه في القرآن، ثم أقفي على آثاره بالمحكم والمتشابه من العلوم الطبيعية: إن الله بين أن في كلامه محكماً ومتشابهاً، وترك المحكم والمتشابه في أفعاله في السماء والأرض للعقول، فهأنا ذا أبين لك الأمرين لتقف على الجمال والبهاء والحسن والكمال والإبداع والغرائب والبدائع والعجائب، وستطلع أيها الذكي في هذا المقام على جمال الطبيعة، وكيف انتظمت الكائنات الحيوانية والنباتية والمعدنية وكانت سلسلة واحدة منظمة متناسقة لا خلل فيها ولا عوج، وكيف كان الجنين يمر في أدواره على هذا النمط، وهو النسق المنتظم في أشكال الحيوانات، منتقلاً من أدناها إلى أعلاها؟ ثم أريك الجمال في تناسق الأعضاء في الأنواع المختلفة، كيدي الإنسان والقرد وجناح الطائر وما أشبه ذلك من النسق البهيج الجميل، وكيف كانت تلك الخلقة كأنها محكمة متناسقة كالآيات المحكمات؟ ثم كيف جاء العلماء وتوقفوا في بعض المسائل فأورثت عندهم شبهات في كيفية الخلق كأمثال العلامة هيكل الألماني، وكيف خطأه العلماء فيما زوّر من الصور التي زادها، فكان ذلك أشبه بالمتشابه في القرآن، ثم تعرف بعد ذلك أن النفس الإنسانية مثلاً التي صوّر جسمها في الرحم بهذا النسق الجميل وكانت أشبه بالسلسة الحيوانية، كيف يكون ذلك الجمال والبهاء والحسن في أشكالها وتقطيعها ضئيلاً بالنسبة لما في نفوسها من الغرائب، وإنها واسعة لانهاية لحدها ولا منتهى لأمدها، فهي تسع العالم المحسوس والعالم المعقول، وإليها انتهت العوالم وكأنها مركز الوجود ومهبط الأسرار.

كل ذلك سأشرحه لك إن شاء الله شرحاً وجيزاً كافياً، وتطلع على آراء الأمم الحاضرة موجزة ملخصة مفهومة واضحة، فتسكن نفسك للحقائق وتعلو على مصاف أولئك الذين يدّعون العلم

العصري، وهم عن جماله مغمضون وعن محاسنه ساهون لاهون، ويقولون: نحن علمنا ما لم تعرفه الديانات ولم يصل إليه الأنبياء، وأنت سترى أن ما سأقصه لك قد دخل في مضمون المحكم والمتشابه في القرآن، وأن النسق الجميل والحسن في هذا النظام الحيواني هو الذي يقول به القرآن: ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾[الملك:٣]. ويقول: ﴿ٱلَّذِيٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ﴾[السجدة:٧]. والآن أبتدئ بالكلام على المحكم والمتشابه في الوحي، وأقفي على آثاره بهما في الطبيعة فأقول:

المحكم والمتشابه في الوحي

اعلم أن اللفظ الموضوع لمعنى إما أن يكون محتملاً لغير ذلك المعنى وإما أن لا يكون، فإذا كان اللفظ موضوعاً لمعنى ولا يكون محتملاً لغيره فهو النص، وإن كان محتملاً لغيره، فإن كان احتماله لأحدهما راجحاً وللآخر مرجوحاً فإن ذلك اللفظ بالنسبة إلى الراجح يسمى ظاهراً، وبالنسبة إلى المرجوح يسمى مؤولاً، وإذا كان احتماله لهما على السواء كان اللفظ بالنسبة لهما مشتركاً، وبالنسبة لكل واحد منهما على التعيين مجملاً، فإذن يكون اللفظ إما نصاً وإما ظاهراً وإما مؤولاً وإما مشتركاً وإما مجملاً، فالنص والظاهر هما من قبيل المحكم والمؤول والمجمل يدخلان في المتشابه، ومعنى المتشابه الذي لا يعلم لأن الذي يحصل فيه التشابه يصير غير معلوم، فأطلق لفظ المتشابه على الذي لا يعلم، وإذا شابه أحد الشيئين الآخر عجز الذهن عن التمييز بينهما. وأما المحكم فهو من قولك: بناء محكم، أي وثيق يمنع من تعرض له، وسميت الحكمة حكمة لأنها تمنع عما لا ينبغي، والحاكم يمنع الظالم عن الظلم.

مثال المتشابه

(١) ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء:١٦]، فظاهر الآية أنهم يؤمرون بأنهم يفسقون، والمحكم قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ﴾[الأعراف:٢٨] رداً على الكفار، إذ حكي عنهم: ﴿وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾[الأعراف:٢٨].

(٢) وكذلك آية: ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾[التوبة:٦٧]، فظاهر النسيان معلوم، ومؤوله الترك، والآية المحكمة فيه قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾[مريم:٦٤]، وقوله تعالى: ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾[طه:٥٢] فتؤول الآية على معنى الترك الذي هو خلاف الظاهر للآية المحكمة المذكورة.

(٣) قوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾[الإنسان:٣٠]، يقول أهل السنة في هذه الآية إنها محكمة، وآية: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾[الكهف:٢٩]، يقولون إنها متشابهة. وبالإجمال نقول: إن حمل اللفظ على المعنى المرجوح متشابه، وحمله على المعنى الراجح محكم، وصرفه عن الراجح إلى المرجوح لا بد فيه من دليل كما تقدم.

(٤) آيات الأنعام: ﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١) وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي

هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۖ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾[الأنعام:١٥١-١٥٣]، فهذه الآيات الثلاث عند ابن عباس محكمات، وهكذا كل أمر بطاعة واحتراز من ظلم وجهل وكذب وقتل نفس بغير حق، فهو محكم عند ابن عباس، لأنه لا يختلف باختلاف الشرائع. وأما ما يختلف باختلاف الشرائع كأعداد الصلوات ومقادير الزكاة وشرائط البيع والنكاح وغير ذلك، فهو المسمى بالمتشابه عنده، وهو من نوع المجمل فيما تقدم، أي ما يكون دلالة اللفظ بالنسبة إليه وإلى غيره على السوية، ومن المتشابه عند ابن عباس أيضاً أسماء حروف الهجاء المذكورة في أوائل السور، وذلك أن اليهود ظنوا أنها جاءت لأعداد الجمل، فطلبوا أن يستخرجوا منها مدة بقاء هذه الأمة، فاختلط الأمر عليهم واشتبه، فكانوا إذا سمعوا ﴿الٓمٓ﴾ يقولون: إن أمة محمد ستبقى ٧١ سنة بعدد جمل هذه الحروف «ا ل م»، وكلما سمعوا حروفاً غيرها ﴿الٓر﴾ مثلاً زادوا العدد حتى قالوا أخيراً: أشكل علينا الأمر، فهذه متشابهات تشابهت على اليهود. هذا من كلام ابن عباس موضحاً. وقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ﴾[مريم:٣٥] محكم، وقوله في عيسى: ﴿رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾[النساء:١٧١] متشابه فيرد إلى المحكم.

(٥) الآيات الناسخات تسمى محكمات، والآيات المنسوخات تسمى متشابهات، وهذا لابن عباس أيضاً.

(٦) العلم بوقت قيام الساعة، والعلم بمقادير الثواب والعقاب في حق المكلفين، كل ذلك متشابه فإنه لا سبيل إلى معرفته، وأما ما يمكن تحصيل معرفته بدليل جلي أو خفي فهو محكم. هذا ملخص الأمثلة في المحكم والمتشابه والأقوال المختلفة، ثم إن الخامس والسادس طريقان من طرق المحكم والمتشابه يخالفان ما قبلهما، فتأمل وتدبر فقد قرّبت لك المقام بأسهل أسلوب، والله هو الولي الحميد.

اعلم أن في وجود المتشابهات في القرآن فوائد، منها: الجد في الطلب لترقي العقول وازدياد الثواب، ومنها أنه لو كان محكماً كله لكان لا يصلح إلاّ لمذهب واحد، ومنها أن المتشابه يدعو إلى الدليل العقلي المخرج من التقليد، ومنها أن ذلك يدعو إلى علوم كثيرة لأجل تحقيق التأويل، ومنها أن القرآن يدعو العامة والخاصة، والعامة لا بد لهم من كلام يوافق ظاهر عقولهم، فلا بد من ألفاظ توهم الظواهر، وألفاظ تبين الحقائق، فيكون الأول متشابهاً، والثاني محكماً، وقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ﴾ فالفتنة في اللغة التعلق بالشيء والغلو فيه، وفلان مفتون بطلب الدنيا، أي متجاوز الحد في طلبها. فالمتمسك بذلك المتشابه في الدين يصير مفتوناً به عاكفاً على باطله وضلاله؛ وقد يفضي إلى التقاتل وذاك فتنة أيضاً، وقوله: ﴿وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ﴾ أي تفسيره ومرجعه ومصيره، مثل طلبهم أن الساعة متى تقوم فهم يحملون المتشابه على غير الحق وبلا دليل، وقد قدمنا الكلام في الوقوف على: ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾ أو على قوله: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾، وما قلنا في هذا المقام في القرآن ينطبق على ما سأذكره في المتشابه والمحكم في الطبيعة، وسترى أن من الفلاسفة من يطلبون المتشابه فيها لأجل ابتغاء الفتنة، وذلك في القسم الثاني وهو:

المحكم والمتشابه في المظاهر الطبيعية ونظام الحيوان

﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾[الفاتحة: ١-٣]

وهو الذي ربى الكواكب والأرض والمعدن والنبات والحيوان تربية مبدوءة بالرحمة، مختومة بالنظام السائد في الملك كله، فهو الذي أدار الشمس وخلق منها السيارات دائرات حولها، ومنهن الأرض وهي ملتهبة، ثم صارت تبرد شيئاً فشيئاً حتى أحاطت بها قشرة صلبة من المواد المعدنية والحجرية، وهي في أول أمرها خفيفة ضعيفة لا تقاوم حرارة النار الأرضية الملتهبة في باطنها، فلذلك تتمزق حيناً وتنشق وتبرد في وقت آخر، فتجمد ويكون هناك أمران: إذابة للمعادن وتكليس للصخور، فترتفع المعادن الذائبة في الجو، وتنزل على هيئة مطر، فتقع في الشقوق الصخرية، وتبقى دهوراً متطاولة، ولا يزال الإصهار والإذابة من جهة، والتكليس واليبس من جهة أخرى دائبين، حتى يحصل بعد الدهور الطويلة أن الأرض قد أحيطت من جميع جهاتها بأحجار صوانية أحكمت السد على النار، فلم تعد تندلع من جهة من جهاتها، وزال الاضطراب إلاّ في أوقات قلائل، وهذا هو الذي ذكره الله فقال: ﴿ وَجَعَلْنَا فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ ﴾[الأنبياء:٣١]، فهذه الحجارة الصلبة منعت اندلاع النار حتى لا تميل القشرة بما عليها، فيقع العالم المتكون في النار الملتهبة الأرضية، وهذا هو دور تكوين الأرض. ألا ترى إلى أن القطبين منبعجان، وأن خط الاستواء منتفخ.

العصر الثاني: العصر النباتي: هناك سكنت الثائرة وقر القرار وثبت كل شيء في مكانه، واستقر الماء في مواضع من الأرض، فظهر عليها الطحلب، وأخذ الماء يموج موجاً ذاهباً إلى الشواطئ من كل ناحية، ثم ظهر فوق اليابسة الأحراش والغابات الناجمة من طوفان الماء عليها حيناً فحيناً، ثم أخذت الزروع تبدو على وجه الأرض، فكانت أشبه بشجر الجميز في عظم قدرها وارتفاعها؛ أما الأشجار من الموز والنخل فكانت تناطح السحاب وتتعلق بأسباب السماء، فتلك المزارع التي نعجب بها الآن كانت كأشجار عظيمة، والأشجار كالجبال.

وهنا ابتدأ: العصر الحيواني وهو العصر الثالث: قد علمت أن النار قد سدّت من جميع جهاتها بأحجار صلبة متينة، ولكن لما امتد الزمان ثارت النار وفارت، فمزقت تلك الأحجار من بعض الجهات فظهرت سلاسل الجبال، وامتدت النار فأتت على سائر المخلوقات فوق الأرض، وهذا هو الطوفان الجيولوجي العام، وهناك من بعدها أنواع من الطوفان ليست عامة، فهذا الطوفان ناري من باطن الأرض، والدليل على أن هناك أنواعاً من الطوفان بعد هذا أنهم رأوا عظاماً متحجرة في أعلى قلل الجبال، وفي أعماق البحار، وذلك في الدور الحيواني الذي سأشرحه، وبعد ما سكن هذا الطوفان العام واستقر كل شيء في مكانه، وأخذ الماء يموج في كل جانب، واستقرت البحار في أماكنها الخاصة، بها ظهرت الحيوانات ذوات الأصداف، وهناك على مر الدهور والعصور صارت ركاماً، فكان منها المرمر وبعض الصخور الكلسية، ثم كانت الحيوانات مرتبة هكذا: الحيوانات السافلة كالإسفنج، والحيوانات الشعاعية الكثيرة الأرجل، فالحيوانات الشائكة الجلد كقنافذ البحر، فالحيوانات الهلامية، فالحيوانات المفصلية، فالحيوانات الفقرية، هذا إذا رتبناها من أسفل إلى أعلى. ولنذكرها من أعلى إلى أسفل بإيضاح، فنقول:

(١) الحيوانات اللابنة، وهي الإنسان وذوات الأربع: الطيور، الزحافات، الضفادع، السمك. هذه الأنواع الخمسة هي التي لها فقار كفقار الإنسان، ودم.

(٢) ويليها الحيوانات المفصلية مثل: الحشرات، الشبث، العناكب، ذوات القشور، ودود الأرض. فهذه تسمى المفصلية، وجسمها مركب من حلقات، وتسمى أيضاً حلقية.

(٣) ويليها الحيوانات الهلامية، وهي كقوام العجين، منها ذوات الرؤوس، ومنها ما لا رؤوس لها.

(٤) ويليها الشعاعية، كقنافذ البحر شائكة الجلد، وكنجوم البحر.

(٥) ويليها الكثيرة الأرجل، مثل الأخطبوط، وهي من الشعاعية.

(٦) ويليها السافلة، مثل الإسفنجيات والنقاعيات.

وهذا آخر ما وصل إليه النوع الإنساني من العلم، ومحصله يرجع إلى أن الحيوانات قسمان: قسم له دم كالحيوانات اللابنة والدبابات، والبائضة كالسلاحف والضباب والطيور والحيات والسمك. وقسم لا دم له، كالهلاميات وذوات القشور والحشرات.

وهذا هو التقسيم القديم الذي ذكره أرسطو وما قبله، وآخر ما وصل إليه نوع الإنسان اليوم، مثل هيكل الألماني وكوفيه وغيرهما، فتعجب وتأمل.

جمال نظام السلسلة الحيوانية

انظر أيها الذكي إلى هذه السلسلة، وتأمل في أمر الحياة، فإنك تجد أنها لم تتوقف على حال من الحالات، فإن قلنا: لا بد لها من فقار كالبقر والطير والضفادع والسمك، ينقضه أننا وجدنا الحيات بلا فقار فيما هو أسفل منها، كالعنكبوت والحشرات والشبث وأمثالها، وإن قلنا: إن الحيات لا بد فيها من قشور في ظاهر الحيوان رأينا الحيوانات الهلامية، وإن قلنا: إنه لا بد من رؤوس، كذبتنا الحيوانات التي لا رؤوس لها. وإن قلنا: إنه لا بد أن يكون الحيوان صلب الجسم، وجدنا النقاعيات والإسفنجيات، فالناس جميعاً يعرفون الإسفنج أنه عظام حيوان داخلها مادة لطيفة هي جسم الحيوان، فإذا فرغت من الهيكل استعمله الناس بعد موت الحيوان. ألست ترى من هذا أن العالم الحيواني عجيب؟ ترى الأنعام ترضع أولادها بعد حملهن في بطنها، والطيور تحضن بيضها، وأخرى من الحشرات تذر بيضها في العراء يتربى في حضن الطبيعة بالرحمة الشاملة العامة ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾[المؤمنون:١٤]، فالعوالم مرتبة ترتيباً لطيفاً بحيث إن كل درجة من درجات الرقي حلت فيها الحياة، فالحياة عامة شاملة لا تتوقف على حال من الأحوال، فلا البر ولا البحر ولا الهواء يصدّ عن الحياة، ولا رخاوة الجسم، ولا عدم الرأس، ولا فقد الفقرات، ولا قلة الحواس، وهذا هو الجمال الإلهي الوارد في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾[السجدة:٧]، وفي قوله أيضاً: ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾[الملك:٣-٤] أي ارجع البصر، هل من شقوق في السماء، وهل من تفاوت، أي هل هناك ما يخل بالنظام، فالنظر في هذه السلسلة دل على تناسقها وجمالها وبهجتها.

تشابه الأطراف في الحيوان

ومن أجمل ما أبدع في الدهر وأبهج ما ظهر في كل عصر، أن يد الإنسان وأعلى أنواع القردة من الكورلا والأورانغ تانغ والكلب وأطراف الفقم والدلفين وجناح الخفاش ويد الخلد التي تشبه المعول وأجنحة الطيور والأطراف الأمامية للحشرات وللحيوانات، التي هي نصف مائية، كل هذه الأنواع العشرة وما شاكلها، تجد أنها مركبة من خمسة أقسام: كيد الإنسان، فيد الإنسان ويد القرد وجناح الخفاش والطير، وما أشبه ذلك، كل هذه مكونة من خمسة أعضاء كأصابع اليدين؛ أليس هذا هو قوله تعالى: ﴿ مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ ﴾[الملك:٣]؟ ألست ترى أن هذا التناسق بديع، وأي عجب أعجب من تنوّع اليد، فتصير في الإنسان كاتبة، حاملة السيف، جالبة الطعام، دافعة الخصم عاملة أعمالاً لا تتناهى، وهي في الطائر تحمله في الهواء. تنوع بديع عجيب كتنوع العناصر في النبات والحيوان. أليس هذا دليلاً على حسن النسق، وأن القدرة التي ابتكرتها مبدعة منظمة بحكمة ثابتة لا تناقض فيها ولا اختلال.

جمال الخمسة من علم خواص الأعداد

واختيار الخمسة من أبدع ما علمه علماء الخواص العددية. ألا ترى رعاك الله أن عدد الخمسة يسمى عدداً دائراً، فإنك إذا ضربته في نفسه بالغاً ما بلغ، فإن حاصل الضرب يحفظ الآحاد والعشرات دائماً، وهذه الخاصة لا يشاركه فيها سواه، مثل: ٢٥ ـ ١٢٥ ـ ٦٢٥ وهكذا. فعدد ٢٥ محفوظ دائماً، وعدد الخمسة هو الذي عليه نظام الحساب في العالم الإنساني، لأن العشرة التي هي عدد أصابع اليدين مثلاً تضاعف إلى المئات والألوف، وهذه من نوع الجمال في علم الموسيقى لأن نسبة المساواة والنصف والثمن عندهم هي النسبة الشريفة، وهذه نسبة المساواة، فمساواة الأطراف في العدد من نوع الجمال، ونسبتها هندسية، لأنك إذا أردت النسبة بين أطراف حيوان مثل الطائر أو القرد أو الإنسان مثلاً، قلت: نسبة ٥ إلى ١٠ كنسبة عشرة إلى عشرين، وحاصل ضرب الطرفين يساوي حاصل ضرب الوسطين ٥ في٢٠=١٠^{٢}، وهذه هي النسبة الموسيقية، وهذه النسبة تمشي مع أطراف الحيوانات المتقدمة بنسبة بعضها إلى بعض، فتكون أشبه بالأبيات الشعرية، أو ضروب الموسيقى، وهذا هو الجمال وهو الحساب والنسبة الهندسية، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾[إبراهيم:٥١]﴿ وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴾[الأنبياء:٤٧].

نظام الأجنة في الأرحام

إن الماء المهين في الرحم يمر في درجات مختلفات من النظام الحيواني، فيكون أولاً: (١) كالجراثيم النقاعية، وهي الطبقات الدنيا من الحيوان فيما تقدم. (٢) ثم يكون علقة ملتفة شبه ثلاثة أرباع الدائرة. (٣) ثم يصير مثل الضفدع. (٤) ثم يظهر العمود الفقري وله منقار طائر وجسم الحشرة، وهو الممر بين عالم الطير ومرتبة الحيوانات الثدية. (٥) ثم يصير كذوات الأربع فيشبه القرد. (٦) وتنمو الرأس ويرسم الذراعان، وله ذنب وتتهيأ مواضع الأعضاء للنمو، وترسم العينان والمنخران والفم، ثم يقصر ذنبه ويظهر التأنيث فيه، وهذا في الشهر الرابع، ويظهر تصوير الجنين فيه، وفي الشهر الخامس يفرق بين الذكر والأنثى، في السادس يكون طوله من ١١ عقدة إلى ١٤ عقدة، وفي السابع من

١٣ عقدة إلى ١٦ عقدة، وفي الثامن تفتح العينان ويكسى جلد الرأس بالشعر، ويكون طوله من ١٦ عقدة إلى ١٨ عقدة، وفي الشهر التاسع من ١٨ عقدة إلى ٢٠ عقدة.

فترى الجنين في أول أمره لا يعرف من أي طبقة هو، ولقد رسموا جنين الدجاج والإنسان والسلحفاة والكلب، فلم يجدوا بينها فرقاً، فبهذا تشابه الطائر وذوات الثدي والإنسان والسلاحف في أول نشأتها، ثم يأخذ كل منها في التميز شيئاً فشيئاً. هذه هي الآراء المعروفة اليوم في علم الأجنة.

نظام الجسم الإنساني

ويا ليت شعري أي هندسة وأي نظام وأي مقياس كان في الرحم حتى صنع هذه المقاييس يمر الجنين في أطوار الحيوانات النقاعية والهلامية والفقرية من الطير وذوات الثدي وآخرها القرد، ثم ترسم أعضاؤه وحواسه مرتبة منظمة: (١) بحيث تكون قامته ثمانية أشبار بشبره هو، ويكون من رأس ركبتيه إلى أسفل قدميه شبران، ومن ركبته إلى حقويه شبران، ومن رأس فؤاده إلى مفرق رأسه شبران، ومن حقويه إلى رأس فؤاده شبران، بنسب متساوية كما تساوت نسب الأصابع في اليدين وفي الرجلين، في الإنسان وفي الحيوانات الأخرى كما تقدم. (٢) وإذا فتح يديه ومدهما يمنة ويسرة كما يفتح الطائر جناحيه، وجد ما بين أصابع يده اليمنى إلى رأس أصابع يده اليسرى ثمانية أشبار، النصف من ذلك عند ترقوته والربع عند مرفقيه. (٣) وإذا مدّ يديه إلى فوق رأسه ووضع رأس البركار على سرته وفتح إلى أصابع يديه، ثم أدير إلى رأس أصابع رجليه كان البعد بينهما مساوياً عشرة أشبار، وذلك طول قامته وربعها. (٤) وطول وجهه من رأس ذقنه إلى منبت الشعر فوق جبينه شبر وثمن شبر. (٥) والبعد ما بين أذنيه شبر وربع. (٦) وطول شق عينيه كل واحدة ثمن شبره. (٧) وطول أنفه ربع شبره. (٨) وطول إبهامه وطول خنصره متساويان.

هذا قل من كثر من المقاييس العجيبة التي في جسم الإنسان، وذلك كله إذا كان معتدلاً، وقد يزيد وينقص إذا قلّ اعتداله لعوارض يقلّ بها جماله وكماله. وهذا الذي ذكرناه في المعتدل الخلقة الجميل الطلعة.

النسبة الفاضلة

وهذه المقاييس ترجع إلى ما جاء في علم الموسيقى أن النسبة تكون فاضلة إذا كانت مثلاً أو مثلاً ونصفاً أو مثلاً وثلثاً أو مثلاً وربعاً أو مثلاً وثمناً، وعلى هذا نجد طول وجه الإنسان إذا كان معتدلاً شبراً وثمناً، وطول قدميه كل واحد شبر وربع، وهو مساو للبعد ما بين أذنيه، فهنا مساواة من جهة، ومثل وربع من جهة أخرى، وطول شق فمه وشفتيه كل واحد مساو لطول أنفه متى كان معتدلاً.

ففي هذه الأمثلة ظهر المثل، والمثل والثمن، والمثل والربع المذكورة التي قال علماء الموسيقى إنها من الجمال. ويقول علماء الموسيقى من علمائنا نقلاً عن اليونانيين: إن نسبة الثمن في نغم الأوتار هي المستعملة دون الخمس والسدس والسبع، ، ذلك أنها مشتقة من الثمانية التي هي أول عدد مكعب، والعدد المكعب فيه التساوي، فطوله وعرضه وعمقه كلها متساوية، وفيه اثنا عشر ضلعاً متوازية متساوية، وله ثلاث زوايا مجسمة، وله أربع وعشرون زاوية قائمة متساوية، وهي من ضرب ثلاثة في ثمانية، وكل مصنوع كان التساوي فيه أكثر كان أفضل.

وعلى ذلك قالوا: إن الإنسان كثر فيه التساوي، وكثر فيه المثل والنصف والثمن الخ، وليس للسدس ولا للخمس ولا للسبع من وجود فيه، لأن هذه ليست من الأشكال المحبوبة التي فيها التساوي. انظر إلى ما ذكرناه في شكله، تجد ثمانية أشبار في طوله، فهنا التساوي ما بين أربعة أقسام من جسمه، وهكذا التساوي بين شق فمه وشفتيه وأنفه وطول قدميه كالمسافة ما بين أذنيه وهكذا، فتأمل وتعجب من العلم.

تفصيل بعض ما تقدم للإيضاح

فالذي يساوي شبراً عند الاعتدال هو: (١) طول كفيه من رأس الكرسوع إلى رأس الأصبع الوسطى. (٢) وبعد ما بين ثدييه. (٣) وما بين سرته وعانته. (٤) ومن رأس فؤاده إلى رأس ترقوته.

والذي يساوي شبرين أربعة الأقسام المتقدمة: (١) من القدم. (٢) ومن الرأس. (٣) ومن الحقوين. (٤) ومن الفؤاد. (٥) ثم ما بين المنكبين.

والذي هو ثمن شبر: (١) زيادة رأس البنصر على الخنصر. (٢) وزيادة الوسطى على البنصر. (٣) وزيادة الوسطى على السبابة. (٤) وطول شق عينيه.

والذي يساوي ربع الشبر: (١) طول أنفه. (٢) وشق أنفه. (٣) وطول شفتيه.

والذي يساوي شبراً وربعاً: (١) طول قدمه. (٢) والبعد ما بين أذنيه.

واعلم أني جمعت لك في هذا المقام خلاصة علم القدماء والمحدثين في جمال الإنسان ونظامه، فيا ليت شعري أين المقياس الذي كان في الرحم حتى فصل ذلك التفصيل، وقاس تلك المسافات، وفصل تلك الأعضاء، وهندس وزوّق وحسّن الأشكال، وتجنب النحس في الأشكال كالخمس والسدس والسبع، واصطفى أجمل الأشكال وأحسن الأوضاع كالمثل، والمثل والثمن، والمثل والنصف، وراعى جمال النظام، وابتدع واخترع وزين وزوّق وفضل الأجمل والأكمل، وجعل الأجزاء مشتقة من الشكل المكعب الذي له ثمن ونصف وربع، وفيه الأمثال الكثيرة الجميلة حتى استحق أن يقال فيه: ﴿ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥ﴾[السجدة:٧]، وقال: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖ فَقَدَّرَهُۥ تَقۡدِيرٗا﴾ [الفرقان:٢]، وقال: ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ﴾[التين:٤]، وقال: ﴿خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝ فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾[الانفطار:٧-٨]، فهذا هو الحسن الذي ذكره الله، لأنه أولاً انتقى أجمل الأشكال الجسمية، فمر على أدنى المخلوقات من الإسفنجيات، وانتهى به في الشكل إلى ما ذكرناه، وثانياً اصطفى أحسن الأوضاع، وناسب ما بين أصابع الأطراف في أكثر الحيوانات على النسبة الأفضل، وهي المثل لأن ذلك من الجمال الموسيقي الذي يعقله الحكماء عند النظر في أشكال هذه المخلوقات، فيقولون: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾[آل عمران:١٩١] بالجهل والبعد عن العلم والكسل والغرور، وبهذا تفهم قوله تعالى: ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖ﴾[الملك:٣]، وذلك لأن التفاوت يكون من الصانع الغافل أو من المصادفات، أما التناسق وكثرة التماثل فهي من الصانع المحكم لعمله الذي يجعل فعله موسيقياً أشبه بما في المكعب من التساوي وكثرته، والمثمنات السارة للناظرين، المبهجة للسامعين، وهذا من سر قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا﴾[النساء:٨٢]، فالعالم الذي أبرزه الله كثر فيه الاتفاق الموسيقي كعدد الأصابع في

أطراف الحيوان كما تقدم، وتناسق السلسلة الحيوانية ونظام الأعضاء. ﴿وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[النور:٤٦].

الجنين في الرحم كتاب يبيّن الله به آياته للناس كما بينها بالقرآن

لقد استبان لك أن خلقة الجنين في الرحم تصور أنواعاً من صور الحيوان مرتقية من أدناها إلى أعلاها، وتبين لك أيضاً أن أعضاءه المفصلة لها مقاييس تحار فيها العقول بالشبر، وبالشبر والثمن، وبالشبر والربع، وأيضاً تنوع الأعضاء والأشكال والصناعات العجيبة، فكان الجنين نسخة مختصرة وكتاب مبين لا يمسه إلاّ العالمون، ولعلك تقول في نفسك: هذه عبارات شائعة على ألسنة الناس، وما هو الجنين حتى يقال إنه يبين للناس؟.

نقول: اعلم أن الله قال في القرآن: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾[القيامة:١٩]، وقال: ﴿تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾[النحل:٨٩]، وقال: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾[النحل:٤٤]، وقال: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ﴾[البقرة:٢١٩].

فانظر ماذا قال في الجنين، قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ﴾ لأن أباكم آدم مخلوق منه، وكذلك الأغذية التي يتكون منها الجنين ﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ مني ﴿ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ﴾ قطعة من الدم جامدة ﴿ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ﴾ قطعة من اللحم وهي في الأصل قدر ما يمضغ ﴿مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ مسواة لا نقص فيها، وغير مسواة أو مصورة وغير مصورة ﴿لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ بهذا التدريج قدرتنا وصنعتنا وأحكامنا في الصنع ﴿وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ وهو وقت الوضع ﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ﴾[الحج:٥] ﴿ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا﴾ [غافر:٦٧]، فانظر أيها الذكي إلى قوله تعالى: ﴿مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾[الحج:٥] كأنه يقول: جعلت المضغة أولاً غير مسواة، بل ناقصة الخلقة تشبه الحيوانات الأخرى، كالكلب والسلحفاة والطيور وغيرها وثانياً تامة الخلقة بالصورة الإنسانية، لماذا هذا؟ لنبين لكم. ماذا يبين لنا الله؟ يبين لنا أننا خلقنا في أحسن تقويم لأن صورتنا مرت على صور الحيوانات الأخرى ثم أكملها. يبين لنا أنه محكم الصنع عجيب الوضع. يبين لنا أنه وضع الأعضاء على هيئة موسيقية كما قدمناه. ليبين لنا أن الإنسان فيه قابلية لأخلاق سائر الحيوان من شبق الخنزير، وضراوة الأسد، وجبن الأرنب، وزهوّ الطاووس، وما أشبه ذلك مما قدمناه عند ذكر آدم في أول البقرة، ثم إنه لا نجاة لنا إلاّ بالارتقاء عن هذه الخصال الحيوانية إلى الصفات الملكية. يبين لنا أنكم أرقى من الحيوان فكيف عبدتموه. يبين لنا أن نتعلم علم الأجنة، وهو المسمى باللسان الإفرنجي علم البيولوجي. يبين لنا أن الإنسان لا ينال أعلى الدرجات إلاّ بعد أن يتخطى أدناها بنظام، سواء أكان في الأمور الدينية أم في الأمور الدنيوية، وأن خلاف ذلك خلل في النظام والطفرة محال. يبين لنا أن سنة الكون الترقي من أسفل إلى أعلى. يبين لنا أن ندرس علم الحيوان، ثم نعرف لنا أن بيننا وبين الحيوان مناسبة وصلة، فلنكن له راحمين، وعليه عاطفين، ولطبائعه دارسين، وبقواه منتفعين، وعليه مسيطرين.

فيا ليت شعري كيف ساغ للمسلمين أن يجهلوا هذا العلم، ولا يقوم به إلاّ الفرنجة، كيف يكونون أجهل الأمم بعلم الأجنة وعلم الطبيعة. أيها المسلمون، قد بينت لكم ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ

إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾[هود:٣٤] . الله يقول لكم: إني أبين لكم خلقة الجنين، ويقول في القرآن الكريم أنه تبيان لكل شيء، فلا القرآن عرفنا، ولا الجنين درسنا، وكلاهما للبيان، ويقول الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾[المؤمنون:١٢-١٤] .

ثم تأمل في آية الحج، فإنه ذكر من أطوار الإنسان عشرة: التراب، النطفة، العلقة، المضغة التامة الخلقة، المضغة الناقصة الخلقة، الطفل، بلوغ الأشد، الشيخوخة، الوفاة، الرد إلى أرذل العمر، ولم يذكر أنه يبين لنا إلا بعد قوله: ﴿ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ ﴾[الحج:٥] أي غير مسواة كما شرحنا، لأن هذه هي التي قامت لها قيامة العلماء في أوروبا، أي بين هيكل وخصومه من الألمان، كما سيأتي بعد هذا من النضال المشحذ للأذهان، المقوي للعقول. ﴿ وَٱللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[النور:٤٦] .

المحكم والمتشابه في الطبيعة

لقد نظرت الإنسان وحسن نسقه وجمال شكله، ولكن هذه السلسلة التي انتظمت فيها الحيوانات منتظمة متلاصقة، والتي ظهر فيها الجنين بأدوار مختلفة، أحدثت عند بعض العقلاء حيرة، فقال قائلون منهم: لعل هذه العوالم قد ظهرت بعضها من بعض بالاشتقاق، والدليل على ذلك مشابهة الإنسان لأدنى الحيوانات في أول تكونه في الرحم، ثم يتمادى في الرقي حتى يصير كالقرد، ثم يصير إنساناً، وهذه السلسلة بعينها هي التي تراها في الحيوانات المشاهدة، فلعل كل طائفة مشتقة مما تحتها مباشرة، حتى إن هيكل الألماني الذي نشأ في ألمانيا، وقضى نحو نصف قرن، أستاذ العلوم الطبيعية في كلية «أيينا» قال: إن الإنسان نشأ بالتدريج من الحيوانات السفلى، فالتدرج في الرحم من الأدنى إلى الأعلى كالتدرج في السلسلة من الأدنى إلى الأعلى من الحيوانات النقاعية إلى الهلامية إلى الحلقية إلى الفقارية. ولما بحث الدكتور «براس» مذهبه، ونظر في تلك الصور التي استند إليها وجد أنها لم تكن كلها صادقة، بل بعضها مزوّر، فإن الصور ٢٢ تبتدئ بالبسيط، والصورة الرابعة عشرة التي سماها «السوزور» والصورة الواحدة والعشرين التي سماها «الإنسان القرد» لم يكن لها وجود البتة.

فكتب العلماء على صفحات الجرائد أنه مزوّر لهاتين الصورتين فهددهم برفع الدعوى، ثم رأى أنه لا مناص من الإقرار، فكتب مقالة مؤرخة ٢٤ ديسمبر سنة ١٩٠٨، قال «تزوير صور الأجنة»: إني أعترف رسمياً حسماً للجدال في هذه المسألة، أن عدداً قليلاً من صور الأجنة نحو ستة في المائة أو ثمانية موضوع أو مزوّر إذا عدّ الدكتور «براس» ذلك تزويراً، وذلك فيما إذا كانت المواد التي يراد فحصها أو رسمها غير كاملة، حتى يضطر فاحصها أو راسمها وهو يضع حلقاتها بعضاً بإزاء بعض في سلسلة ارتقائها أن يملأ بينها بحركات فرضية إلى أن قال: فبعد هذا الاعتراف يجب أن أحسب نفسي مقضياً عليّ وهالكاً، ولكنه يعزيني أن أرى بجانبي في كرسي الاتهام مئات من شركائي في الجريمة، وبينهم عدد كبير الفلاسفة المعول عليهم في التجارب العلمية، وغيرهم من علماء الأحياء «البيولوجيا» فإن كثيراً من الصور التي توضح علم أبنية الأحياء وعلم التشريح وعلم الأنسجة وعلم

الأجنة المنتشرة المعول عليها، مزوّر مثل تزويري تماماً لا يختلف عنه في شيء. اهـ.

ثم إنه قدم استقالته مكرهاً من الكلية بعد أن قضى ثلاثين سنة أستاذاً فيها. وهذه القصة نقلتها من الجزء الأول من كتاب «نقد فلسفة داروين»، أفلا ترى أن هذا الرأي الذي اتبعه قوم راجع إلى المتشابه في المادة كالمتشابه في القرآن؟ فإذا قال الله تعالى ﴿ نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ﴾ [التوبة:٦٧]، وقال العلماء: إن هذا متشابه، والمحكم قوله تعالى ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴾ [مريم:٦٤]، هكذا في الطبيعة هنا، هذه السلسلة عند قوم متشابهة، لأنها في نظرهم الذي لا يتجه إلا إلى وجهة واحدة، تدل على أنه لا صانع لها لأنها مشتقة بعضها من بعض بتوالي الأزمان، فأين محكمها إذن؟.

المحكم في الطبيعة الذي يشبه الآيات المحكمة في الوحي وهو القرآن حشرة أبي دقيق مثلاً

(١) قال الدكتور جوستاف جوليه: يكفي أن نتأمل حشرة أبي دقيق فإنها تنادي على رؤوس الأشهاد بإبطال نظريات داروين في وجود الأنواع وترقيها. إن الحشرة ظهرت من أقدم العصور وأنواعها ثابتة، فهي تناقض تلك المذاهب القائلة بالتحول المستمر، فأين التحول المستمر هنا؟ أوَلا يرون أنها تنتقل داخل الفيلجة «الشرنقة» من كونها دودة إلى أنها طائر، ثم قال: ويا ليت شعري، أين العلاقة بين الدودة والحشرة، ولقد نقض مذهب لامارك ومذهب داروين، ومن العجب أن هذين المذهبين يعجزان عجزاً تاما عن تفسير تلك الغرائز العجيبة المدهشة التي تظهر في الحيوانات.

وأنا أقول: أفلست ترى أن كلام العلامة جوستاف جوليه يدلنا أن هنا شيئين نرجع إليهما وهما حشرة أبي دقيق والغرائز البديعة العجيبة التي لا تتناهى في أنواع الحيوان، إنها لعمرك تعد بآلاف الآلاف بل لا عد لها، فما الذي وضعها في تلك الحيوانات، فهذا نعده من المحكم، أما تلك السلسلة ونظامها فهو من المتشابه، والمتشابه يرجع إلى المحكم، فهذا أشبه بما جاء في الآيات التي نحن بصدد الكلام فيها ﴿ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾.

(٢) ووافقه على هذا الرأي العلامة فون باير الألماني مؤسس علم الأجنة «الأمير بولوجيا» ومن علماء الفزيولوجيا والعلماء الحفريين.

(٣) والأستاذ «إيلي دوسيون» في كتابه المطبوع سنة ١٩١٢ المعنون «الله والعلم».

(٤) والعلامة «فيركو الألماني» من علماء «الأنتروبولوجيا» التاريخ الطبيعي للإنسان.

(٥) والعلامة الأنتروبولوجي الفرنسي «دوكلترفاج».

(٦) وكذلك الفيلسوف «سبنسر» الإنجليزي.

(٧) والعلامة «ويسمان».

(٨) والأستاذ «جورج بوهن» مدير البيولوجيا والبسيكولوجيا الحيوانية.

(٩) والعلامة «أدمون بريه» في مجلة العالم الحي سنة ١٩١٢. قال: إن البط وسائر الطيور

المائية لها أرجل ذات أصابع متصلة بغشاء، فيظنون أن نوع المعيشة قد أوجد هذه الأغشية، ولكن الأمر على العكس في مذهب المسيو «جينو» يقول: إن البط يعوم لأنه وجد لنفسه أرجلاً مغشاة تصلح للعوم إن هذه الحيوانات أعدّت قبل للعوم.

(١٠) ومثله العلامة «بلوجر» الألماني.

(١١) والعلامة الفزيولوجي «دوبوار يمند».

(١٢) ودائرة المعارف الكبرى الفرنسية.

(١٣) ورأي الدكتور «أدوارد هارتمان».

(١٤) و«لويز بوردو».

(١٥) و«كامبل فلامريون».

(١٦) و«لوجيل» الفرنسي.

(١٧) والأستاذ «ميلن إدورد».

(١٨) ودائرة معارف القرن العشرين.

(١٩) و«جوستاف لوبون».

(٢٠) والأستاذ «هنري بوانكاريه» العضو بالمجمع العلمي الفرنسي.

أكثر الناس مقلدون

ولأختم القول في هذا المقام، وأقول لك أيها الذكي: انظر في هذه الدنيا، وتعجب من العقول الإنسانية، وانظر كيف ترى أن الناس في بلادنا في مصر في الشام في العراق في الهند في الصين في سائر الأمم والأجناس إذا قرؤوا مذاهب الفرنجة، وسمعوا أن الإنسان والحيوانات مشتقات بعضها من بعض هلعت نفوسهم وانخلعت قلوبهم وتركوا مواهبهم، وظنوا أن هذا جاء من علم فوق طاقتهم، وعقل فوق عقولهم.

وإذا رأوا عجائب الحيوان وغرائزه المدهشة، والنظامات الفلكية وأضواء الكواكب وجمال النجوم وبدائع الحياة، قالوا: نحن لسنا أعلم من أولئك العلماء، إنهم بحثوا فلم يجدوا إلهاً، فانظر كيف جاء علماء العصر الحاضر منهم وهو القرن العشرون، فقالوا بما نعرفه في نظرنا ونظروا جمال الصور ونظام الأعضاء والحكم المدهشة التي لا تكاد تعدّ في أي حيوان وأي حشرة، وقالوا: إن ذلك القول هراء وزور، وإن الحكمة ظاهرة باهرة في سائر العوالم.

فيا أيها الذكي فإما العلم التام وإما التقلد للوحي. أما العلم الناقص فقد هدم ركن الشرق. ﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطُۢ ۝٢٠ بَلۡ هُوَ قُرۡءَانٞ مَّجِيدٞ ۝٢١ فِي لَوۡحٖ مَّحۡفُوظِۭ﴾[البروج:٢٠-٢٢].

فيا أيها الذكي هاأنا ذا قد أودعت لك في هذا المقام ما لا تجده في كتاب آخر، ومزجت لك العلم بالدين، ولم أترك لك باباً للشك، وأريتك أقوال علماء أوروبا قديمهم وحديثهم، وجعلت لعقلك سبيلاً للنظر بنفسه، وللغرام والهيام بهذا النظام والحسن والجمال، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾[النور:٤٤].

تفسير الآية منطبق على الطبيعة، زيادة إيضاح لها

وهي قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ مِنْهُ ءَايَـٰتٌ مُّحْكَمَـٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَـٰبِهَـٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَـٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾. ذكرت لك تفسير هذه الآية وفاقاً لساداتنا العلماء السابقين، وأبنت لك أن الوحي فيه آيات محكمات وأخر متشابهات، وقلت لك: إن الطبيعة فيها ما في الوحي، لأن الوحي كلام الله والطبيعة فعل الله، والكلام والفعل مصدرهما واحد، فلا بد من تماثلهما إحكاماً وتشابهاً فنقول:

كما أن في القرآن آيات محكمات واضحات لا تشابه فيها، كقوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴾ [مريم: ٦٤] فيما تقدم هكذا في الطبيعة عجائب واضحات لا تتناهى كعظام الإنسان وانتظامها وجمالها، وأنها جرت على النظام الأكمل نظام الموسيقى ذات القواعد، التابعة أجمل الأشكال، وأجمل الأشكال ما كثر فيه التساوي، والذي كثر فيه التساوي الكرة لتساوي أقطارها وأنصاف أقطارها، والمكعب الذي فيه متوازيات متساويات كثيرة، وفيه الثمن وفيه الثلث الناجمان من ضرب ثمان زوايا مجسمة في ثلاث زوايا مسطحة، فقد ظهر في أعضاء الإنسان مثلاً الأمثال الكثيرة والأثمان ومضاعفات الأثمان وهي الأرباع والأنصاف، وكل هذه معتبرة في الموسيقى بحيث يستلذ السمع بها وتطرب النفس لها، كما يحسن الشكل في العين بمنظرها، فمنظر الإنسان مقبول، ومنظر المكعب مقبول، وسماع النغمات الموزونات بذلك التقدير مقبول. فهذا هو المحكم في الطبيعة، الدال على مبدع مدبر حكيم ودود كثير الود لعباده، لإتحافهم بالجميل وإدخال السرور عليهم.

وأما المتشابهات، أي: اللاتي لا تعلم في الطبيعة لبعض الناس، لوقوف أذهانهم عندها وعكوفهم عليها، فهي ما تقدم شرحها من تلك السلسلة الحيوانية، وسير الجنين في الرحم على مقتضاها مما يوقع في النفوس أنها مشتقة بعضها من بعض، ولا خالق لها ولا رازق، فذلك كالمتشابه في القرآن، كقوله تعالى: ﴿ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ﴾ [التوبة: ٦٧] فظاهر النسيان كما تقدم من المتشابهات ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ ﴾ عن الحق في القرآن ﴿ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَـٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ ﴾ والمفتون بالشيء المغرم به، العاكف عليه، لا ينظر إلى سواه هائم فيه، وفي الحديث: «حبك الشيء يعمي ويصم»، فأهل المذاهب المنحرفة وأهل الفرق الضالة في الإسلام، أغرموا وفتنوا بمسائل عدّوها مذاهب وكفّروا أو فسّقوا غيرهم أو حكموا بكفرهم، مع موافقتهم لبقية الفرق في الدين كله، ولكنهم عكفوا على مسألة واحدة وظنوها كل شيء. هكذا هؤلاء العلماء الذين نظروا في سلسلة الحيوان، ونظام الجنين على مقتضاه، فتنوا به وأغفلوا ما عداه من جمال الأشكال، وحسن النظام، وتبادل المنافع بين طوائف الحيوان والإنسان والنبات، وتوافق المزايا والتشارك المستمر بين أصناف المخلوقات، وفتنوا بمسألة واحدة من آلاف الآلاف، فقالوا: إن الطبيعة لا صانع لها، فجاء المحققون منهم في أوروبا في القرن العشرين، وأظهروا الحقائق ورجعوا إلى المحكم، وردوا المتشابه إليه، كما رددنا نحن آية: ﴿ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ﴾ [التوبة: ٦٧] إلى الآية المحكمة: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴾ [مريم: ٦٤].

فيقال إذن: هؤلاء المفتونون بمسألة واحدة، العاكفون على وجه واحد، صرفت أذهانهم عن غيره، وباتوا لا يرون إلاَّ ما فتنوا به، كما لا يرى المغفلون في هذه الحياة إلا ما أحبوا من جاه أو مال أو ولد أو صيت مع أن الحياة أكبر من أن تقتصر على وجه واحد، بل هي عجائب وحكم وعلوم ونظام ودار انتقال، هكذا المفتونون بمسألة واحدة في الدين كالإمامة والخلافة، وكالمفتونين من علماء أوروبا بسلسلة الحيوان، وغفلوا عن جميع الجمال والحكم.

نقول: هؤلاء كلهم يقال لهم إن في قلوبهم زيغاً وميلاً، فيتبعون منه ابتغاء الفتنة به والغرام وإغفال ما عداه وابتغاء تأويله ومعرفة حقيقته، ومعلوم أن المفتون لا يعرف إلاَّ ما تشابه ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ ﴾ الذين ليسوا مفتونين بوجه واحد، بل نظرهم عام في الدين وفي الطبيعة، حال كونهم ﴿ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ ﴾ لأنهم نظروا نظرة عامة وقلبوا المسائل على جميع وجوهها المختلفة، فظهرت الحقائق بالبرهان لا بالهوى والغرام بالشيء والافتتان به ﴿ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ وما يعرف الحقائق إلاَّ أولو العقول الراجحة، وهم الراسخون في العلم، لا المفتونون الذين يعمون عن الحقائق ولا يصغون للبرهان، وهذا التفسير يجعل «الراسخين في العلم» معطوفاً على لفظ الجلالة. ولا تظن أن تفسير الآية بعلم الطبيعة إلاَّ بجعله نظيراً وشبيهاً بما جاء في القرآن من باب المقايسة والمشاكلة، وإلا فالآية مساقها لآيات القرآن وحدها.

ولقد جاء لها في القرآن معنى آخر قد سبق، وهو الوقوف على قوله: ﴿ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ ﴾ والابتداء بقوله: ﴿ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ ﴾ الخ وأنهم يسلمون بأنهم لا يعلمون، وقد حمل العلماء هذا المعنى على المسائل التي لا يمكن معرفتها في الدين كموعد قيام الساعة، وكمقادير الثواب والعقاب، وهكذا.

ونظيره هنا معرفة عدم التناهي والإحاطة بالنفس الإنسانية، فإن الإنسان يدهش أمامها صاغراً فلأشرحن لك علم النفس، أي ظواهره التي وصل لها الناس، لترى أن هذا الإنسان الذي أدهشك شكله ونظامه وهندسته وتزويقه وإحكامه وعجائب جسمه، له نفس أرقى، وفيها من الحكم والغرائب ما لا يستقصى، وستستصغر ما علمته الآن من نظام جسمه وعجائب خلقه في جانب عجائب نفسه، وما لا يتناهى من غرائبها، فأقول:

النفس الإنسانية وعجائبها

اعلم أن أمر الإنسان أعجب مما مر عليك في ظاهره، ذلك أن حياته تدعوه إلى ما لا حصر له من العلم والعمل، وبيانه أن نقول: إن الحياة تتوقف على غذاء وملبس ومسكن ودفاع عما ملكه، وهذه تحتاج إلى قوى داخلة في نفسه وهي الشهوة والغضب والعقل.

أما الشهوة فبها يطلب الغذاء والملابس والمسكن، وأما الغضب فبه يحافظ عليها، وأما العقل فإنه يدبر الأمور لنظامها وإدارتها، فالشهوة للطعام أعانتها الحواس الخمس على جلبه واصطفائه، فالذوق يعرف الحلو والحامض والمر والمالح، وما أشبه ذلك، والشم يدرك الروائح، والسمع والبصر يدركان العدوّ والصديق، والقريب والبعيد، وأنواع الطعام والشراب والملابس، والأدوات التي تبنى بها المساكن.

هذه قوى عظيمة ، فانظر كيف كانت حياة الإنسان تسخر لها هذه العوالم ، وكيف منح الإنسان كالحيوان قوة الشهوة والرغبة في طلب الطعام مثلاً ، فأعانته قوة الذوق في اللسان فعرف الحلو والحامض والمر ، فتجاوز التراب والحجر ، واصطفى المواد النباتية والحيوانية ، وميز بين الخبز والجير والطين والحديد ولم يدخل من الطعام إلاّ ما يصلح لتركيب جسمه ونظامه .

عجب يعيش الإنسان ويموت وهو غافل عما أعطي من المواهب والمنح ، يجوع فيأكل ، ويعطش فيشرب ، وهو لا يدري تلك المنح والعطايا ، تلك المواهب الثمينة ، تلك الآيات البينات ، تلك الدرر الغوالي ، تلك السعادات والعجائب ، يا ليت شعري كيف يعيش ابن آدم ويموت وهو لم يدرس إلاّ ما حوله من نبات وحيوان وماء وطعام ، وقد غفل عن تلك العوالم التي هي في داخل جسمه من شهوة جاذبة لتلك الأطعمة ، وديدبان واقف على باب جوفه في لسانه ينتقي ما يوافق جسمه ، ويطلب ما يصلح لأن يقوم مقام ما فني من أعضاء جسمه ، وما تحلل منها . يعيش المرء ويموت وهو لا يعرف تلك النعمة الجزيلة والآية الكبرى والحكمة العالية . كيف يجد في فمه ذلك الحارس الدافع لما لا ينفع الجسم من التراب والحجر والطين والأطعمة المرة والحادة والحارة الشديدة الحرارة ، ولا يدخل إلاّ بعض ما نبت في الأرض أو كان من الحيوانات أو الماء على طريقة خاصة .

ثم هو يجد هناك قريباً من ذلك الديدبان الجالس على اللسان ضابطاً واقفاً قريباً منه ، جالساً في المنخرين ، وهو الشم يشم الروائح فينتبه الذوق الجالس على اللسان ، ويقول له : لقد فتشت هذا الحامض فرأيته لا يصلح للغذاء ، فلتحترس أيها الديدبان فلا تدخله ، فترى الإنسان ينبذه نبذ النواة ، والبصر واقف من بعيد أشبه بأمير من أمراء الجند يتأمل الصور فيبعد عن الفم ما لا ينبغي أكله ، فترى الطعام يمرّ أولاً على البصر ثم الشم ثم الذوق ، فإذا ما انتهى إليه وقبله دخل في الجسم بلا توان . بهذه الطريقة يدرس الإنسان كل ما حوله ، يدرسه ببصره وشمه وذوقه .

فالصور والروائح والطعوم وهي من الصفات الملازمة لما حولنا من طعام وشراب ، تطبع في حواسنا من البصر والشم والذوق ، فتعطينا علماً بما يوافق وما لا يوافق . هذه الدراسة تشارك فيها الحيوان والإنسان ، اشتركا فيها ، ولكن الإنسان يزيد علماً عن الحيوان لاتساع دائرة عقله ، ازدياد حاجاته في المساكن والملابس وكثرة أمراضه التي أوجبت طلب الدواء مما حوله ، وذلك ليزداد تأملاً وتعقلاً .

يا عجبا هل حكم على الإنسان أن لا يرتقي حتى يعرف ما حوله ؟ هل زادت حاجاته في الملابس والمساكن والأدوية حتى يفكر ويعقل ما حوله؟ وإلا ظلّ في العوالم السفلية ، وإلا فلماذا كل هذه التكاليف ، يكلف بما فوق طاقة الحيوان ، يكلف الملابس من حرير وقطن وكتان وصوف ، والأدوية ليستخرجها من النبات والحيوان والزينة ليستخرج اللؤلؤ والمرجان من البحر ، لم كل هذا؟ أليس ذلك ليتعرف ما حوله ليدرس هذا الوجود؟ وإلا فما قيمة الطعام والشراب حتى يحتاج لهذه الدروس والمدارس ، ثم ابتلاه بالعداوات ، فصنع البارود والمدافع والطيارات والحصون . كل ذلك رقيّ لعقله وزيادة في شأنه ، وذلك في الظاهر محافظة على صورته الجسمية وحياته الإنسانية وهيكله المنصوب ووجوده المحبوب .

كيف يفعل الغذاء في الجسم من العجائب

إذا دخل الطعام في الفم ونزل إلى المعدة صار كيموساً، وهذا الكيموس أشبه بقوام اللبن، فانظر كيف أعطي الإنسان قوة التحليل وقوة التركيب، أما قوة التحليل فإنه لما مزّق الطعام في الفم بالأنياب والأسنان، ومضغه وابتلعه، وامتزجت به العصارات التي في الفم والتي في المعدة، انقلب إلى مادة واحدة في الظاهر أشبه بما هو ظاهر في الطبيعة من أن الكواكب ترجع في آخر أمرها إلى مادة سحابية «سديمية» ثم تتحول إلى كوكب جديد، فإذا صارت تلك الأطعمة في المعدة كيموساً جذب الكبد ذلك الكيموس فأحاله دماً وامتد إلى القلب وإلى سائر العروق، كل ذلك بطريق القوة الجاذبة، فالجاذبة تطلب الطعام إلى المعدة ثم الكبد ثم القلب ثم العروق الغلاظ ثم الدقاق، وهكذا إلى أطراف الجسم، فإذا وصل إلى هذه الأعضاء أمسكته ريثما يتم نضجه، فترى المعدة تمسكه حتى يهضم، وهكذا البقية، وهذه تسمى القوة الماسكة، ونرى أن في الجسم قوة تدفع ما لا يلائم، وهذه تسمى الدافعة، فتدفع ما لا ينبغي إلى الخارج من السبيلين، وهذه تسمى الدافعة، ونرى أن الدم كلما وصل إلى عضو تمثل بذلك العضو، وهذه القوة تسمى الغاذية، ومتى تغذى العضو نما بطريقة منظمة، وهذه تسمى النامية، ثم إن الجنين في الرحم يصور طبق الأم والأب عادة، وهذه تسمى المصوّرة، فتكون القوى التي تتناول الغذاء سبعاً، وهي: الجاذبة والماسكة والهاضمة والدافعة والغاذية والنامية والمصورة، وهنّ متعاونات متفقات متجاورات، أشبه بما نرى في المدن والممالك من معاونة الحدادين للنجارين ومن معاونة النجارين للبنائين ومن معاونة الندّافين للغزالين، ومن معاونة الغزالين للنساجين، ومن معاونة النساجين للخياطين، هكذا هناك نجد أن القوة الجاذبة مسوقة لجلب الطعام، وهي خادمة للقوة الهاضمة، والهاضمة خادمة للغاذية التي تعطي كل عضو ما يناسبه، والنامية مخدومة بما تقدم كله.

تفصيل أفعال القوى الإنسانية في الجسم وأنها أشبه بما في المدن من الصناع

فتأمل أيها الفطن في المدن والقرى تجد: (١) الخبازين والطباخين. (٢) العصارين الذين يستخرجون الشيرج من ثمر الأشجار، والأدهان من حبوب النبات، والزبد والسمن من لبن الحيوان. (٣) الخلالين والدباسين والذين يعملون السكنجبين. (٤) الذين يعملون الماورد، ويصعدون الخل، ويقطرون الرطوبات اللطيفة. (٥) الذين يعملون الأدهان اللطيفة كدهن البنفسج والنيلوفر والزيتون. (٦) الكناسين والزبالين والسمادين. (٧) الذين يحفرون الأنهار والقنى والآبار ليجروا المياه في خلال المنازل. (٨) العجانين وصانعي الحلاوة. (٩) الذين يطبخون الآجر والخزف والزجاج. (١٠) النجارين الذين ينجرون الأساطين وقوائم الأسرة. (١١) صانعي المفاتيح والصناديق. (١٢) صانعي السفن. (١٣) الذين يعملون القماقم والأباريق. (١٤) النحاتين. (١٥) الغزالين والحبالين والقتالين. (١٦) الحاكة والنساجين. (١٧) الرفائين والخرازين والخياطين. (١٨) الزارعين والغارسين. (١٩) الذين يعملون الطنافس والمسوح والغليظ من الثياب. (٢٠) صنع الذين ينسجون ثياب القطن والكتان. (٢١) صنع الذين ينسجون ثياب الحرير والرقيق من الثياب. (٢٢) أفعال الصباغين والمزوّقين والدهانين. (٢٣) صنع المصورين والنقاشين وأصحاب اللعب.

هذه الثلاثة والعشرون من الصناعات لها نظائر في جسم الإنسان، والناس نائمون لا يعلمون أن كل تلك الصناعات في الطعام الذي أدخلوه في معداتهم وهي تدفع الطعام إلى الأمعاء، ثم يكون ما لا فائدة فيه مدفوعاً إلى الأمعاء الغلاظ، ثم يكون مستعداً للخروج.

فلنذكر كل صناعة في المدينة ونظيرها في الجسم على هيئة جدول لتكون أسهل تناولاً، فهاكه:

الصناعة في المدينة	نظيرها في جسم الإنسان
(١) صناعة الخبازين والطباخين.	(١) إمساك المعدة الطعام وهضمه وإنضاجه بالحرارة الغريزية.
(٢) صناعة العصارين الذين يستخرجون الزيت والأدهان والزبد.	(٢) تصفية المعدة للكيموس وأخذ لطيفه ودفعه إلى الكبد، ودفع عكره إلى الأمعاء.
(٣) صنع الخلالين والدباسين وعمل السكنجبين.	(٣) طبخ الكيموس في الكبد مرة ثانية ونضجه فيصير دماً، ودفع عكره إلى الطحال واللطيف إلى المرارة والرقيق إلى المثانة والمعتدل إلى القلب.
(٤) صنع الماورد وتصعيد الخل وتقطير الرطوبات اللطيفة.	(٤) تصفية الدم مرة ثالثة في الرئتين وجريه في القلب والعروق.
(٥) صنع الأدهان اللطيفة كدهن البنفسج ودهن النيلوفر والزيتون.	(٥) تلطيف الدم في الدماغ حتى يصير رطوبة لطيفة روحانية في الأذنين والمنخرين والعينين واللسان وما به انفعالات الحواس.
(٦) صنع الكناسين والزبالين والسمادين.	(٦) دفع ثقل الكيموس من الكعدة إلى الأمعاء والمصارين وإخراجها من الجسد.
(٧) صنع الذين يحفرون الآبار والقنى والأنهار.	(٧) إجراء الدم في الأوردة إلى سائر الأطراف.
(٨) صنع الذين يعملون الحلواء والعجانين.	(٨) تجفيف المادة الدموية حتى تصير لحماً وشحماً.
(٩) صنع الذين يطبخون الآجر والخزف والزجاج.	(٩) تصليب المادة حتى تصير عظاماً.
(١٠) صنع النجارين الذين ينجرون الأساطين وقوائم الأسرة.	(١٠) تسوية عظام الفخذين والذراعين.
(١١) صنع أسنان المفاتيح وهندسة الصناديق.	(١١) تركيب مفاصل الركبتين والفخذين والذراعين والأصابع.
(١٢) صنع السفن.	(١٢) تركيب خرزات الظهر والرقبة والأضلاع.
(١٣) صنع القماقم والأباريق.	(١٣) تركيب عظام القحف وهندامها.
(١٤) صنع النحاتين الذين يصنعون الأرحية والطواحين.	(١٤) خلقة الأسنان وتركيبها وترصيعها.

نظيرها في جسم الإنسان	الصناعة في المدينة
(١٥) خلقة الأعصاب وتمديدها وفتلها ونصبها على الأعضاء.	(١٥) صنع الغزالين والحبالين والفتالين.
(١٦) خلق الجلود والغشاوات.	(١٦) صنع النساجين والحاكة.
(١٧) إلحام الجراحات والقروح.	(١٧) صنع الرفائين والخرازين والخياطين.
(١٨) ظهور الشعر على الجلد.	(١٨) صنع الزراعين والغراسين.
(١٩) خلقة الكروش.	(١٩) صنع الذين يعملون الطنافس والمسوح والغليظ من الثياب.
(٢٠) خلقة الأمعاء.	(٢٠) صنع الذين ينسجون ثياب القطن والكتان.
(٢١) خلقة الأغشية الرقيقة في العين.	(٢١) صنع الذين ينسجون الحرير والرقيق من الثياب.
(٢٢) تبييض العظام وتحمير اللحم وتصفير الشحم وتسويد الشعر ثم تبييضه للكبير.	(٢٢) أفعال الصباغين والمزوّقين والدهانين.
(٢٣) تصوير الجنين وخلقة الفراخ في البيض.	(٢٣) صنع المصورين والنقاشين وأصحاب اللعب.

هذه شذرة من الصناعات التي في أجسامنا تصرفت في الطعام والشراب الذي أكلناه واستخلصناه من أنواع الحيوان والنبات والمعادن، فكانت الصناعات التي ذكرناها، ٢٣ صناعة نراها في المدن، ولها نظائر في أجسامنا من الذين يصنعون ما لطف ورق، ومن الذين ينقون المدن من الأدران ومن الحفارين والعجانين وضرّابي اللبن وما أشبه ذلك.

بهذا فلتفهم قوله تعالى فيما نحن بصدده من الآيات: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ فهاأنا ذا ذكرت لك كيفية التصوير في الأرحام، وأمطت لك اللثام عن عجائب كانت مخبوءة في كتب آبائنا وكتب الفرنجة، فأصبحت أمامك جميلة المحيا باهرة الطلعة، حسنة القوام، تبهج الناظرين، وتسر المفكرين الذين يقرؤون: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات:٢١]، ﴿إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝ وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [الجاثية:٣-٤]

فبهذا فليكن الإيقان، وبهذا فليكن الإيمان، وبمثل هذا فليعلم دين الإسلام، و﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ﴾ [الصافات:٦١]، وعلى هذا النمط وبهذه الطرق فليرتق المسلمون، وعلى العلماء بعدنا أن ينيروا الأذهان ويعلموا الشبان ويوقظوا الوسنان، ويحيوا أمة أماتها الجهل وأضناها المحل، وأحاط بها الأعداء وأمرضها الداء.

أيها العلماء، حاربوا الجهالة، وأحيوا العلم، وأبرزوا جمال المشاهد وجمال الأنفس، وبينوا للشبان الجمال والحسن والبهاء والزينة، والتزويق والنظام والكمال في جسم الإنسان ظاهره وباطنه، وخافوا يوماً يقال فيه: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ۝ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ۝ بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ﴾ [الصافات:٢٤-٢٦].

ولست أقصد بالعلماء إلا الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾ [فاطر:٢٨]، وهم الذين اطلعوا على هذا الجمال وأدركوه، ودرسوا هذا العالم وفهموه، وقرؤوا صنع الله في الجسم والنفس فعقلوه ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [البقرة:٥]، وهم: هم الذين خاطبهم الله، فقال: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَاۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَۗ ﴾ [فاطر:٢٧-٢٨]، هؤلاء هم العلماء الذين يخشون الله خشية ناجمة من إدراك جماله، والصور البهجة التي زوّقها، والصناعات البديعة التي أبدعها، أولئك هم المسؤولون.

فمن قرأ هذا التفسير وأدرك الحقائق فليعلم وليشوّق الناس، فلا حياة للمسلمين إلاّ بهذه النظرات، ولا سعادة لهم إلاّ بهذه الآيات، ولا بقاء لهم إلاّ بما قدمناه، ولا رقيّ إلاّ بما رسمناه، ذلك هو الصراط المستقيم، ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ [يوسف:٧٦].

مناظر الأنفس أشبه بمناظر الآفاق

قد استبان لك بما قررناه أن الحياة الإنسانية احتاجت إلى شهوة عاونتها الحواس من الذوق والشم والبصر، وإلى غضب به يحافظ الحي على ما ملك من نبات وحيوان وطعام ومتاع، وعقل به يدبر هذه كلها، وقد تبين لك أن الذي نتصرف فيه ونتمتع به من النبات مئات الألوف، وكذا الحيوان والمعادن والماء في الأنهار والأرض وما عليها من الكواكب بأنوارها، والهداية بها في ظلمات البر والبحر، وأنت تعلم أن هذه عجائب لا تتناهى، فانظر الآن في نفسك وتأمل هل ترى فيها مناظر وعجائب مثل ما تراه بعينك في هذا العالم؟ أما أكثر الناس فإنهم يقولون: كلا ليس في أنفسنا شيء، مع أنك تراهم في أكثر أوقاتهم يحسون في أنفسهم بقبض وبسط، وحقد وحسد وغيرة، وفرح وترح، وبخل وكرم، وقناعة وحرص، وفكر وتذكر، وما أشبه ذلك، وكل هذه المناظر المختلفة تشغلهم في سائر أوقاتهم، وتلهيهم عن التمتع بما حولهم، وقد ترى المرء مطرقاً مفكراً طول يومه، لا ينظر الصور الجميلة حوله من شجر ونبات وإنسان، لماذا؟ لأن عدوه يتربص ليقتله أو أنه يفكر في حبيب غائب أو في دين عليه أو دين له. كل ذلك لمناظر وأنواع من الوجدان قد أحاطت بالنفس فألهتها عن كل شيء، وتلك الأنواع النفسية لها وجود، ولولا أنها موجودة ما شغلنا بها ولا أضاعت أوقاتنا ولا أورثتنا مرضاً تارة، وصحة تارة أخرى.

إذا فهمت ذلك فلتعلم أن المناظر التي نراها تنقسم إلى قسمين: قسم نكرهه، وقسم نحبه. فالذي نكرهه مثل: الذباب والحيات والعقارب والآساد والنمور والشوك والحنظل والأعداء. والذي تحبه مثل: النجوم والأزهار والأنهار والمزارع الجميلة، والطيور المغردة، والحيوانات الأنسية، هكذا ما في النفس من الوجدان فإنه منقسم إلى قسمين: محبوب كالكرم والعلم والحلم والإحسان، ومكروه مثل: البخل والحرص والجهل والحمق والخور والجبن وما أشبه ذلك، فالذي سميناه محبوباً هي الفضائل، والذي سميناه مكروهاً هي الرذائل، فالرذائل في الإنسان كالحيات والعقارب مكروهات، والفضائل في الإنسان كالطيور المغردة والصور الجميلة، فلأبين لك القسمين في هذا المقام لتنظر كيف

كانت القوة الشهوية والقوة الغضبية والقوة العاقلة قد أنتجت أنواعاً وأصباغاً من الوجدان كأنها حدائق من الجنات ومزارع نضرات، وتارة كأنها نار متأججة أو حيات وعقارب، فكأن تلك القوى النفسية لما كانت أهم الأسباب في رؤية المخلوقات المشاهدة فدرست علوم الآفاق، كانت هي أنفسها في النفس ذات مناظر مختلفات من جنات وأعناب ونار وجحيم وعقارب وحيات جهنمية، ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١].

أنواع المحبوبات من الوجدان الداخلي التي تفرعت من القوة الشهوية والغضبية والعقلية وهي تبلغ نحو ٦٠ نوعاً نذكر بعضها

(١) الرأي، الفكر، الظن، التصور، التخيل، الإحساس، الموافقة، النزاع.

فالأول: غاية الفكر ونهايته، والثاني: البحث عن المعارف، والثالث: قياس الأشياء من ظواهرها، والرابع: إفراد صورة عن صاحبتها، ، الخامس: بيان صور المحسوسات بعد مفارقتها، والسادس: قبول صور المحسوسات، والسابع: مصادفة الحي مطلوبة، والثامن: انبعاث النفس نحو الشيء الملائم.

(٢) الصدق، النطق، التمييز، الفهم، الحكمة، الذكاء، الحفظ، الذكر، العقل.

فالأول: الإخبار بالشيء على ما هو عليه، والثاني: شرف الإنسان وبه فضل على الحيوان، والثالث: حصول الفرق بين الحق والباطل والخير والشر، والرابع: حصول المعاني الواردة على النفس والخامس: إدراك أفضل المعلومات، والسادس: سرعة انقداح النتائج وسهولتها على النفس، والسابع: ثبات صور المعاني في النفس، والثامن: حصول ما سبق وجوده في الذهن، والتاسع: الحكم على حقيقة المطلوب بما هي كذلك. هذه ١٧ نوعاً فضائل القوة الناطقة.

(٣) احتمال الكد، الشهامة، النجدة، كبر النفس، التواضع، التثبت، عظم الهمة، العفو، حسن الخلق، البشر، الرحمة، الحلم، الشجاعة.

فالأول: استعمال البدن في الأعمال الحسنة، كطلب الرزق والعبادة، والثاني: الحرص على الأعمال العظام توقعاً للأحدوثة الجميلة، والثالث: ثقة النفس عند المخاوف، والرابع: الاستهانة باليسار والاقتدار على حمل الكرامة، والخامس: إظهار الخمول واجتناب المباهاة وترك العجب، السادس: القوة على احتمال الآلام، والسابع: استصغار ما دون النهاية من معالي الأمور بالأنفة بترفع النفس عن الأمور الدنيئة، وبالحمية وهي الغضب عند الإحساس بالنقص، وبالغيرة وهي إظهار الغضب فيما يخشى عاره، والثامن: أنفس الأخلاق؛ وهو الفضل الحقيقي، والتاسع: خلق شريف للأنبياء والأولياء، والعاشر: إظهار السرور بمن نلقاه والإقبال على محادثته، والحادي عشر: هو عبارة عن حزن مصحوب بمودّة لمن أصابه الألم، والثاني عشر: هو ترك الإساءة لمن أساء إلينا مع القدرة على المجازاة، والثالث عشر: هو الإقدام على الأخطار حيث يجب استصغار المصائب في سبيل الشرف. فهذه فضائل القوة الغضبية.

(٤) الوقار، الصيانة، الانتظام، حسن السمت، الحرية، الدماثة، الدعة، الصبر، الورع، الحياء، السخاء، النزاهة، كتمان السر، القناعة، العفة.

فالأول: حفظ النفس عن الحركات الزائدة والرزانة عند الأحوال الواردة، الثاني: تجنب ما يقبح من القول والفعل المبتذلين كالسخرية والمزاح والأفعال الساقطة، الثالث: أن تكون للنفس حال بها تعرف كيف تقدّر الأمور على أحسن وجه، الرابع: أن تستكمل النفس بالزينة الحسية والمظهر المقبول كالسمت والوقار، الخامس: أن يكون الكسب من جهة يشرف بها صاحبها كالكتابة والهندسة والطب، السادس: الدماثة أي سلامة النفس وطاعتها وسهولتها في الأمور الشريفة العالية، السابع: أن تثبت النفس عند مغالبة الشهوات، وتسكن إذا اهتاجت أعاصير الذات، الثامن: أن تغلب النفس هواها إذا بدت بوادره، التاسع: أن يقصد الفعل الجميل إذا غالبته الشهوات للقبيح، فكأن الصبر تتلوه الدعة يتبعها الورع، فالأول للمغالبة، والثاني للثبات، والثالث لمحو القبيح والتزين بالجميل، العاشر: انكسار النفس خيفة إتيان القبيح وترك التقصير في حق ذي الحق. الحادي عشر: أن يبذل المال من غير إفراط ولا تفريط، بحيث يكون سجية للنفس، الثاني عشر: أن يتباعد الإنسان عن المواقف الشائنة.

أما كتمان السر والقناعة والعفة وهي (١٣ و١٤ و١٥) فهي ظاهرة، ولينبه على أن القناعة الرضى بما سهل، أما العفة فهي عن قبيح الشهوات.

فهذه ٤٦ نوعاً من الفضائل للقوة العقلية والشهوية والغضبية التي غرست فينا لنحيا بها، وهذه القوى مغروسة في الحيوان، ولكن القوة العاقلة هي التي نمت في الإنسان، والقوة الغضبية تبدّت في الآساد والنمور، والقوة الشهوية ظهرت في الخنزير وسائر الأنعام وما أشبهها. وهذه كلها معاً غرست في الإنسان لحياته، الإنسان إذا اتسم بالوقار والصيانة والانتظام وحسن السمت والتخيل والذكاء والحكمة والعقل والإحساس والفكر والشهامة والنجدة والشجاعة وأمثالها، فإنه يرى في نفسه جنة عرضها: الأخلاق الجميلة المذكورة وأمثالها، وطولها: راحة الضمير وسرور النفس، ولا معنى للسعادة إلاّ ما أحس به الإنسان، ولا فضل للمناظر التي لا تقتضيها النفس فترتسم فيها صورتها وتبتهج بجمالها.

الجنات والأعناب والحور والولدان لا لذة فيها ولا ثمرة إذا كانت النفوس عنها منقبضة والحواس غائبة، فالناس لا يفرحون ولا يسرون إلاّ بما أحسته نفوسهم، وشعرت به قواهم، وخزن في أفئدتهم، واطلعت عليه نفوسهم، فهذا هو الذي به يفرحون، فالمحبوب هو الذي شعرت به النفس مما يلائمها، والمكروه ما شعرت به مما لا يلائمها، والذي لا يلائمها هي الرذائل التي أشبهت الذباب والحشرات الضارات والحيات والعقارب والآساد والنمور وسائر المؤذيات، وهي المطلعات على الأفئدة الحائمات حول القلوب المؤلمات للنفوس المزريات بالشرف.

الأخلاق المذمومة

السفه، الرياء، النميمة، التبذل، الغدر، الخرق، الحمق، الكذب، الجهل، المكر، الخبث، البلادة.

فهذه (١٢) خلقاً مذموماً من أخلاق القوة العاقلة، والفرق بين الخرق والحمق أن الأول الحركة عن غير حاجة وعدم التدبر في مزاولة الأعمال، والثاني معرفة الصواب وترك العمل به. (١) والذعر ويكون من صورة غير مألوفة. (٢) والحذر ويكون من شعور أمر مترقب واشتباهه. (٣) والفرق الهيبة من شيء عظيم يضعف عن احتماله. (٤) والحياء. (٥) والخجل، والأول جزع من صورة شيء قبيح قد

فعله، والثاني جزع من أن يعرف بشيء قبيح لم يفعله. (٦) الكسل. (٧) الغدر. (٨) العناد. (٩) الملاحاة. (١٠) التعيير. (١١) الهزؤ. (١٢) الهزل. (١٣) المراح. (١٤) الفخر. (١٥) العجب. (١٦) الزهو. فهذه ١٧ خلقاً ناجمة عن القوة الغضبية من الصفات المذمومة والأفعال المرذولة والحرص والشماتة. وبطلان الشهوة والمجون وإفشاء السر والخيانة والبخل والشره والفجور، فهذه تسع صفات مرذولة من آثار القوة الشهوية، فهذه ٣٧ خصلة مذمومة.

فالبليد والسفيه والمرائي والنمام والغادر والأحمق والمعجب بنفسه والخجل وأمثالهم، كل هؤلاء يحسون بنقص في أنفسهم وكراهة من الناس، فتكون هذه أشبه بما تشاهد في العوالم من النقائص المؤذية إنَّما هذه أنكى وأسوأ وقعاً وأشد فتكاً بالإنسان من الأعداء الخارجين، فإن هذه حيات وعقارب وآساد وزنابير تلدغ صاحبها في يقظته وفي نومه وتؤذيه صباح مساء.

فأكثر الناس يعذبون في الدنيا وهم لا يعلمون أنهم معذبون، ويهانون وهم لا يعلمون أنهم مهانون، وتلفح وجوههم النار وهم فيها كالحون ولا يعلمون أنهم معذبون.

قد استبان لك في هذا المقام أن في النفوس مناظر سارة وأخرى مؤلمة، كما أن في الآفاق مناظر مفرحة وأخرى مؤذية.

ذكر آيات قرآنية مطابقة لما تقدم مع تلخيص ما مضى بحيث يجمع ما ذكرناه وبه يستغني اللبيب في علم الأخلاق

فتأمل أيها الذكي فيما أوضحته لك من هيكل الإنسان وعجائب صورته وحسن نقشه، وكيف كان مركباً من: أعضاء، وحواس، وأظفار، وشعر، وعظام، ولحم، ودم، وشحم، ومخ، وعصب، وشرايين، وأوردة، وطحال، وقلب، وكبد، ومرارة، وحالبين، ومعدة، وأمعاء، وله أبواب تبلغ ١٢، ورجلان، ويدان، وكيف كان هذا التركيب نهاية ما بلغه الكمال، وكيف كان آخر سلسلة وصل إليها الارتقاء من أدنى الحيوان إلى أعلاه، وكيف مرّ على هذه النظم الحيوانية وهو في الرحم، فمر على النقاعيات والهلاميات والحيوانات القشرية والحيوانات الفقرية وانتهى إلى آخرها، وكيف كان مفصل الأعضاء تفصيلاً عجيباً، واتسقت صورها اتساقاً بهيجاً، فكانت مقيسة بشبره حتى كانت العينان معاً طول الأنف، وهكذا شق الفم والشفتان، وكان ما بين الأذنين طول القدم، وهكذا من الجمال الموسيقي وكيف كانت المماثلة بين أطرافه وأطراف الحيوان من أنواع المماثلة التي هي من أنواع الجمال الظاهرة في تماثل أوراق الشجرة فيما تراه، وكيف تشابه ذلك على العلماء، وكان هذا التشابه كالذي جاء في الوحي من الآيات المتشابهات، وكيف كان هيكل الألماني وأحزابه يتبعون ما تشابه منه، وكيف جاء علماء القرن العشرين فأزالوا الشبهة وحلوا العقدة، وقد ذكرنا منهم عشرين عالماً، وأبنّا أن الجمال الباهر في هذه الطوائف يدعو إلى الإعجاب، ثم كيف كانت الحياة الإنسانية مملوءة بالعجائب، فشهواتنا قد أعطيت آلات تستعين بها من الحواس وغيرها، فميزنا الخبيث من الطيب في النبات والحيوان وسائر المخلوقات، ثم نظرنا في أنفسنا فرأينا صناعات مختلفة في أعضائنا وخواصها، وقد ذكرنا منها ٢٣ نوعاً تضارع الصناعات المشاهدات في المدن، ثم قفينا بذكر آثار القوى الثلاثة من الفضائل والرذائل كما كان في المشاهدات الخارجية.

القبيح والجميل

بهذه الصور نفهم قوله تعالى: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾[الشمس:٧-١٠] فالفجور والتقوى قد بانا في هذا المقام، وبهذا نفهم: ﴿ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾[الذاريات:٢١]، وقوله تعالى: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴾[التين:٤-٥]، فلقد بان لك حسن تقويمه، وبان لك كيف رد إلى أسفل سافلين بالأخلاق الرديئة، وقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۝ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ۝ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ۝ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴾[الفجر:٢٧-٣٠]، وقوله تعالى: ﴿ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ۝ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ۝ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ ۝ بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ﴾[القيامة:٢-٥]، وقوله تعالى: ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴾[الطارق:٥-٧] وقوله تعالى: ﴿ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ۝ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴾[القيامة:١٤-١٥]، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ ﴾ أخلاط ﴿ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾[الإنسان:٢-٣]، وقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴾[ق:١٦].

نداء المفسر للمسلمين وبيان أن علم التوحيد
هو نفس هذه العلوم من التشريح ووظائف الأعضاء

أيها المسلمون، كيف جاز لكم أن تثاقلوا إلى الأرض وترضوا بالحياة الحيوانية، وتبتعدوا عن نظام ربكم وعن جمال خالقكم وعن معرفة صنعته؟ كيف يقول لكم ما معناه: خلقنا الإنسان من نطفة فعلقة فمضغة فعظام فلحم فإنسان سميع بصير، كيف يقول هذا لكم وأنتم عن آياته معرضون؟.

أفليس هذا هو علم التوحيد!حرام، والله حرام أن تغفلوا عن هذه العلوم. هذه العلوم واجبة على كل قادر، يقول الله: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾[التين:٤]، ويقول: ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ۝ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾[السجدة:٧-٩].

فأين الشكر أيها المسلمون؟ أين الشكر، ولا شكر هنا إلا بالعلم، فأين العلم؟ العلماء هم الفرنجة، أما نحن فنصيبنا من الدنيا الجهل، أبهذا جاء نبينا، أبهذا نزل القرآن، أينزل القرآن على أمة ويقول الرسول يوم القيامة: ﴿ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴾[الفرقان:٣٠]، أوليس هذا هو الهجر؟.

يا أمة الإسلام، يا علماء الإسلام، يا ملوك الإسلام، يا قوّاد الإسلام، أمعنوا النظر فيما ذكرت وتفكروا فيما قررت، فوالله لئن لم تقوموا بعلوم هذا الدين ليستخلفن الله في الأرض قوماً خيراً منا، ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم ﴾[محمد:٣٨]. وإلا فلماذا أنزل هذا الدين؟ أأنزله ليقرأه الجاهلون ويتعلمه الغافلون؟.

هذا ولقد آن أوان أن يرجع مجد المسلمين، وينصر الله به أمماً كانت غافلة، ورجالاً كانت في ملابس الجهالة رافلة ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠]. فاقرؤوا علوم التشريح ووظائف الأعضاء وعلوم الطبيعة، وخافوا من الله أن تجهلوا هذه العلوم كما كان بعض من قبلنا يخافون أن يعلموها، فهذا أوان الانقلاب وظهور الحقائق، لقد ظهرت الحقائق واستبان السبيل وبانت حجة الله على المسلمين، فليقرؤوا سائر العلوم لا سيما التشريح ووظائف الأعضاء.

هذا هو معنى قوله تعالى في هذه السورة: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٦ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾، هذا تمام تفسير هذه الآيات.

ولما كان في هذه الآيات إشارة إلى أن الشبهات قد تزيغ بها الأفئدة ناسب أن يدعو العبد ربه أن لا يوقعه في الزيغ بعدها، فقال تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ۝٨ رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾.

القسم الثالث من سورة آل عمران

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ ۝١٠ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝١١ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ۝١٢ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ۝١٣ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ۝١٤ ۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ۝١٥ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ۝١٦ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ۝١٧ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١٨ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ۝١٩﴾

مجمل التفسير في هذه الآيات

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ من اليهود والنصارى ومشركي العرب ﴿ لَن تُغْنِيَ ﴾ لن تنفع، أو لن تدفع ﴿ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ﴾ أي من عذاب الله شيئاً، أو يقال: إن «من» بمعنى «عند»، أي: عند الله شيئاً ﴿ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ ﴾ حطبها، ألا وإن عادة هؤلاء الكفار من المعاصرين لك يا محمد، وفعلهم وحيفهم في تكذيبك وجحود الحق ﴿ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ﴾ أي عادتهم وفعلهم وصنيعهم، فإنهم كذبوا موسى وصدقوا فرعون ﴿ وَ ﴾ دأب ﴿ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ وهم كفار الأمم الماضية مثل عاد وثمود حال كونهم ﴿ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ زيادة تخويف للكفرة وتهويل وزجر. وقال ابن عباس وغيره: لما أصاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قريشاً يوم بدر ورجع إلى المدينة جمع اليهود في سوق بني قينقاع وقال: يا معشر اليهود، احذروا من الله مثل ما أنزل بقريش يوم بدر، وأسلموا قبل أن ينزل بكم ما نزل بهم، فقد عرفتم أني نبي مرسل، تجدون ذلك في كتابكم، فقالوا: يا محمد، لا يغرنك أنك لقيت قوماً أغماراً لا علم لهم بالحرب، فأصبت منهم فرصة، وإنا والله لو قاتلناك لعرفت أنا نحن الناس، فأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿ قُل ﴾ يا محمد ﴿ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ أي لليهود ﴿ سَتُغْلَبُونَ ﴾ أي ستهزمون ﴿ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾ أي الفراش، أي بئس ما مهدوه لأنفسهم أو بئس ما مهد لهم، وقد حقق الله ذلك، فقتل المسلمون بني قريظة، وأجلى عمر بن الخطاب بني النضير إلى الشام، كما فتح النبي صلى الله عليه وسلم خيبر وضرب الجزية على طائفة من اليهود، وهذه الآية مثل من دلائل النبوة لأنه خبر قد تحقق فيما بعد ﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ ﴾ أيها اليهود ﴿ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ﴾ يوم بدر ﴿ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ أي طاعته وهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه، وكانوا ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً، سبعة وسبعين رجلاً من المهاجرين وستة وثلاثين ومائتي رجل من الأنصار، وكان صاحب راية المهاجرين علي بن أبي طالب، وصاحب راية الأنصار سعد بن عبادة، وكان فيهم سبعون بعيراً وفرسان، وكان معهم من السلاح ستة أذرع وثمانية سيوف، هذه فرقة مسلمة ﴿ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ ﴾ أي وفرقة أخرى كافرة وهم مشركو مكة، وكانوا تسعمائة وخمسين رجلاً من المقاتلة، وكان رأسهم عتبة بن ربيعة بن عبد شمس، وكان فيهم مائة فرس، وكانت وقعة بدر أول مشهد شهده رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد الهجرة ﴿ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ ﴾ أي يرى المشركون المؤمنين مثلي عدد المشركين، فكأنهم كانوا يرونهم قريباً من ألفين، وقد قلل الله عزَّ وجلَّ المسلمين في أعين المشركين، فلما التقى الجمعان خيل لهم أن المسلمين ضعف عدد المشركين ﴿ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ﴾ رؤية ظاهرة معاينة ﴿ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾ نصره، كما أيد أهل بدر ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ ﴾ التقليل أولاً والتكثير ثانياً وغلبة القليل عديم العدة على الكثير شاكي السلاح ﴿ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴾ أي لعظة لذوي البصائر. وأصل العبرة من العبور كأنه طريق يعبرونه فيوصلهم إلى مرادهم، وهؤلاء يعبرون من منزلة الجهل إلى منزلة العلم ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ ﴾ أي زين الله للناس حب المشتهيات، والشهوة توقان النفس إلى الشيء المشتهى، وإنما زينها الله لأنها من أسباب التعيش وبقاء النوع ﴿ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ ﴾ بدأ بالنساء لأن الحب لهن شديد، أودعه الله في قلوب الرجال وفي قلوبهن للحكمة البالغة وهي بقاء النوع، ولولا تلك المحبة

البالغة بينهما ما كان ذلك، وخص البنين بالذكر لأن حب الولد الذكر أكثر من حب الأنثى لأن الأب يتكثر به وهو يعضده ويقوم مقامه ﴿ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ ﴾ القنطار: المال الكثير، هذا هو أصل المعنى، فإذا قيل: إنه مائة ألف دينار أو ملء جلد ثور أو ألف أوقية أو ألف ومائتا مثقال فذلك يرجع إلى اصطلاحات الناس التي نقلت عن السلف، وكل قال ما سمعه مما وقع عليه اختيار قوم، ويقال: قنطرته، إذا أحكمته، ومنه القنطرة، أي: المحكمة الطاق، والمقنطرة: المجموعة، ويصح أن تكون للتأكيد كقولهم: بدرة مبدّرة ﴿ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ ﴾ من السمة وهي العلامة، فهي معلمة بالغرة والتحجيل أو بالكي، ويقال أيضاً: سومت الدابة وأسمتها، إذا أرسلتها المرعى، والمقصود أنها إذا رعت زاد حسنها ﴿ وَٱلْأَنْعَٰمِ ﴾ جمع نعم، وهي الإبل والبقر والغنم ﴿ وَٱلْحَرْثِ ﴾ الزرع ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ المذكور من هذه الأصناف ﴿ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ أي الذي يستمتع به فيها، وهي زائلة ﴿ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴾ المرجع، وهذا تحريض على استبدال ما عند الله من اللذات الحقيقية الأبدية بالشهوات الفانية ﴿ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ﴾ أي أأخبركم بخير مما ذكر من متاع الدنيا ﴿ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ﴾ هذا مستأنف لبيان ما هو خير ﴿ وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ﴾ مما يستقذر من النساء ﴿ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إن الله عزّ وجلّ يقول لأهل الجنة: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى، وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك، فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك؟ فيقولون: وأي شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أحلّ عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً»، ثم إن العبد إذا علم أن الله رضي عنه، كان ذلك سروراً له لا يعادله سرور ﴿ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ أي بأعمالهم فيثيب المحسن ويعاقب المسيء، وسترى قريباً سر ترتيب هذه النعم، وإن أدناها لذات الدنيا وأوسطها الجنة وأعلاها رضوان الله بالتنزه عن العالم المادي ﴿ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴾[القمر:٥٥]، وكما قدمناه في سورة البقرة عند قوله تعالى: ﴿ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ﴾[البقرة:٢٥] فراجعه هناك، ثم وصف المتقين فقال: ﴿ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ والغفران ستر الذنوب والتجاوز عنها ﴿ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ على أداء الواجبات وعن المحرمات والمنهيات وفي البأساء والضراء وحين البأس، كما تقدم في البقرة، وعلى ما أصابهم في دنياهم من البلاء ﴿ وَٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ في إيمانهم صدقت نياتهم واستقامت ألسنتهم وقلوبهم في السر والعلانية، فلا يكذبون في أقوالهم، ولا ينصرفون عن أعمالهم حتى يتمونها، ولا عن نياتهم وعزمهم على الفعل حتى يبلغوه ﴿ وَٱلْقَٰنِتِينَ ﴾ المطيعين لله المواظبين على فعل الطاعات ﴿ وَٱلْمُنفِقِينَ ﴾ أموالهم على أنفسهم وأهلهم وأقاربهم وأرحامهم وفي الزكاة وجميع القربات ﴿ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴾ الاستغفار طلب المغفرة، والسحر هو ما قبيل الفجر من الليل، وخص بالذكر لأن الدعاء فيه أقرب إلى الإجابة، والعبادة أشق، والنفس أصفى والروع أجمع، والاجتهاد أنجع . روى مسلم قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ينزل ربنا تبارك وتعالى في كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير فيقول: أنا الملك أنا الملك من ذا الذي يدعوني فأستجيب له، من يسألني فأعطيه، من يستغفرني فأغفر له» ومعنى هذا العطف والرأفة والقرب من الله، فلا نزول ولا طلوع، وروي أن لقمان قال لابنه: يا بني، لا تكن أعجز من الديك فإنه

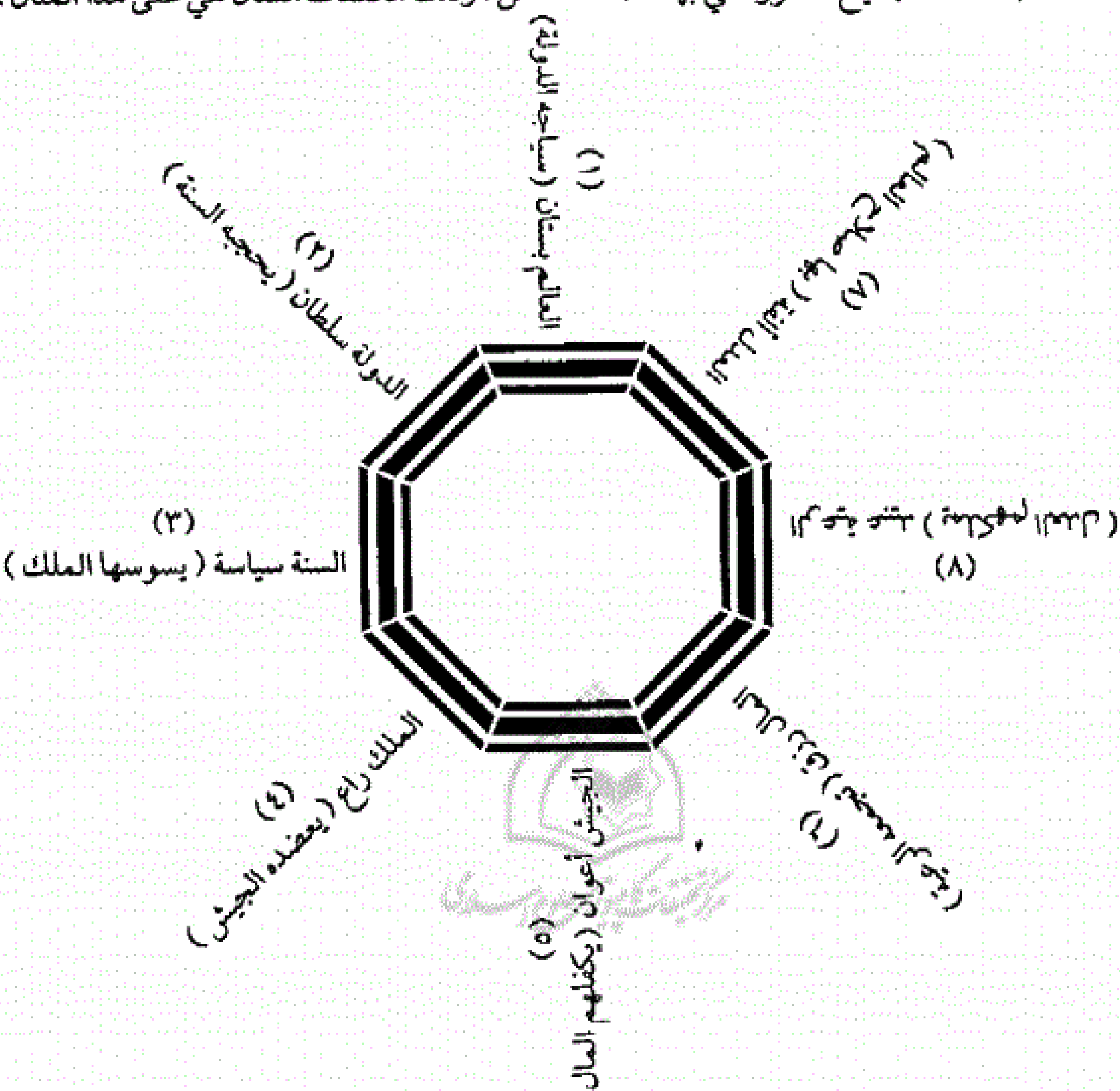
يصوت بالأسحار وأنت نائم على فراشك، وقال نافع: كان ابن عمر يقول: يا نافع أسحرنا؟ فأقول: لا. فيعاود الصلاة، فإذا قلت: نعم، قعد يستغفر ويدعو حتى يصلي الصبح. ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ بيّن وحدانيته بما نصب من الدلائل التي أبدعها في السماوات والأرض، وقد شرحناها عند قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ في سورة البقرة [آية:١٦٤] ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ لأنهم أقرب إلى علم العجائب الكونية ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ﴾ الناظرون في ملكوت السماوات والأرض من بني آدم الذين في هذه الأرض من الأنبياء والحكماء والعلماء، وهؤلاء أقرب إلى الملائكة، فيعلمون أن الله لا إله إلاّ هو حال كونه ﴿قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِ﴾ أي بالعدل والنظام الذي تقدم في أول هذه السورة وفي سورة البقرة عند آية: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[آية:١٦٤] وغيرها فراجعها هناك تجد عجباً عجاباً ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ كرره للتأكيد ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالب الذي لا يقهر ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في أفعاله، ثم أبدل من أنه لا إله إلاّ هو ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ بفتح الهمزة على قراءة الكسائي، فكأنه تعالى يقول: شهد الله والملائكة وأولو العلم أنه لا إله إلاّ هو حال كونه قائماً بالقسط، وشهدوا أيضاً أن الدين عند الله الإسلام والدين هو في الأصل الانقياد، ثم جعل اسماً لجميع ما تعبد الله به عباده وأمرهم بالإقامة عليه، والإسلام هو الاستسلام والانقياد والدخول في الطاعة أو هو الشرع المبعوث به الرسل، المبني على التوحيد الذي أتى به آدم والأنبياء بعده إلى محمد صلى الله عليه وسلم، قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ﴾[الشورى:١٣] فأصل الدين واحد، والاختلاف في الفروع، وقرئ بكسر «إن» على الاستئناف جملة مؤكدة للأولى ﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾ من اليهود والنصارى في أمر موسى وعيسى وأمر محمد صلى الله عليه وسلم فقلت اليهود: عزير ابن الله، وثلث النصارى، وكذب قوم من الفريقين محمداً صلى الله عليه وسلم بعد ما نزل القرآن، ما فعلوا ذلك ﴿إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾ أي بعد ما علموا حقيقة الأمر ﴿بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ حسداً بينهم وطلباً للرياسة ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ وعيد وتهديد لمن أصر على الكفر من اليهود والنصارى. اهـ التفسير العام للقسم الثالث من سورة آل عمران.

تفصيل الكلام على ما تقدم في هذا القسم ببيان المراتب الثلاثة للإنسان وهي
الشهوات والأعمال الفاضلة والعلوم، وأنها درجات بعضها فوق بعض
وتبيان القيام بالقسط وأن هذا هو دين الإسلام وأنه صبغة الله

الحكمة في خلق الشهوات وأنها وسيلة لغيرها

اعلم أن الله عزّ وجلّ أودع الشهوات في الحيوان والإنسان رحمة منه وفضلاً وعدلاً ونظاماً للبرية وإبداعاً وحكمة، فمن شهوة الغذاء إلى الملبس إلى التناسل إلى المساكن إلى عمارة المدن ونظام الأمم وقيام العمران، فلا أمم ولا دول ولا ممالك ولا حرث ولا نسل ولا أنبياء ولا حكماء إذا لم تكن شهوات فالشهوات من أكبر نعم الله وأعمها وأعظمها، بل هي أول نعم الله على عباده، وهل كانت حكومات الأرض مقسمة إلى أقسام من زراعة وإدارة وهندسة وطب ومحاكم إلاّ لما تطلبه الشهوات والبقاء في

هذه الحياة. يقال: إن أرسطاطاليس أوصى أن يدفن ويبنى عليه بيت مثمن، يكتب في جهاته ثمان كلمات جامعات لجميع الأمور التي بها مصلحة الناس، وتلك الكلمات الثمان هي على هذا المثال:



فهذه الشهوات وما يجبى إليها من المال وسائل للكمال الجسمي والعقلي، فمن وقف عندها أذلته فأصبح عقله موقوفاً وقلبه محبوساً ونفسه جازعة وحياته ضائعة.

لقد رأيت ما جاء في القرآن وأن الشهوات من النساء والبنين والذهب والفضة والزرع والخيل والأنعام قد زينها الله للناس، ورأيت الشكل المثمن الذي رسمه أرسطاطاليس، فاعلم أن ذلك متاع الحياة الدنيا وأنه مقدمة، والمقدمة غير مقصودة لذاتها، فهذه وإن زينها الله وطلبها الملك ما كانت حاجتنا إليها إلاَّ كحاجة الصياد للشبكة والحارث للمحراث والتلميذ للوح، ولو أن الصائد جعل الشبكة مقصودة لذاتها في الحياة والصبي جعل اللوح غاية المنى لكان الصيد ضلالاً والعيش وبالاً، ذلك مركوز في الفطر معلوم في السير درج عليه البشر، اشترك فيه العالم والجاهل والملك والصعلوك، فلا ترى عزيزاً إلاَّ وهو يقول: أف من الحياة. ولا ذليلاً إلاَّ وهو يقول: أين الجاه، ولا موسراً إلاَّ وهو مفتون في مناه يائس فيما ابتغاه، فالناس كلهم أجمعوا على التبرم والتضجر والاشمئزاز في كثير من الساعات، على ذلك درجوا، ولذلك خلقوا ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ﴾[الأنعام: ١١٥] على الإنسان والحيوان، فهم في

العذاب الهون وإن كانوا لا يشعرون أنهم معذبون . أليس من العجب أن تكون النعمة بالشهوات نقمة والإعطاء سلباً فأين المخرج إذن؟ قال أبو الطيب المتنبي :

كل من في الكون يشكو دهره ليت شعري هذه الدنيا لمن

الشهوات شبكات نصبها الله للناس ليحيوا بها ، ولكنهم إذا وقعوا فيها تبرموا من المصائب ظهر ذلك في كتبهم ونظمه شعراؤهم وأوحاه الله إلى أنبيائهم . ولقد أطنب في احتقار الحياة ونعيمها ومنفعتها النبي سليمان عليه السلام في التوراة في مقال هناك تحت عنوان «الجامعة» فقال : هكذا باطل الأباطيل ، وأخذ يشرح الحياة ويذمها ويقول : لا خير في المال ولا الولد ولا العلم ، ويقول : ما تحت الشمس من جديد ؛ ومن هذه الحكم : ما الفائدة للإنسان من كل تعبه الذي يتعبه تحت الشمس ، دور يمضي ودور يجيء ، والأرض قائمة إلى الأبد والشمس تشرق والشمس تغرب وتسرع إلى موضعها حيث تشرق ، وقال : ما كان فهو يكون ، والذي صنع فهو الذي يصنع ، فليس تحت الشمس من جديد إن وجد شيء يقال عنه : انظر هذا جديد فهو منذ زمان كان في الدهور التي كانت قبلنا ليس ذكراً للأولين ، والآخرون أيضاً الذين سيكونون لا يكون لهم ذكر عند الذين يكونون بعدهم ، ومنه : رأيت كل الأعمال التي عملت تحت الشمس فإذا الكل باطل وقبض الريح ، وقال : إن في كثرة الحكمة كثرة الغم ، والذي يزيد علماً يزيد حزناً «يقول مؤلف هذا الكتاب» : لقد قلت في هذا المعنى في واقعة حال شعراً :

يقولون إن العلم للهمّ دافع فكيف رأيت العلم أجمع للهم

ألم تر أني ضاع مني مؤلف لطيف فلم أصبر على ذلك الغرم

لأني قد رصعت بين سطوره دراري حتى لا يشذ عن الفهم

قضاء قضاه الله في عالم الدنا فراراً من الآساد تغرق في اليمّ

عمر الخيام بعد النبي سليمان عليه السلام

وقفى على آثاره عمر الخيام في منظومته المسماة بالرباعيات ، التي لم تكن معلومة عند المسلمين وكانت بالفارسية ، ولم تظهر في العالم ولم تترجم إلاَّ في هذه الأيام ، فقد ترجمت إلى الإنجليزية ومنها إلى العربية ، وسار ذكر الرباعيات في الأقطار في أوروبا وفي أمريكا ، حتى إن هناك اثني عشر مرسحاً لتمثيل رباعيات الخيام ، وكلها أو جلّها لاحتقار الحياة والتماس المخرج منها بالخمر أو ما شاكله .

ثم قفى على آثاره أبو العلاء المعري الذي حقر المال والولد والحياة وكل شيء في الوجود حتى زعم أن أباه جنى عليه وهو لا يجني على أحد .

هذه هي الصورة الإنسانية شهوات محبوبة حياة مملولة ، وكل يطلب منها مخرجاً وله في المخرج رأي على قدر علمه .

مخرج الجهلاء وبعض النابغين من سجن الحياة

فأما أهل الدعارة والجهالة والفسوق وبعض المتازين في العلم ، فإنهم يقولون : نحن نشرب بنت الحان ، ونسمع الألحان ، ونغازل الحسان ، وهكذا إلى آخر الزمان ، ويقولون : إنَّما الحياة لعب ولهو فإذا أحسسنا بسجنها شربنا الرحيق المختوم فزالت عنا الهموم ، ومنهم من تعاطى الحشيش والأفيون ،

ومنهم من يحقن الجلد بالمادة المسماة «كلوروفرم» وهي خلاصة الخمر، ومنهم من يشم مادة تسمى «الكوكايين»، ذلك مخرج الجاهلين، يخرجون من سجن الحياة إلى سجن الممات، ويفرون من جهنم إلى الجحيم، ومن العذاب إلى العذاب، أولئك هم الضالون الجاهلون، ولذلك عرفت الأمة الأمريكية نكبات تلك المخدرات والمسكرات فمنعتها، كما جاء في القرآن وأيقنت أن ظلها لا هو ظليل ولا يغني من اللهب.

مخرج العقلاء والعباد والعلماء

أما العقلاء فإنهم يقضون أوقاتهم إما في عمل نافع وإما في عبادة وإما في علم فلا يحسون بألم الحياة، فالعاملون تقر أعينهم بأعمالهم، والعابدون والعلماء المجدون كل تتبدد هموم الحياة عنه لأنه شغل نفسه بما يدفع الآلام ويزيل الظلام ويحيي النفوس وينفي البؤس، فالنفس في التمثيل كالإناء إن لم تملأه ماء ملأه الهواء.

المخرج الذي قصه الله في القرآن

أما القرآن فكأن الله يقول فيه: أنا الذي زينت لكم الشهوات فلا تتركوها، ولا تأخذوها إلاَّ بقدر، لا كما يقول أبو العلاء المعري وعمر الخيام، ولا كما جاء في التوراة عن سليمان عليه السلام، فأنا لا أزين عبثاً ولا أعطي سبهللاً، فعطائي بحكمة ومنعي بعلم، فابنوا دنياكم وأقيموا أمر الحياة واجعلوها سلماً لما هو أرقى ﴿ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴾.

وأنا وإن زينتها لكم فتزييني لها إلى حين، وعندي ما هو أرقى مقاماً، وأرفع شأناً من حياة أعددتها وجنات هيأتها، ألا ترون أني أصيبكم في الدنيا بمصائب وأمطر عليكم من همومها سحائب، وأوقعكم في المتاعب؟ فلا المال ينفعكم ولا الولد يرفعكم، ولا الأزواج باقية ولا الثروة مغنية، فإن نجا أحدكم من المرض والفقر أبلغته سن الشيخوخة، فيحرم من المال وهو يملكه، ويتمتع بنوه وهو لا يدركه، ويتمنى موته أقرب الناس إليه، ويفرح لمصابه كل عزيز عليه فعينه في جنة وقلبه في نار، فأين الفرار أين الفرار؟.

لا مفر إلَّا بالعبادات والعلوم

ذكر الله الجنة فقال: ﴿ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ﴾ الآيات فذكر الجنات والأنهار ثم أتبعها بالرضوان، وهاتان مرتبتان ذكرتهما في سورة البقرة عند قوله تعالى: ﴿ كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ﴾[البقرة:٢٥] فارجع إليه هناك تجد مرتبة العباد ومرتبة العلماء والحكماء والأنبياء، وإن رضوان الله هنا، وقوله في آية أخرى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ [القيامة:٢٢-٢٣] وأمثال ذلك لأعلى المراتب.

وقد تبين هناك أنك تعرف في هذه الدنيا نفسك أمن الطبقة العليا أنت أم من الأدنين، كل ذلك هناك فلا نعيده كما شرطنا في أول الكتاب، وهذه الجنة ودرجاتها بعد الموت، ولكن الصبر المذكور هنا والصدق والقنوت والإنفاق والاستغفار بالسحر، كل ذلك في هذه الحياة فيه بعض المخرج من سجن الحياة وهو خير، لا ما يجنيه الغافلون على أنفسهم من الخمر وشربه، والحشيش وتدخينه، والكوكايين وشمه، إنَّما ذلك كله انتحار من أفظع العار وأخزى الشنار.

أما العلوم: فقد ذكرها بعد ذلك في قوله تعالى: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ﴾ فالجنة ذكر فيها الأزواج والأنهار.

وأما ما هو أرقى من الجنة فرضوان الله، وذلك مقام يشهده الملائكة، وهو مقام القرب من الله، مقام الكشف والمشاهدة والإحاطة بالوجود والعلم بالكائنات، فذلك مقام الأنبياء والملائكة والحكماء والعلماء، فالله قد عطف على نفسه الملائكة، وقفى على آثارهم بالعلماء، ذلك مقام الصدق ومشهد الحق ورضوان من الله أكبر، فالعباد في مقام المتقين، والعلماء والحكماء الناظرون في هذا العالم في مقام الواصلين المقربين.

لطيفتان: الأولى صلاتي عند النهر

كنت منذ عشرات السنين مدرساً للغة العربية بالجيزة، فاعتراني يوماً قبض وأنا خارج البلدة على نهر، فتوضأت وأقمت الصلاة على شاطئه واستحضرت أركان الصلاة، فانشرح صدري انشراحاً عظيماً، فهذا أول ما علمت أن في الإنسان قوى خفية لا تستخرج إلاّ بالعمل، كالكهرباء لا يثيرها إلاّ معالجة تظهرها وحك يبرزها.

اللطيفة الثانية: ثغاء النعجة

كنت منذ ليال وأنا بصدد تأليف هذا التفسير في المنيل على شاطئ النيل غربي القاهرة، والنسيم عليل والهواء طلق جميل ومحيا السماء باسم الثغور ناضر بالنجوم، وبينما أنا ناظر إليها معوّل في التفكير عليها إذ سمعت نعجة في سفينة ذهبية لها ثغاء، وأصحاب السفينة يغنون، فخطر بنفسي أنها مسجونة وهم مطلقون، باكية وهم فرحون، ولكن سرعان ما ذهب هذا الهاجس وحل محله ما هو أوسع نطاقاً وأوضح إشراقاً. ذلك أن كل حيوان وإنسان في سجن الحياة والشهوات، أليس أهل الأرض محبوسين فيها فلا يستطيعون عنها حولاً إلى المريخ، ولا مخرجاً إلى الثريا؟ وما من امرئ إلاّ وحانت منه التفاتة يوماً إلى السماء، فقال: يا ليت شعري أي نعيم هناك وأي سعادة إذ ذاك؟.

ذلك محبسهم العمومي ومقامهم الكلي، ولكل من أهل الأرض مقام في سجنه، فمنهم من سجن في وطنه فلا يتعداه ولا يرى سواه، ومنهم من سجن في زوجه أو ولده أو دينه أو شهوة ملازمة أو عداوة دائمة أو عقيدة راسخة، فمنعه العلم والحكمة، ومنهم من أعجب بملابسه أو فرح بدابته أو افتخر بعلم من العلوم أو أعجب بعبادة خاصة أو لازم مكاناً لجماله وحسن بنيانه «والجنون فنون» فكل يعمل على شاكلته وكل موثق بساريته، فهم في السجن مشتركون وفي الوثاق معلقون، وكل حزب بما لديهم فرحون، كل شاة برجلها معلقة، وكل فتاة بأبيها معجبة ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴾ [العصر: ٢-٣] ﴿ قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴾[عبس: ١٧] ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾[الأحزاب: ٧٢].

فإذا حبس القوم النعجة وهي صارخة، فإنهم في عاداتهم وأخلاقهم وأحوالهم محبوسون، فإذا زين الله الشهوات للناس من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل والأنعام والحرث فكأنه يقول: أي عبادي لقد حبستكم جميعاً في الأرض فلستم عنها تبرحون، ووضعت كلاًّ في سجن يخصه، فلا يجد عنه حولاً، لقد حبستكم في أوطانكم، وخالفت بينكم في الأخلاق والأحوال

والعادات والديانات والمذاهب والآراء والألوان والعشائر والأوطان والبيئات، وفصلت بينكم بالبحار والجبال، وألقيت بينكم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة، كل ذلك لحياتكم ورقيكم وإكمال أحوالكم فتحنو الوالدة على ولدها، والوالد يربيه وينفق عليه بما زينت في أفئدتهما من حبه، ووضعته في غريزتهما من رحمته، ويطعم الرجل خيله وإبله وبقره وغنمه، ويحرص الحرص كله على زرعه، وذلك كله لما ركزت في قلوبكم من حب التزين والحرص عليها رحمة بكم وبها، ونعمة عليكم وعليها؛ أي عبادي، ألقيت بينكم العداوة لتستثمروها في حياتكم، فهي مهماز يدفعكم إلى الارتقاء وإحكام السلاح، ورقيّ الصناعة، وإقامة العدل في ممالككم، فبالعدل فيما بينكم تقوون على عدوكم وهو يقوى، وبهذه تزدان الحياة بكما، ومن قصرت خطاه وضل مسعاه دخل تحت نير عدوّه، كما أبحت للحيوان أن يأكل النبات وللإنسان أن يأكل الحيوان، وأوجبت على الآساد والنمور والصقور والشواهين أن لا تغذى إلاّ باللحمان، ولا تزدرد ما تحتاجه إلاّ من الحيوان. هذا هو مبدأ الوجود وغايته وأوّله وآخره.

ولما كان الإنسان أعلى الحيوان مقاماً، وأرقاه نظاماً، ألهمته أن يفكر وينظر في مستقبله بما ألهمت أنبياءه وعلمت حكماءه من السير الشريفة، والآراء اللطيفة، والعقول البهية، والنفوس المضيئة العلية، فأنزلت عليهم قوانين وعلمتهم منها أفانين، فأبرزت بها مكنون الإنسان وعلمته التوراة والإنجيل والقرآن، وقلت فكروا فيما حولكم، وانظروا فيما خوّلتكم، وتنحوا عن المادة، وقوموا من الليل قليلاً واستغفروا طويلاً، وأثيروا ما في نفوسكم من الحكمة بالصبر والحلم وجمال الخلال، فأنفقوا المال وقوموا بالأسحار، وانظروا يا عبادي ألست عادلاً فيما صنعت، مقسطاً فيما نظرت، أي عبادي، انظروا هذا النظام وفكروا فيه، إني باللين والشدة أربيكم، أريكم بما تكرهون وما تحبون لتستيقظ النفوس وترقى العقول.

أما أنا فإني أعلم حسن النظام والقيام بالقسط، كذلك الملائكة لأنهم عن المادة مجردون، ثم العلماء والحكماء منكم الذين هم مذكورون في آية: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ شديدة السواد ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ﴾ [فاطر: ٢٨-٢٩] هؤلاء هم العلماء الذين ينظرون في جمال هذا العالم وإحكامه، وهؤلاء هم الذين صبغوا صبغة الله تلك الصبغة العدل والقيام بالقسط التي شهد بها الله والملائكة، وتلك الصبغة هي دين الإسلام المذكور بدلاً من أنه لا إله إلاّ هو قائماً بالقسط، فجعلت دين الإسلام هو المستخلص من وحدة النظام والقيام بالقسط ذلك هو دين الإسلام.

دين الإسلام هو الدين العام، ولا يظن المسلم أن النطق بالشهادتين والأعمال الظاهرة كافية، إنّما يراد أن يكون هناك نظام عام وعلم بما أبدع الله في الأرض والسماء، وتكون الأمة قد تغلغل فيها العلم بالقيام بالقسط والعدل في هذا الوجود، فتكون الأمة أرقى الأمم بأن تتغلغل في العلوم وتزدان بها ويعم العدل ربوعها، فتكون علوم الطبيعة وعلوم الفلك والنظام العام معروفة عند الخاصة على أنها يدن، ويقوم القضاة بالعدل، والحكام بالقسط، وجميع العائلات ليستتب فيها النظام اتباعاً لربهم وقياماً بالقسط كمبدعهم، ذلك هو دين الإسلام.

واعلم أن هذا القول قد شرحناه مراراً في البقرة، وهكذا في القسم الثاني من هذه السورة، وأطلنا فيه بما لا مزيد عليه، ولكن لأذكرها هنا من حسن النظام ما لم يرد فيما مضى تذكرة للقيام بالقسط والعدل في العالم المشاهد.

نظام النبات بالمواد الداخلة فيه

فلتعلم أيها الذكي أن الماء مركب من مادتين إحداهما محرقة تسمى الأوكسوجين والأخرى إذا وضع فيها حيوان يموت وتسمى الأودروجين، هذا هو تركيب الماء كما قدمناه، والهواء مركب من الأوكسوجين المتقدم ومن مادة تسمى الأوزوت، وفيه كربون أي مادة فحمية، والأوزوت المذكور يسمى أيضاً نيتروجين، ثم الكبريت وهو معروف، والفسفور وهو مادة نارية تلتهب في الماء، والبوتاسيوم والمغنيسيوم والكلسيوم والحديد، فهذه عشرة كاملة لا بد من دخولها سائر النباتات، ولا يقوم نبات إلاَّ بها، وإن نقص واحد منها لا يعيش النبات.

واعلم أن العناصر المعروفة تربو على السبعين، والنبات لا يأخذ من الأرض والهواء ما عدا هذه، فليس يعوزه الذهب والقصدير والنحاس والفضة والزئبق، وربما دخل بعض هذه في النبات بقلة كالنحاس والخارصين، ولكن العشرة المتقدمة لا يستغني عنها أي نبات في الأرض.

أفلا تعجب كيف أعطي النبات قوة أن يمتص من الهواء ومن الماء ومن التراب ما يقوم به ويغتذي، ثم يكون ذلك داخلاً في تركيب بنيتنا وبنية الحيوان؟.

أهم أجزاء النبات أربعة وهي التي يقوم عليها حياته وحياة الحيوان، وهذه الأربعة هي: الأوكسوجين والأودروجين والأوزوت والكربون. هذه الأربعة يكون بعضها في الماء وبعضها في الهواء، وهذه الأربعة أهمّ ما تقوم عليه أجسامنا.

وهاك جدولاً يعرفك بعض النظام بأدنى تأمل:

أنواع النبات	ماء	مقدار المادة الجافة	الجزء القابل للاحتراق	رماد
القمح (حبوب)	١٤,٣	٨٥,٧	٧٦.٥	٩,٣
الشعير	١٤,٣	٨٥,٧	٧٢,٧	١٣,٠
الشوفان	١٤,٣	٨٥,٧	٧٥,٧	١٠,٠
الفول	١٥,٠	٨٥,٠	٧٩,٥	٥,٥
بزر اللفت	١١,٨	٨٨,٢	٨٤,٣	٣,٩
التفاح	٨٤,٨	١٥,٢	١٤,٨	٠,٤
جذر الجزر	٨٥,٠	.١٥٠	١٤,١	٠,٩
درنات البطاطس	٧٥,٠	٢٥,٠	٢٤,١	٠,٩
الحشائش وهي خضراء	٨٠,٠	٢٠,٠	١٨,٠	٢,٠
البرسيم	٨٦,١١	١٣,٨٩	١٢,٢٣	١,٦٧
ساق البطاطس وورقه	٨٥,٠	١٥,٠	١٣,٤	١,٦

(١) إذا قلعت نباتاً من هذه المذكورات ووضعته في فرن محمى إلى درجة فوق درجة غليان الماء قليلاً كأن تكون الدرجة ١٠٥ إلى ١١٠ فإنك ترى النبات يفقد شيئاً من وزنه بما خرج منه من الماء.

ومتى استمررت على ذلك بضع ساعات خرج الماء منه كله ولم يبق من النبات إلاّ مادته الجامدة، وهذه المادة الباقية الجافة إذا أحرقت تركت وراءها مقداراً قليلاً من رماد لا يقبل الاحتراق، لونه أبيض أو ضارب إلى الصفرة، وهذا الرماد امتصه النبات بجذوره من الأرض وهو عبارة عن مواد معدنية، فانظر الجدول وخذ القمح والتفاح مثلاً، فإن حبّ القمح لما وضع في الفرن ظهر أن الماء الذي كان فيه ٣ , ١٤ من مائة جزء منه والباقي وهو ٧ , ٨٥ مادة جافة يابسة، فإذا أحرقناه ذهب منه ٥ , ٧٦ والباقي وهو ٢ , ٩ رماد، والتفاح لما وضع في الفرن ذهب منه ٨ , ٨٤ من المائة والباقي ٢ , ١٥ من المائة يذهب منه للاحتراق ٨ , ١٤ من المائة، والباقي وهو الرماد ٤ , ٠ ؛ فالتفاح وضعت فيه قوة الحياة التي امتصت من الهواء ومن الماء الكربون والأوكسوجين والأودروجين والأوزوت، فكانت هذه الأربعة التي يطير أكثرها نحو تسعة أعشاره والباقي من مواد عضوية في الأرض أو من عناصر، وكان هذا التركيب مكوناً لصورة التفاح، ولو أن التفاح عكس القضية فأخذ ماء أقل من ذلك كالقمح ومادة جامدة أكثر فكانت ٧ , ٥٨ من المائة مثلاً لم يكن تفاحاً بل كان قمحاً. فهذه النباتات وضعت فيها القوة العالية الشريفة، فاختارت ما يصلح لها واصطفت المقادير المناسبة لها فكانت هذه قمحاً وهذه تفاحاً، ومتى اختلفت المقادير تغير النبات، فهنا نظامان: (١) نظام جميع النباتات فقد حرم عليها أن تعيش بغير العشرة المتقدمة، ومنعت من الحياة بالستين الباقية من العناصر، وتبعها في ذلك الحيوان، فلا يعيش إلاّ بهذه العشرة غالباً كالنبات. (٢) نظام كل نبات أنه يأخذ بقدر من تلك العشرة يخالف الآخر فيها ليقوم بقسطه في خدمة الإنسان والحيوان، فترى الفول تناول ١٥ من المائة في تركيبه ماء وخمسة ونصفاً مواد معدنية صارت رماداً قد امتصتها جذوره من الأرض والباقي مواد عضوية أخذها بعروقه وورقه من الأرض والهواء.

لو غير الفول هذا النظام بأن تعاطى ١١ , ٨٦ من المائة في تركيبه ماء والباقي أخذه من الهواء والأرض لم يكن فولاً، بل يصير برسيماً على شريطة أن تكون النسبة على مقتضى ما يناسب البرسيم كما رأيت عند آية الطير وإبراهيم في البقرة، فانظر للعدل في التركيب، أمر كل نبات أن يتعاطى ما يعطيه قوة خاصة به بأن يكون حلواً أو نشوياً أو دهنياً، وهي أصناف وأنواع لا تحصر، ولكن اختلاف العناصر هو الذي أحدث هذا الإبداع والجمال والرزق ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾.

طعامنا

إن طعامنا مكوّن مما تكوّن منه النبات والحيوان، فهو: (١) مواد دهنية، كالسمن والزيت ودهن الحيوان. (٢) ومواد نشوية كالخبز والأرز والبطاطس. (٣) ومواد زلالية أو أزوتية مثل اللحم والبيض والسمك. (٤) أملاح غير عضوية كملح الطعام وأملاح الجير والفوسفور، فالنشا يخزن في الكبد بهيئة أخرى، والدهن يخزن تحت الجلد وحول القلب وحول الكليتين وحول الأمعاء في البطن، المواد الزلالية يمتصها الجسم فتعوّض ما فقده، والباقي يفرزه الجسم بالكلى ونحوها.

فانظر كيف حوّل الهواء والماء مثلاً في النبات إلى مواد صارت في أجسامنا لحماً وشحماً وعروقاً فذلك من القيام بالقسط والنظام التام، ذلك هو المثل الذي اصطفيناه لهذه الآيات.

جمال القيام بالقسط

لقد أوردت لك في هذا المقام مسائل علمية وفوائد نباتية وعناصر تحليلية، فربما كانت أقرب إلى الدرس منها إلى الفكاهة والأنس، فلأسمعك من القيام بالقسط قولاً جميلاً ولأرك نوراً ساطعاً ونجماً طالعاً وبدراً كاملاً وأنساً شاملاً.

أيها الذكي، قد علمت أن كل دين نزل من السماء هو دين الإسلام، فالشرائع الفرعية والطاعة العامة والإقرار بالتوحيد كل ذلك مقتضى تلك الشرائع، والله يشهد بذلك التوحيد وإنه قائم بالقسط مدبر بالعدل، والملائكة يشهدون بذلك التدبير، والأنبياء والحكماء شهداء على ذلك.

ولما كنت أيها المطلع على هذا التفسير، العاشق له، المغرم به، الفرح بما اشتمل عليه من العلماء وهم المعطوفون على الملائكة، فلتبشر بالسعادة النفسية والراحة الملكية والعلوم الإشراقية، لأنك اليوم تشهد حسن النظام والقيام بالتدبير خير قيام، بذلك ترقى نفسك ويعظم نفعك ويشرق عقلك ويسطع نورك، لأنك بعد الملائكة في المقام مقام الاطلاع على حسن النظام. لقد شهدت نظام النبات والحيوان والقيام في هذا التفسير، يقول علماؤنا: لا يعرف معنى القيام بالقسط ولا معنى الميزان المذكور في سورة الرحمن ﴿ وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴾[الآية:٧] إلا من درس العلوم كلها، ولقد اصطفيت لك في هذا التفسير أجملها، واخترت منها أكملها، وبينت أبهاها نوراً وأحسنها منظراً، وأنضرها إشراقاً وأحلاها مذاقاً، وسهلت بتوفيق الله لك سبلها، وذللت طرقها، وأبنت مسالكها، وأعطيت لك مقاليدها لتفتح ممالكها.

فلأذكر لك الآن زهرة من حديقتها ودرة من صدفتها، وأرك طرفة من طرائفها، وغرّة من جبينها، ونوراً من شمسها، وكوكباً من فلكها، وعجيبة من محاسنها، لينشرح صدرك، ويتم أنسك لتبتهج نفسك فأقول:

(١) قيامه تعالى بالقسط في المادة من حيث حجمها

إن الإنسان إذا فكر في أمر المادة لم يرها أقرب إلى حالة من غيرها، بل كل الأحوال لها على حدّ سواء، هكذا جاءت في الواقع على مثال ما في نفوسنا، وبيانه أنها تكون صلبة قاسية كالحديد والحجر الأملس، وأقل من ذلك كالخشب، وأقل من ذلك كالورق والأغصان الخضر، وأقل من ذلك كالعجين والطين، وأقل من ذلك كالماء ثم الهواء ثم المادة الأثيرية.

فانظر كيف تقلبت المادة في هذه الأشكال كما تخيلته عقولنا وأدركته نفوسنا، وهذا من القيام بالقسط، وهو الذي جهل من دلالة التوحيد.

(٢) قيامه تعالى بالقسط في سلسلة الإنسان والحيوان والنبات والمعدن

انظر كيف جعل الله من المادة كل ما يصلح، فكان النبات الصغير الذي لا يدرك وكذلك الحيوان فقد تقدم في هذا التفسير في القسم الثاني من هذه السورة أن علماء الطبيعة يقولون: إن رأس الإبرة إذا كانت عليها قطرة لا تراها فإنها تجمع آلاف الآلاف من تلك الحيوانات الصغيرة، وأنها تتقاتل وتفرح وتمرح، وأنا أيضاً رأيت هذا بنفسي تحت المنظار المعظم، وهكذا منها ما هو فوق ذلك إلى الشجرة العظيمة والفيل الكبير الجثة، والهائشة التي تعيش في البحر وحجمها أكبر من الفيل خمس مرات فأكثر. هذا من جهة الكبر والصغر، وهناك سلسلة أخرى من حيث النشء والارتقاء، فأنواع الحيوان والنبات كثيرة وهي:

أدنى المعدن : الجص والتراب والزاج وأنواع الشبوب . أوسطه : بقية المعادن كالرصاص والنحاس . أعلى المعادن : الياقوت الأحمر والذهب .

أدنى النبات : خضراء الدمن . أوسطه : أكثر النبات . أعلاه : النخل مما يلي رتبة الحيوان ، والكشوثي نبت يتعلق بالأغصان ولا عرق له في الأرض .

أدنى الحيوان : دودة في جوف أنبوبة تنبت تلك الأنبوبة على الصخر الذي في سواحل البحار وشطوط الأنهار . أوسط الحيوان : أكثر الحيوانات . أعلى الحيوان : القرد والفرس وهكذا ، ولعلنا نشرحها في غير هذا المكان . أعلى من الأعلى : الإنسان .

فهذه السلسلة الإجمالية من ابتداء المعادن القريبة من الطين إلى الإنسان الذي هو الأعلى .

(٣) قيام الله بالقسط في أنواع الحيوان

منه ما يسكن الهواء ؛ وهو الطير . ومنه ساكن البر ؛ وهي البهائم والأنعام والسباع . ومنه ما يسكن التراب ؛ وهي الهوام كالحيات والضب والقطا . ومنها سكان الماء ؛ وهو كل حيوان يسبح في الماء كالسمك والسرطان والضفادع والصدف .

(٤) قيام الله بالقسط في اتجاه رؤوس الأحياء

لما كانت الجهات ستاً كان رأس الأدنى وهو النبات في الطين ، ورأس الحيوان وهو الأوسط في الجهات الأربع ، ورأس الإنسان وهو الأعلى جهة السماء ، فهو شجرة مقلوبة فروعها أسفل ورأسها أعلى ، إشارة إلى أنه أعلى الجميع مع أن كل جهة فيها رؤوس تتجه إليها ، وأكثر الجهات اتجه إليها الأسفل وأقلها الأعلى ، والأعلى هم الأقلون ، إن الكرام قليل وهذا من القيام بالقسط .

(٥) قيام الله بالقسط في خلق النبات في الأماكن

منه ما ينبت في البراري والقفار ، ومنه ما ينبت على رؤوس الجبال ، ومنه ما ينبت على شطوط الأنهار وسواحل البحار ، ومنه ما ينبت في الآجام والفيافي ، ومنه ما يزرعه الناس ويغرسونه في القرى والبساتين .

(٦) قيام الله بالقسط بين البر والبحر وفيه العجائب وبدائع الغرائب

إن أكثر ما قرأت في هذا المقام من علوم اليابسة أن اليابسة فيها نبات وحيوان وبساتين وأنهار جارية ، وفيها قطرات تسير بالناس ليشاهدوا العجائب ويسعوا للرزق ، وفيها مهندسون يصطفون الأشكال الجميلة ، وهكذا مما يعلم الناس ، فهل البحر ليس فيه إلا الأمواج والسمك ، وقد خلا من ذلك الجمال والبدائع ؟ . أقول : اعلم أن البحر أكثر نظاماً وأغزر نباتاً وأجمل بساتين وأبهى من البر .

ألوان ماء البحر وجمال حيوانه : إن ماء البحر يكون أخضر في سواحل العرب ، ووردياً في جهة كاليفورنيا بأمريكا ، وأحمر بالبحر الأحمر ، وذلك إما من ألوان النبات والأعشاب في قاع تلك الجهات ، أو من ألوان حيوانات دقيقة ، ومنها ما تجعل لون الماء أسود كجهة مالديف ، ومن تلك الحيوانات الدقيقة نوع له لمعان ، وباجتماعه وكثرته يظهر له على سطح الماء لمعان شديد يشبه ضوء النار ، وهذا النوع يكون في جميع طباق البحر ، ولكل منها مساكن خاصة وطرق مسالكها تابعة تيارات مجهولة من القطب إلى دائرة الاستواء ، ومن قطب إلى قطب ، ثم إن الهائشة التي جرمها قدر جرم الفيل خمس مرات فأكثر

تجري خلفها فتأكل منها، فذلك الحيوان الجميل يسير بالتيار من القطب إلى القطب، أو من القطب إلى خط الاستواء، وذلك أقوى من سير السفن البخارية والقطر الحديدية، فإنها لا تصل القطبين، وذلك من العدل الذي أجراه الله في البرية فأعطى حيوان البحر مثل ما منح حيوان البر، وجعل الماء سفينته، والتيار قطاره، ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ ﴾[المؤمنون: ١٤].

(٧) نبات البحر وأشكاله الهندسية والمرجان وعجائبه وأنه يتكوّن جزائر

إن نبات البحر منه ما يأخذ شكله صوراً بديعة، فيكوّن بساتين جميلة عظيمة أظرف من البساتين البرية وأجمل منها شكلاً وأحسن نظاماً وأبهج نوراً وأشرق ضوءاً، وأشجارها تميل مع الأمواج ميل أغصان الأشجار البرية مع الرياح، ولقد تقلع الأمواج تلك البساتين وتجري مع الأمواج أميالاً وأميالاً وهي مغطية مسافات عظيمة من البحر، فتحجب الضوء والحرارة عن الماء، وتوقف السفن عن السير، ولقد ينبت النبات على الصخر فلا يقلع منه ولا يسير إلاَّ معه، ومنه ما يكون قريب الساحل لا يبعد عنه إلاَّ أربعين باعاً، والبحار الجنوبية أعظم نباتاً وأكثر أشجاراً وأغزر بساتين، وتراها تمتد إلى نحو ألف وخمسمائة قدم وتمتد مسافات عظيمة على وجه الماء تبلغ ثلاثمائة ميل. ثم إن كريستوف كولومب قطع ثلاثة أسابيع كاملة في مروره منها حين ذهب لكشف أمريكا.

حشائش البحر

حشائش البحر مادة هلامية لزجة مغطاة بقشرة كالجلد، لها شعب كثيرة وكل شعب كذلك له شعب كثيرة، وتنتهي جميعها بأوراق رقيقة الأطراف، وكثير من الطيور تقتات بها وذلك في بحر الهند، ومنه نوع سكري يمتد إلى عشرة أميال، فروعه رقيقة كالخيط، وورقه عرض اليد، ويستخرج منه عصارة سكرية. وعلى سطح البحار القطبية الشمالية حشائش طولها ألف قدم وأوراقها حمر وردية يحملها الماء بشبه عوامات تحت عقد الفروع تمنعها من الانغماس.

تفاح البحر

وفي البحر شجر كالتفاح ذو فروع تحمل فواكه كثيرة، وجذوره نابتة في الصخر وأوراقها مدلاة في فروع كأنها فروع الصفصاف.

الأشكال الهندسية في البحر

في البحار أنواع مختلفة من الأشكال تجتمع مع بعضها، فتحدث رسوماً هندسية وأشكالاً غريبة ورسوماً عجيبة وبدائع شائقة ومشاهد فائقة ما بين صغير وكبير من أشكال مخروطية وأخرى هرمية، مربعات ومثلثات، ولقد تسبح تلك الأشكال على سطح الماء فتمنع النور أن يضيئه، الهواء أن يصيبه، والحرارة أن تلقاه، والسفن أن ترقاه، وقد تكون تلك المزارع منفصلة الأماكن قريبة المساكن، لها ألوان وأشكال مختلفات طولاً وعرضاً وكبراً وصغراً ولوناً وجمالاً وإتقاناً وإبداعاً وحسناً وجمالاً وإشراقاً وأوراقاً وأشجاراً وفروعاً، فيحدث من ذلك الاختلاف لعالم البحر ما هو كالمدن والمساكن يأوي إليها الأحياء ويتحصن بها بعضها، ومن يبصر تلك الغابات ويتأملها يرى أموراً عجيبة مدهشة، يرى على أغصانها ديداناً تسبح على الورق تغتذي به، ويرى عجل البحر بين النبات، وكلب البحر ذا العيون الرصاصية، والنمر ذا الذكاء والترمسة وكل راصد غيره، إما لتحصيل قوته وإما للفرار من عدوه.

إن تحت الماء وفي الغابات وعلى فروعها وخلال أشجارها محاربة مستمرة بين الطوائف البحرية والحيوانات المائية ﴿ مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ﴾[الملك:٣] فحيوان البحر كحيوان البر أجناساً وأنواعاً وأقساماً وعداوة وصغراً وكبراً، فهو قائم بالقسط مدبر بالعدل، جعل العداوة في البحر كما خلقها في البر ليكون العالم على وتيرة واحدة ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ﴾ في شؤون خلقه، فالقانون المسنون واحد كما ترى في العالم المشاهد.

فهل شهدت أيها الذكي أن العالم قائم بالقسط وأن النظام راجع لسنن واحد متشابه، وهل شهدت أنه جميل ﴿ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾[طه: ٥٠] فهل رأيت الهداية ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴾[الأعلى:١-٣]، أفلست ترى تسوية الخلق والتقدير في الشكل والهداية للحياة؟ وانظر قوله: ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴾ [السجدة:٧] أفلست ترى الحسن والهندسة والجمال في البحر كما رأيتها في البر؟ وانظر كيف كان في البر جمال وزينة، فجعل مثلها وخيراً منها في البحر كالمرجان.

المرجان

إن المرجان يظهر أولاً فرعاً فوق حجر في قاع البحار، وهذا الفرع أشبه بالنبات يسكن فيه حيوان ثم يخرج فرع غيره وهكذا، فيتكوّن على طول الزمن جيلاً بعد جيل المرجان، وقد جيء بفرع من هذه الفروع عليه حيوان صغير جداً شكله كزهر النبات في شكله ولونه، وعاداته أن يخرج من مقره ثم يعود إليه، وهذا النبات مع صغره يفعل أفعالاً مدهشة تحير الناظرين فهو يصنع بيوتاً ترتفع من قاع البحر إلى سطح الماء ويمتد البناء طبقات حسنة الشكل بهجة المنظر مضيئة الجوانب مشرقة الأركان زاهية البنيان، أشكال هندسية ونظم بهية وألوان قزحية جميلة، وهذا الحيوان من سنة إلى أخرى، ومن قرن إلى آخر يختط مساكن وممالك صخرية واسعات في قاع البحار، وكثيراً ما ترى هذه المساكن في البحر عند دائرتي الانقلاب في صور وأشكال يحار اللب في وصفها، ومن عجيب صنع الله فيها أن تكون في أواسطها بحائر راكدة آمنة مطمئنة، لا تصل إليها الأمواج، ولا تؤثر فيها الزعازع ولا العواصف، فتأوي إليها الحشرات وتؤمها الحيوانات وتربي بها صغارها مع الأمن والدعة والراحة، وتنبت فوقها وفي داخلها الحشائش والمزارع والبساتين، وهذه بعيدة عن كل ما يؤذيها، فرحة بنعمها باريها، قريرة العين، آمنة الجانب، وبعد قرون ترتفع تلك الحشائش والغابات طبقة فوق طبقة، حتى تكوّن جزيرة يدخلها الإنسان والحيوان.

فانظر كيف بنى حيوان المرجان بنياناً، فجعل في البحر مدناً وممالك ومسالك، فيها بحيرات آمنة، وأوى إليها الحيوان المختلف الأجناس، الحسن الألوان، والنبات الجميل الأغصان، البهج الأزهار، العجيب الخلقة، ثم في آخر الأمر سكنها الإنسان، ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ [المؤمنون: ١٤] ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ﴾[النحل:١٤] والحلية هو المرجان والدر.

فيا ليت شعري من ذا الذي يرى المرجان فيظن أنه عظيم القدر، كثير المنفعة، عالي البنيان، جليل المقام، سامي المكانة والمكان، فلئن تحلت به الحسان فما أحرى العلماء أن يتحلوا بمعناه ويقرؤوا

قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ﴾[الرحمن:٧-٨]، وقوله تعالى: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ۝١٩ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ۝٢٠ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٢١ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ۝٢٢ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾[الرحمن: ١٩-٢٣] ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[القصص:٦٨].

فلتكن ممن شهد بأن هذا الخلق محكم منظم قائم بميزان فـ﴿ٱلنَّجْمُ﴾ وهو ما لا ساق له ﴿وَٱلشَّجَرُ﴾[الرحمن:٦]وهو ما له ساق ﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ۝١٠ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ ۝١١ وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ﴾ أي التبن ﴿وَٱلرَّيْحَانُ ۝١٢ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾[الرحمن:١٠-١٣]، وهو الذي قام بالقسط والعدل في العجائب بين البر والبحر ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾[المؤمنون:١٤]، ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ﴾[الذاريات:٢٠]. انتهى القسم الثالث من سورة آل عمران.

القسم الرابع من سورة آل عمران

﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّۦنَ ءَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ۝٢٠ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّۦنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٢١ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ۝٢٢ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ۝٢٣ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ۝٢٤ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ۝٢٥ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٢٦ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝٢٧ لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ۝٢٨ قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٢٩ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ۝٣٠ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٣١ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٣٢﴾

التفسير اللفظي بهذا القسم

﴿ فَإِنْ حَآجُّوكَ ﴾ في الدين وجادلوك يا محمد بعد ما أقمت الحجج ﴿ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ ﴾ انقدت له بقلبي وأخلصت له بجملتي وجميع جوارحي لا أشرك به غيره، وهذا هو الدين القيم الذي قامت به الحجج ودعت إليه الآيات والرسل، وعبر بالوجه عن النفس لأنه أشرف الأعضاء الظاهرة وموضع الحواس والقوى العاقلة ﴿ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ﴾ عطف على الفاعل في «أسلمت» ﴿ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ ﴾ من اليهود والنصارى ﴿ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ﴾ وهم مشركو العرب ﴿ ءَأَسْلَمْتُمْ ﴾ كما أسلمت، أي أسلموا، وذلك كما في قوله تعالى: ﴿ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾[المائدة:٩١] كأنه يعيرهم بالبلادة أو بالعناد ﴿ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ﴾ للفلاح والنجاة ﴿ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ ﴾ أعرضوا ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَـٰغُ ﴾ تبليغ الرسالة وليس عليك هداهم ﴿ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ فهو عالم بمن يؤمن فيثيبه وبمن لا يؤمن فيعاقبه ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ كان بنو إسرائيل يأتيهم الوحي على لسان الأنبياء وهم يذكرونهم أيام الله فيقتلونهم فيقوم المؤمنون بالأنبياء فيذكرونهم بعذاب الله فيقتلونهم، فهؤلاء هم الذين يأمرون بالقسط أي بالعدل من الناس.

عن أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنه قال: «قلت يا رسول الله، أيّ الناس أشد عذاباً يوم القيامة؟ قال: رجل قتل نبياً أو رجلاً أمر بالمعروف ونهى عن المنكر، ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾، إلى أن انتهى إلى قوله تعالى: ﴿ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴾».

﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾ حبطت بطلت، وبطلانه أنه لا يقبل في الدنيا ولا يجازى عليه في الآخرة ﴿ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴾ يمنعونهم من العذاب ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ ﴾ التوراة وهم اليهود والنصارى ﴿ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَـٰبِ ٱللَّهِ ﴾ التوراة ﴿ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ﴾ روي «أنه دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم بيت المدراس على جماعة من اليهود فدعاهم إلى الله عزّ وجلّ، فقال له نعيم بن عمرو والحارث بن زيد: على أيّ دين أنت يا محمد؟ قال: على ملة إبراهيم، قالوا: إن إبراهيم كان يهودياً، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: هلموا إلى التوراة فهي بيننا وبينكم، فأبيا عليه، فأنزل الله هذه الآية».

وروي أيضاً «أن رجلاً وامرأة من أهل خيبر زنيا، وكان في كتابهم الرجم، فكرهوا رجمهما لشرفهما فيهم، فرفعوا أمرهما إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ورجوا أن تكون عنده رخصة، فحكم عليهما بالرجم، فقال بعضهم: جِرْتَ عليهما يا محمد وليس عليهما الرجم. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: بيني وبينكم التوراة، فقالوا: قد أنصفت، فقال: من أعلمكم بالتوراة؟فقالوا: رجل أعور يقال له عبد الله بن صوريا يسكن فدك، فأرسلوا إليه فقدم المدينة، وكان جبريل عليه السلام قد وصفه للنبي صلى الله عليه وسلم، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: أنت ابن صوريا؟ قال: نعم، قال: أنت أعلم اليهود بالتوراة؟ قال: كذلك يزعمون، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالتوراة، فقرأ ابن صوريا ووضع يده على آية الرجم وقرأ ما بعدها، فقال: عبد الله بن سلام: يارسول

الله قد جاوزها، ثم قام ورفع كفه عنها وقرأ على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى اليهود، وفيها رجم المحصن والمحصنة إذا زنيا متى قامت عليهما البينة، وتؤخر الحامل حتى تضع الحمل».

فإذن الداعي محمد صلى الله عليه وسلم، والمدعو اليهود، دعاهم إلى التوراة ليحكم بينهم به في أن إبراهيم لم يكن يهودياً، أو أن الزاني والزانية يرجمان ﴿ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ ﴾ يعني الرؤساء والعلماء ﴿ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ أي عادتهم الإعراض ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ الإعراض والتولي ﴿ بِ ﴾ سبب ﴿ أَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ ﴾ وهي سبعة أيام من أيام الآخرة كل يوم ألف سنة، وقال قوم منهم: أربعين يوماً ﴿ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ من أن النار لن تمسهم إلاّ أياماً قلائل، أو أن آباءهم الأنبياء يشفعون لهم، أو أنه تعالى وعد يعقوب عليه الصلاة والسلام أن لا يعذب أولاده إلاّ تحلة القسم ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ ﴾ أي فكيف يكون حالهم إذا جمعناهم في يوم لا شك فيه ﴿ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ﴾ أي جزاء ما كسبت ﴿ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ الضمير لكل نفس، كأنه يقال: كل إنسانٍ لا يظلم ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ ﴾ أي قل يا محمد: يا الله، والميم عوض عن يا ﴿ مَالِكَ الْمُلْكِ ﴾ تتصرف فيما يمكن التصرف فيه تصرف الملاك فيما يملكون ﴿ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ ﴾ الملك المعطي كالنبوة والدولة والعز والغنى والجاه والثروة، فقد أعطيت النبوة لمحمد، وأعطيته هو وأصحابه الدولة، وغلبوا فارس والروم، وتنزع النبوة من بني إسرائيل ﴿ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ ﴾ تعز من تشاء، كمحمد بالنبوة والرسالة والمهاجرين والأنصار وأهل القناعة والرضا والطاعة، وتذل من تشاء كاليهود ومشركي العرب وفارس والروم وأهل المعصية وأهل الحرص وعدم القناعة ﴿ بِيَدِكَ الْخَيْرُ ﴾ ولا يأتي الشر إلاّ تبعاً ﴿ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ فتؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء.

روي «أنه عليه الصلاة والسلام لما خط الخندق وقطع لكل عشرة أربعين ذراعاً وأخذوا يحفرون ظهر فيه صخرة عظيمة لم تعمل فيها المعاول، فوجهوا سلمان إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يخبره، فجاء عليه الصلاة والسلام فأخذ المعول منه فضربها ضربة صدعتها، وبرق منها برق أضاء ما بين لابتيها، فكأن بها مصباحاً في جوف بيت مظلم، فكبر وكبر معه المسلمون، وقال: أضاءت لي منها قصور الحيرة كأنها أنياب الكلاب، ثم ضرب الثانية فقال: أضاءت لي منها القصور الحمر من أرض الروم، ثم ضرب الثالثة فقال: أضاءت لي منها قصور صنعاء، وأخبرني جبريل عليه السلام أن أمتي ظاهرة على كلها فأبشروا، فقال المنافقون: ألا تعجبون، يمنيكم ويعدكم ويخبركم أنه يبصر من يثرب قصور الحيرة وأنها تفتح لكم، وأنتم إنّما تحفرون الخندق من الفرق، فنزلت»، ولما كان عز قوم وذل آخرين من النظام العام وهو يوجب المساواة كالليل والنهار، فالعزيز يذل والذليل يعز، كما أن الليل والنهار كل منهما يجيء عقب الآخر ﴿ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ أي تدخل الليل في النهار وتدخل النهار في الليل، فيزيد كل منهما ما نقصه الآخر، وتخرج الإنسان الحي من النطفة الميتة بحسب الظاهر، وكذلك الفرخ من البيضة، والنبات من الحب، والنخلة من النواة، والمؤمن من الكافر، والذكي من البليد، وبالعكس في الجميع، وتبسط الرزق لمن تشاء وتوسعه عليه من غير تقتير ولا تضييق ﴿ لَّا يَتَّخِذِ

ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء، أي أنصاراً وأعواناً من غير المؤمنين، وكيف يجعل المؤمن ولايته لمن هو غير مؤمن، ولقد كانوا يوالون بعض الكفار لصداقة في الجاهلية أو قرابة، ولقد كان لعبادة بن الصامت حلفاء من اليهود وهم خمسمائة، فأراد أن يستظهر بهم على أعداء المسلمين يوم الأحزاب، هكذا حاطب بن أبي بلتعة وغيره، كانوا يظهرون المودة لكفار مكة، فنهوا جميعاً عن ذلك ﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ﴾ أي موالاة الكفار فينقل الأخبار إليهم أو يظهر عورات المسلمين إليهم ﴿ فَلَيْسَ مِنَ ﴾ دين ﴿ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ﴾ أي إلاّ أن تخافوا منهم مخافة فلا تجوز موالاتهم إلاّ أن يخافوا من جهتهم ما يجب اتقاؤه، وإنما عدى الفعل بـ« من » لتضمنه معنى الحذر أو المخافة ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ تهديد عظيم، وجعل التحذير من نفسه جلّ جلاله لزيادة التهويل ﴿ قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أي يعلم ما في ضمائركم من موالاة الكفار وغيرها كما يعلم غيب السماوات والأرض ﴿ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ ومنه عقابكم إذا لم تنتهوا ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ﴾ أي تود كل نفس وتتمنى يوم تجد صحائف أعمالها حاضرة، لو أن بينها وبين ذلك اليوم مسافة بعيدة لما تبدّى بها من صحائفها السود ﴿ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ فإذا حذرهم فليس ذلك لغضبه كما يغضب العباد بل هو يرشدهم، فالغضب سوط يساق به العباد إلى الرحمة ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ ﴾ الخ المحبة ميل النفس إلى الشيء لكمال فيه، وقوله: ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا۟ ﴾ أي تتولوا وتعرضوا ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ لا يرضى عنهم. اهـ التفسير اللفظي.

في هذا القسم فصول:

الفصل الأول في قوله تعالى: ﴿ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾.

الفصل الثاني: ﴿ قَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ﴾.

الفصل الثالث: ﴿ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ﴾.

الفصل الرابع: قوله تعالى: ﴿ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ﴾.

الفصل الخامس: ﴿ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾.

الفصل السادس: ﴿ لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ ﴾ الخ.

الفصل السابع: ﴿ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾.

أما الفصل الثاني فقد أفضت الكلام عليه في سورة البقرة عند مسألة شفاعته صلى الله عليه وسلم، وأن المسلمين صرفوها عن وجهها إلى الكسل كما فعل اليهود من تهوين العذاب عليهم بشفاعة آبائهم، فارجع إليه هناك.

أما الفصل الثالث فقد أوضحته أيما إيضاح في قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [الآية: ١٦٤]

أما الفصل السادس فقد اتضح عند الكلام على الرؤساء والمرؤوسين في سورة البقرة في قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا ﴾ [الآية: ١٦٥] الخ.

وأما الفصل السابع فهو موضح في ذلك المقام عند قوله تعالى: ﴿ يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ﴾[البقرة:١٦٥] فارجع إليه هناك.

وأما الفصل الأول فانظر وتعجب كيف جاء في الآية السابقة أن العالم قائم كله على النظام والعدل والقسط، وأن الله شهد به والملائكة والعلماء، وكأنه يقول: إن قام العلماء بالقسط والعدل الذي أنا قائم به وبالميزان الذي وزنت به سماواتي وأرضي، وساروا على السير الذي سننته، ووزنوا بالميزان الذي وزنت به والمنهاج الذي اخترته إذ قلت: ﴿ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ﴾[الرحمن:٧-٨] ثم قتلتموهم فإني أقول: يا محمد بشرهم بعذاب أليم بخراب دولهم وضياع ملكهم، لأن الملك لا يقوم إلاَّ بالقسط كما لا يقوم ملكي إلاَّ بالعدل، فإذا قتلوا القائمين به ذهبت دولتهم، كما أن العالم لو لم أكن أنا قائماً بالعدل فيه تهدمت أركانه وتمزقت أوصاله وذهب سدى كأنه لم يكن.

ذلك هو السر في ذكر القيام بالقسط في قوله تعالى: ﴿ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ﴾ في آية: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ ﴾، ولقد خربت دولة اليهود، وتفرقوا شذر مذر، وباؤوا بالعذاب، وذهبت ريحهم، وأجلاهم الروم بعد المسيح، وهم يريدون اليوم أن يرجعوا مجدهم بفلسطين، ولكن القرآن فيه آية أخرى حكم بزوال ملكهم إلى يوم القيامة، لأنهم قتلوا القائمين بالقسط، ذلك هو سر هذه الآية، ولقد أوضحت هذا المقام في قوله تعالى: ﴿ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ ﴾[البقرة:٦١] إلى آخر الآية في سورة البقرة.

أما الفصل الرابع وهو قوله تعالى: ﴿ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ﴾ فاعلم أن هذه المسألة من أهم المسائل التي حارت فيها العقول وزاغت الأبصار وتاهت البصائر وزلت الأقدام، فقالت طائفة ممن نظروا في بعض العلوم الطبيعية كالطب أو الزراعة أو طبقات الأرض أو الكيميا أو المعدن أو النبات أو الحيوان، وكذلك الناظرون في الفلك وأجرام الكواكب، وكذلك دارسو الهندسة والحساب، وهكذا كثير ممن هم في مصافّ الطبقة الوسطى من الناس الذين ارتقوا عن طبقة العامة ولم يكوِّنوا في نفوسهم فكرة عامة عن العلوم العامة.

قال هؤلاء: إننا نرى هذه الأرض وهذه الكواكب جارية بلا نظام ولا منظم ولا إله، لأن العناصر باجتماعها في باحات الخلاء كوّنت الشمس من هباء لطيف وهو الأثير، ثم دارت حول نفسها وصارت بعد آلاف الآلاف تامة التكوين، وتبعها وانفصل عنها الأرض والسيارات، وهذه الأرض قد تصادف أن اتحدت أجزاء على سطحها، وتكوّنت وامتزجت وتضامت وحدثت أمزجة مختلفة، فمنها نبات ومنها طيور ومنها سمك ومنها أنعام، وكل ذلك بالاتفاق والمصادفة، فإذا أصاب أحد هذه مرض أو جوع أو عطش مصادفة وطال عليها ذلك ماتت، فالموت مصادفة والحياة مصادفة، وهذا العالم كله هرج ومرج، وقال قائلهم:

حياة ثم موت ثم بعث   حديث خرافة يا أم عمرو

هذا هو الحديث الذي يدور على ألسنة الطبقة الوسطى في العلوم والمعارف في أنحاء الأرض من مسلمين ومسيحيين ويهود ومجوس وأتباع كونفيسيوس وأتباع بوذا، وكلهم على ذلك أجمعون.

وأما الذين اتبعوا الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فإنهم يقولون: نحن لا نفكر في هذا، ونكل علمه إلى الله تعالى، ونقول: هو أعلم بالحكمة في خلقه، ويقولون ما قاله شاعرهم:

إذا ما رأيت الله في الكل فاعلا ... عقلت فصيرت القباح ملاحا
وإن لم تجد إلاّ مظاهر صنعه ... جهلت فصيرت الملاح قباحا

وقال شكسبير الشاعر الإنجليزي «وقد ترجمته إلى العربية»:

إذا كان هذا الكون يكلؤه الذي ... براه فأولاه الجمال وتَمما
فماذا يراه عاقل غير أنه ... قصور جنان الخلد رصعن أنجما

وأنت خبير أيها الذكي أن هذا القول لا يدفع عاراً، ولا يذكي ناراً، ولا ينفع جاراً، ولا يقيم حجة ولا ينير المحجة، وإنما يجتزئ به المؤمنون الذين هم عن النظر عاجزون، ولهؤلاء راحة وطمأنينة، ولكن هذا التفسير قد أعددته للطبقة الوسطى وهم أكثر المتعلمين في العالم الإنساني، فلأذكر لك الحقيقة جلية مضيئة بهية مشرقة سنية، أزفها لك مميطة القناع، لابسة الحلل، حالية بالجواهر، باسمة الثغر، ناعسة الطرف، حوراء تسحر الناظرين، وتسبي العاشقين، وتشرح الصدور، وتشرق بالنور، تفوق الحور، إن تخلت قتلت، وإن تجلت بهرت بجمال يأخذ بالألباب، ونغمات مطربات يقصر عنها الرباب، وحجج لم يعدها الصواب فأقول:

اعلم أن هذه المسألة شرحها العلامة الرئيس ابن سينا في كتاب الإشارات وغيره من سائر الحكماء الإسلاميين قالوا: إن ما نشاهد من الموجودات نعرضها على العقل ونبحثها بالفكر والعقل، يقول: إنها لا تخرج عن أحوال خمسة: الحالة الأولى: أن تكون شراً محضاً. الحالة الثانية: أن تكون خيراً محضاً. الحالة الثالثة: أن يغلب خيرها. الحالة الرابعة: أن يغلب شرها. الحالة الخامسة: أن يتساوى الأمران.

ثم قالوا: والعقول الإنسانية لا تتصور غير هذه الصور. أما الشر المحض والذي غلب شره على خيره والذي تساوى فيه الأمران لا أثر لوجوده، وليس في عالمنا ولا سواه فكيف يوجد الشر المحض وما معه؟.

أما ما غلب خيره على شره أو هو الخير المحض فذلك هو الموجود، وقد قالوا: إن العالم الذي نحن فيه من القسم الذي غلب خيره على شره. هذا إجمال مقالهم ولنفصله كما فصلوه فنقول: إن ضوء الشمس والقمر والكواكب وماء السحاب والنار والنبات والحيوان غلب خيرها على شرها، فضوء الشمس به حياة الموجودات ولكن قد يستضر به المحموم ويموت امرؤ بضربة الشمس. والماء الذي يحيا به النبات والحيوان قد يغرق فيه ناسك، ويغطس فيه عالم وورع تقيّ، والنار كثيراً ما تحرق ثوب الناسك، والمرأة العجوز، والطفل الذي لا ذنب له.

ولا ريب أنه يغتفر هذا الضرر القليل في جانب النفع العظيم، ولو قال قائل: إنه يجب إطفاء الشمس وتغوير ماء البحر ومنع المطر وإطفاء النار لمضارها، وغفل القائل عن منافعها عدّ أبله عاجزاً وجاهلاً مغروراً، فالحكمة تقضي أن ما أفاض الوجود الكثير والضرر القليل يجب حصوله وإبرازه، والبخل به جهل وحمق ومخالفة الحكمة.

وهناك تبدّت مسائل كثيرة فيقال: لم خلقت الحيات والعقارب والذباب والزنابير والأسود والنمور والذئاب والدود، وهي لم تخلق للمنفعة، ولم تكن لها أدنى فائدة، فهل هذه يخلقها الحكيم؟ وأي حكمة في خلقتها، وأي فائدة في ظهورها؟.

فقال علماؤنا رحمهم الله: إن الحيات والتماسيح والسباع والتنين والهوام والحشرات والجراد كلها مخلوقة من المواد الفاسدات والعفونات الكائنة ليصفو الجو والهواء منها، لئلا يعرض لها الفساد من البخارات المتصاعدة، فيعفن الهواء ويكون أسباباً للوباء وهلاك الحيوان دفعة واحدة. ذلك أن الديدان وطوائف الذباب والبق والخنافس لا تكون جاثمة في دكان البزاز ولا الحداد ولا النجار، وإنما تكون في دكان القصاب والسمان واللبان والدباس، أو في السماد والسرقين.

فأنت ترى أن العفونات لو بقيت لأهلكت الحرث والنسل، فلما خلق منها الذباب والبق والدود والخنافس وما شاكلها، أفادت فائدتين: أولاهما أنها بخلقتها حولت العفونة إلى أجسامها فصارت صافية، وطهر الجو والمكان، وصلح للتنفس، وذهب منه الحيوان المسمى بـ «بالمكروبات» التي تفتك بالناس والحيوان، ولو تركت تلك العفونات لفسد الهواء وأنتن وأهلك الناس دفعة مع الحيوان، فهذا العمل يدل على أن هناك تدبيراً ونظاماً، وأن هناك يداً خفية تحوّل المضار فتجعلها نافعة.

الفائدة الثانية: أن هذه الحيوانات تصير أغذية للحيوانات التي هي أكبر منها، وهذا العمل الذي يجري في الأرض والناس يجهلونه هم أنفسهم يعملونه سائرين على النمط الإلهي وهم لا يشعرون، ألا ترى أنهم يرون القاذورات في أفنيتهم، ولو تركوها لأماتتهم فحوّلوها إلى الأرض ليصلح بها الزرع فاستفادوا فائدتين: نظافة الهواء ومصلحة الزرع لجلب الغذاء. هكذا فعل الله حوّل العفونات إلى حشرات وذباب وخنافس، وهذه تأكلها حيوانات أكبر منها؛ فكما أن الناس حوّلوا القاذورات إلى ما ينفعهم وينظف جوّهم ويصلح زرعهم بالإلهام والتجربة، هكذا فعل الله، فغذى الحيوان ونظف الهواء بل فعله أشرف وأعلى وأتم وأجلى، إذ عمله في الحيوان وإصلاحه، وعمل الناس في الزرع وإنمائه، والحيوان أرقى فقام به الله، والنبات أدنى فقام ببعض إصلاحه الناس ﴿إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [يوسف: ١٠٠].

وهكذا خلق الله السباع والأسود والنمور، فإنه قد تبين في العلم الحديث وفي علم طبقات الأرض «الجيلوجية» أن الظباء والغنم والجاموس والبقر وسائر الحيوان الذي يأكل الحشيش في الأعصر الغابرة كثرت فملأت السهل والجبل والقفر والعامر فلم يكفها النبات لكثرتها، وقد وجدوها مطمورة في كهوف ومغارات بعضها فوق بعض ففنيت، وحينئذ خلق الله عزّ وجلّ هذه الحيوانات المفترسة، وجعل أنيابها المحدّدة وأجسامها القوية معدة لأكل اللحم، لا تعيش إلاّ به لتقلل ما يتكاثر من نسل تلك الحيوانات، ولتكون آكلة للحمها فلا ينتن فيملأ الهواء نتناً وعفونة وحيوانات مكروبية تقتل الحيوان والإنسان.

وهكذا حكم الجوارح من الطير، فإن العصافير والقنابير والخطاف وغيرها تأكل الجراد والنمل والذباب والبق وما شاكلها، ثم إن البواشق والشواهين وما شاكلها تصطاد العصافير والقنابر وتأكلها، ثم إن البزاة والصقور والعقبان تصطادها وتأكلها، ثم إنها إذا ماتت أكلها صغارها من النمل والذباب والديدان، ثم أن بني آدم يأكلون لحوم البقر والغنم والطير والجملان، وإذا ماتوا أكلتهم في قبورهم

الديدان والنمل والذباب. فالمسألة كالدائرة تأكل صغار الحيوانات كبارها، ويأكل كبارها صغارها، والقاعدة أن فساد كل شيء صلاح آخر.

فائدة

قال بعض العلماء: إن الذئب يصيد الثعلب، والثعلب يصيد القنفذ، والقنفذ يصيد الأفعى، والأفعى تصيد العصفور، والعصفور يصيد الجراد، والجراد يصيد الزنابير، والزنبور يصيد النحل الخ. تأمل.

وقال عنترة:

لي النفوس وللطير اللحوم وللـــ ـــوحوش العظام وللخيالة السلب

الحكمة في سم الحيات

إن من الحيوان ما أعطي معدة أو كرشاً أو قانصة فينضج الكيموس فيها بعد المضغ الشديد، والحيات لم تعط معدة حارة ولا قانصة ولا كرشاً ولا أضراساً، فعوّضت عن ذلك سماً حاراً جداً ينضج اللحم ويذيب الشحم، فلو لم تعط هذا السم لماتت جوعاً وهلكت عن آخرها.

ومن الحكمة أن سم الحيات لا يقتل إلاّ إذا صادفه في الجسم جرح فيجري في العروق، فإذا لم يصادفه جرح صار في المعدة غذاء لا ضرر فيه، والفائدة في خلقتها بين الهوام كالفائدة في خلق السباع بين الأنعام والبهائم، وكمنفعة التنين في البحر والكواسج والتماسيح، وكمنفعة النسور والعقبان والجوارح في الطيور، فالحية تأكل الهوام التي حولها، ومن العجائب أن لحم كل حيوان ذي سم يكون ترياقاً لسمه، فلحم العقرب والحية إذا وضعا على الملسوع بهما شفي حالاً.

حكمة الآلام في الحيوان

لقد قرأت في كلام اللورد افبري الإنجليزي في بعض كتبه أن الآلام التي في أجسامنا إنذار وتعليم وبيان ذلك أن أعصاب الحس إنّما يكون عملها في سطح البدن وهو الجلد ولا إحساس بها إلاّ هناك لتنذرنا بالخطر المحدق بنا، ولا يكون ذلك في الداخل.

وعليه نقول: إن الإنسان إذا أصابه الحرق والجرح ولم يحس بما أحاط به فالألم يدعوه لطلب النجاة وبقاء الحياة، ولولاه لأهلكه العطب وأحاط به الموت، وهو لا يدفع شيئاً ولا يستدعي طبيباً، كما لا يتعاطى الطعام لولا غريزة الجوع.

حكمة الحكام الظالمين

إن الحكام الظالمين والقضاة المرتشين والأمم المستعمرة لمن لا يصلحون للرقي، كل هؤلاء نفعهم أكثر من ضرهم، فإن الحاكم الجائر يمنع القوي عن الضعيف لحفظ الأنفس والأموال، وإن كان هو في نفسه فاسقاً ظالماً مرتشياً فقد نفع غيره وأهلك نفسه وأصبح آلة للإصلاح وإن كان فاسداً كالشمعة تضيء وتفنى، وسيأتي دوره في القضاء الذي لا مناص منه في هذه الدنيا أو بعد الممات.

إذن ما الخير وما الشر؟إيضاح ما تقدم

قد تبين في هذا الكتاب في غير ما موضع أن الشر قد ينتج الخير، كما ترى في السماد والسرقين، وكيف تعاف النفس منظرهما، وكيف يملأ الجو من جراثيمهما، ثم إن هذه الكراهة لحكمة شريفة وغاية

منيفة، فإن الناس بها ينظفون أفنيتهم ويحفظون صحتهم، وأكثرهم يجعل هذا المكروه سماداً لأرضه وغذاء لزرعه ممثلة عناصره في فاكهته وحبه وشجره وقطنه الذي منه ثوبه، وكذلك كتانه وسمسمه الذي منه زيته وهكذا زيتونه.

فيا ليت شعري أين الشر إذن؟ سرجين قذر قبيح المنظر سمج كريه، يصبح فاكهة وأباً وثوباً وزيتاً وعطراً. إذن ما هذه الكراهة؟ هي سبب من أسباب داعية إلى نقله إلى الأرض، فالأنفة من السماد والكراهة له من أسباب حياتنا، أين الشر، إذن هذا خير، هكذا ما تراه في هذا الكتاب من الكلام على الحشرات الضارة، إنها مطهرة لجونا مغذية لطيرنا يأكلها، فهي إذن نعمة لا نقمة، وكراهتنا لها داعية لتطهير الأمكنة من القاذورات الحاملات للجراثيم.

وقل ما تشاء في نقص الصحة والمال والأهل وأمثال ذلك مما يبتلى به الناس، كل ذلك مكروه وشر، ولكن ترى أن من يبتلون بهذا يكونون قد نالوا قوة وهمة، ولم تر في التاريخ من العظماء والأنبياء إلاَّ من صبروا على المكاره وكثير منهم من سموا أولي العزم. فبهذا أصبح الشر من أسباب الخير، مثلاً ترى المرض يعطي المريض عظة واعتباراً وتذكرة ويهذب خلقه، ويكون ذلك داعية لارتقاء علم الطب العام فيبحث الأطباء ويرتقي نوع الإنسان.

وأعظم المصائب عند الناس الموت، وفهم الموت فوق متناول أكثر الناس، فإذا حكمنا أن المصائب كالسماد مرقية لمن أصيب بها، وقلنا: إن الذين أصيبوا بها أعظم قدراً من الذين لم يبتلوا ولم يجربوا، فكيف يسوغ ذلك في الموت.

نقول: الموت انفصال الروح عن الجسم، وما الجسم إلاَّ لوح النفس، كما أن السماد والأرض هما اللوح الأكبر، فالروح في الجسم تدرس هذه الدنيا، فإذا مهرت في نظرها أدركت عجائب هذا الهيكل فهو لوحها الذي تقرؤه، ومدرستها التي تربت فيها، وحقلها الذي تزرعه، فإذا ارتقت إلى عالم الأرواح استغنت عنه كما يستغني الطفل عن اللوح، وكما يخرج الجنين من الرحم، وكما يخرج الطفل من الصبا إلى الفتوة، فيترك جسمه الذي لا يبالي به، تتغذى منه الحشرات من الديدان والذباب والخنافس كما كان يتغذى هو بأنواع الحيوان، فأما روحه فإنها تكون قد خرجت إلى عالم ألطف وفي حال أرقى، وإذا كان الموت كما هو قول الأرواح التي خاطبها الناس في إنكلترا وفرنسا وأمريكا وجميع الأمم على هذا النمط وهذا عينه أقوال الأنبياء والوحي، فكيف يكون الموت شراً بل يكون خيراً، فيا ليت شعري ما الذي به نعرف الخير من الشر، وقد رأينا في هذه الأمثلة أن المآل هو الخير، وأما الشر فإنما هي نسب وأحوال خاصة وتؤول للخير.

فصح ما نقرأ في الصلاة: «اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر ومن عذاب النار ومن فتنة المحيا والممات ومن فتنة المسيح الدجال» فالفتنة إذن الجهل بالموت والحياة.

واعلم أن هذا الإنسان معذب بالجهل، ففتنة المحيا والممات هي الجهل بثمرتهما ونظامهما، ولقد تبين لك في غضون هذا التفسير أن دين الإسلام كله يؤول للعلم، فدعاء السجود والركوع للعلم بالتشريح وطبقات العين، ودعاء الصبح فيه مسألة الرحمة وشمولها، وهنا نرى مسألة الحياة والموت، وهي أهم المسائل وهي عقدة العقد.

يقرأ المسلم في صلاته: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ ويكرر الرحمة في ١٧ ركعة وهي الفرائض قريباً من مائة مرة، تارة صريحاً وأخرى تلويحاً، فإذا السنن كانت ٢٠٠ مرة فأكثر.

ثم إن أول كل سورة: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ الرحمة شائعة في الدين، فإذا كانت في أول كل سورة كان معناه أن كل ما ابتليتكم به مآله الرحمة، فيقول المسلم: أين الرحمة في المرض والفقر والذل والرق والاستعباد؟ بل أين الرحمة في ذلك كله، وأعوص المسائل مسألة الموت والحياة؟.

جمال المقال

وجمال هذا المقال وبهجته وخلاصته أن الآلام قسمان: قسم ما هو دون الموت من فقد الأصحاب والمال والصحة، والقسم الثاني الموت، فإذا ما تدبرت وقرأت الكتب ونظرت بنفسك في كل يابسة وخضراء وأرض وسماء وناطقة وخرساء وقائم وحصيد، وأجلت النظر، ولم تحجبك العلوم التي قرأتها، ولا الآراء التي عرفتها، ولا الشهادات التي نلتها، ولا المناصب التي وليتها، ولا أكاذيب التعظيم التي أوليتها، ولا الثروة التي ملكتها، ثم درست هذا العالم درس المستبصرين، وتنكبت طريق المتكبرين عرفت إذن أن الناس على الأرض يربون مع الحيوان، وهم يساسون سياسة لين وشدة، ويركبون طبقاً عن طبق. واعلم أنك لن تنال ذلك إلاّ بعد الجهد الجهيد والنصب والكد والنظر والإخلاص.

أيها الذكي، لا يغني أن تكون من المدرسين ولا المحامين ولا القضاة ولا المهندسين ولا رجال الإدارة ولا رجال الزراعة أو الطب أو البيطرة أو الجيش، فكل أولئك قاسوا بركن من أركان الحياة الاجتماعية، ولن يخلص أحد منهم من التقليد والجهل العتيد إلاّ بتلك النظرات، فليكدح ليله ونهاره حتى يوقن بعقله خاصة أن الحياة والموت لم يكونا للتعذيب بل للتهذيب، وأن المرض والفقر وأضرابهما نتائجها ارتقاء النفوس، لا بد أن تعرفها بنفسك، ولا تقف عند السماع ولا أقوال العلماء، هناك تخرج من عذاب القبر ومن عذاب النار ومن فتنة المحيا والممات، فذلك كله ناجم من جهلنا بنظام الحياة الإنسانية ودرجاتها، ولما كان هذا أهم علم عند الحكماء قديماً وحديثاً كان الدعاء به في آخر الصلاة، ولقد قدّمت لك فائدة الدعاء بالاستعاذة من المسيخ الدجال عند قوله تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟﴾[البقرة:١٦٦] وأبنت هناك أن هذا الدعاء راجع لأمور حاضرة من أزمان النبوة إلى الآن وهاأنا ذا الآن ذكرت لك ما هو أهم وهو فتنة المحيا والممات. واعلم أن ما قلته الآن يسمعه أكثر الناس من وراء حجاب، ولكن لا يغني قولي ولا ينفع، وإنما الذي يحثك نفسك ﴿كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾[الإسراء:١٤]، وإنك بعد أن تصل إلى هذا المقام تفهم تحقيقاً معنى قوله تعالى هنا: ﴿بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

بهذا فليفهم معنى القرآن، وبهذا تكون دراسة الحكمة ﴿وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[البقرة:٢١٣].

أما الفصل الخامس، وهو قوله تعالى: ﴿وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ فلأذكر لك من عجائب الحكمة ما يدهش اللب ويسحر العقل ويضيء لأولي العقول الذكية والنفوس الشريفة. فأقول في هذا المقام لطائف:

اللطيفة الأولى

لقد رأى العلماء الباحثون في العصر الحاضر، وكشفوا أن بعض الذباب يحفر لبيضه جحراً في الأرض يضعه فيه، ثم يذهب إلى عنكبوت أو دودة يمج فيها جزءاً من السم فتسكن حركتها، ثم يحملها إلى جحره ويلقيها عند البيض ويسدّ عليه، فإذا خرجت الأولاد من البيض وجدتها بجانبها فتغذت بها.

وسبب ذلك أن هذه الحيوانات لا تأكل ميتاً قط وأمها تعلم أنها لا ترى أولادها قط فتحضر لها هذه الحيوانات التي خدّرتها بسمها، حتى إذا خرجت من البيض أكلتها. أليس ذلك من الرزق بغير حساب؟ فأين تعلمت هذا تلك الذبابة، ولم تر أمها ولم يكن هناك مدارس ولا معلمون ولا قضاة ولا محامون، فرزق هذا الحيوان بغير حساب، وهذه هي الرحمة ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾[الأنعام:٥٤]، ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾[الأعراف:١٥٦]، ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾[الفاتحة:١] هذه هي الرحمة، وهذا هو القرآن، وهذا هو الدين، وهذا هو الإسلام.

يا أيها المسلمون لا تناموا، أيها المسلمون استيقظوا، أيها المسلمون انظروا، أيها المسلمون لهذا خلقتم، هذا هو دينكم، هذا هو الدين القيم، هذا هو العلم، هذا هو العقل والحكمة. القرآن يشير لكم بيديه إلى هذه العجائب، ويقول انطلقوا إلى هذه العجائب فادرسوها، وإلى هذه الحكم فاعلموها، وإلى هذه الآيات فاتلوها ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[يونس:١٠١]، ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ﴾[الذاريات:٢٠]، هذه هي الآيات، وهذه هي البينات، فاقرؤوا أمثال هذا فهو غاية القرآن، إن الطبيعة كتاب كتبه الله بيده، والقرآن جاء ليدلكم على ما خطه بيده سبحانه وتعالى من هذه الرسوم والكلمات، هذه هي الكلمات ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾[الكهف:١٠٩]. هذه هي الكلمات التي كتبها بيده، وقال في القرآن انظروا فيها، فالنظر فيها أفضل من العبادات وأشرف وأعلى، لأن العلم أرقى من العمل، والعامل الأبله الغافل قليل الحظ في الآخرة كالأجير المسخر، فاقرأ سطور الكائنات كما قرأت الكتاب المقدس وهو القرآن.

اللطيفة الثانية: الذباب الذي يعيش أولاده في جوف الحيوان الحي

من هذه الطائفة، أي الذباب الذي لا يعيش إلاَّ على حيوان حي ما، تعمد إلى دودة كبيرة فتخرق جلدها بخرطومها، ثم تضع بيضها الكثير موضع الخرطوم تحت الجلد، فإذا حصل الفقس وخرجت الأولاد أكلت من اللحم والدهن، ولم تتعرّض للأعصاب التي عليها مدار الحياة، ومتى قدرت على الخروج شرعت تأكل الأعصاب فيموت ذلك الحيوان لأنها ليست في حاجة إلى حياته، ثم تخرج تلك الحيوانات ومتى خرجت عملت كل واحدة منها لنفسها خيطاً محكماً تلتف فيه وتتراكم فوق سطح الجثة فتغطيها بكثرتها، فلا يرى الراؤون منها شيئاً ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾[يوسف:١٠٠].

اللطيفة الثالثة: الأرانب وبعض الحشرات

الأرانب تنتف شعر بطنها فتجعله فراشاً لأولادها، وبعض الحشرات أعظم منها شفقة وأكثر رحمة، فإنها تنتف شعرها كله ولا تكتفي بجزء منه، ومتى باضت لفت بيضها في شعرها فجعلته أثواباً تصنعها لوقايته من الحر والبرد والعوارض الجوية ثم تموت.

اللطيفة الرابعة : الحشرة التي تجعل جسمها وقاية لأولادها

وبعض الحشرات إذا باضت ضمت بيضها بعضه إلى بعض ، وغطته بنفسها وأحاطت به من كل جهة بجسمها لتكون له كالكيس والوقاية ثم تموت ، فإذا خرجت الأولاد من البيض وكبرت فعلت ببيضها ما فعله بها أصلها .

اللطيفة الخامسة

إن بعض الحشرات يعدو على غيره من الحشرات فيقتله ويأتي به إلى ذريته .

اللطيفة السادسة : يعسوب النحل

إن يعسوب النحل التي يقال لها أم النحل إذا ماتت اختزن واحدة منهن وهيأن لها مكاناً أوسع من غيره خمس مرات ، وأخذن يخدمنها ويطعمنها الشهد الزكي الرائحة ، فتكبر سريعاً لحسن المواد الغذائية ، فتأمر وتنهى وتعمل على مقتضى القوانين ولا يختزنها إلاّ إذا كانت فيها تلك الصفات التي يعرفنها بالإلهام .

اللطيفة السابعة : أسد النمل

رأى بعض العلماء هذا الحيوان الصغير يحفر في الرمل جحراً منتظماً والرمل ناعم جداً ، وأخذت تلك الدابة تحفر برأسها وترفع التراب دائبة مجدة ، وترى التراب متلاحقاً يمر مرّ السحاب كرّة وراء أخرى وهكذا حتى إذا تم لها جحر ناعم أملس سكنت في أسفله بحيث لا يظهر إلاّ رجلاها . ثم لما مرت نملة عليه انزلقت رجلها فسقطت على تلك الدابة فأكلتها حالاً ، أي امتصت المادة التي فيها ، ثم لما جاءت نملة أخرى سقطت وأرادت التخلص منها ، هالت تلك الدابة عليها التراب فأسرتها ثم امتصتها ، ثم أخذت أجسام تلك الفرائس ورمت بها خارج جحرها وسوّته ، ورجعت إلى ما كانت عليه من الانتظار .

اللطيفة الثامنة : الحشرات الآكلة العنكبوت

إن من الحشرات ما تأكل العنكبوت ، ذلك أنها تلبس ثوباً من نسج العنكبوت وتلتف فيه ثم تعفر جسدها بالتراب ، فإذا مرّ بها العنكبوت التقطته وهو غافل ، ثم تمزق ثوبها وترجع إلى حالتها ، ولقد فعلت ما فعلته اليابان في حرب الروس ، إذ صنعوا مراكب ملونة بلون البحر حتى لا يراها الروس فوقعها في الهلاك المبين .

اللطيفة التاسعة : حيل النحل في عدوه

إن النحل إذا دخل عليه عدو من الحشرات مزّقه ، فإذا كان العدو صغيراً رموه ، وإن كان كبيراً اجتمعن عليه ولسعنه معاً حتى يموت ، ولما لم يكن في قدرتها إخراجه تعمد إلى صمغ تحضره من بعض النبات فتلفه به وتغلفه ، فبالسم خلصت من حياته ، وبالصمغ خلصت من ضرر موته ، لأنه محنط كما فعل قدماء المصريين .

هذه اللطائف التسع ذكرتها لتعلم كيف رزق الله هذه الحيوانات بغير حساب ، وعلمها بلا كتاب وأنعم عليها بنعم من عنده ، وألهمها ورزقها ، فلا مدارس ولا دروس ولا مدافع ولا أساطيل ولا جيوش جرّارة ولا سيوف بتّارة ، وبعض الدول لا تعيش إلاّ بالسلاح والكراع والنصب والتعب والكدح والكد ، ذلك رزق الله بغير حساب .

ولعلك بهذا تفهم قوله تعالى: ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ [هود:٦]، ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾ [الأنعام:٣٨]، وقال تعالى: ﴿ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [هود:٥٦] لا عوج فيه لأنه عدل في القضية، نظر للحيوان كما نظر للإنسان، فهذا هو الصراط المستقيم والعدل الدائم، فإنه لم يذر الذرّ ولا النمل ولا النحل، كما لم يذر الجمل والفيل والإنسان، وهذا دلالة أنه ما فرّط في اللوح المحفوظ والعلم القديم، بل إنها كلها أمم أمثالنا والله معها ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ﴾ [الحديد:٤]، وإذا لم يكن معنا فكيف يتم هذا النظام ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ﴾ [الأنعام:٥٤] هاهنا أريتك رحمة الله للحيوان ولبيضه ولأفراخه، قد رأيتها ملموسة منظورة، تلمسها يدك، وتنظرها عينك، وتسمع أصوات تلك الحيوانات أذنك، وتشم روائحها بأنفك، وتذوق لحمها بفمك.

أوَليست هذه آثار الرحمة قد كتبها الله بيده، كتبها بحروف أوضح من حروف اللغات، وكلماتها أبهج من فصيح الكلمات وجملها أبلغ من بليغ العبارات، هذا هو السحر الحلال، هذا هو الجمال والجلال.

فأين اللغات وعلومها، وأين العربية والعبرية واللاتينية والفرنسية والإنجليزية والألمانية وغيرها؟ هل تبلغ من نفوسنا ما بلغته هذه الصور، وهل تعطينا إيماناً كما رأينا بالبصر؟ بهذا نفهم قوله تعالى: ﴿ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ [الأنعام:١٢] وقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ [الأنعام:٥٤-٥٥]، وهاتان الآيتان في سورة الأنعام يقول سبحانه: ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ﴾ وأعقبها بأنه يجمعنا ليوم القيامة، فذكر إحياءنا عقب ذكر الرحمة، وذكر في الثانية أن السلامة والأمان للذين يؤمنون وأنه يغفر لهم السيئات، ثم قال: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ ﴾ وإنما ذكرها بعد ذلك ليبين أن آيات الرحمة سيبين هو تفصيلها في الحيوان، وفي عجائب هذا العالم المشاهد كما استبان في هذا التفسير، وهذا هو الزمان الذي يبين الله فيه الآيات، يبينها بكتابه الذي كتبه بيده، مع أنه كتب على نفسه الرحمة، كتبها في كل نفس وكل بيضة وكل جنين وكل حشرة وكل طير وكل هامة، فعليه رزقها وعليه حفظها وعليه تدبيرها، هذا هو مضمون الكتاب الذي كتبه بيده، وهذا هو الكتاب المبين الذي يدعو للنظر فيه التوراة والإنجيل والقرآن، فمن لم يعقل كتابه الذي كتب على نفسه الرحمة فيه، فليقرأ ما نزل من الكتب السماوية لترشده إلى ذلك الجمال والكمال، ﴿ وَٱللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [البقرة:٢١٣].

اللطيفة العاشرة: القنفذ

(١) إن القنفذ يصعد إلى الكرم فيرمي بالعنقود، ثم ينزل فيأكل منه ما يكفيه، وإن كان له فراخ تمرغ على الباقي فيتعلق بشوكه فيذهب به إلى أولاده. (٢) إن بين الغراب والذئب ألفة، فإنه إذا رأى الذئب بقر بطن شاة سقط وأكل منها معه والذئب لا يضره. (٣) إن الفارة تأتي إلى إناء الزيت فتشرب منه، فإذا نقص صارت تشرب بذنبها، فإذا لم تصل إليه ذهبت وأتت بماء في فيها، وتصبه فيه حتى يعلو لها الزيت فتشربه.

اللطيفة الحادية عشرة: الجراد والعنز والزرع والفلاحون في مصر

إن الجراد قد يفتك بالزرع في بلادنا المصرية، فتراه في جو السماء كأنه سحاب مركوم، فإذا نزل بزراعة التهمها وأكل ورقها وحبها وصارت جرزاً، ولقد خلق الله في جبالنا المصرية طائراً يسمى العنز أكبر من البط وأصغر من النعام، يفتك بالجراد فتكاً ويعدمه من الوجود.

صفة ذلك: فإذا جاء الجراد وفتك بقوت العباد، فتك به العنز وأنزل به الهلاك والبوار. نزل الجراد يوماً بمزرعة تبلغ نحو ٦٠ فداناً، وقد غطى وجه الزرع وأخذ يلتقمه التقاماً، والفلاحون يبكون ويندبون حظهم ويستصرخون، وبمن يستصرخون ويستغيثون إذا كان عدوهم سماوياً، وأمرهم ليس يقدر عليه إلاَّ الحكيم الخبير، فبينما هم على تلك الحال إذ أقبل لهم النصر، وبسم لهم الدهر، وكشف عنهم الضرر، وأقبل الطائر المسمى بالعنز المذكور، فأحاط بالمزرعة إحاطة الهالة بالقمر، والسوار بالمعصم، وضرب عليها سواراً من جنوده، أحاطها بعسكره الجرار بنظام يعجز ضباط الجنود وقوّاد الجيوش الذين لا ينتظم جمعهم، ولا يحفظ كيانهم إلاَّ بتدريب المدرّبين، وتعليم المدّرسين، والدأب والسهر في النهار وفي السحر، فلما أن انتظم جمعهم وقام صفهم كأنه بنيان مرصوص أرسل قائدهم جماعة منهم وسط المزرعة ليفرقوا الجراد وليزعجوه عن المزرعة، فيلجأ للخروج فتلتقمه تلك الجنود، وكلما امتلأ بطن واحد منهم الذي هو كالمخلاة، رجع إلى الجبل فأفرغه ليكون ذخيرة، ثم يرجع وهكذا حتى لم يتركوا في المزرعة جرادة. اهـ. والفلاحون واقفون ينظرون، يحمدون ربهم ويسبحون، فيا عجبا، أليس هذا العنز قد رزق بغير حساب، وهل هو الذي ربى هذا الجراد، أم هو الذي بذر الزرع، أوّليس الجراد رزق بغير حساب، وليس له في الزرع عمل؟ أوّليس الإنسان قد رزق بغير حساب، فهل هو الذي ربى العنز الذي أكل الجراد؟ يا ليت شعري، أنيام أهل الأرض أم مستيقظون، وكأين من فلاح نظر هذه المسألة ولا ينظر فيها؟ وكم من عالم سمع بها ولا يلقي إليها بالاً، إن الإنسان لجهول وظلوم وكفار. أهل الأرض مساكين ثلاثة أنواع من المخلوقات: الجراد والإنسان والعنز تألفت منهم رواية أدبية يخرّ لها العلماء سجداً، ويقولون سبحان ربنا، وينظر لها الجهال غافلين. لعمري ما أجهل الإنسان. ولعمر الله إن هذه لأشبه بما ترى من استمساك القمر بالأرض وجريه حولها، واستمساك الأرض بالشمس وجريها حولها، واستمساك الشمس بالكوكب الذي تجري حوله، وهكذا طبقاً عن طبق حتى تصل إلى منبع الوجود.

من هنا فليقرأ الناس العلوم، وبذلك فليفرح المفكرون، ويا ليت شعري أي فارقة بين اتحاد الجراد والإنسان والعنز، وبين تماسك القمر بالأرض وبالشمس، سلسلة متصلة ووحدة جامعة ونظام متماسك متحد، ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [يوسف: ١٠٠].

اللطيفة الثانية عشرة

إن في البحر الأحمر حيواناً يسمى الدرفيل، قد رأيته أنا، جسمه قدر الحمار، يغدو ويروح، ليس عليه من رقيب، لأن حكومتنا حرمت قتله، كما منعت العنز المتقدم، ومن قتله يعاقب بالشغل الشاق ستة أشهر. وهذا الدرفيل إذا صادفه غريق من بني آدم في البحر حمله على ظهره وجرى به جرياً حثيثاً حتى يلقي به في الشاطئ، فانظر هذه اللطائف، وتعجب من حكمة باهرة، وبهذا فليكن في

الإسلام علماء وحكماء ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴾[طه:١٢٤-١٢٦] ، فهذه آيات الله ، ولقد فصلناها في هذا الكتاب تفصيلاً ، وبيناها للناس تبييناً .

اللطيفة الثالثة عشرة : طائر يسمى السقا

إن في بحيرة أخرى بناحية منستر ببلاد ألبانيا طيراً يسمى سقا ، يطير فوق الماء ، حجمه كبير ، ولا يقدر أن يصيد السمك الذي هو غذاؤه ، وهناك طير آخر يصطاد السمك ، غطاس فيغوص في الماء ، ويأتي بالسمك فيلتقمه السقا فيأكله ، وهذا السقا تبقى في فمه بقايا وهي مدوّدة ، والدود طعام ذلك الغطاس ، فمتى أكل السقا فتح فاه ليناول الغطاس طعامه من الدود الذي تولد من بقايا الطعام . فانظر كيف أحكمت الدائرة : سمك ودود السقا والغطاس ، كما أحكمت في العنز والجراد والزرع والفلاح . هناك أربع متلازمات ، وهنا العدد نفسه ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ ﴾[المؤمنون:١٤] ، ﴿ وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَـٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾[الذاريات:٢٠-٢١] ، ﴿ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[يوسف:١٠٠] .

وبهذا فليفهم المسلمون قوله تعالى : ﴿ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ﴾[الأعراف:١٥٦] ، وكيف يعرف الإنسان هذه الرحمة الواسعة إلاَّ بالدراسة ونظر ما أنعم الله به على الحيوان ، وأسبغ عليه من رحمته . هنا فليفهم المسلمون ﴿ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا ﴾[غافر:٧] ، وهنا فليعرف المسلم كيف شملت رحمته وعلمه العوالم كلها شملها بالرحمة التي أصبح يراها العلماء في الذر والحشرات وكل ما دبّ ودرج ، يرونها بأعينهم ويلمسون تلك الرحمة وذلك العلم الشاملين لتلك الحيوانات التي خلقها ، والنعم التي أبرزها ، والكلمات التي خطها بيده ، والنفوس التي أبرزها بعلمه ، وصوّر هياكلها بحكمته وغمرها برحمته ، هذا هو الله ، هو الله الذي بيده خطها وكتبها وأبرزها وأرانا بدائعها ، فشهدنا رحمته فيها وسعتها والعلم مع الرحمة ، لأنه قدّرها تقديراً وصوّرها تصويراً . ولعمري لا يغني المسلمون ما يسمعون حتى يبصروا ، ولا ما يقرؤون حتى يعلموا ، فالقرآن يذكر الرحمة ، وعلى العقلاء أن يعرفوها في كل ما دبّ ودرج في الطيور الطائرات والدواب الماشيات والسمك العائمات والحشرات المتقلبات .

هنالك فليفهموا قوله تعالى : ﴿ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ﴾[الأعراف:١٥٦] ، والجاهل بهذه العوالم لا يدرك الرحمة فيها ، والغافل عنها لا يعقل معانيها ، فتتجافى معظم الرحمة عن النفوس الغافلة ، ويختص الله بالنفحات القلوب الكاملة العاقلة ، ولذلك اختص بها المتقون والمؤتون الزكاة والمؤمنون ، ولذلك قال بعدها : ﴿ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ ﴾[الأعراف:١٥٦-١٥٧] الخ الآية ، عمم الله الرحمة ، وجعل أعلاها وأخصها لمن اتبعوا النبي الأمي . الرحمة عامة وخاصة ، والخاصة قال الله فيها : فسأكتبها لأتباع النبي الأمي ، ولعمري كيف يختصهم الله برحمته إن لم يدرسوها ، وكيف يذيقهم أجلها وهم لم يعلموها . ذكر الله الرحمة في أول كل سورة ، وفي سورة الفاتحة أربع مرات ، وجعل الدعاء بالهداية بعد الحمد على التربية المشوبة بالرحمة ، كأنه يشير إلى أن المرء متى عرف المنحة استعد لها ، ومتى استعد لها رزقها . أمرنا أن نحمد الله على النعم المشمولة

بالرحمة، ثم تطلب الهداية بعدها. هكذا هنا ذكر أنه وسعت رحمته كل شيء، وخصص أعلاها بالمؤمنين الذين أمروا بالنظر في آثارها ﴿ فَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحۡمَتِ ٱللَّهِ ﴾[الروم: ٥٠] وهي التي رأيتها في هذه الحيوانات وعجائب المخلوقات، هذه هي آثار الرحمة؛ فالرحمة صفته والآثار في عمله وحكمته، فإذا نظروا في آثار رحمة الله عرفوها، وإذا عرفوها تشبهوا به فيها، وفي الحديث: «تخلقوا بأخلاق الله» وإذا تخلقوا بها أفادوا أهل الأرض، ولن يتخلقوا بمجرد السماع، وإنما ذلك بالاطلاع كما أطلعتك، وبالفهم كما أريتك، ومجرد القراءة بلا مزاولة المعاني قليلة الجدوى.

الله واسع الرحمة والمسلم ينظرها ويتخلق بها ويكون رحمة لأهل الأرض قاطبة. إن نبينا رحمة للعالمين ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾[الأنبياء:١٠٧] ونحن خلفاؤه رحمة للعالمين، فنكون خير أمة أخرجت للناس ﴿ كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ ﴾ [آل عمران:١١٠] فنحن رحمة العالمين، ولقد شرحت هذا المقام في سورة البقرة من طريق آخر عند قصة سيدنا إبراهيم ﴿ وَمَن يَرۡغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبۡرَٰهِـۧمَ ﴾[البقرة:١٣٠] إلخ، وعند قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا ﴾[البقرة:١٤٣]، ولقد أبنت في تلك السورة أن المسلمين رحمة للعالمين، فهم خير أمة، وقلت: وذلك يوجب أن تكون أمة الإسلام أعلم الأمم بأحوال العالم وأقوى عدداً وجيوشاً، وليكونوا ناصري الضعفاء على الأقوياء ومعلمي الأمم، وإذن يكونون خير أمة أخرجت للناس.

ملخص هذا الفصل الخاص بقوله تعالى: ﴿ وَتَرۡزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴾

إن الرزق بغير حساب بعموم الرحمة والعلم، وعموم الرحمة يعرف بنظر العوالم، ومتى عرفت الرحمة بآثارها تخلق بها المؤمن وصار خليفة لله ولنبيه. أما خلافته لله فبنظره في آثار رحمته وفي تخلقه بها، وفي الحديث: «تخلقوا بأخلاق الله»، ويقولون الحكمة أن يتشبه الإنسان بالله بقدر الطاقة البشرية. وأما خلافته لنبيه فإن الله يقول: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾[الأنبياء:١٠٧] فيكون المؤمن عالماً بهذه العوالم مستعداً أن يكون مفيضاً عليها قاضياً بينها نافعاً اتباعاً لنبيه بمقتضى الوراثة، وأنا أيها الذكي لا أدري كيف تأخر في هذا الزمان ظهور الأمة الإسلامية بهذا المظهر الإلهي، فعسى أن يكون قريباً، حتى يعلموا هذا الوجود، ويقوموا بنظام أهل الكرة الأرضية، ويكونوا رحمة لهم وقضاة ومؤدبين للأمم جميعها، وعسى أن يكون امتداد السكك الحديدية والأسلاك البريدية مقدمة لظهور هذا الجيل الإسلامي الذي هو اليوم ليس موجوداً، ولكن الموجود بذور الدين، أما شجره وثمره وقيام أهله بنظام أهل الأرض ووصايتهم عليهم وحكمهم على الأمم الظالمة، ورحمتهم للأمم المظلومة، وقيامهم مقام الآباء لأهل الأرض فذلك لم يأت بعد، وقد مهدت الأساس، وبنيت القواعد له، وقدمت المقدمات وعسى أن يكون قريباً.

بهذا تفهم القنوت في صلاة الصبح

يقول المصلي دائماً وقت صلاة الصبح: «وتولني فيمن توليت» يا عجبا كيف يعرف المسلم أن الله رحمته واسعة، ورأفته لا حد لها، إلا إذا اطلع على مثل ما قررناه في هذا التفسير، وفي مثل هذه الحيوانات وأنها مرزوقة بغير حساب، الناس كثيراً ما يعبدون الله خوفاً من غضبه، وفرقاً من عذابه في الدنيا وفي الآخرة، ولكن إذا اطلعوا على مثل هذه اللطائف في هذا الفصل، حصل لهم يقين أنه يكفل

الذر والنملة والنحلة والذبابة، وأنه رحيم رؤوف بالحقير والعظيم، هو رؤوف حقاً لأنه هكذا عمله مع ضعاف خلقه، وعلى ذلك يتبين للإنسان علماً يقينياً أن الله يتولى خلقه وعنده رأفة ورحمة لا حد لها، ويرزق تلك المخلوقات بغير حساب، ولكن لماذا يدعو المؤمن؟ والله برحمته عم النمل والنحل والمكروب، وتولاها ورزقها حتى أصبحت ترعى أجسامنا، وإذا كنا أفضل منها فلماذا ندعوه وقد كفلها وتولاها، أفلا يكفلنا ويتولانا؟.

الجواب: اعلم أن العوالم ثلاثة: عالم الحيوان له غريزة، وعالم الإنسان له عقل، وعالم الملك والأرواح المجردة الذي ذكرنا آراء الناس والفلاسفة فيه عند قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ في سورة البقرة [آية: ٣٠].

فعالم الحيوان قد تولاه الله وأنعم عليه بالغريزة فنال الهناء والسعادة وقلّ عناؤه وشقاؤه بالنسبة للإنسان، ولذلك ترى علماؤنا أجمعوا على أن الحيوان قليل المرض، والإنسان كثير الأوجاع والهموم والوجوم.

وعالم الإنسان أعطي عقلاً به يفكر ويشقى في تحصيل الرزق وتعلمه وملبسه مما تبرأ منه الحيوان واستراح، ومهد له الأسباب، فتراه يغزل وينسج ويطير ويبني البيوت ويغوص في البحر، وهو سعيد بلا كلفة ولا مدرسة ولا طب ولا هندسة ولا حساب ولا شقاء، وقد جعل الله له صحاري واسعة، وشعاباً وجبالاً ومروجاً وغابات واسعة، وهو فيها رافل في حلل السعادة، فلا ضرائب ولا جباية ولا مدرسين ولا دروس، وقد أعطي كل ما يحتاج إليه وهو في أتم حال.

أما عالم الملك والأرواح فله غرائز لا كغرائز الحيوان، فهي لا نصب فيها ولا تعب، ولكنها قوة قدسية، فكما نرى العنكبوت ينسج، والنحل يجني العسل بلا تعليم، هكذا الملائكة يفعلون ما يؤمرون وتكون أعمالهم سجية وغريزة من الغرائز العالية الشريفة، فهذه المنحة في الحيوان غير عالية كالوحي إلى النحل والهامة، وفي الملك نسميها قوة قدسية.

والإنسان ارتقى عن الغريزة الحيوانية وانحط عن أفق الملائكة، ولذلك تراه إذا سمع بالوحي طار إليه سراعاً وفرح به واستبشر، فالله تولى الحيوان في مرتبته السافلة، وتولى الملائكة في درجاتهم العالية، والإنسان في حال التكليف يريد أن يصل إلى الدرجات القدسية فيقول: «وتولني فيمن توليت»، ويقول أيضاً: «فلك الحمد على ما قضيت»، ومحال أن يفهم أن القضاء كله خير وجمال، حتى القضاء بما يكرهه على نظام هذا العالم كما رأيت، كيف كانت القاذورات تحول إلى حشرات لطهارة الجو، والحشرات إلى طيور، والطيور يأكلها الإنسان والحيوان الكبير، فيقول العبد في الصلاة: «لك الحمد على ما قضيت» لأني علمت أن قضاءك لمصالح شريفة، فيكون الحمد حقاً لا بمجرد اللفظ، وإذا قال: «تولني فيمن توليت» يكون مطلعاً على بعض ما تولاه الله به، جازماً بأنه قد وسعت رحمته وعمت، ويكون موقناً بما اطلع عليه، كما في لطائف هذا الكتاب التي اقتطفت من علوم الأمم الحاضرة والكشف العلمي.

إن الدعاء في الدين الإسلامي فتح لباب العلم والفكر، فإذا حمد المرء الله على قضائه وفيه ما يكرهه المسمى شراً، وجب أن يعقله ويتأمل المخلوقات وإلا كان الحمد كذباً ونفاقاً، وإذا قال: «تولني

فيمن توليت» يجب أن يطلع على بعض من تولى الله حمايته وحفظه، فإن الإنسان قليلاً ما يعرف رحمة الله في نفسه، بل تغلب عليه وساوسه وآراؤه المنحرفة المنغصة فينسى النعمة، والله عام الرحمة عظيم الجود.

خاتمة هذا القسم وعجائبه

أيها الذكي تأمل معي في مجموع آيات هذا القسم، انظر أفلست ترى أمراً عجباً، يقول الله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ﴾، ويقول: ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ ﴾.

هل لك أن ترجع معي إلى أول السورة وتنظر ﴿ الم ﴾ أفلست ترى أن ﴿ الم ﴾ مع ما تقدم من الإشارات والرموز للعلوم تشير إلى أمر أهم في نفس هذه السورة. انظر معي وتفكر وقل لي، ألست ترى قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا ﴾ إلخ، قد ابتدئت بنفس ﴿ الم ﴾ وقوله تعالى: ﴿ مَالِكَ الْمُلْكِ ﴾ جاء من الملك المكررة مراراً ﴿ الم ﴾ ولعلك تقول وما فائدتنا من هذه الإشارة، أولم يكفك ما مضى من الإشارات إلى العلوم حتى جئت الآن تقول إنها أيضاً تشير إلى هاتين الآيتين، وما المزية في ذلك؟ أقول: المزية في ذلك توبيخ المسلمين، ولعلك تقول: وأي توبيخ هنا والكلام في اليهود. أقول لك: إن الله تعالى قال في اليهود إنهم أوتوا نصيباً من الكتاب وهو التوراة فلما دعوا للعمل به وامتثال أحكامه أعرضوا، ولم أعرضوا؟ أعرضوا بأضاليل دبجها لهم علماؤهم، وأكاذيب زينوها لهم وحيل اخترعوها، سهلوا الأمر على الشعب وعلى نفس العلماء؛ فتارة يقولون: لن تمسنا النار إلا سبعة أيام من أيام الآخرة، كل يوم ألف سنة، وقال قوم منهم: أربعين يوماً، وقال قوم: إن آباءهم الأنبياء يشفعون لهم، وقال قوم: إنه تعالى وعد يعقوب عليه السلام أن لا يعذب أولاده إلا تحلة القسم.

كل ذلك تقدم، ألا ترى أن المسلمين وقعوا في نفس ما وقع فيه اليهود، ماذا فعل اليهود؟ اتكلوا على شفاعة الآباء، وآباؤهم أنبياء عظماء، اتكلوا على أن الله عاهد يعقوب أن لا يعذب أولاده إلا تحلة القسم، اتكلوا ذلك الاتكال. فانظر ماذا حصل؟ كانت النتيجة التهاون بالدين والتهاون بالمعاصي والتهاون في الطاعات. فلما دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم بحكم التوراة نكصوا. فانظر أليس هذا بعينه هو الحاصل الآن في الإسلام. اتكل بنو إسرائيل على شفاعة آبائهم. واتكل المسلمون كذلك على الشفاعة.

الشفاعة حق عندنا والشفاعة حق عند بني إسرائيل، يا عجبا يعاقب الله بني إسرائيل ويسلبهم ملكهم، لماذا؟ لأنهم اتكلوا على شفاعة آبائهم الأنبياء، ونحن في ديننا نعتقد أن شفاعة الأنبياء حق بل منكرها يكفر، فكيف يكون الحق سبباً في العذاب؟ نعم يكون الحق سبباً في العذاب إذا أريد به باطل، والذين يجعلون شفاعة الأنبياء باباً للباطل والكسل، هم الذين اتخذوا الدين هزواً ولعباً ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴾ [المائدة:٥٨] وهذا هو الذي أصاب المسلمين اليوم، المسلمون اليوم إما متنورون يجحدون الدين، وإما جهلاء يتكلون على الشفاعة إلا قليلاً من الفريقين تربوا تربية عالية منزلية أو مدرسية، فإذا كان ذلك الاتكال سلب اليهود ملكهم أيام النبوة، وإذا كان الجد والنشاط في أمة الإسلام الأولى أورثها الملك المذكور في قوله تعالى: ﴿ مَالِكَ الْمُلْكِ ﴾ إلى آخره. فهكذا في هذه الأيام أصبح

الكسل والبطالة والاتكال على الشفاعة في أمة الإسلام سبباً من أسباب زوال ملكهم وضياع مجدهم وذهاب سعادتهم. فكأنه تعالى لما قال: ﴿ الٓمٓ ﴾ في أول السورة يقول انظروا في آية: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ إلى آخر الآيات.

فإن اليهود زال ملكهم بالتقاعد ويجعل الدين الذي أنزل ليكون عاملاً قوياً لرقي الأخلاق وإسعاد الأمة وصلاحها سبباً في الفسوق والكسل، لذلك زال ملكهم وقد وعدت محمداً صلى الله عليه وسلم أن تملك أمته كثيراً من الأمم، وذلك لأنهم قوم عاملون مجدون غير مخرّفين في كتابهم كما خرّف اليهود، فإذا رجع المسلمون كاليهود في أخلاقهم وعوائدهم المذكورة فإني أعاملهم معاملة أولئك اليهود، وأسلبهم ملكهم، هذا ما يؤخذ من تلك الإشارات، ولعلك تقول هذا يؤخذ من آيات أخرى من القرآن، فما فائدة هذه الإشارة؟ أقول: إن الإشارة دائماً أبلغ من العبارة.

وإذا كان المسلمون اليوم مغترين بأمور دينية، فإن هذه الإشارة تنبههم إلى الرجوع عن ذلك الكسل، ويظهر لي أن هذا هو الزمان الذي تظهر فيه أسرار القرآن وعجائبه، ويظهر لي أن الناس بعد ظهور هذا التفسير وأمثاله سيجولون جولات في العلم والحكمة الإسلامية، لا سيما أن الأمم الأوروبية اليوم قد اتجهت لدين الإسلام، ولعلك تقول هذا عرفناه في سورة آل عمران.

فما الذي تشير إليه ﴿ الٓمٓ ﴾ في أول سورة البقرة؟ أقول: تشير إلى أهم ما في السورة، وهو الجهاد وعلوم الطبيعة، ذلك أن قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ ﴾ [البقرة: ٢٤٦] جاءت في الجهاد والحض عليه، فارجع إليها، وقوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ ﴾ [البقرة: ٢٥٨] إلى آخر الآيات، فقد ذكر فيها محاجة إبراهيم للنمروذ وكلامه في الشمس وأن الله يأتي بها من المشرق فائت بها من المغرب، وكذلك جاء هناك مسألة العزير وأن الله أحياه وأحيا حماره، وقال له انظر إلى العظام، وكذلك مسألة الخليل إبراهيم إذ قال الله له: ﴿ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ ﴾ [البقرة: ٢٦٠] الخ، وكل ذلك حض على علوم الطبيعة والتشريح. فكأن ﴿ الٓمٓ ﴾ في أول البقرة تشير إلى العناية بأمرين: الجهاد والعلوم بقسميها الأرضية والسماوية، ولا بقاء لدين ولا لدنيا بغير هذين لا سيما في هذا الزمان، كما جاء في هذه السورة أن الملك يدوم ما لم يجعل الناس الدين من أسباب التقاعد كما كان اليهود يفعلون.

تذكرة

كأني في هذه الساعة أتخيل طائفة من مؤمني هذا الزمان جالسين في حضرة النبي صلى الله عليه وسلم وهو يقرأ: ﴿ الٓمٓ ۝ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾، وكأنهم لذكائهم أخذوا يفكرون ماذا يعني بـ﴿ الٓمٓ ﴾ حتى إذا وصل إلى قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ۝ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ ﴾ الخ. وكأنهم لما سمعوا ذلك قالوا: يا ليت شعرنا، ماذا يعنينا من اليهود الذين مضوا وقد غرّهم ما كانوا يفترون في دينهم وقد رفضوا أن يحكم لهم بحكم التوراة الخ، ثم يقولون بعد أن يتدبروا: لا بد أن يكون المقصود من هذا القول نحن معاشر المسلمين لا سيما في هذا الزمان، فإن اليهود أيام النبوة

كان لهم دين مضى عليه زمن طويل ﴿ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾[الحديد:١٦] ولذلك أدخلوا في الدين خرافات وألصقوها به وبتوالي الأيام اغتروا بتلك الأوهام وخدعوا بها فجاءت أجيال صدّقت بتلك الأوهام حتى صارت عندهم هي من الدين الأصلي، وهذا عينه قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾[الحديد:١٦]، ثم كأنهم يقولون: ألسنا اليوم غيرنا أيام النبوة وربما حصلت لنا تلك القسوة التي تحصل للأمم إذا طال عليها الأمد، فهاهو ذا الأمد طال علينا، ولعل قلوبنا قست فقد مضى على النبوة ١٣٤٣ سنة عربية، وهي قرون كثيرة نامت فيها العيون، ونعست الجفون، وطال الأمد وقست القلوب، ثم كأنهم يقولون: فلننظر في ديننا الذي أشار له القرآن، لننظر في عيوبنا في هذا الزمان، لننظر في ذلك، لأن ﴿ الٓمٓ ﴾ في أول السورة جاء مفتاحاً لهذا العلم بها تفتح خزائن العلم، خزائن العلم المخزونة في قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا ﴾ لأنها مبدوءة بنفس ﴿ الٓمٓ ﴾ فلننظر أين غرورنا لأن الله لما قال في آية سورة الحديد التي تقدمت: ﴿ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾[الحديد:١٦]، أعقبه بقوله تعالى: ﴿ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾[الحديد:١٧]، فكأنه يشير إلى أن الأمة التي طال عليها الأمد وقست قلوبها وفسق أكثرها لا تيأس من روح الله. فلننظر المخرج مما وقعنا فيه، وكأنهم يقولون لننظر في غرورنا نجده في العلم وفي النسب وفي الشيوخ وغير ذلك.

أما في العلم فإننا اليوم لا نعرف من مقاصد الدين إلا علم الفقه وأصوله، وقد درج المتأخرون من المسلمين على ذلك بحيث يعتنون به وبأصوله؛ فأما علوم الكائنات من طبيعيات ورياضيات وفلكيات، فإن المسلمين لا يبالون بها، ومن قرأها منهم فإنما يقرؤها لأجل الحياة الدنيا، ولا يعتقد أن الدين يطلبها بل ربما اعتقد أنها تنافي الدين، مع أن السور التي نزلت بمكة كلها ما كانت تدعو إلا إلى النظر في عجائب هذه الدنيا، وفي جمال النجوم، وبهجة القمر، ونور الشمس، وبهجة الزهر، وبهاء الزرع، وحسن الشجر، وعجائب البر والبحر، وأكثر الأحكام الشرعية إنما نزلت بالمدينة، فإذا أراد المسلمون ملكاً وثبتوه بعلم الفقه وحده فإنهم جاهلون، ليفعلوا كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم ابتدأ بالنظر في هذا الوجود، وفي تهذيب النفوس ثلاث عشرة سنة، ثم أكمل الله الدين له في عشرة أخرى وأنزل فيها الأحكام، ثم يقولون: إذن هذا خطأ يجب أن نتلافاه، وجهل يجب أن نتجافاه، وغرور يجب أن ننتهي عنه، ونقلاه ونتركه ولا نرضاه، فلنقرأ العلوم كلها على أنها دين إسلامي فترتقي العقول أولاً والأخلاق ثانياً، وينتظم أمر الصناعة والزراعة والتجارة والدولة الذي هو من لوازم تلك العناية العلمية، وكأنهم يقولون هذا غرور علمي أورثنا جهلاً فاضحاً، فإن هذه العلوم الكونية نزحت من بلادنا إلى أوروبا ففرحوا بها وفرحنا بالجهل، ثم كأنهم يقولون: لم غضب الله على اليهود في هذه الآيات؟ غضب عليهم أنهم تركوا حكم التوراة، أي لم يرضوا بالحكم. ومحصل هذا أنهم خالفوا أحكام شرعية لهذا كان الغضب منصباً عليهم. أما نحن فإننا خالفنا في أمور أهم من ذلك، خالفنا في علم التوحيد ودراسته، اكتفينا من التوحيد بالعلم المدوّن الذي لم يجعل إلا للرد على قوم مبتدعين في الإسلام، وهذا لا يكفي فإن المحاجة شيء والعلم شيء آخر. غفل المسلمون عن

القرآن، ألم يدرسوا هذه الآيات المكررات في القرآن التي تحض على معرفة ما في السماوات والأرض كما أوضحناه، هذا هو المطلوب؛ فاغترار المسلمين اليوم بالاقتصار على علم الفقه وعلى علم التوحيد الذي حشي بالفلسفة الناقصة المشوّهة بعد عن الله أولاً وعن رقي الأمة ثانياً.

وليس الغرور قاصراً على ذلك بل يغتر الإنسان تارة بعلم الشعر، وأخرى بعلم المعاني أو علم البديع أو أيّ علم جزئي كان، كل ذلك اغترار وجهل فاضح، فليكن المسلم المتعلم ملماً بالعلوم إجمالاً بحيث يدرس هذه الدنيا ويكون له فيها نظرة كما طلب القرآن.

هذا بعض الغرور بالعلم، إن هذا الغرور قد أدى إلى الجهل، وبالجهل ذهب ملكنا كما جاء في هذه السورة: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ ﴾[آل عمران: ١٤٠]، فكأن آباءنا آتاهم الله الملك لما لم يغتروا، وبغرورنا دالت دولتنا.

الغرور بالنسب

يغتر بعض الذين ينتسبون إلى العظماء وإلى بيت النبوة بذلك النسب ويفرّطون في الأمور الدينية أو في العلوم والمعارف، فهؤلاء لا فرق بينهم وبين بني إسرائيل إذا اتكلوا على أن الله قال ليعقوب: لا أعذب أبناءك إلا تحلة القسم، فهؤلاء المسلمون الأشرار الذين وقع في قلوبهم هذا القول مغرورون لأن الدين جاء لرقي الأنفس لا لخذلانها وخسرانها، والآباء الذين ارتقوا بالنبوة والعلم، لا يرضون عن أبنائهم الذين يجهلون دينهم ويخالفون أمرهم، ألم تر إلى قوله تعالى: ﴿ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[البقرة: ١٢٤] فعلى من اطلع على هذا، وعلى من تنوّر من المسلمين أن يبينوا للناس كتاب الله، وأن يشرحوا للمسلمين طرق الاغترار التي شرحها الإمام الغزالي في الإحياء حتى يرجع عنها المسلمون.

الاغترار بالشيوخ

ومن الاغترار الشائع بين المسلمين أنهم إذا اتبعوا شيخاً بطريق العهد جعلوا توكلهم عليه، بحيث لا يعرفون إلا قوله، ولا يسمعون إلا علمه، وقد تركوا عقولهم وتفكيرهم، والقرآن بين يديهم، فلا يتفكرون ولا يتذكرون، وهؤلاء يتكلون على شيوخهم في مغفرة الذنوب والشفاعة، وهذا كله تهاون وجهالة، فعلى المسلمين أن يتبصروا ويتعلموا، والله هو الولي الحميد.

ميزان يبيّن المغترين من المسلمين والموفقين

هذا بيان جامع لعلامات العلماء الذين هم مغترون، والعلماء الذين هم موفقون، وكذلك الأمم التابعة لهم، هذا الذي سأذكره تبيان لهم وتعريف لأحوالهم وتمييز لهم عن الموفقين من علماء الإسلام وعامتهم.

فاعلم أن كل ما يؤدي إلى كسل المسلم وتواكله ونومه وقسوته وتأخره في دينه أو دنياه غرور وجهالة، وكل قول أدى إلى النشاط وقوة العزيمة والصبر والقناعة والهمة العالية وإحراز العلوم ومغالبة الأمم، فذلك من صفات الموفقين وشيم الفضلاء وحكماء الإسلام.

والدليل على ذلك أن الأمة العربية وإن كانت قبيل الإسلام قوية الشكيمة والعزائم والهمم، لما

جاء الإسلام جمعها وأرسلها إلى إصلاح الأمم شرقاً وغرباً. فهذا هو الإسلام هو الذي زاد شجاعة الشجعان ووجهها إلى عظائم الأمور ومنافع الجمهور.

فأما الأمم الإسلامية الحالية فإنك ترى كثيراً منهم لا يزالون يظنون أن ديننا يرضى التواكل والكسل والجبن، فيفرون من الفضائل والأعمال الشريفة والعلوم، ولعمرك إن علماء علموهم هذا التعليم غارّون ومغرورون، وإن ملوكاً رضوا بهذا النوم والجهل لملوك مغفلون.

فبهذا الميزان زن أعمال الأمة الإسلامية وأحوالها، فإذا رأيتهم يتكلون على شفاعة الأنبياء، أو على نظرات الشيوخ الذين علموهم، أو على عطف مشايخ الطرق الذين لقوهم، وهم في ذلك كله متكلون، فاعلم أنهم مغرورون، والذين علموهم غارّون، فإن هؤلاء لم يفهموا الشفاعة إلا مقلوبة، ولا نظرات شيوخ الصوفية إلا مختلة معتلة.

وهذا في الحقيقة الانتكاس، لو كان المتقدمون في الصدر الأول يفهمون الشفاعة كما فهمناها ما بلغوا مشارق الأرض ومغاربها، ولا أذابوا مهجهم ولا نفوسهم في سبيل الله، ومن الجهالة أن يعرف الإنسان باب الجنة بلا عمل، ثم يجشم نفسه المخاوف واقتحام الأخطار، فلو كان علمهم كعلمنا مقلوباً ما عملوا ولا علموا ولا جاهدوا، ولم يكن لهم ملك ولا دول منتظمة ولا حكومات عادلة ولا ممالك شريفة في الشرق والغرب.

فأما بعض مسلمي العصر الحاضر فإنهم جعلوا شفاعة الشفعاء إغراء بالمعاصي، وباباً للجهل، وخروجاً عن الأدب، والله إن هذا انقلاب وجهالة عمياء، إذا ظن المسلم أن ديننا يرضى هذا النوم فهو مغرور.

فهذا هو الميزان الذي يميز به المغرورون والموفقون الصادقون، إذا علمت هذا أدركت المناسبة بين قوله تعالى: ﴿وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ وبين قوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ﴾ الخ.

هذه هي المناسبة بين هذين المقامين غرور فزوال ملك استقامة فملك. اليهود اغتروا بفتاوى دينية لا توافق أصل الدين، فزال ملكهم، وهكذا كثير من ممالك الإسلام ألقي إليهم الدين، وغير شكل العلم والعمل فيه فزال ملكهم، وهذا كله سر قوله تعالى: ﴿الٓمٓ﴾ في أول السورة، بهذا يفهم بعض سر القرآن الآن، وأن هذا السر وإظهاره لارتقاء أمة الإسلام.

لم يمنع الشرف الإسلامي من الرقي إلا جهل القائمين بالدعوة إن الناس يؤثرون بوجدانهم، ولو كان الوجدان خطأ وضلالاً مبيناً، فلو وجه الوجدان إلى عجائب العلم ومقاصد الدين من الارتقاء العلمي لكان في الشرق أمم لا يقاومها أحد.

نموذج من بدع الدعاة الجاهلين

بينما أنا أكتب هذا التفسير إذ جاء في جريدة الأهرام يوم ٨ مايو سنة ١٩٢٥، ١٥ شوال سنة ١٣٤٣ تحت عنوان:

دين جديد

في سوريا يؤله علي بن أبي طالب، وهاك نصه:

ظهر في بعض قرى العلويين القريبة من مدينة حمص متنبئ جديد يدعو إلى عبادة علي بن أبي طالب رضي الله عنه بشكل باطني، فتبعه كثيرون من العلويين وزعمائهم، ولما استفحل أمرهم في قرية «العاليات» أراد بعض رجال الأمن أن يدخلوا هذه القرية لفحص الحقيقة، فأطلق القوم عليهم الرصاص، فاستدعوا قوة من حمص فحضرت قوة من جنود الدرك، ثم حضرت من دمشق ثلاث سيارات مدرعة تحمل الجند المختلط من فرنسويين وسوريين، فأنذروا القرية بوجوب الاستسلام لقوة الحكومة، وبعد الإنذار أطلقت عليها النيران، فقتل من الأهالي واحد وثلاثون قتيلاً عدا من قتل قبل ذلك، وعدا الجرحى الكثيري العدد، ثم دخلت القوة إلى القرية وقبضت على الرجال وسلمت النساء إلى جنود الجيش المختلط، وأرسلت الجرحى إلى مستشفى حمص بالسيارات، وكان شعار أتباع المتنبئ الجديد: «لا إله إلا علي».

وبعد تلك الواقعة تجمهر بعض زراع قريتي «الرقامة» و«البلها» في الوادي، فخرجت عليهم سيارات مدرعة فقتلت اثنين وجرحت اثنين، وبلغ عدد المقبوض عليهم أكثر من مائة شخص.

ووصف مراسل الزمان في حمص سبب هذه الفتنة فقال: ظهر في العام الماضي مشعوذ نصيري ادعى النبوة في بلاد العلويين، فخافت الحكومة شر الفتنة بعد أن رأت خطورة هذه الدعوة، فأصدرت أمرها بإبعاده إلى قرية اسمها العليليات من قرى أملاك الدولة في حمص، تبعد عن هذه المدينة ١٥ كيلومتراً إلى جهة الجنوب الشرقي، فأخذ «النبي» ينشر لواء دعوته في تلك القرية، ويعمل بجد ونشاط والعين غافلة عن أعماله وأفعاله، إلى أن استطاع إقناع أهالي القرية وهم من العلويين باعتناق دينه الجديد، فاشتدت عزيمته وقويت شوكته، وأصبح تابعوه يفتدونه بالمهج والأرواح، وظلت عائلتان سنيتان بعيدتين عن دينه، ورفضتا قبوله رفضاً باتاً، فهاج عليهما أهل القرية، فقتلوا أفراد تينك العائلتين بصورة شنيعة، إذ أحرقوا منازلهما وهم فيها.

وعلمت قيادة درك حمص بهذه الفاجعة، فجهزت حملة تتألف من ١٥ دركياً، وعلى رأسهم قائد درك حمص، و٦٠ جندياً من الجيش المختلط بقيادة رئيس فرنسي. ولما اقترب الجنود من القرية عند ظهر يوم ٢٩ المنصرم، قابلهم الأهالي برشق الحجارة وإطلاق الرصاص، وقاوموهم بشدة إلى أن حل الظلام وطوّقت الحملة تلك القرية العاصية، وطلبت من دمشق تعزيزها بقوة أخرى، فوصل المدد في اليوم الثاني ٣٠ إبريل، وبدأت الحركات العسكرية في الساعة الأولى، وبعد مقاومة دامت نصف ساعة احتلت الحملة تلك القرية وفي طليعتها أربع سيارات مصفحة ذات الرشاش، وقد قبض على ٦٢ شخصاً من أهالي القرية، وبينهم على ما اتصل بنا «النبي» الدموي.

أما عدد الجرحى والقتلى فقد ذاع أنهم أكثر من ١٢٠، إلا أن مخبرنا استطاع الاطلاع إلى الإحصاء الرسمي، وهذا هو: بلغ عدد القتلى الذين قتلهم الأهالي إحراقاً ١٨، منهم ٨ رجال، و٦ نساء، و٣ صبيان وطفلة، وبلغ عدد الجرحى الذين أصيبوا أثناء مقاومة الدرك ٢٧، منهم ٢٣ رجلاً، وأربع نساء، والقتلى ٢١ رجلاً. ولم ينل رجال الحملة أذى يذكر، ومما يذكر أن أهالي القرية كانوا يقاتلون برباطة جأش وثبات وإيمان أوجدها في نفوسهم ذلك النبي واعداً إياهم بالنعيم والرضوان، وكانوا ينادون «لا إله إلا علي» عند الهجوم على الجنود.

هذا هو الذي ذكرته جريدة الأهرام ، وإنّ ذكر هذا أثناء هذا التفسير من عجائب الحكمة الإلهية فإن هذا النبي لشدة شغفه بسيدنا علي كرم الله وجهه اعتقد ألوهيته ، ثم اعتقد أنه نبيه ، ثم إن تأثر وجدانه بهذه العقيدة انتشر في سامعيه فصاروا مثله موقنين ، وهذا عجيب جداً يقوم المبتدع بوجدانه فيؤثر في الناس ، فيفدونه بمهجهم ولا يرجعون عن عقائدهم ، ويرمون أنفسهم في الهلاك والعذاب والدمار والأذى ، كل ذلك للعقائد الثابتة في النفس ، بما أثر فيها من الحكايات المنقولة والآثار المشروحة في الكتب صدقاً أو كذباً .

فيا ليت شعري ، أعجز المسلمون أن يحبوا العلوم حب هذا النبي وأتباعه للبدعة ؟ أنام المسلمون حتى سبقهم أهل البدع فصاروا أحرص منهم على بدعهم ؟

يجب أن يكون تعليم الإسلام بهيئة غير التي نحن عليها الآن ، فليحبب الله لهم بجمال صنعه ، ويحبب النبي صلى الله عليه وسلم بأخلاقه وكماله ، ولتكن للدين صورة تهز القلوب ، فأما الاقتصار على القشور فهو الذي أنام الأمة آماداً طوالاً ، وقد آن أوان السعادة وأقبلت أيام السيادة .

ذكر غرور المسلمين في هذا الزمان
وذكر أنواع المغرورين الذين ذكرهم الإمام الغزالي إجمالاً

لقد علمت أن الذي فتح باب هذا المقام إنما هو قوله تعالى : ﴿ الٓمٓ ﴾ نزل القرآن وكانت له حلاوة في القلوب وروعة تأخذ بالألباب ، وعلم الله أن أمة الإسلام ستأخذ أدوار الأمم التي قبلها ، كما جاء في بعض الأحاديث المشهورة ، فتنحط بعد علوها وتسفل بعد ارتفاعها ، فأراد أن يرينا كيف السبيل إلى الخروج من المآزق إذا ارتطمنا في أوحال الغرور ، وانتابتنا نوائب الخذلان والجهالات ، فأنزل الحروف المفرقة ففتحت لنا باب العلم ، وقيل لنا إذا نزل بكم الغرور وصرتم كاليهود أيام النبوة وغركم في دينكم ما تفترونه ، فارجعوا عن هذا الغرور ، وليوجهكم عقلاؤكم إلى الحقائق الناصعة ، ومن أعظم الغرور أن يقول المسلم إني منصور لأن الله ينصر المسلمين ، ويأتي بآيات وأحاديث كقوله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ [البقرة:٢٥٧] وكقوله تعالى : ﴿ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ﴾ [آل عمران: ١٦٠] وكقوله تعالى : ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الروم:٤٧] وكقوله تعالى : ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحج: ٤٠] .

وينتقل ذلك الفكر من جماعة إلى جماعة حتى اعتقد المسلمون أن الله ينصرهم على أمم الفرنجة ، وإن كان المسلمون جاهلين متعادين متحاسدين غافلين ، وذلك من أعظم الغرور . هذا الغرور هو بعينه الذي كان عند اليهود أيام النبوة ، اغتروا بما ينقل إليهم سلفهم ، ففترت همتهم واتكلوا على الآباء فخابت آمالهم ، ويظن المسلم أن الله ينصره لأنه على دين الإسلام ، وفاته أن صاحب الشرع صلى الله عليه وسلم كان هو نفسه يخرج للقتال ويحارب ، فلو كان النصر بلا علم ولا عمل فضيلة لكان الأولى به صاحب الشريعة صلى الله عليه وسلم ، فيظن أغبياء المسلمين من شيوخ وعامة أنهم أكرم على الله من صاحب الشرع ، فقد أخرجه للغزوات فنصره ، فأما هم فأقعدهم ونصرهم فهم على هذا أعز على الله من صاحب الشريعة ، وهذا غرور عظيم أضاع بلاد الإسلام ، فإن ضياع الأمم وخرابها لا يكون إلا بعد خراب عقول أبنائها ، وأي خراب أعظم من خراب هذه العقول المائتة .

حكاية تركي قديم

منذ ثلاثين سنة حدثني أحد الباشاوات الترك، قال: إننا حفظنا دولتنا التركية ستمائة سنة، ولم يكن عندنا هذه الآلات الحديثة، فأي حاجة لنا بها؟ الله حافظ دولتنا فلا حاجة إلى أمر جديد، ثم قال: إن القوم يقرؤون الفتوحات المكية لمحيي الدين بن عربي، ويقولون: ماذا نريد بعد ذلك، ومعنى هذه العبارة أنهم لن ينظروا في شيء بعد ما هو عندهم علماً من الفتوحات المكية وعملاً بالأنظمة الموجودة، وما عدا ذلك فهو لا قيمة له.

سمعت تلك الحكاية أيام حكم السلطان عبد الحميد، وتألمت أشد الألم، واعتقدت أن الفرنجة لا بد هاجمون على دولة الخلافة، ثم مضت سنون وسنون ومزقت الدولة، ولكن الله سبحانه وتعالى أرجع إليها شبابها لما غيرت الأفكار، ولا يعلم إلا الله ماذا يكون في المستقبل القريب والبعيد.

أصناف المغرورين من كلام الغزالي

جعلهم أربعة أصناف: العلماء، العباد، والمتصوفة، وأرباب الأموال

فالعلماء:

(١) فإما أن يغتروا بأحكام العلوم العقلية والشرعية وإتقانها، ومع ذلك يكونون قد تركوا تهذيب نفوسهم، فهم شرهون عاصون ظالمون لا يعرفون مكائد النفس.

(٢) وإما أنهم يعرفون علوم الأخلاق الباطنة، ولكنهم يظنون أنهم أكرم على الله من أن يلطخهم بها.

(٣) وإما أنهم اغتروا بالفتاوى الشرعية وظنوا أنهم بذلك يخدمون الدين، وقد نسوا الأعمال الظاهرة والباطنة.

(٤) وإما أنهم اشتغلوا بعلم الجدل في علم الكلام وفي رد الشبه الواردة فيه، وضيعوا أعمارهم في ذلك، وأفهموا الناس أن الدين لا يتم إلا برد هذه الشبه، وهذه أكاذيب جاءت في الأمة الإسلامية، فالصحابة كانت تحيط بهم الأكاذيب والشكوك، وما تعرضوا للرد عليها، ولا ضيعوا في ذلك زمانهم.

(٥) وإما وعاظ لا همّ لهم إلا السمعة والصيت، ولا قلوب لهم ولا وجدان.

(٦) وإما فقهاء استباحوا لأنفسهم بالفتاوى ما يحرم بالشرع حقيقة واكتفوا بالظواهر، وهذا غرور عظيم.

وأما العباد:

(١) فمنهم من أهمل الفرائض واشتغل بالنوافل والفضائل.

(٢) ومنهم من غلبت عليه الوسوسة في نية الصلاة.

(٣) ومنهم من غلبت عليه الوسوسة في إخراج حروف الفاتحة.

(٤) ومنهم من اغتر بقراءة القرآن فيهذونه هذاً، وربما يختمونه في اليوم والليلة مرة.

(٥) ومنهم من اغتر بالصوم بل ربما صام الدهر كله.

(٦) ومنهم من اغتر بالحج مع أن عليه ديوناً وحقوقاً.

(٧) ومنهم من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر وينسى نفسه.

(٨) ومنهم من يجاور بمكة وليس له من المحامد غيرها افتخاراً.

وأما المتصوفة:

(١) فهم إما مغترون بالزي والهيئة والقلوب خالية.

(٢) وإما مغترون بالأسامي والألفاظ، كالمشاهدة والتجلي والوصول، وبهذه وأمثالها يغرّ نفسه فيقول: أنا واصل، والفقهاء والمفسرون مغرورون، والعامة حمير، وهكذا.

(٣) وإما مغترون بالزهد والوله بالله والوجد والحب له مع أنه قد يتخيل أحدهم في الله خيالات هي بدعة أو كفر فيدعي الحب قبل المعرفة.

(٤) وإما مغترون بخدمة الصوفية ولا غرض لهم إلا الشهرة.

(٥) وإما مغترون بدقائق علم النفس والبحث عن رذائلها، فتضييع حياتهم في ذلك غروراً.

(٦) وإما مفتوح عليهم ولكن كلما فتح عليهم بشيء تعجبوا منه فغرّوا به فحُجبوا عما بعده.

(٧) ومنهم من لم يمنعه الفرح بل ارتقى حتى اقترب من الله وظن أنه وصل إليه فوقف فهو مغرور.

وأما أصحاب الأموال؛ وهم الصنف الرابع:

(١) فهم إما مغترون ببناء المساجد والتكايا الخ، والمال مأخوذ ظلماً ولا ينفعهم كتابة أسمائهم عليها ولا يغفر الله لهم.

(٢) وإما مغترون بسبب البناء المذكور والمال حلال، وسبب الغرور أنه قد يكون هناك وجوه تقدم على هذا البناء.

(٣) وإما مغترون بالعبادات وقد بخلوا بالأموال.

(٤) وإما مغترون بإخراج الرديء للزكاة فقط. هذا إجمال أصناف المغرورين من الأحياء.

الاغترار بعلو الآباء

ومما ذكره وشدّد فيه التمسك بصلاح الآباء وعلو رتبتهم. قال الإمام الغزالي: كاغترار العلوية بنسبهم ومخالفتهم سيرة آبائهم في الخوف والتقوى والورع، وظنوا أنهم أكرم على الله من آبائهم، إذ آباؤهم مع غاية الورع والتقوى كانوا خائفين وهم مع غاية الفسق والفجور آمنون، وذلك نهاية الاغترار بالله تعالى، وضرب أمثلة لذلك كنوح وابنه، وكيف زين الشيطان للعلوي هذه المعصية فغره. اهـ.

أقول: ويقرب من هذا: اغترار أمة الإسلام اليوم والعداوات قد فرقت شملها والعلم جمع شمل غيرها في أوروبا وأمريكا.

لقد علمت أيها الفطن كلام الإمام الغزالي ولومه لبعض العلوية في زمانه، وكيف خالفوا آباءهم الأولين الذين كانوا مجتهدين خائفين، وهم في الكسل آمنون، فانظر حال المسلمين اليوم كلهم، ووازن بينهم وبين أسلافهم.

انظر كيف رجع أبناء العرب منهم إلى ما كان عليه آباؤهم الأولين قبل زمن النبوة من تفرق الكلمة والجهالة السوداء. انظر كيف أصبح كل فريق منهم تحت حكم دولة من دول أوروبا.

لقد كان أشهر الدول أيام النبوة اثنتين فارس والروم، وكان آباؤنا نحن أبناء العرب يكادون يكونون تحت إشراف الدولتين، فلكل منهما نفوذ في الجهة التي تليها.

فلما جاءت النبوة انقلبت الحال، وأصبح السيد مسوداً، والحاكم محكوماً، وسار أبناء العرب من جزيرتهم إلى شمال أفريقيا مصر وطرابلس وتونس والجزائر ومراكش، ثم صاروا إلى بلاد الأندلس، ولما مضى دورهم تقلصوا من الأندلس، وانكمشوا في شمال أفريقيا إلى الآن، وهاهم الآن نهب مقسم بين دول أوروبا، فبعد أن كانت أوروبا ليس فيها دولة ذات غلبة أيام آبائنا إلا واحدة أصبحت اليوم دولاً كثيرة، كما انتشرنا نحن في الأرض، وصرنا أمماً ففرقنا الله عليهم، وأصبحت فرنسا في مراكش ومعها إسبانيا، وفرنسا أيضاً في الجزائر، وإيطاليا في طرابلس، وإنكلترا في مصر، وفرنسا في الشام، واليهود مع الإنجليز في فلسطين، والإنجليز أيضاً في العراق. انظر كيف رجع أبناء العرب إلى حالهم قبل النبوة بحال مكدرة واستعباد شنيع. وإنما فعل الله ذلك بنا لما ركز في نفوسنا من الجهالة العمياء، والاغترار والاستكبار والعظمة الجاهلية. انظر ما ذكره الإمام الغزالي من أصناف المغترين، فإياك أن يجول في خاطرك أن هذا التشديد الذي ذكره خارج عن المعقول، أو تظن أن ذلك مبالغة لا يسلم منها أحد، كلا.

وأنا أوضح لك المقام الآن لتعلم أن أولئك المغترين من أسلافنا هم الذين أوقعونا في الاستعباد وإذلال أوروبا. انظر إلى أصناف العلماء، وأصناف العباد، وأصناف الصوفية، وأصناف الأغنياء الذين مضى ذكرهم في كلامه. انظر كيف ترى أن الصوفية في زماننا أكثرهم في جهالة عمياء، فإنهم عادة يقطعون الصلة بين تلاميذهم وبين مجموع الأمة ويفهمونهم أنهم على الحق، وأما ما سواهم فإنما هم قوم مغرورون، وهكذا علماء المعاهد الدينية الذين لا يعرفون من دين الإسلام إلا الفتاوى الشرعية التي تليق للقضاة، فهؤلاء لا يالون غالباً بتهذيب النفوس ولا بغيره، وهكذا العباد يرون أن الخير خاص بهم وهكذا المكثرون، فالاغترار في هذه الأقسام الأربعة راجع إلى قصر النظر وانفصال كل طائفة عن سواها ودعواها اختصاص الهداية بها.

لذلك تجد أبناء العرب في العراق وفي سوريا وفي فلسطين وفي شمال أفريقيا تجاورت ديارهم واتحدت لغتهم واتحد دينهم، وهم من أصول متجانسة، فهذه أربعة أسباب للاجتماع والتآلف قد جهلوها وقطعوا حبلها، وجهلوا أنفسهم وسفهوها، فلا باللغة تواصلوا، ولا بالجنس تعارفوا، ولا بالديار اتحدوا، ولا بالدين ائتلفوا، فتفرقوا مذاهب وتاهوا، واجتذب أرباب الطرق كل واحد منهم طائفة لنفسه، وأناموهم في كنفهم، وهكذا المسمون بعلماء الدين، فلما تفرقوا ولم يفهموا سلط الله عليهم أوروبا، كما قال تعالى في قوم: ﴿ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴾ [الحشر: ١٤]، فانظر كيف جعل تفرق القلوب من أجل عدم العقل.

أوليس من المبكي أن يكون هؤلاء سبب ارتقاء العالم الإنساني منذ ألف سنة، ثم يصيرون الآن عبرة الأمم ضعيفي الهمم، إن آباءهم الذين علموا الأمم واجتذبوا إلى دينهم أهل الهند وجاوة والصين وغيرهم وأمم الترك، فكيف أصبح الخلف على نقيض ما عند السلف.

وكيف أصبح أهل الممالك المتحدة الذين لا يجمعهم جنس ولا أصل قد أصبحوا أمة واحدة مع أنهم ممالك يعدّون بالعشرات، وأبناء العرب الذين كان آباؤهم مصابيح العالم أذلاء متقاطعين جهلاء أغبياء، حتى إنك ترى نفس الجزيرة العربية التي لا تعدو عدّ أصابع اليدين من آلاف الألوف، مشتملة على ممالك متفرقة متشاكسة مختلفة متنافرة متعادية كالجاهلية الأولى فهم أذناب الأمم.

فأما الممالك المتحدة ففيها نحو مائة ألف ألف وهم مملكة واحدة أخافت العالم وأزعجته وارتعدت لها فرائص أوروبا، كل ذلك لأن القوم علماء ونحن جهلاء، وهكذا أمم الألمان والإنجليز وغيرهم، كل منهم اتحدوا وعاشوا في أمن لأنهم متعلمون، فالعلم هو الذي رفعهم.

وليست القوة وحدها بمغنية، ألا ترى إلى الآساد كيف أحجمت عن مهاجمة الناس في البلدان، ذلك لقلة عقولها مع أنها لو عقلت لأفنت الناس، هكذا الأمم الإسلامية اليوم إنما منعها عن الاتحاد أنها أمم مغترة بأصناف الغرور التي ذكرها الغزالي المجموعة كلها في قوله تعالى على سبيل الإشارة: ﴿ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ﴾[غافر:٨٣].

دواء هذا الداء

وكيف يرتقي أبناء العرب خصوصاً وأبناء الإسلام عموماً

لا سبيل لرقي هذه الأمم العربية أولاً، والأمم الإسلامية ثانياً إلا أن يبدأ أبناء العرب بتعميم التعليم للرجال والنساء ويكون ابتدائياً وثانوياً وعالياً لكل بقدره، ويكون الثانوي مشتملاً على نظام هذه الدنيا وجمالها كما تفعل أوروبا، وتكون تلك العلوم ممتزجة بها بعض الامتزاج آي القرآن كما فعلت في هذا التفسير، إذا عمّ التعليم في العراق وفي سوريا وفي مصر وفي بقية شمال أفريقيا، هنالك يحصل التعارف بقراءة تاريخ أجدادهم وتخطيط بلادهم وقراءة أسرار دينهم وأدب لغتهم، فيتواصلون بالقلوب وبالطرق الحديدية والسفن الهوائية والبحرية ويتعارفون، وإذن يكونون هم أولى بأن يكونوا ممالك متحدة من الممالك المتحدة، ومتى فعل ذلك أبناء العرب قلدهم المسلمون في الشرق، وساعدهم إخوانهم الترك الذين قد أدركوا الأمر، وابتدؤوا يتعارفون فيعرف كل منهم أخاه التركي في بلاد الروسيا وفي بلاد الصين. وهم في العالم نحو ثمانين مليوناً، فهم يريدون أن يتحدوا من حيث اللغة والجنس. هكذا فليفعل العرب ثم يكونون مع إخوانهم الترك أمماً متعاونة لاجتماعهم معهم في الدين وفي الجوار وفي أنهم أمم شرقية.

هذا هو الذي يزيل الغرور في أمة الإسلام، فإن قراءة العلوم المختلفة تحبب سائر العلوم للإنسان فيعرف كل إنسان أن عند غيره مزية ليست عنده، فلا يحتقر الصوفي عالم الفقه، ولا عالم الفقه الصوفي ولا العابد الغني، ولا الغني العابد، بل هم جميعاً يتصافحون. هذا هو الدواء الناجع لأمة الإسلام، فإن لم يكن ذلك فقل على دولهم وعلى أبنائهم السلام. ذلك سر قوله تعالى: ﴿ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾ الذي هو سر: ﴿ الٓمٓ ﴾ المذكورة في أول السورة، فقد أرشدتنا الحروف الثلاثة إلى قصة اليهود والمغرورين بشفاعة الآباء، وتوصلنا بذلك إلى غرور المسلمين وجهالتهم، ونقلنا ملخص المغرورين من الإحياء، وعرفنا الدواء، وهو العلم، فالمسلمون اليوم مغرورون. لذلك هم مقهورون، والعلم هو الذي يدفعهم إلى درجات الأمم الصادقة القوية. ذلك بعض أسرار القرآن التي أظهرها الله تعالى في هذا الزمان، ولله الأمر من قبل ومن بعد، ومتى تمّ ما قلناه يفرح المؤمنون بنصر الله.

موازنة هذا المقال برأي ابن خلدون

اعلم أن العلامة ابن خلدون يقول في مقدمته: إن العرب لا يجتمعون إلا على نبي أو وليّ، يريد بذلك أنهم ليسوا كغيرهم من الأمم يجتمعون اجتماعاً سياسياً بعقولهم.

نقول: إن الطريق الذي سلكناه في هذا المقال الذي سيتم إن شاء الله تعالى قد جمع لهم بين الدين والعلم، ويرجعون إلى العالم وينيرونه أكثر مما كانوا سابقاً، ويكونون هم وبقية المسلمين شرفاً ونوراً لنوع الإنسان.

عجائب البلاغة في القرآن والإعجاز

انظر إلى بلاغة القرآن في هذا المقام. انظر إلى الإيجاز الذي يعجز العالم قاطبة، أدهش العلماء في الإسلام البلاغة في إيجاز قوله تعالى: ﴿ وَقِيلَ يَـٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَـٰسَمَآءُ أَقْلِعِى ﴾[هود:٤٤]، وفي قوله: ﴿ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ ﴾[البقرة:١٧٩]. وهكذا فليكن دهشهم هنا أعظم أنه لم يكن من نظام البلاغة أن يخاطب الله المسلمين قائلاً: ستكونون بعد قرون مقسمين إلى أمم وتصبحون تحت أيدي الفرنجة بجهلكم وغروركم وظهور طوائف الفقهاء والصوفية والعباد والأغنياء الذين يدعي كل فريق منهم أنه هو المختص بالنعمة ويحقر الآخر، وبهذا الغرور تكونون طوائف إلى آخر ما تقدم. لم يذكر الله ذلك لأن فيه كسراً لحدة القوة الدينية إذ ذاك، ولكن لا بد من ذكره مرموزاً لهذا ولغيره مما سمعته في هذا المقام بقوله تعالى: ﴿ الٓمٓ ﴾ فبهذه الحروف الثلاثة ذكر الداء والدواء.

بهذا وبأمثاله يكون إعجاز القرآن، بهذا يعرف معنى قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾[العنكبوت:٥١] فالذكرى قد قرأتها في هذا المقام، والرحمة هي اجتماع أبناء العرب وبقية الأمم الإسلامية اجتماعاً علمياً يطلبه الدين، ويفوقون أبناء الفرنجة، فهذه هي الذكرى وهذه هي الرحمة وهذه هي ميزة القرآن الذي هو المعجزة الباقية لآخر الزمان، إذ خاطبنا الله تعالى بلفظ: ﴿ الٓمٓ ﴾ وعلمنا علم العمران والسياسة، وقد خزنها في كتابه العزيز، وأبرزها في هذا الزمان لما آن الأوان، فبهذا يمتاز القرآن بمعجزته عن قلب العصا حية، وإبراء الأكمه والأبرص، فبمثل هذا تحيا أمم وتشفى من المرض على طول الزمان، وتقلب القلوب الجامدة فتصبح عاقلة مفكرة في أمم متعاقبة إلى آخر الزمان ﴿ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[النور:٤٦].

إيضاح: كيف يزول الغرور من أمة الإسلام

أيها المسلمون هاأنتم أولاء قرأتم قصة اليهود أيام النبوة، وكيف غرهم في دينهم ما كانوا يفترون وعرفتم أن الغرور شمل اليوم وقبل اليوم أمة الإسلام علماءها وعبادها والصوفية فيهم، وكيف كان علم الفقه وعلم التوحيد وعلم التصوف والانكباب على حج أو على صلاة مع ترك بقية الأعمال النافعة في الأمة الإسلامية، كما تقدم عن الغزالي، أورث المسلم غروراً عظيماً، فيقنع بالحج أو بالصلاة أو بالصدقات أو بالتصوف أو بغير ذلك. وقلنا: إن هذا فرق العرب الذين على يديهم قام هذا الدين فأصبحوا في ديارهم خاضعين للفرنجة، ذلك كله بالغرور. اللهم إني أحمدك وأشكرك، اللهم إنك أنت المعلم والمرشد، اللهم إني عاجز عن حمدك وشكرك، فلطالما كنت أقول في قلبي: ما دواء الإسلام وما داؤه، وما حال الصوفية، وهل هم قاموا بما عليهم مثلاً؟ وهكذا. فقد اتضح الأمر الآن، وعرفت الحقيقة بمعونة الإمام الغزالي في الإحياء، فقد جرأني بصريح عبارته أن أبرز للناس الحقيقة، فلا عطر بعد عروس، ولا مخبأ بعد بوس، وقد اتضح الأمر فلنكشف الحقائق فنقول:

أمر الله المسلمين بالنظر في هذا العالم المشاهد فقال تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [يونس:١٠١] وقال أيضاً: ﴿وَٱلَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ [الأعلى:٣]، وقال: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف:١٨٥] وغير ذلك.

خلق الله العيون للناس والأسماع والقلوب، ثم سلط عليهم الجوع والعري والحاجات الكثيرة ليتخذوا لهم ما يسد حاجتهم مما حولهم، ويتعلموا من نظام الطبيعة. ذلك أودعه الله في الفطرة فنظر الناس إلى النحل والنمل والغربان وكلاب البحر وأمثالها، فوجدوا لها جمعيات منظمة فيكون للخلية الواحدة من النحل ملك وشغالون وجامعون للعسل وجامعون للشمع وحارسون من دخول الأجانب، وهكذا أمر النمل فله ملكة وضباط للجنود ومحاربة ومربون للصغار وحجرات خاصة لكل جيل من أجيال الذرية، وأظآر جمع ظئر لتربية الذرية، وهكذا مما ستراه في سورة النحل والنمل، فلما رأى الإنسان ذلك قديماً كوّن جمعياته ونظمها، ولكن لا كنظام النمل والنحل بل أقلّ، ثم ارتقى الإنسان اليوم في جماعاته، كما سترى التربية في أمريكا قريباً في آخر هذا المقال، وكيف جعلوا المدارس كلها كأنها نظام المدينة كلها، وكأنهم إذ ينظمون تلاميذهم ويعطونهم العلوم العقلية والصناعات اليدوية يقرؤون قوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة:٢٨٦] فيما تقدم في سورة البقرة، أو كأنهم يقرؤون قوله تعالى في هذه السورة: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾ [آل عمران:١٠٣]، أو كأنهم يقرؤون غزوة أحد، وقد جمع النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه وقسم عليهم الأعمال.

المسلمون من مخلوقات الله تعالى، وهم ينظرون بأعينهم:

(١) قطرات الماء تتحد في النهر فتغرق القرى وتهلك البلدان.

(٢) وتسقي الزرع وتدرّ الضرع.

(٣) وذرات الهواء باتحادها وجريها تهدم الحصون والقرى وتقلع الأشجار كما تزجي السحاب وتنفع الناس.

(٤) ويشاهدون النمل والنحل وكلاب البحر والغربان والجمهوريات النظامية.

(٥) ويشاهدون الممالك المتحدة في أمريكا والممالك الأخرى هناك، كيف نظمت ممالكها مع اختلاف الأقوام.

(٦) ويسمعون عن المدارس هناك كما سأذكره قريباً، وذلك أن المدرسة فيها العلوم والصناعات فالتلميذ بناء أو نجار أو خائط أو صانع الكهرباء أو مواسير المياه، والتلميذة خائطة أو طابخة أو منظفة، وهكذا تجد المدرسة مستقلة في زرعها وغرسها ودوابها وعمارتها، والطلاب يصنعون كل شيء عقلي وحسي، وهذا هو الذي يناسب نظام عالم النحل والنمل ويناسب القرآن والدين، ويخالف كل المخالفة حال المسلمين قديماً وحديثاً بعد القرون الأولى.

فالعالم الفقهي بفقهه مغرور، والعالم بالتوحيد مغرور، والصوفي مغرور، والعابد مغرور، وكل حزب اقتصر على شيء من الدين، وشمخ بأنفه عن الباقي فهو مغرور.

وما دين الإسلام إلا العلم والعمل بكل ما يحتاج له المسلمون في كل زمان بحسبه، كما فعل أهل أمريكا وغيرهم في الوقت الحاضر، فلا يكون قوم بسبب الدين عالة على قوم، بل كل الناس متعاونون.

ولقد ذكر الله المسلمين بهذا كله ، ذكرهم بالنظر في السماوات والأرض فأعرضوا ، وقرّب الأمر لهم فأنزل سورتين إحداهما باسم النحل والأخرى باسم النمل فما فكروا ، أخيراً خلق لهم أمريكا التي قلدت النحل والنمل والغربان وكلاب البحر دائماً ، وأمماً كثيرة من الطيور وغيرها فأعرضوا ، علم الله ذلك فقال لهم : ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ﴾[آل عمران:١٠٣] .

فانظر كيف جعل هذا المعنى في الماء الجاري وفي الهواء وفي النحل وغيره ، وفي أمم الإنسان الراقي اليوم ، كل ذلك نسبه الله للمسلمين ، ثم أسمعهم كلامه فقال : ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ﴾[آل عمران:١٠٣] الخ .

وهل بعد البيان في هذا التفسير عذر للمسلمين إذا بقوا على القديم؟ كلا ، فليعلم الرجال والنساء والعظيم والحقير العلم والصناعات من تجارة وحدادة وغيرها ، وكفى المسلمين تأخراً ، فهذا كله فرض كفاية ذكرها المسلمون في الكتب ، ومثل له بعضهم بدفن الميت والصلاة عليه ، كأنهم كانوا ينظرون إلى موت الأمة ، ولكننا نحن ننظر إلى حياتها لأن الله يريد ذلك . فلأذكر لك الآن نظرة سائح مصري توجه إلى أمريكا ، وذكر العلم والعمل في مدارسها ، وحقر أمر العلم العقلي الذي لا منفعة فيه ، ثم قال : يعتقد علماء التربية الحديثة أن حصص الدراسة المعتادة يجب أن تتخللها الأعمال اليدوية الصناعية ، ويرجع ذلك إلى أسباب ثلاثة :

أولاً : من لوازم الحياة أن يتعلم الطالب منذ نعومة أظفاره المبادئ الجوهرية في صناعة أو أكثر من التي لا غنى لأحد عنها ، كالنجارة والحدادة وصناعة الأحذية والطباعة وغير ذلك .

ثانياً : ضرورة تعويد الناشئة مهما كانت منزلتهم الاجتماعية ومراكز والديهم المالية ، ذكوراً كانوا أو إناثاً ، احترام العمل اليدوي إذ لا عار في العمل .

ثالثاً : اكتشاف المواهب الكامنة في أيدي الناشئة والتي لا يتسنى إظهار مكنوناتها ومواهبها إلا بالنزول إلى ميدان العمل أمام المطارق البخارية والآلات المستخدمة في الصناعات على اختلاف أنواعها .

وبعبارة أعم : يجب أن تكون المدرسة صورة مصغرة من العالم التي هي شطر منه . فمن الخطأ أن يقال : إن الغرض من التربية الاستعداد لاقتحام ميدان الحياة ، بل يجب أن يقال : إن التربية هي الحياة ، وإن المدرسة ميدان الحياة ، وكما أن الناس في الحياة يستخدمون أيديهم كما يستخدمون عقولهم ، فكذلك يجب أن يكون التلاميذ في المدرسة .

ويلزم أن تكون الأعمال اليدوية في المدارس متصلة تمام الاتصال بمواد الدراسة ، مثال ذلك أن الإنشاء في معاهد أمريكا يعلمونه للطلبة كما يأتي : يصف الطالب الأطوار التي مرّت عليه في ورشة الأعمال اليدوية في صنع دولاب من الخشب ، أو سبك كتلة من الحديد ، أو بناء زورق للسباحة ، أو تركيب جهاز لاسلكي ، أو تشييد غرفة في بناية من بنايات المدرسة أو الكلية ، أو تحرير مقالة في جريدة المدرسة وإعطائها لأحد زملائه لطبعها ، وتصحيح المسودة ومراجعتها ، أو وصف وانتقاد رواية مثلها هو وزملاؤه في مسرح المدرسة ، أو كتابة فصل في زراعة البطاطس كما شاهد العملية بنفسه في حقول التجارب الزراعية ، وتكتب البنت أيضاً فصولاً عن زيّ أو أزياء معلومة خاطتها رفيقاتها ، أو عن أوان خزفية كلفن بصنعها من طينة معينة ، وحرقها وطلائها بالأدهان .

كذلك يدرس فن الرسم بمساعدة أساتذة الأعمال اليدوية، فيقدم هؤلاء أجهزة للمصابيح الكهربائية مثلاً إلى أساتذة الرسم، ويكلف هؤلاء تلاميذهم بإعداد قطع من الورق أو القماش أو الحرير بشرط أن تصلح كمظلات جميلة مختلفة الأوضاع والرسوم للمصابيح المذكورة، ويلي ذلك نقش نماذج جميلة منقولة أو مبتكرة على هذه المظلات فتزداد جمالاً وحلاوة.

يرسم التلاميذ في الجغرافيا مثلاً خارطة أمريكا على قطعة من الأرض في حقل المدرسة الزراعي، ويكلفون تلاميذهم أن يلونوا الخارطة بزهور صغيرة يمثل كل نوع منها قسماً من أقسامها.

يكلف التلاميذ الذين يدرسون علم الحساب مثلاً عمل ميزانية للأجهزة والأدوات والأشياء التي يشرع إخوانهم في صنعها في الورشة، كذلك يتولون أعمال المصارف المالية التي تنشئها إدارة المدرسة فيها، لا لتعويد الطلبة الاقتصاد وإيداع الأموال فقط، بل لتكون درساً عملياً في الحساب، كذلك يكون بعضهم مسؤولاً عن ضبط حسابات الأندية ومراقبة دفاترها.

وقد يتوهم القارئ أن حسابات الأندية هذه مسألة تافهة لا تستغرق وقتاً يذكر، غير أن كثرة عدد الطلبة في بعض المدارس في المدن يجعل ميزانية هذه الأندية شيئاً لا يستهان به، فميزانية نادي الألعاب الرياضية في مدرسة ثانوية واحدة في نيويورك واسمها «دي وت كلنتون» عن سنة ١٩٢٣ كانت مائتي ألف ريال.

هذه فقط أمثلة ضئيلة وتبدأ هذه الأعمال اليدوية من روضة الأطفال، ويلي ذلك ثماني سنوات في الأقسام الابتدائية وأربع سنوات في الثانوية. فبينما تجد الطلبة يتلقون علم التاريخ، ترى البعض الآخر في نفس المعهد يقشرون الخشب، ويسبكون الحديد، ويصلحون السيارات ويقودونها، ويصنعون الأواني الزجاجية وأجهزة اللاسلكي والأسلاك الكهربائية، أو يشيدون عمارة، أو يحرثون قطعة من الأرض، أو يربون المواشي والطيور الداجنة، أو يصنعون الزبد. كل ذلك يقوم به الطالب والعرق يتصبب من جبينه غنياً كان أو فقيراً ذكراً أو أنثى.

ولا يقصد بذلك أن تحشد جميع المهن والصنائع في كل معهد ويحتم على التلاميذ تعلمها، فهذا غير ممكن بالطبع، ففي نيويورك بلغ عدد الصنائع المختلفة في العام المنصرم ١٧ سبعة عشر ألفاً، كانت المدارس الابتدائية والثانوية تقدّم لطلبتها منها ٢٠٢ فقط، يختار الطالب عدداً محدوداً في خلال الفترة التي يمكنها في تلك المعاهد، إني لا أغالي بعد زيادة عدد وافر من هذه المعاهد في كثير من الولايات، إذا قلت إن الصبي الأمريكي والبنت الأمريكية اليوم يسوق الأوتوموبيل، ويركب جهاز اللاسلكي، ويصلح ويركب الأسلاك الكهربائية، ويتقن صناعة على الأقل من الصناعات المعروفة قبل بلوغه سن الرشد.

يقول لك علماؤهم: إن إصلاح أتوموبيل من أتوموبيلات فورد، خير من تحليل الكميات إلى عواملها، وتركيب التليفون أنفع من إعراب الكلمة وتحليل الجمل، وصنع مائدة للمنزل أفضل من إيجاد الجذر التكعيبي لكمية سلبية لا وجود لها في الحياة، وتربية البقر والفراخ وتحسين إنتاجها أكثر فائدة لبني الإنسان من صرف السنين الطوال في دروس اللغة اللاتينية، حتى يتمتع المتعلمون بمطالعة كتاب في الفلسفة كتبه فرنسيس باكون اسمه «نوفيوم أرجانيوم».

كم أودّ لو زار الكثيرون من رجال التربية معهداً أو أكثر من المعاهد التي تسد حاجياتها بنفسها، وفي مخيلتي الآن صورة واضحة من معهد همبتون في ولاية فرجينيا، مساحة هذا المعهد ألف ومائة فدان، وفيه مائة وخمسون بناية، ولا بد أن يدهش القارئ إذا علم أن إدارة هذا المعهد قامت ببناء ثلاث بنايات فقط في بدء تأسيسه، وشيدت البقية بالتدريج سنة بعد سنة، وكان الطلبة أنفسهم هم الذين شيدوها في هذا المعهد، وبلغ عددهم ثلاثة آلاف طالب وطالبة، وهذا لا يعد كبيراً جداً، ففي بعض المدارس الثانوية عشرة آلاف طالب، وفي جامعة كلومبيا في نيويورك ٤٥ ألف طالب، فيه يزرع الطلبة الأرض ويأكلون ثمارها، ويربي الأولاد الماشية، ويستخرجون الزبد والجبن من ألبانها، ويذبحون عجولها، فيطبخ البنات لحمها، ويأكل البنات والأولاد معاً، ويفصل الطلبة أنفسهم الملابس ويخيطونها لزملائهم، وهم الذين يشيدون البنايات التي تحتاج إليها كليتهم، ويركبون أبوابها ونوافذها، ويمدون أنابيبها، ويوصلون إليها الماء الساخن والماء البارد، ويضعون أسلاكها الكهربائية، ويطلون حيطانها، ويصلحون ويقودون سيارات تنتقل من بناية إلى بناية فيها، وتلميذات الكلية عينها ينظفن حماماتها، ويعملن في غسل الملابس وتنشيفها بواسطة آلات كهربائية، وكيها ورتقها وإرسالها لمكتب خاص لتوزيعها على ذويها، ولذا ترى ذلك المعهد كمملكة واسعة الأطراف في الصادر والوارد إليها، فلا تحتاج إلى صانع ولا عامل ولا خادم ولا مواد غذائية من الخارج.

لعمري إن هذه هي الحياة بعينها، وهذا ما يجب أن يكون في كل مدرسة، فإن تجريد المدارس تجريداً تاماً عن الحياة الطبيعية في الخارج يولد السآمة والملل، ويخرج الطالب إلى ميدان الحياة الحقيقي وهو غريب عنها. ضع أميريكياً من خريجي تلك الكليات في عمل من الأعمال، ، اعتمد عليه فيكل شيء تجده مدرباً قوياً واثقاً بنفسه، لأنه إنما كان يعمل نفس العمل في الكلية التي كان بها، كما أن التلميذ في المدارس الابتدائية يشعر أنه في العالم حقيقة، وليس فيما نسميه نحن مدرسة. كيف لا وهو يصنع بيده جهازاً لاسلكياً صغيراً فيأخذه إلى غرفته في المنزل، ولا يكاد الظلام يرخي سدوله حتى تصل إليه بواسطته أنغام الموسيقى وأصوات المغنين وأقوال الخطباء، وكيف لا وهو يفتخر أن المائدة التي يأكل عليها أفراد عائلته من صنع يده.

رأيت مرة في إحدى تلك المدارس في ولاية «نيوجزيري» فتاة في الرابعة عشرة من عمرها بجانب زورق كبير، فسألتها عما تريد أن تفعل بهذا الزورق بعد تمامه، أجابت أنها تعده للنزهة في نهر الهدصون في فصل الصيف مع والديها وإخوتها، وأنها صرفت في صنعه أكثر من ثلاثة شهور.

ثم قال: رأيت في مدرسة ثانوية طالباً يصنع حذاء أتقن صنعه، فسألته: بأي مهنة تريد أن تحترف بعد نهاية الدراسة؟ فقال: سألتحق بالكلية ثم بمدرسة الطب، فعجبت وقلت له: لعلك تنوي أن تختص بالأمراض الجلدية.

وهكذا تجد تنوّع العلوم في تلك المعاهد، وما يتخللها من الصناعات اليدوية، تكشف القناع عن ميول الطالب ومواهبه، فيختار لنفسه أكثر الصناعات صلاحية له مع إرشاد أساتذته، فلا بدع إذا كان الناس في تلك البلاد على اختلاف طبقاتهم أخف حركة منا بمراحل، وأنشط عملاً وأوسع حيلة.

أروني موظفاً في إحدى المصالح يستطيع أن يصلح مصباحاً كهربائياً، إذا تلف أو سيارة أصابها عطب، أو أنبوباً ينفجر. لذلك لا تعجب إذا نظرنا إلى الصناعات والصناع بعين الازدراء فانحطت صناعتنا، ووضع الأميريكيون صناعهم في مرتبة الأساتذة والكتاب وكبار الموظفين، فرقت صناعاتهم ودقت أدواتهم وجملت أثاث منازلهم، وقدّروا أهل الصناعة فأصبح النجار والبناء ومن على شاكلتهما يتقاضى أجرة يومية من خمسة عشر ريالاً إلى ثمانية عشر ريالاً. اهـ.

ولما وصلت إلى هذا المقام اطلع عليه أحد العلماء، فقال: يا عجبا لك! لقد تطرفت في الدين، وكيف يجمع الإنسان بين صناعة الحدادة والنجارة والنقش والتلغراف وأمثالها، والعلوم العقلية من الهندسة والحساب والعلوم الدينية من الحج والصلاة والأعمال العادية كتربية الدجاج ومسك الدفاتر وحرث الأرض وحلب البقر. فقلت له: هذا التعجب هو الذي قعد بهممنا، أوَليس جميع تلك الصناعات فرض كفاية؟ قال: بلى. قلت: فلماذا لا نجهر للناس بالحق، ولماذا لا ننصح الناس.

قل لي رعاك الله ماذا ترى في صلاة الجماعة؟ أليست أفضل من صلاة الفذ بسبع وعشرين درجة؟ أليس المسلمون يجتمعون في الأعياد وفي الحج وفي صلوات الجماعة وفي الغزوات؟ أليس هذا الاجتماع يقصد به تمرينهم على المودة؟ ألم يقل الله تعالى: ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ﴾ [آل عمران:١٠٣].

فيا رعاك الله كيف يكون اتحاد بلا فراق إلا بمقدمات، أوَليست المقدمات منها صلاة الجماعة والحج وأمثالهما؟ وكيف تكون صلاة الفذ أقل من صلاة الجماعة بسبع وعشرين درجة؟ وإذا كان ثواب الآخرة يزداد بالاجتماع بسبب عروج الناس إلى ربهم واتحادهم في ذلك العروج وأنهم تخف أرواحهم مجتمعين أكثر من الانفراد ٢٧ مرة.

أفليس هذا معناه أن الاجتماع سعادة؟ فإذا زاد الارتقاء الروحي ٢٧ مرة، فكيف يكون الارتقاء العمراني الذي نشاهده ونحن نشاهد أن الشركات التجارية تفعل أفعالاً مدهشة تعجز عنها الأفراد، وإن الآلات البخارية التي اشتراها أفراد بمالهم تنفعهم أضعاف ما كانوا عليه ٢٧ مرة فأكثر، هذا هو سر الإسلام، فإذا رأينا أمريكا تمادت في الرقي الاجتماعي فلنقل هذا ديننا، لأن ديننا أمر به في الحج والصلاة وغيرهما.

وانظر قوله صلى الله عليه وسلم: «لتسوّنّ صفوفكم أو ليخالفنّ الله بين قلوبكم»، لقد ظهر سره اليوم في الإسلام وفي أمم النصرانية، فبعض أمم الإسلام لا اجتماع لها ولا محبة فذهبت مدنيتها وبعض الأمم المسيحية اعتادت الاجتماع العملي فاتحدت قلوبهم.

فلتكن مدارس الإسلام وكلياته منبهة مرقية مشوقة لجميع العلوم والصناعات، والتلاميذ فيها يعملون بأنفسهم، ذلك هو باب السعادة والسلام في بلاد الإسلام.

وهذا كله سر قوله تعالى: في أول السورة المشير إلى قصة اليهود الذين غرّهم في دينهم ما كانوا يفترون، فزال ملكهم، ومثلهم بعض المسلمين في العصر الحاضر لغرور طوائفهم قديماً وحديثاً، وقد وصفنا الدواء بعد شرح الداء لرقيّ هذه الأمة، والحمد لله رب العالمين.

انتهى القسم الرابع.

القسم الخامس من سورة آل عمران

وهو بابان

الباب الأول في قصة امرأة عمران ومريم وزكريا

الباب الثاني في قصة عيسى ابن مريم

الباب الأول فيه فصلان:

الفصل الأول في قصة مريم، الفصل الثاني في قصة زكريا ويحيى

الفصل الأول

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ ﴾

لما بين الله أن طاعة الرسل توجب حب الله أخذ سبحانه وتعالى يذكر مناقبهم، وما أغدق عليهم من نعمة وآتاهم من فضله، فذكر آدم ونوحاً وآل إبراهيم وهم إسماعيل وإسحاق وأولادهما، ولا جرم أن نبينا صلى الله عليه وسلم من ذرية إسماعيل فهو في جملتهم، ومن آل إبراهيم من هم على دينه، وقد دخل في آل إبراهيم بنو إسرائيل وهم اليهود الذين جعل الله فيهم والملك والنبوة إلى زمن نبينا صلى الله عليه وسلم، ثم جمع له ولأمته النبوة والملك. وهؤلاء هم من ذرية إبراهيم من إسحاق ومن إسماعيل أبي العرب الذين منهم نبينا صلى الله عليه وسلم.

وأما آل عمران فهم عيسى وأمه مريم بنت عمران بن ماثان من نسل سليمان بن داود وبينه وبين عمران أبي موسى وهارون ألف وثمانمائة سنة.

فهؤلاء اصطفاهم الله واختارهم على العالمين بالنبوة والرسالة ﴿ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ﴾ بدل من آل إبراهيم وآل عمران، والذرية من الذرء أي الخلق، أي إنهم ذرية واحدة متشعبة بعضها من بعض والذرية الولد يطلق على الواحد والجمع، أو بعضها من بعض في الدين ﴿ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ ﴾ بأقوال الناس ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بأفعالهم، ومنهم امرأة عمران فقد سمع قولها وعلم نيتها، وهو يعطي كلًّا من القائلين والعاملين ما هو أهل له من ثواب وعقاب، وإجابة ورد. واذكر ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ أي جعلت الحمل الذي في بطني نذراً محرراً مني لك، والنذر ما أوجبه الإنسان على نفسه فيكون المعنى أنه خالص لعبادة الله وخدمة الكنيسة، لا يشغل بشيء من أمور الدنيا، وكان المحرر يجعل في الكنيسة فيقوم عليها، ولا يبرح مقيماً حتى يبلغ الحلم ثم يخير، فإن شاء بقي فيها وإلا ذهب، وليس له بعد اختيار الكنيسة أن يتركها، وكانت عادة

أنبياء بني إسرائيل وعلمائهم أن يحرروا أبناءهم لخدمة بيت المقدس، وكان ذلك خاصاً بالغلمان لأن النساء لا يصلحن لذلك.

ومحصل هذه القصة أن زكريا وعمران تزوجا أختين، فكانت إيشاع بنت فاقوذا وهي أم يحيى عند زكريا، وكانت حنة بنت فاقوذا أخت إيشاع عند عمران، وهي أم مريم، وحنة قد حرمت من الولد حتى أيست وكبرت وكانوا قوماً صالحين، فبينما هي في ظل شجرة إذ بصرت بطائر يطعم فرخاً فاشتاقت للولد فقالت: اللهم إن رزقتني ولداً تصدقت به على بيت المقدس ليكون من سدنته، فحملت بمريم وحررتها، فقال لها زوجها عمران: ويحك ما صنعت أرأيت إن كان ما في بطنك أنثى فلا تصلح لذلك فوقعا في هم شديد، فمات عمران وحنة حامل بمريم ﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ ﴾ قالت ذلك تحسراً وحزناً لأنها كانت ترجو أن يكون ذكراً، يقول الله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ ﴾ أي بالشيء الذي وضعته فلعل لله فيه سراً، وكيف لا ﴿ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ ﴾ الذي طلبت ﴿ كَٱلْأُنثَىٰ ﴾ التي وهبت:

فما التأنيث لاسم الشمس عيب ... ولا التذكير فخر للهلال
ولو كان النساء كمن ذكرنا ... لفضلت النساء على الرجال

بل الأنثى التي وهبت أفضل من كثير من الرجال.

ثم قالت: ﴿ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ ﴾ عطف على كلامها السابق، وما بينهما جملة معترضة، ومعنى مريم بلغتهم: العابدة، قالت هذا تقرباً لله أن يعصمها حتى يطابق الاسم المسمى ﴿ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ ﴾ أجيرها بحفظك ﴿ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾ المطرود، يقال رجمه، رماه بالحجارة، قال عليه الصلاة والسلام: «ما من مولود يولد إلا والشيطان يمسه حين يولد فيستهل صارخاً من مسه إلا مريم وابنها»، والمقصود أن كل مولود يطمع الشيطان في إغوائه إلا مريم وابنها، فإن الله استجاب هذه الدعوة فعصمهما ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا ﴾ رضي بها بدل الذكر ﴿ بِقَبُولٍ حَسَنٍ ﴾ أي إن الله تقبل مريم من حنة مكان الذكر المحرر أي قبلها ورضيها ﴿ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا ﴾ أي سوّى خلقها من غير زيادة ولا نقصان، ورباها تربية بها تصلح جميع أحوالها ﴿ وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ﴾ أي جعله كافلاً لها وضامناً لمصالحها، ومن خفف الفاء أعرب زكريا فاعلاً.

وتلخيص هذا المقام أن حنة لما ولدت مريم لفتها في خرقة وحملتها إلى المسجد عند الأحبار من نسل هارون، وهم القائمون بأمر بيت المقدس، وقالت: دونكم النذيرة، فتنافسوا فيها لأنها بنت إمامهم وصاحب قربانهم، فقال زكريا: أنا أحق بها لأن خالتها عندي، فتنازعوا وكانوا ٢٩ رجلاً، ثم اصطلحوا على أن يقترعوا، فألقوا أقلامهم التي كانت بأيديهم ويكتبون بها التوراة في نهر الأردن، على أن من ثبت قلمه في الماء وصعد فهو أولى بها من غيره، فارتفع قلم زكريا، فقرعهم زكريا رأس الأحبار ونبيهم، فأخذ ينظر في شؤونها ويربيها أحسن تربية.

فوجد هناك عجباً عجاباً، ذلك أنه ﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ ﴾ المسجد ويسمى محراباً لأنه محل محاربة الشيطان ﴿ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ﴾ فكان يجد عندها فاكهة الشتاء في الصيف وفاكهة الصيف في الشتاء ﴿ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ﴾ أي من أين لك هذا الرزق الذي يأتي في غير

أوانه ﴿ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ أي بغير تقدير لكثرته أو بغير استحقاق تفضلاً منه تعالى.

ألا تتعجب معي أيها الذكي كيف يقال هنا: وترزق من تشاء بغير حساب بعد ما أمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يقول: ﴿ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ فمريم تقول: إنه يرزقني تفضلاً بلا استحقاق أو بكثرة، هكذا أمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يقول ذلك، وليس بين الجملتين إلا بضع آيات.

يدعو هذا القول المسلمين الذين ورثوا الأمم وعلومها أن يدرسوا كيف يرزق من يشاء بغير حساب كما أريتك قريباً، فلقد أطلعتك على عجائب الحشرات والحيوانات المعلمة بلا تعليم، الملهمة بلا تكليف، المرزوقة بلا أسباب ظاهرة ولا أعمال هامة، وهنا ترى مريم كيف رزقت بغير حساب.

انتهى الفصل الأول.

الفصل الثاني

﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ (٣٨) فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ (٣٩) قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِىَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِى عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ (٤٠) قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ (٤١) ﴾

يقول الله: هنالك أي في ذلك المكان لما رأى كرامة مريم، دعا زكريا ربه قال: رب كما وهبت لحنة العجوز العاقر ذرية طيبة، ورزقت ابنتها الفواكه في غير أوانها، لأنك ترزق من تشاء بغير استحقاق، هب لي من لدنك ذرّية طيبة إنك مجيب الدعاء، وكان زكريا طاهر القلب مستعداً لخطاب الملائكة، فنادته الملائكة أي بعضهم وهو قائم يصلي في المسجد بـ﴿ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ وهو عيسى، وإنما سمي كلمة لأن الله قال له كن فكان من غير أب، فوقع عليه اسم الكلمة لأنه بها كان؛ وأول من آمن بعيسى وصدقه كان يحيى ﴿ وَسَيِّدًا ﴾ يسود قومه ويفوقهم لأنه ما همّ بمعصية قط ﴿ وَحَصُورًا ﴾ مبالغاً في حبس نفسه عن الشهوات والملاهي ﴿ وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ ناشئاً منهم ﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ ﴾ استبعاداً من حيث العادة ﴿ وَقَدْ بَلَغَنِىَ ٱلْكِبَرُ ﴾ أدركني كبر السنّ وأثر فيّ، ويقال: إنه كان له ٩٩ سنة ولامرأته ٩٨ سنة ﴿ وَٱمْرَأَتِى عَاقِرٌ ﴾ لا تلد من العقر وهو القطع ﴿ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴾ من العجائب مثل ذلك الفعل ﴿ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً ﴾ علامة أعرف بها الحبل لأستقبله بالبشاشة والشكر وتزول عني مشقة الانتظار ﴿ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ﴾ أي أن لا تقدر على تكليم الناس ثلاثاً فيحبس لسانك عنه ويخلص لذكر الله تعالى وشكره قضاء لحق النعمة، وإنما تكلمهم بالإشارة بيدك أو عينك أو بالإيماء برأسك ﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا ﴾ في أيام حبس لسانك عن كلام الناس لأنه هو القصد من حبسه ﴿ وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِىِّ ﴾ أي من زوال الشمس إلى الغروب ﴿ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴾ من طلوع الفجر إلى الضحى.

الباب الثاني
في عيسى ابن مريم وأمه

﴿ وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ (٤٢) يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ (٤٣) ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ (٤٤) إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٤٥) وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ (٤٦) قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٤٧) وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ (٤٨) وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٤٩) وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (٥٠) إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ (٥١) ۞ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (٥٢) رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ (٥٣) وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٥٤) إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٥٥) فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ (٥٦) وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (٥٧) ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ (٥٨) ﴾

تفسير هذا الباب

يقول الله في هذا الباب: اذكر يا محمد إذ كلمت الملائكة مريم مشافهة أو ألهمتها قائلة ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ ﴾ أي تقبلك من أمك لخدمة المسجد، ولم تقبل أنثى قبلها، وفرّغك للعبادة، وأغناك برزق الجنة عن الكسب ﴿ وَطَهَّرَكِ ﴾ عما يستقذر من النساء ﴿ وَاصْطَفَاكِ ﴾ بالهداية وإرسال الملائكة إليك واختصاصك بالولد من غير أب، وبراءتك مما قذفتك به اليهود بإنطاق الطفل، وجعلك وابنك آية للعالمين، فأنت بهذه الخمس مصطفاة ﴿ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ (٤٢) يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ ﴾ أديمي الطاعة كما في قوله تعالى: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا ﴾ [الزمر: ٩]، ﴿ وَاسْجُدِي ﴾ صلي، كقوله

تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴾[ق:٤٠]، ﴿ وَٱرْكَعِى ﴾ واخشعي ﴿ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾ الخاشعين ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ المذكور من القصص ﴿ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ ﴾ التي ما كنت تعرفها أنت ولا قومك من قبل هذا ﴿ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ ﴾ التي يكتبون بها التوراة، وقد مرّ توضيحه، ليعلموا ﴿ أَيُّهُمْ ﴾ أي الأحبار ﴿ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ متنافسين في كفالتها، وأبدل من ﴿ إِذْ قَالَتِ ﴾ الأولى ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ﴾ أي يبشرك ببشرى من عنده وهو ولد يولد لك من غير بعل ولا فحل، وذلك الولد ﴿ ٱسْمُهُ ﴾ أي ما يتميز به عن غيره من لقب أو صفة ﴿ ٱلْمَسِيحُ ﴾ وهو لقب شريف له، كالصدّيق وأصله بالعبرية «مشيحا» ومعناه المبارك ﴿ عِيسَى ﴾ معرب أيشوع وهو اسمه ﴿ ٱبْنُ مَرْيَمَ ﴾ صفة له ﴿ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ﴾ حال مقدّرة من ﴿ كَلِمَةٍ ﴾ التي هي نفس عيسى، فصح جعل الحال مذكراً، وكل شيء خلقه الله بكلمة كن ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾[يس:٨٢] وعيسى كذلك كما يأتي في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾[آل عمران:٥٩]، واختص عيسى بالكلمة لأنه بلا واسطة وغيره ليس كذلك والوجاهة في الدنيا النبوة، وأن يبرئ الأكمه والأبرص ويحيي الموتى بإذن الله ويظهر العجائب، وفي الآخرة علوّه عند الله تعالى ﴿ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴾ يرفع إلى السماء مصاحباً الملائكة ﴿ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ ﴾ أي حال كونه طفلاً إذ ﴿ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ ﴾[مريم:٣٠] الخ ﴿ وَكَهْلًا ﴾ أي في حال الكهولة، والكهل في اللغة الذي اجتمعت قوته وكمل شبابه، أو الذي فوق الثلاثين، أو الذي وخطه المشيب، وعند ذلك يستحكم فيه العقل وتنبأ الأنبياء، وهذه المعاني اللغوية متقاربة. قال البيضاوي: يقال إنه رفع شاباً، والمراد وكهلاً بعد نزوله ﴿ وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ حال ثالث من كلمة ﴿ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ ﴾ أي قالت على سبيل التعجب: من أين يكون لي ولد ولم يصبني رجل؟﴿ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ﴾ هكذا يخلق الله منك ولداً من غير أن يمسك بشر، فإنه يخلق ما يشاء ويصنع ما يريد ﴿ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ الكتابة والخط باليد ﴿ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾ العلم ﴿ وَٱلتَّوْرَىٰةَ ﴾ التي أنزلت على موسى ﴿ وَٱلْإِنجِيلَ ﴾ الذي نزل عليه، ويقول سبحانه وتعالى: ﴿ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ الذين كان أولهم يوسف بن يعقوب وآخرهم عيسى ﴿ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ ﴾ علامة ﴿ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ على صدق قولي، وأبدل منها قوله تعالى: ﴿ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ أي أقدر لكم وأصوّر شيئاً مثل صورة الطير فأنفخ فيه فيصير حياً طياراً ﴿ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ ﴾ الذي ولد أعمى ﴿ وَٱلْأَبْرَصَ ﴾ الذي به وضح ﴿ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَ ﴾ قد جئتكم ﴿ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ﴾ وعطف على معنى مصدقاً قوله: ﴿ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ﴾ أي للتصديق ولإحلال بعض الذي حرّم عليكم في شريعة موسى من الشحوم والثروب ولحوم الإبل والعمل يوم السبت ﴿ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ أي جئتكم بآية بعد آية فيما ذكر سابقاً ﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ في المخالفة بعد ما ظهرت الحجة ﴿ وَأَطِيعُونِ ﴾ فيما أدعوكم إليه، ثم شرع في الدعوة الشاملة لقوتي العلم والعمل فقال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ ﴾ وهذا هو التوحيد الذي هو من أهم استكمال القوة العلمية التي رأيتها في سورة البقرة عند

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[البقرة:١٦٤] وفي أول هذه السورة أيضاً ﴿ فَٱعْبُدُوهُ ﴾ وهذا هو القوة العملية، ولا سعادة في دين أو دنيا خارجة عنهما، وهما المبادي والنهايات لجميع الديانات، فالجمع بين العلم والعمل هو الطريق المشهود له بالاستقامة ﴿ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ قال عليه الصلاة والسلام: «قل آمنت بالله ثم استقم» ﴿ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ ﴾ عرف كفرهم كأنه مدرك بالحواس ﴿ قَالَ مَنْ أَنصَارِيٓ ﴾ ملتجئاً ﴿ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ ﴾ الذين يحورون الثياب أي يبيضونها، ويدعى صاحب هذه المهنة قصاراً، وكانوا اثني عشر، وحواريو الرجل أيضاً خاصته وأصفياؤه، وهؤلاء خاصة عيسى وأصفياؤه أجابوه قائلين: ﴿ نَحْنُ أَنصَارُ ﴾ دين ﴿ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ ﴾ يوم القيامة لنا ﴿ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ۝ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ بوحدانيتك ﴿ وَمَكَرُواْ ﴾ أي الذين أحسّ منهم الكفر من اليهود إذ أضمروا قتله ﴿ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ﴾ إذ ألقى شبهه على يهوذا الذي أبلغ خبره إلى رئيس الكهنة كما ستراه موضحاً قريباً من إنجيل برنابا، فصلب يهوذا ورفع المسيح ﴿ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾ أقواهم مكراً، وقوله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ ﴾ ظرف لمكر الله ﴿ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ ﴾ قابضك من الأرض من: توفيت مالي، أو مميتك عن الشهوات العائقة عن العروج إلى عالم الملكوت ﴿ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ ﴾ إلى محل كرامتي ومقر ملائكتي ﴿ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ﴾ سوء جوار ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ ﴾ بالمحبة والادعاء وهم النصارى وبالإقرار بنبوتك وهم المسلمون ﴿ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ ﴾ بك ﴿ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ يعلونهم بالحجة والسيف في أغلب الأمر، ولم يسمع أن لليهود ملكاً أو دولة أو جنداً، ولكنهم في أثناء هذه الأيام عند كتابة هذا التفسير شرعوا يجعلون لهم وطناً قومياً بفلسطين تحت حماية الإنجليز، وهم في ذلك مضطربون ﴿ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾[الحج:٤١]، ﴿ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ من أمر الدين، ثم فصل الحكم فقال: ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ۝ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ وهم الذين يضعون الشيء في غير موضعه، أو من يظلم غيره حقاً له، أي لا يرحمهم ولا يثني عليهم ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ الذي ذكر من أخبار عيسى وأمه مريم والحواريين ونحوها ﴿ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ ﴾ حال كونه ﴿ مِنَ ٱلْآيَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ المشتمل على الحكم والممنوع من تطرق الخلل إليه. انتهى التفسير اللفظي للقسم الخامس.

وفي هذا القسم ست لطائف:

(١) الملائكة والشياطين.

(٢) خوارق العادات.

(٣) هنالك دعا زكريا ربه.

(٤) قال آيتك أن لا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزاً.

(٥) إن الله ربي وربكم فاعبدوه.

(٦) إذ قال الله يا عيسى إني متوفيك.

اللطيفة الأولى: الملائكة والشياطين

لقد تقدم الكلام على الملائكة مشبعاً في البقرة عند قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾[البقرة: ٣٠] فلنجعل هذا المقال في الملائكة وفي الشياطين معاً لما في الكتب السماوية من ذكرهما بالوسوسة والإلهام والهداية والإضلال والإساءة والإفضال، فإن كثيراً من الناس لا سيما المتنورين لا يقع في خواطرهم وجودهما، وتنبو نفوسهم عن التصديق بما لم يأنس به العقل، وإن أنس به العقل وعضده الوحي وآمن به كل حي فنقول: إن الإنسان إذا نظر فيما حوله رآه قسمين اثنين لا ثالث لهما: طيب وخبيث، نافع وضار، محبوب ومكروه. فمن الثاني الآساد والنمور والذباب والحيات والعقارب والخنافس والنبات السام والحيوانات الدقيقة المسماة بالمكروب، فتمرضه بالحمى والتيفوس والتيفود والملاريا والحصبة والجدري ومرض الكلى والطاعون العام وأمراض أخرى تحدث بتلك الحيوانات الصغيرة التي لا عد لها ولا إحصاء.

هكذا الظلام الحالك وحمارّة القيظ في شعاب الجبال، وضربات الشمس والصواعق والزلازل والبراكين وطغيان الأنهار على المزارع، ونشيشها وانحسار مائها كالنيل والفرات وما شابه ذلك.

ومن الأول الإبل والبقر والغنم والبهائم والطيور النافعة، والأنهار أيام اعتدالها، والنبات المغذي النافع، والفاكهة والأبّ لتغتذي به البهائم، والحيوانات الدقيقة العجيبة التي في دم الإنسان المسماة بالكرات الحمراء والمسماة أيضاً بالكرات البيضاء التي تصارع الحيوانات الفاتكة بالجسم، وتنشب فيها مخالبها وتقهرها وتغلبها، فترجع ظافرة منصورة، وهكذا تلك الجوع الجرارة والجيوش المصطفة منها التي تسارع إلى الجروح إذا حدثت، فتكون هي أنفسها مادة القيح، ومتى تم الشفاء كانت هي مادة اللحم الكاسية للجرح، النافعة للمريض، الشافية للجراح، الكاتبة بخط يفقهه العقلاء ﴿ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾[النحل:٨].

فإذن جميع ما نراه قسمان بالنسبة للإنسان، وقد وصلنا إلى أدق الحيوان الذي لم يعرف إلا حديثاً، ولو أن امرأ منذ مائة سنة نطق بهذا لقيل له: «أنت معتوه»، وقد أصبح اليوم معلوماً للخاص والعام، ومن ذا كان يخطر له أن الحمى تكون بآلاف الآلاف من الحيوان، وأن شجرة القمح أو القطن أو الكتان يسخر تحت جذرها آلاف الآلاف من تلك الحيوانات تمزق عناصر الأرض المغذية للنبات حتى تصلح لامتصاصها، وتتمثل بغصنه وزهره وثمره وأنها للنبات كالعبيد يحضرون الطعام لساداتهم، وكالخدم لمخدوميهم، وكالرعايا لملوكهم، وكأهل الشرق لممالك الغرب إذ استذلوهم واستضعفوهم وأذلوهم صاغرين، وجعلوهم عبيداً خاضعين، فيجبي حكامهم المستضعفون لسادتهم من الغرب ثمرات كل شيء، فهم أشبه بهذه الحيوانات الذرية والمخلوقات المكروبية، من ذا يخطر بباله أو تحدثه نفسه أن هذه العوالم منبثة في أجسامنا للإهلاك تارة وللإحياء أخرى، أم من ذا الذي كان يعقل أنها مغذية للنبات مميتته تعطيه الحياة والنجاة تارة والموت والهلاك أخرى، هذه بعض عجائب ما حولنا وما عن أيماننا وشمائلنا من المخلوقات. هذه الحيوانات فأين الملائكة والشياطين؟.

بهذا القول أدركنا أن أحوالنا وأحوال النبات والحيوان من صحة ومرض وقوة وضعف مرجعها حيوانات دقيقة ومخلوقات ضعيفة، ولقد وجدنا فينا آراء وأحوالاً ترجع إلى عقولنا وتنطوي عليها

أخلاقنا، فمنها الخبيث ومنها الطيب، كما أن في أجسامنا صحة ومرضاً، وفي نباتنا قوة وضعفاً، وكذا في حيواناتنا، وكما أننا كنا ننكر أن يكون لمرضنا ولمرض حيواننا ونباتنا علة إلا الأغذية والأحوال المشاهدة، هكذا نحن ننكر الآن أن يكون لآرائنا الخبيثة والطيبة إلا أحوالنا وتعاليمنا واستعدادنا، فأما إن شيطاناً يضلنا أو ملكاً يهدينا، فذلك لا طاقة لنا بقبوله ولا قدرة لنا على التصديق به.

(١) قالت طائفة: إننا نرى أن الذباب لا يقع إلا على عين فيها القذى، ويتجاوز النظيف الجسم الطاهر البشرة، ونرى أن التلميذ المهذب يقبل عليه المعلمون ويهديه المرشدون، ويتجاوزون التلميذ البليد أو القذر أو الذي لا يطيع ولا يكون ذا خلق حميد. فلعل في العالم المعنوي ما يشابه ذلك فيكون هناك عالم يغوي الرجل الشرير كالذباب يقع على العين القذرة وفيه من يهدي من له استعداد للهداية، وهذا القول لا سبيل للإقناع به بل هو ضرب أمثال، والأمثال ليست تغني في البيان.

(٢) وقال علماء الهند في كتاب يسمى راجايوقا ألقى محاضرات في مدينة نيويورك في سنتي ١٨٩٥ ـ ١٨٩٦، وجمع مقالات باللغة الإنجليزية وصدّر بمقدمة هذا ملخصها بإيضاح: إن جميع الأمم في الشرق والغرب يصدّقون علماء كل فن، ويؤمنون بما يبدون من الآراء وما يصفون من الأحوال، ألا ترى أن جميع أمم العالم تحكم بما يقوله الأطباء، فإذا أنذروا بالوباء أو بظهور داء أو بعموم الحمى أو الجدري أو ما أشبه ذلك من كل ما فيه العدوى اتبع الناس آراءهم وحكموا بقولهم وأطاعوا ما به يأمرون.

هكذا علماء الحساب والفلك والطبيعة والزراعة والبيطرة، فليت شعري من ذا الذي درس الأجرام السماوية وأنها أعظم من الأرض، ومنها ما هو أعظم من الشمس، وأنها بعيدة بعداً لا يتناوله الإحصاء ولا تدركه عقول النبلاء.

لعمرك لم يدرس الأمراض وأحوالها إلا الأطباء، ولا عظم الأجرام السماوية إلا أولئك العلماء بالفلك الدارسون لتلك القضايا البعيدة المرمى، القائمة على صدق الأحكام، وإنما صدق الناس ذلك من هؤلاء ومن هؤلاء، لأنهم يرون أن لكل علم طرقاً تتبع، وسبلاً يسار فيها، وأصولاً يزاولونها، ونواميس يدرسونها، وخواص يعرفونها. فإذا سار سائر من الناس على مناهج تلك العلوم وصل إلى حقائقها وأخبر بما أخبر به الأولون مع بعض تحسين لا يضر بالأصول، ولا ينقض كل ما هو منقول، فكل امرئ يقول لو أني سلكت سبلهم وقرأت أصولهم، لأخبرت خبرهم ولعرفت كما عرفوا، فمن هذا الوجه أصبح الناس واثقين بعظم الأجرام السماوية وإن لم يدرسوها، خائفين من الأمراض والوباء وإن لم يعقلوها، ذلك لأنهم لفهمها مستعدون، وعلى فهمها قادرون.

ومن الناس طوائف تهذبت بالرياضات، واعتكفت عن الماديات، وصامت عن الدنيا، واعتزلت الناس، فوصلوا إلى ما لم يره الناس، وقالوا: قد رأينا عالماً روحانياً، فمنهم الصالحون ومنهم دون ذلك فهم طوائف مختلفون وأصناف متعددون، وهؤلاء الطوائف مثلهم كمثل الأطباء وعلماء الفلك، فالناس يصدقون وإن كانوا لا يدرسون في العلوم المادية، هكذا يجب أن يصدقوا وإن لم يدرسوا في العلوم الروحانية، لأنهم إذا ساروا على السنن التي رسمها الروحانيون، ودرسوا ما هم دارسون، وعلموا ما يعلمون، وصلوا إلى ما إليه وصلوا، وعرفوا ما غفل عنه الأكثرون، ولقد نقل عن أناس

مهذبين مرتاضين في الشرق والغرب ومن جميع الديانات والملل والنحل والمذاهب في الأعصر الغابرة والأيام الحاضرة أنهم رأوا ما لم تره العيون، وأخبروا عن عالم مكنون، واطمأنوا إلى ما يعلمون، وأيقنوا أنهم مبصرون، فلماذا ننزلهم في المرتبة عن علماء الفلك والطب، ولماذا نظلمهم ونبخسهم حقهم، إن ذلك لظلم مبين. فثبت بهذا أن هناك عالماً لطيفاً لم تره العيون من الملائكة ومن الشياطين. هذا هو البرهان الذي قاله علماء الهند واطمأنوا إليه وهم مصدقون.

أيها الذكي إن أردت المزيد في هذا المقام فهناك كتاب الأرواح الذي ألفته قبل هذا الكتاب، ولكن لأنقل لك جملاً منه تريك بهجة العلم وجماله، عسى أن تكون لك مقنعاً، هداك الله إلى سبيل الرشاد.

وقد نقلت لك عن العلامة الرازي فيه ما يأتي:

الحجة العاشرة: نرى جميع فرق الدنيا من الهند والروم والعرب والعجم، وجميع أرباب الملل والنحل من اليهود والنصارى والمجوس والمسلمين، وسائر فرق العالم وطوائفهم يتصدقون عن موتاهم ويدعون لهم بالخير، ويذهبون إلى زياراتهم، ولولا أنهم بعد موت الجسد بقوا أحياء لكان التصدق عنهم عبثاً، فالإطباق على هذه الصدقة وعلى هذا الدعاء وعلى هذه الزيارة، يدل على أن فطرتهم الأصلية السليمة شاهدة بأن الإنسان شيء غير هذا الجسد، وأن ذلك الشيء لا يموت بل يموت هذا الجسد، إلى أن قال:

الحجة الحادية عشرة: إن كثيراً من الناس يرى أباه أو ابنه بعد موته في المنام، ويقول له: اذهب إلى الموضع الفلاني فإن فيه ذهباً دفنته لك، وقد يراه فيوصيه بقضاء دين عنه، ثم عند اليقظة إذا فتش كان كما رآه في النوم من غير تفاوت، ولولا أن الإنسان يبقى بعد الموت لما كان ذلك، ولما دل هذا الدليل على أن الإنسان يبقى بعد الموت، ودل الحس على أن الجسد ميت كان الإنسان مغايراً لهذا الجسد الميت. وقال رحمه الله تعالى في تفسير قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ﴾[الآية: ٢٢] في سورة إبراهيم قال في صفحة ٢٤٠ ج خامس: وذكر بعض العلماء فيه أيضاً احتمالاً ثالثاً وهو أن النفوس البشرية والأرواح الإنسانية إذا فارقت أبدانها قويت في تلك الصفات التي اكتسبتها في تلك الأبدان وكملت فيها، فإذا حدثت نفس أخرى مشاكلة لتلك النفس المفارقة في بدن مشاكل لبدن تلك النفس المفارقة حدث بين تلك النفس المفارقة وبين هذا البدن نوع تعلق بسبب المشاكلة الحاصلة بين هذا البدن وبين ما كان بدناً لتلك النفس المفارقة فيصير لتلك النفس المفارقة تعلق شديد بهذا البدن، وتصير تلك النفس المفارقة معاونة لهذه النفس المتعلقة بهذا البدن، ومعاضدة لها على أفعالها وأحوالها بسبب هذه المشاكلة، ثم إن كان هذا المعنى في أبواب الخير والبركات كان ذلك إلهاماً، وإن كان في باب الشر كان وسوسة. فهذه وجوه محتملة تفريعاً على القول بإثبات جواهر قدسية مبرأة عن الجسمية، والقول بأن الأرواح الطاهرة والخبيثة كلام مشهور عند قدماء الفلاسفة، فليس لهم أن ينكروا إثباتها على صاحب شريعتنا محمد صلى الله عليه وسلم. اهـ من الرازي.

وفيه أيضاً مما نقلته عن الغزالي رحمه الله:

والعالم من محرّك الفلك التاسع من الصفحة التي تلي جهة فوق إلى التي تلي جهة أقدامنا مملوء جنوداً وملائكة ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾[المدثر: ٣١] إلى أن قال: ولا ينبغي أن ينكر منكر

ذلك، وقد شهد شعاع الشمس وروحانيته وبساطته، حتى إن قرصها يكون بالغرب وشعاعها بالشرق، فما هو إلا أن يغيب خلف جبل فينقطع الشعاع الذي بالمشرق بلا زمان، فلو كان جسماً ما انقطع في عدة سنين، وإذا أخذت مرآة وعكست بها الشعاع انعكس إلى حيث شئت، ثم تعطفه لا في زمان، وجوهر الشعاع بالإضافة إلى جوهر النفس كثيف، فليس في العالم موضع إلا وهو مغمور بما لا يعلمه إلا الله، ولذلك أمر الشارع بالستر في الخلوة وعند الجماع، والعالم مشحون بالأرواح. اهـ.

وفيه أيضاً:

(٣) قال في إخوان الصفا الجزء الثالث صفحة ٣٦٢: واعلم أن النفوس المتجسدة الخيرة ملائكة بالقوة، فإذا فارقت أجسادها كانت ملائكة بالفعل، كذلك النفوس المتجسدة الشريرة هي شياطين بالقوة فإذا فارقت أجسادها كانت شياطين بالفعل. فهذه النفوس الشيطانية بالفعل توسوس للنفوس الشيطانية بالقوة لتخرجها إلى الفعل كما قال تعالى: ﴿ شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ﴾[الأنعام:١١٢] فشياطين الإنس هي النفوس المتجسدة الشريرة أنست بالأجساد، وشياطين الجن هي النفوس الشريرة المفارقة للأجسام المحتجبة عن الأبصار، وقال قبل ذلك ما ملخصه: إن هذه النفوس الشريرة لما فارقت الجسد وكانت معلقة بالدنيا وسلبت الحواس وآلات اللذات حزنت وتمنت لو رجعت للذات كرّة أخرى، فحينئذ تصبح النفس كأنها لا حية ولا ميتة، كما قال تعالى: ﴿ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴾[طه:٧٤] وتقول: ياليتنا ﴿ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ﴾[الأعراف:٥٣] ﴿ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًا ﴾[النبأ:٤٠] ﴿فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ ﴾[الأعراف:٥٣] وقال تعالى: ﴿ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾[الأنعام:٢٨] لما ركب فيهم من الأخلاق الشائنة، وتبقى تلك النفوس متعلقة بأبناء جنسها المتجسدة توسوس لهم، وهكذا شأن الغافلين. اهـ ملخصاً من إخوان الصفا.

وفيه أيضاً ما نقلته من خطبة اللورد أوليفرلودج أكبر علماء الطبيعة بإنكلترا قال:

ولنذكر في هذا المقام أننا لسنا أجساماً فقط، بل كل منا مركب من عقل ووجدان وروح، فضلاً عن الجسم، ويتصل الإنسان بهذه الكائنات العليا المدركة ويناجيها بغير حواسه البدنية، ويرتاح إلى الاتصال بها أكثر مما يرتاح إلى اتصاله بهذا العالم المادي الذي قضي عليه أن يعيش فيه إلى حين. كل العظام الذين ماتوا كانوا يرتاحون إلى مناجاة المدركات العليا أكثر مما يرتاحون إلى الأمور الدنيوية، ولم يزل كثيرون منا يطلعون على شيء من أمور هذه المدركات العليا من وقت إلى آخر، وإذا عملنا على تقوية مداركنا وقوانا اطلعنا على أكثر من ذلك، ومكننا الوحي من معرفة أمور لا نقدر أن ندركها بغيره. إن طرق البحث المادية ليست كل طرق البحث، ولم يزل الرجال العظام منذ قديم الزمان يرون رؤى ويطلعون على حقائق، وتظهر منهم بدائه يحاولون تدوينها لينتفع بها غيرهم، وبمثل ذلك يكون البحث على بعض الحقائق وهو طريقة رجال الدين، ولا أقول إني سرت عليه أنا في بحثي إذ يظهر أني محروم من ذلك، ولكني قد وصلت إلى نتائج لا تختلف عن التي وصلوا إليها ببحثي من طرق علمية مألوفة، وجميعنا يعرف أن في الكون قوى للشر وقوى للخير.

وفيه أيضاً من خطبة اللورد أوليفرلودج المذكور في الحياة بعد الموت، وليس من العقل أن يقال إن النفس تضمحل إذا تلف الجسد، بل سنظل موجودين بعد موتنا وانتهاء أعمارنا القصيرة على هذه

الأرض. أقول ذلك مستنداً إلى أدلة علمية، أقوله لأني تحققت أن بعض أصدقائي الذين ماتوا لا يزالون موجودين إذ أني قد ناجيتهم، ومناجاة الموتى ممكنة، ولكن يجب أن يسار على نواميسها، وأن تعرف شروطها، وهي ليست من الأمور الهينة، وقد حادثت أصدقائي الموتى كما أحادث واحداً من الحضور، وقد كانوا في حياتهم من أهل العلم، ولذلك برهنوا لي براهين قاطعة نشر بعضها وسينشر البعض الآخر في حينه، أنهم هم أنفسهم كانوا يحدثونني وإنني لست واهماً. إن ذلك حقيقة أنا مقتنع بها وبصحتها بكل ما فيّ من قوة الاقتناع، إنني مقتنع بأننا لا نضمحل عند الموت، وأن الموتى يهتمون بأمور هذا العالم ويساعدوننا ويعرفون أكثر مما نعرف بكثير، ويقدرون على مناجاتنا أحياناً.

إن هذه النتيجة التي وصلت إليها عظيمة، لا تعرفون أنتم ولا أعرف أنا مقدار عظمتها، وتعلمون أن بين رجال العلم كثيرين غيري ممن يعتقدون بذلك مثلي، وأن منهم كثيرين أيضاً لا يعتقدون به، ومن رجال العلم كثيرون لم يبحثوا في هذا الموضوع، وليس لكل أحد أن يبحث في كل شيء، ولكن من يقضي ثلاثين سنة أو أربعين يبحث في أمر من الأمور يحق له أن يبدي رأيه في النتيجة التي وصل إليها، ولا بد لكم من أمثلة تختص بهذا الأمر لكي تبحثوا فيها، ومثل هذه الأمثلة كثير في مجلدات الجمعية العلمية وسيزداد كثيراً، على أنّ الأمثلة يجب أن يهتم بالنظر فيها لأجل بناء الأحكام عليها، وقد لا تتفق أحكامهم في أول الأمر مع آرائي التي أبديتها، ولكنها ستتفق معها أخيراً بعد سنوات ولا بأس من التمهل.

غير أن الباحثين الذين اهتموا بهذا مدة سنين قد اتفقوا على أن الأدلة عليه تكاد تكون قاطعة، وأنا لا أشك في أن الموتى يناجوننا مع أني قضيت سنين كثيرة أحاول تعليل ما ينسب إلى مناجاة الأرواح بعلل أخرى، ولكني رأيت فساد تعاليلي الواحد بعد الآخر، وليس لي طريقة الآن أعلل بها ما ينسب إلى مناجاة الأرواح، غير القول بأن الأرواح موجودة فعلاً وتناجينا، غير أني لا أقول إن الميت يكون موجوداً كل مرة يقال إنه ناجى فيها، وعلى الباحث أن يكون يقظاً يستعمل كل ما لديه من طرق التمحيص، ولا يترك فرصة للبحث تسنح له، لأن هذه الفرص نادرة جداً، وحقيقة البقاء بعد الموت قد تثبت بالطرق العلمية، وهي مساعد تساعدنا على إدراك الاتصال بين جميع حالات الوجود، وذلك ما يبعثني على القول إن الإنسان ليس منفرداً بل تحيط به مدركات أخرى، وإذا عرفتم أن فوق الإنسان مدركاً يفوقه، هان عليكم أن تتصوروا درجات أخرى من المدركات أرقى فأرقى، إلى أن تصلوا إلى المدرك الأعلى نفسه، أي إلى الله سبحانه وتعالى.

وعالم هذه المدركات ليس غريباً عن عالمنا، فإن الكون واحد، إن مداركنا ونحن هنا على الأرض محدودة، فلا نرى كثيراً من الأمور التي تجري، ولكن تحيط بنا كائنات وتعمل معنا وتساعدنا، قد عرفها قليل من الناس بعض المعرفة من الرؤى التي رأوها. وعندي أن كل ما تقول به الأديان من أن الملائكة والقديسين معنا، وأن الله نفسه يساعدنا على وجهه من غير تأويل، هذه هي خطبته في تاريخه.

هذا ما أردت نقله من آراء المحدثين والقدماء ملخصاً، لتكون أيها الذكي في هذا التفسير مطلعاً على الآراء المختلفة، لتفهم الآيات الواردة في الملائكة والشياطين، وتعرضها على كتاب الأرواح أو على ما نقلته في هذا التفسير، ثم الآيات الواردة مثل سورة الجن ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ قُلْ أُوحِيَ

إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ ﴾[الجـن:١-٢] وجاء في تلك الآيات أن الجن ـ ويماثلها الأرواح التي خرجت من الدنيا، وهي ناقصة محصورة الفكر كما ذكره إخوان الصفاء والفخر الرازي وعلماء الأرواح في أوروبا والغزالي ـ قالت: (١) إن الله لا ولد له. (٢) وإن الجن ما كانوا يظنون أن هناك أكاذيب على الله. (٣) وإن الإنس يستغيثون بالجن وهذا وبال لأن الجن بهذا طغوا مع أنهم جاهلون. (٤) وإن الجن كانوا يظنون كالإنس أن الله لا يبعث أحداً. (٥) وإنهم منعوا من الإخبار بالغيب ولا يدرون ما الذي سيحدث لأهل الأرض. (٦) وإن منهم الصالحون والفاسقون كأهل الأرض. (٧) وإن قوماً منهم آمنوا بالقرآن واهتدوا به. (٨) وإن الجن اجتمعوا على النبي لما دعا الله فكانوا متراكمين عليه. هذا ملخص ما جاء في سورة الجن، وهذا موافق أشد الموافقة للعلم الحديث بأوروبا، وإن الروح بعد الموت هي الروح في الحياة الدنيا، هذا جاهل يوسوس للناس بجهله، وهذا فاضل يلهم المستعدين من علمه، ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴾[المدثر:٣١].

ثم إني نقلت لك هذا لتطلع على العلم المنقول، ولا تقف عنده بل تنظر ببصيرتك وثاقب ذهنك في الكتب وفي العلوم ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾[طه:١١٤].

تفصيل الكلام على قوله تعالى ﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ﴾

إن الإنسان يخشع لما فوق طاقته ويخضع لما تناله قوته، وجميع مظاهر العظمة والجلال تنحصر في دائرتين: دائرة البطش ودائرة غرائب العلم، والدائرة الأولى تتجلى في كل ما بهر الناس من آثار العظمة، إن الإنسان له قوة قدسية سامية كمنت فيه، ومتى شعرت بأعاظم الأمور تحركت إلى ما سمت إليه غريزتها، وحنت إلى ما استكن فيها، ومن هذا المقام بنيت له الهياكل وأقيمت له التماثيل في الأمم الغابرة والأجيال الحاضرة لتثير في نفسه الإعجاب والإجلال، هذه سجيته المكنونة وغريزته المخزونة، ولقد جعل الله من عباده من سمت مواهبهم، وأجرى على أيديهم غرائب استثارة للإعجاب وتذكيراً لهم، فإذا رأوا فاكهة الصيف شتوية وفاكهة الشتاء صيفية، وأن الأكمه والأبرص برئا، والميت حيي على يد إنسان، عظم إعجابهم وسمعوا ما يقوله من النصائح التي يلقيها من ظهرت العجائب على يديه، على ذلك درج الأنبياء والرسل والقديسيون.

والدائرة الثانية وهي العلمية تماثل الأولى فمتى أخبر نبي بما لا عهد لهم به من الغيب وأنسوا بالمخبر واعتادوا صدق الأخبار الغيبية على يديه، تبعوه وصدقوه فيما يلقي من نصائحه، وما يعلم من حكمته، فالمرجع لروعة القدرة والعلم.

ولما علم الله أن هذه الأمة ستكون أيام انقلاب العالم أنزل في القرآن أن سحرة فرعون لما آمنوا ثبتوا على إيمانهم لما أيقنوا بالعلم أن موسى فوقهم، وسحرهم لا يتناول مقامه، وليس في علم السحر عند كبار السحرة أن العصا تبتلع الحبال والعصيّ فخروا ساجدين. أما بنو إسرائيل فإنهم بهرهم عجل السامريّ المصنوع من الذهب وكان له خوار، ولما رأوا أقواماً يعكفون على أصنام لهم قالوا: يا موسى، اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة، فكان ذلك في القرآن تنويراً للعقلاء. إن خرق العادات لا يفيد الناس ثباتاً

في العلم ولا رقياً في الحياة، فالخوارق لا تؤثر إلا إلى أمد قريب، ومن آمن بالعصا لما انقلبت حية، حق له أن يرتد إذا رأى عجلاً من ذهب، والأمم في أيام جاهليتها كالشاب أيام صباه يحب فتاة، فإذا وجد أجمل منها هجر الحبيب الأول، أما من اشتركت معه زوجته في الحياة وله منها بنات وبنون، فثبات المودة غالباً مصون، هكذا العلم والحكمة يقضيان بثبات العقول والآراء، لذلك جاء القرآن ألا ترى في قوله تعالى رداً على مشركي العرب: ﴿أَوَلَمۡ يَكۡفِهِمۡ أَنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡۚ﴾[العنكبوت:٥١] وقوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلۡأَوَّلُونَۚ وَءَاتَيۡنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبۡصِرَةٗ فَظَلَمُواْ بِهَاۚ وَمَا نُرۡسِلُ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّا تَخۡوِيفٗا﴾[الإسراء:٥٩] يقول الله تعالى: إن الأمم في حال جهالتها تخوفهم بخوارق العادات، ولا ثبات لهم إلا بالعلم والحكمة.

لقد منعنا أن نرسل بخوارق العادات أننا أردنا رقي الإنسان ليفهم الحكمة بعقله، ويدركها بفهمه ولا يقنع بالتخويف كالأطفال، ولا بالغرائب المنافية للنواميس المعروفة، فإن الأجيال السابقة والأمم الدارسة لم يكونوا ليصلوا إلى سموّ العقل غالباً، فسلطنا عليهم عصا التأديب لينتفعوا زمناً قليلاً. أما الآن فإنا نزلنا القرآن يحث على النظر والعلم، وهنا يرى المفكر في عجائب جسمه وغرائب الصنع وفي بدائع الآفاق من النواميس البديعة والآيات الرفيعة ما ينسيه خوارق العادات، ويتجلى له في جميع الوجود آيات.

خوارق العادات المذكورة في القرآن

يعجب العقلاء من الأمة الإسلامية ويقولون: ما لنا نرى كتابنا المنزل مشحوناً بالعجائب والخوارق والمعجزات التي كانت في الأمم السالفة والأجيال الغابرة؟ وما لنا ولذكرها، ولو أنها كانت أمامنا لن تزدنا يقيناً، وكيف تزيدنا يقيناً والقرآن نفسه قد جاء فيه أن الله تعالى ما يرسل بالآيات إلا تخويفاً، فهو جعل الأمم السالفة أطفالاً في أخلاقهم، صبياناً في أفعالهم، فأراهم الأعاجيب، ورزق أنبياءهم صيفاً ما نبت شتاء، وشتاء ما نبت صيفاً، ونقل عرش بلقيس لسليمان في لحظة، وقلب العصا حية لموسى، وهكذا ما جاء من ناقة ثمود وغير ذلك، وإذا كان الله يأمرنا في القرآن أن نتذكر ونتفكر ونسير بالعقل ونعقل بالحكمة، فكيف نجمع بين المعقول وخوارق العادات، إن المسلمين ليعجبون من كل ذلك وهم متحيرون.

الحال الروحية والحال الجسمية

نقول: اعلم أن الإنسان له حالان: حال جسمية وحال روحية، ففي الحال الأولى يزرع ويحصد ويتجر ويتعلم ويأكل ويلبس ويلد بأعمال إرادية وتكاليف جسمية إرادية. فأما في الحال الروحية فإنه يعمل تلك الأعمال بلا كلفة ولا مشقة، بل بالإرادة والفكر والعزيمة، كما نرى أنفسنا في حال النوم لابسين آكلين شاربين والدين مالكين جالسين على الأسرّة، صورّته أرواحنا من المادة الأثيرية المالئة لهذا الكون بلا كلفة ولا مشقة.

ونحن نراه في النوم ولا نعجب لأنه مما تألفه النفوس في تلك الحال ولا تتعجب منه، هكذا حال الروح بعد الموت، فإننا نفعل هذا كله بالغريزة والطبيعة والفطرة والقوة الروحية بلا تكليف ولا أمر ولا نهي ولا إنذار ولا وعيد.

فالروح تصوغ المادة الشافية والسامة والأغذية والفواكه، وليس لها أدوات ولا آلات إلا إرادتها وإذن الله تعالى، وكذلك تصوغ الألبسة المختلفة، تصوغها بغريزتها وهي تجهل كيف تصوغها إذا كانت أرواحاً منحطة من فئة قليلة الترقي في العوالم العلوية، فالمادة الأثيرية «أي اللطيفة» التي هي أصل العوالم كلها، تتصوف فيها الروح على مقدار ارتقائها، هذه قدرة الأرواح التي أودعها الله عزّ وجلّ فيها كما أودعها في أرواحنا عند النوم ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾[الزمر:٤٢]، والروح في الحال الروحية تفعل بالغريزة ما كانت تفعله تكلفاً، ولا تعقل ما تفعله إلا إذا كانت روحاً نقية فاضلة شريفة كاملة.

أما في الحال الدنيوية فإن هذه الأعمال مخالفة للناموس لا توافق حالنا، فلو أن امرأ أنزل الله عليه الخبز واللحم والفاكهة وهو جالس في بيته، ثم أفرغ عليه العلوم والمعارف من غير كدّ ولا نصب، لكان ذلك مخالفاً للناموس والقانون الذي عليه أهل الأرض، وليس يكون ذلك سبباً في رقيهم بل الرقي في هذه الحياة بالعمل والسعي، وهذا العمل والسعي يكونان سبباً في الرقي بعد الموت، وعلى هذا تكون المعجزات وخوارق العادات التي جاءت على أيدي الأنبياء، كالرزق الذي رزقت به مريم في هذا المقام ليس مما يناسب عالمنا، وإنما يناسب عالم الأرواح، ولذلك تجد الناس يبتهجون به ويفرحون، لا سيما إذا كانوا من العامة والجهلاء، فإنهم أقرب إلى التصديق ونفوسهم تحنّ إلى ما استكنّ في فطرتها وقد حجزت عنه لأمد معلوم، فيكون ذلك الإعجاب سبباً في الإيمان بالأنبياء والقدّيسين وينتفعون بذلك الإيمان، ولكن هذا الإيمان في الدين الإسلامي ليس غاية العلم ولا منتهى الإدراك، بل دين الإسلام يدعو إلى النظر العقلي والتفكر الحكمي ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾[العنكبوت:٥١] يرشدنا القرآن أن تلك العجائب جاءت للأمم وهم أطفال، وللأجيال وهم جهال، فكانت خوارق العادات هي التي لها القول الفصل في الإيمان. ألم تر إلى قدماء المصريين كيف كانوا يخيفون الشعب بالأمور الهائلة والهياكل العظيمة، وكيف كانوا يمثلون لهم العظمة بأبي الهول المركب من رأس امرأة على جسد ثور بأظافير أسد وجناحي نسر رمزاً إلى هذا الإنسان الذي نبغ وسط الحيوان، وظهر على هذه المخلوقات، وهكذا علماء النصرانية كانوا يرمزون للشعب ولا يصرحون. قال سينيسيوس الأسقف اليوناني الذي تولى في آخر حياته أسقفية عكا ومات سنة ٤١٠:

إن الروح السري الذي تراه سارياً في سائر الأديان القديمة لناتج من كون الشعب يحتقر دائماً ما سهل عليه إدراكه، فلهذا يؤثر أن يكون مغشوشاً مغالطاً. هكذا فعل كهنة مصر الأقدمون، وأما أنا فسأكون فيلسوفاً مع نفسي وكاهناً مع الشعب. اهـ.

وقال غريغوريوس في رسالته إلى أيرونيموس: إن الإعجام والإبهام ضروريان لإلقاء الهيبة في الشعب، فكلما قل إدراكه ازداد عجبه، إن كثيراً من رجال الدين وآباء الكنيسة نطقوا بما يلائم الظروف والأحوال لا بما كانوا يعلمون. فأنت ترى أيها الذكي أن الأمم السالفة كانت تألف العجائب والغرائب، ولم يكن يؤم العقل ويعرف الحقائق إلاّ أكابر العلماء، لذلك أرسل الله لهم الأنبياء وأعطاهم العجائب موافقة لحالهم وهم جاهلون.

ولكن لما جاء القرآن أراد الله أن ينشئ خلقاً جديداً مفكراً عالماً فقال: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْأَيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾[الإسراء:٥٩]، وقال تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ﴾[النحل:١٢٥] لأرقى الطبقات، والموعظة الحسنة للجهال ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾[النحل:١٢٥] للطبقة المتوسطة وحض على التفكر والتدبر والتعقل والنظر فقال: ﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[يونس:١٠١] قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الروم:٨]، وقال تعالى: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾[الذاريات:٢١] وكيف يبصر الإنسان ما في نفسه والآفاق إلاَّ إذا كان ذكياً، وإنك لو أتيت إلى الجهلاء وقلت لهم: انظروا في عجائب أجسامكم وفي عجائب زرعكم، كما نظرت فيما قرأت في هذا التفسير، لضحكوا استغراباً ولعجبوا من قلة عقل القائل، ولكنك لو قلت لهم: إن مريم رزقت بغير حساب، لفهموها وسبحوا الله بكرة وأصيلاً، فالقرآن جاء للإكثار من الناظرين والمفكرين، وللإقلال من المغرمين بخوارق العادات، لأن الله لا يرسلها لأهل الأرض إلاَّ قليلاً، ولا يأمر بها إلاَّ لمنفعة علمية ومصلحة دينية، ويفضل عليها العلم والحكمة والنظر الصحيح، ولذلك ترى أهل الأرض من بعد نزول القرآن قد ارتقت أفكارهم، وأهل أوروبا من اختلاطهم بالمسلمين في الحروب الصليبية عقلوا وفكروا بعقولهم ورقوا جميع أعمال الحياة، وإن كان المسلمون أصبحوا عبيد الهوى نائمين على بساط الراحة، ولذلك جاءهم الأوروبيون فأمطروا عليهم وابلاً من العذاب، ومزناً من الإرهاق، فأخذوا يستيقظون وقاموا ينفضون الغبار عن رؤوسهم، وينفون الذل عن بلادهم، وهذا التفسير من مبشرات تلك النهضة، ومقوّمات ذلك العز القادم والمجد الدائم، فيرى المسلم أن فاكهة مريم وعرش بلقيس وعصا موسى، إنما جاءت لأمم كانت نائمة عما بين يديها وما خلفها. أما المسلم فيقول: ﴿إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٣ وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [الجاثية:٣-٤]، ويعلم أن الجهال عن ذلك معرضون، والعقلاء به مغرمون.

خوارق العادات والعلوم الطبيعية والرياضية

لقد استبان أن خوارق العادات تكون للناس في أحلامهم وتكون لهم بعد موتهم، وهناك لا تكون خوارق وإنما هي حقائق ثابتة لا يستغربونها بل هم بها موقنون، وهذه العجائب لا تزال تتوالى على الناس في كل زمان ومكان، فتكون على يد الأنبياء معجزة مقرونة بالتحدي، فيقولون: إننا مرسلون من عند الله، والله أيدنا بهذه المعجزات، ويقول علماؤنا رحمهم الله إن هذه الخوارق تكون على يدي أتباع الأنبياء الذين يسمون أولياء، ويقولون ما جاز أن يكون معجزة لنبي يكون كرامة لولي.

انظر كتاب النقاية للشيخ السيوطي. وأثبت ذلك بكتاب عمر الذي جرى النيل بإرساله ووضعه فيه ويقوله وهو على المنبر بالمدينة، وجيشه بنهاوند، وسارية أمير ذلك الجيش، محذراً له من العدو الكامن له وراء الجبل: يا سارية الجبل الجبل. هذا ما في النقاية المذكورة وفي غيره من كتب علمائنا. إن هذه قد تكون على يد الساحر ويد الجاهل، فكما تكون معجزة على يد نبي تكون كرامة لولي، ثم معونة لجاهل، ثم استدراجاً لفاسق، فيقول علماؤنا: إن تلك الخوارق تكون في سائر الطبقات وتسمى بأسماء مختلفة على حسب الواقعة هي على أيديهم، ولست الآن أقول لك هذا إلاَّ لتقف على ما يقوله أهل الشرق والغرب في هذا المقام، أما رأيي أنا فإنك ستسمعه قريباً هنا.

أقول: ولقد ظهر في أقوال علماء الأرواح ما فيه العجب العجاب، ولعمري لا يوضح المقام إلاَّ ما جاء في علم الأرواح في العصر الحاضر أولاً، ثم في التعقل والتفكير ثانياً، وهاأنا ذا أشرحه لك الآن شرحاً وافياً، فأقول: لقد ظهر علم الأرواح وأيد هذه الغرائب، ولو اطلعت على الكتاب الذي ألفته المسمى «الأرواح» وعلى غيره من كتب الأمم المعاصرة لنا، وعلى ما كتبه صديقنا محمد فريد وجدي الذي هو أول من أظهر هذا العلم في بلادنا المصرية، وعلى ما جاء في كتاب المذهب الروحاني، لو اطلعت على ذلك كله لرأيت عجباً عجاباً، رأيت أن أعظم الفلاسفة والحكماء في إنكلترا وفرنسا وأمريكا الذين لا يظن فيهم الغفلة قد أحضرت الأرواح على يد الوسطاء فواكه وأزهاراً وملابس، وغير ذلك من عجائب وغرائب، وإذا سئلت الأرواح عن ذلك قالت: إني أحضرته من أرضكم لا من أرض أخرى، لأن العوالم الأخرى لا تناسب عالمكم، ذلك ذاع وشاع وملأ الأصقاع، والناس في الشرق نيام، والناس أعداء ما جهلوا.

هذا ما أجملته الآن من علم العصر الحاضر وهو أقرب لما قاله علماؤنا، فالمعجزة للأنبياء، والكرامة للأولياء، والسحر للسحرة، وأما ما عند علماء أوروبا فسمه ما تشاء أن تسميه، ، لقد سئلت الأرواح عن كيفية إحضار تلك الأشياء والأغذية والملابس والأزهار التي حفظها الفلاسفة والعلماء في إنكلترا وغيرها، ودامت كما تدوم عندنا تماماً، فأجابت: إن هناك شيئاً يسمى السائل المغناطيسي الإنساني يكون كثيراً في الوسيط، فتخلطه الأرواح بالسائل المغناطيسي الذي هو في طباعها، وهذا المزيج هو الذي به تحضر تلك الفواكه والملابس، وتصنع العجائب، والأرواح بدون السائل الذي في الإنسان لا تقدر على فعل شيء من ذلك، هذا في أوروبا.

ولقد رأى بعض الضباط من الإنجليز في الهند قوماً من أهلها عباداً يصنعون العجائب ويضعون الرمل، ويطلبون من الحاضرين أن يفكروا في أي شعر وأي نثر على أي لغة، فما أسرع ما تكتب تلك العصي على الرمل بأجمل خط وأبدعه بتلك اللغة التي تصورها الجالسون وغيرهم لا يعلم.

فلما سئل الهندي عن هذا أجاب: إن لنا معابد وتعاليم تحرم علينا الترف والنعيم، ونحن نتمسك بالزهد والتقشف والإمساك عن النساء، وبهذا نستعد للاتصال بأرواح آبائنا، وتلك الأرواح تمزج السائل المغناطيسي الذي عندها بالسائل المغناطيسي الذي فينا بسبب الزهد وغيره، وبهذين السائلين يفعلون تلك الأعاجيب.

ألا تعجب كيف اتفق ما قاله علماء أوروبا حين سألوا الأرواح مع ما أجاب به عباد الهند ما أجمل العلم وما أعجب الحكمة، ومنفعة هذا في مقامنا أن نقول: إن العجائب والغرائب وخوارق العادات كما قدمنا، جعلها الله في هذا النوع الإنساني لتكون بمثابة تذكار لهم بما يكونون عليه بعد الموت من القوة الغريزية التي تكون فيهم، ولذلك ترى الناس في الشرق والغرب يفرحون وتنشرح أفئدتهم بما يسمعون من عجائب مريم وعيسى وموسى، وترى الأطفال والنساء والجهال جميعاً فرحين بذلك نشطين لسماعه، وليس ذلك في الأرض موضوعاً عبثاً، كلا، وإنما ذلك لأنه كامن في نفوسهم، سائغ في فطرهم أن القوة في عالم الأرواح، فلما أن برزت على يد الأنبياء دهشوا له وحنوا وطربوا.

فوائد المعجزات في التربية الحديثة

ولقد جاء في كتاب أميل القرن التاسع عشر الشارح للتربية التي يجب أن تكون عليها الأمم والأجيال أن أمة الإنجليز يدرسون للصغار في المدارس، ولصغار العقول من الجهلاء حكايات الجن والعفاريت والخرافات صباحاً ومساء، ويصنعون لهم الروايات كمسألة الفتاة التي طلبت من والدها ثوباً كالشمس وثوباً كالقمر، ولبست جلد الحمار، واختفت عن الأبصار، وتوارت عن الناس وغابت وأورد كثيراً من الأمثلة على ذلك وعاب أمته الفرنسية قائلاً: إنها ظنت أن تلك الخرافات باطلة، والحقيقة أنها موسعة للقوة المخيلة، فتتسع القرائح ويكبر الخيال، وليس يجوز للمعلم أن يقول لهم هذا غير حق، بل يتركهم فرحين مستبشرين، ولا يدخل عليهم الحزن والكدر بإظهار الحقائق واضحة جلية، فإن عاشوا جاهلين فقد انتفعوا وإن تعلموا العلوم الرياضية والطبيعية أزالت ما علق بالأذهان من الخرافات، ومحصت الحقائق بعد أن تكون الأذهان قد استعدت لتلقيها، ذلك ما جاء في كتاب «أميل القرن التاسع عشر» الذي ألفه عالم فرنسي ينصح أمته أن ترقى التعليم فتبتدئ بالخرافات، وتنتهي بالحقائق بالرياضيات والطبيعيات، فيكمل العقل ويتم.

العلامة جوستاف لوبون

ولقد خفيت هذه الحقائق الكاملة على العلامة جوستاف لوبون الفرنسي، الذي قد انتشرت تعاليمه في الجمهور المصري. إن الرجل ينظر بعين واحدة، ولقد وقف في الطريق فهو يكره المدنية الحديثة، ويكره المادة، ويكذب علم الأرواح، ويكذب الديانات لأنه نظر بعين واحدة، ومن قرأ كتبه أصبح في حيرة شديدة، ألم تر إلى قوله في كتابه روح الاجتماع ناقلاً عن العالم «فوكرو» أحد رجال الثورة في تقريره إذ ذاك ونقله عنه «ناين» قال: إن ما هو مشاهد في كل مكان من إقامة صلاة يوم الأحد والتردد على الكنائس، يدل على أن مجموع الفرنسيين يطلب الرجوع إلى عاداته الأولى، ولم يعد في الإمكان مقاومة هذا الميل في الأمة، لأن السواد الأعظم في حاجة إلى الدين وإلى العبادة وإلى القسيسين، ومن خطأ بعض فلاسفة العصر الحاضر، وهو خطأ وقعت فيه أنا أيضاً، القول بإمكان إيجاد تعليم عام لإزالة الأوهام الدينية، لأن في الدين سلواناً للمساكين، وأطال في ذلك.

ولقد علمت أيها الذكي أن التعليم والتربية سيلزمهما ما يوسع الخيال بحسب التعليم الحالي وأعظم مناهجه، فكان جوستاف لوبون، ومن نحا نحوه، قد نظروا بعين واحدة، فظنوا أن الغرائب التي في الديانات جاءت عبثاً، ولقد علمت أيها الذكي أنها في طبيعة الأرواح، وثانياً توسع الخيال والعلوم، والطبيعة تهذبه فيما بعد، ولذلك ترى علماء البيداجوجيا، أي فن التعليم على الوجه الأكمل، قد أوجبوا أن تكون الحكايات الخرافية لاتساع الخيال، فما بالك إذا كان ما يوسع الخيال جاء حقاً على ألسنة الأنبياء الصادقين.

نتيجة هذا المقال

إن الناس لا بد لهم من العجائب والغرائب كما رأيت في أقوال علماء أوروبا، وكما ترى في بلادنا الشرقية من الحكايات التي اخترعها الناس في الأزمان الغابرة من أعمال عنترة العبسي، وحكايات الغيلان، والشاطر محمد وأمثالها، وهذه إن أضرّت من وجه نفعت من آخر، ثم يكون علم الطبيعيات والرياضيات منظماً للعقل، وأما الجاهلون فهم على كل حال جاهلون.

والقرآن الكريم جاءت فيه تلك العجائب لا على سبيل الخرافة بل على سبيل المعجزة، وهي تؤدي الغرض من توسيع الخيال، ثم ترى فيه النظر في الأرض والسماء والعجائب الطبيعية، كما ترى في مسألة حشرة العنكبوت، وإنها لها ألف ثقب في جسمها، من كل ثقب يخرج خيط. فهذه حقيقة أشبه بالخرافات والأعاجيب، فإذا اتسع الخيال في الصغر للعجائب، وورد في الكبر منهل العلوم الحقيقية تقبلها بشوق، ووجد فيها من العجائب ما يفوق ما كان يقرؤه بلا تحقيق ولا تدقيق، فعلى هذا يكون القرآن معلماً لسائر الأمم والأجيال. جمع بين ما يوسع الخيال بالمعجزات وما يصقله من العلوم الطبيعية، وهذه هي الحقيقة الناصعة التي ألقيت في فؤادي، وشرح لها صدري، ولم أكن أنا المملي لها بل الخاطر الهاجم على الفؤاد، ولعمري ما كتبت سطراً من هذا إلاَّ والإلهام مبدؤه: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾[لقمان:٢٢]. اهـ.

اللطيفة الثانية

تفصيل الكلام في قوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ﴾ الآية

اعلم أن في الإنسان قوة عظيمة يسمونها المغناطيسية الحيوانية. يقول علماء العصر الحاضر كما رأيته في كتاب «راجايوقا» الهندي المترجم إلى اللغة الإنجليزية، وفي كتاب إنجليزي أيضاً يسمى «قواك وكيف تستعملها»: إن الإنسان متى وجه فكره لأمر توجيهاً تاماً موقناً بنجاحه، صادقاً في عزيمته، صارفاً كل همه إليه، نال ذلك الأمر لا محالة، ولهم في ذلك طرق يستعملونها وسبل يسلكونها، وفي الكتاب الثاني ما يفيد أن ساعة يجمع الإنسان فيها فكره نحو القصد الذي قصده خير من أيام يقضيها في العمل لحاجته بلا توجيه قلب، وهذا سر قوله عليه الصلاة والسلام: «إنَّما الأعمال بالنيات وإنَّما لكل امرئ ما نوى»، وسر قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[الرعد:١١]، وسر قوله صلى الله عليه وسلم عن الله تعالى: «أنا عند ظن عبدي بي»، وسر قوله صلى الله عليه وسلم: «ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة».

ولقد رأيت في الفتوحات المكية لمحيي الدين بن عربي ما يفيد هذا المعنى قائلاً ما ملخصه: «لم أر إنساناً كملت إنسانيته، وعظمت همته، وفاقت عزيمته كزكريا، فإنه لما رأى مريم وصفتها وهي سيدة النساء عفيفة، تمنى أن يكون له ولد، فدعا الله متوجهاً توجهاً تاماً حاضراً فكره فيما تخيله في مريم، فرزق بيحيى، فجاء على صفات مريم إذ قال الله فيه: ﴿وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، فانطبقت صفاته على الصفات التي تمناها مما شاهد في مريم»، فالأستاذ محيي الدين بن عربي يطابق كلامه ما ورد عن الأمم الأوروبية والهندية في العصر الحاضر، وكل ما يدور على محور هذه الآيات، فتعجب من العلم والحكمة، وزد عجباً من القرآن الذي امتلأ حكمة وعلماً في غضون القصص. وفي أثناء الحكايات عن الأمم السالفة والأجيال الفائتة، ولقد قال مؤلف كتاب «قواك وكيف تستعملها»: إن أفكار الإنسان لها أثر كلي على ظاهره، فمن أحس أنه من العلماء أو من التجار أو من العامة أو من السوقة، لبس ملابسهم، وتزيا بزيهم، وسار مسيرهم، ودرج في طريقهم.

فالفكر أبرز مكنونه على ظواهر الجسم وألبسه ثيابه، ويقولون أيضاً: إن كل فكرة نشعر بها كعز أو خذلان واستضعاف، يكون لها أثر ما في الجو المحيط بنا، وفي الأثير المالئ للكون، فتسير مسير

الكهرباء، وتطير كما يطير البرق، وتخمد القوى المساعدة، وتعطل النفوس المعاضدة. هكذا يقول ذلك المؤلف، وبضدها تتميز الأشياء، فلو أن امرأ امتلأ قلبه بالآمال، موقناً بالنجاح، أثر قلبه فيمن حوله، وإن كان لا ينطق بذلك، وشرط المؤلف أن يجتنب الطالب الشرور والجدال، وما لا فائدة فيه حتى تعتدل الروح فتؤثر في الجو الذي يحيط بها. أقول: وهذا الكلام وإن كان لا دليل عليه جدير بالتفكير فيه، فإن النتائج التي يراها من سار على الدرب تصدّق تلك المقدمات، فلا تصديق إلاّ بالتجربة.

ويقول هؤلاء: أشعر قلبك السرور دائماً، واطرد عنه كل فكر يوقع فيه غماً وحزناً، كتذكار النوائب الفائتة والمصائب الماضية، فكل فكرة محزنة يعاقب عليها المرء بما يماثلها، فكأن المصائب والرزايا تحل في القلوب التي تجد فيها مرعى خصيباً.

فأما القلب الذي ترعرعت فيه ناضرات الحدائق المزهرة، وباسقات أشجار السرو المبهجة، فذلك يجلب إليه ما كان من جنسه من المسرات، وما يليق له من السعادات، وإن ورد عليه ما يحزنه ألبسه لباس الجمال، وتوّجه بتاج البهجة، وفعل به ما فعلت النحل بما هجم عليها من الحشرات، فإنها كما تقدم قريباً تقتله وتحنطه بصمغ، كما كان يحنط قدماء المصريين موتاهم، فتكفي شر ذلك الهاجم حياً وميتاً، فهكذا ذلك القلب الجميل يكسو ما حلَّ به من المصائب، جلابيب من العلم مصنوعة من النور، منسوجة من الجمال، مخيطة بالحكمة، فلا يذكر إلاّ الجمال والبهجة، يسير في طريقه ناجحاً في عمله، وذلك جزاء الصابرين المفكرين العاملين. اهـ.

اللطيفة الثالثة: ﴿ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ﴾

اعلم أن حفظ العواطف في القلب وكتمان ما يريد الإنسان النطق به شديد على النفس، ولم ينل العلم والحكمة وقضاء المصالح إلاّ أولئك الذين يحفظون قوتهم المغناطيسية فلا يبذرون فيها، وإن أردت المزيد، فارجع إلى هذا المقال في سورة البقرة عند تفسير قوله تعالى: ﴿ حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴾[البقرة:٢٣٨]، وذلك مما نقلنا عن علماء الجمعية النفسية بأمريكا، فذكر الله هنا أن زكريا أخبره الله: أنه لا يكلم الناس ثلاثة أيام إلاّ رمزاً، ليتوفر على شكر الله عزَّ وجلَّ وانحباس النفس عن شهوات الكلام المضيعة للقوة الروحية العظيمة، وذلك من عجائب العلم.

ومما قاله علماء الجمعية النفسية المذكورة: لا تدع مجالاً لتيار الرغبة والشهوة أن يفلت من يديك، ولا تحقق تلك الرغبة لتكون قوة لك تنضم إلى أخواتها، فتكون قوى الجذب النفسي لغيرك، وما مثل الآراء والأفكار المحبوسة فينا إلاّ كمثل الحمام، إذا حفظناه جذب غيره إلينا، وإن أفلتناه من أيدينا انطلق، ولم تكن لنا فائدة به فيحظى به غيرنا، فإذا رغبت أن تدهش غيرك بأخبار عجيبة، ورأيت نفسك طامحة فاسكت. فهذه قوة تحفظها لنفسك، فإذا حققت ذلك أضفته إلى ما فيك من قوة المغناطيسية، فاكتم عن أصدقائك ما لا قيمة له من الأخبار. واعلم أن هذه القوى في نفسك كالماء الجاري في النهر، كلما سددناه وحفظناه انتفعنا به، وكلما تركناه زال عنه نفعه، والرجل الساكت الهادئ يزيد إعجاب الناس به، فهذا القول من علماء النفس وأمثاله من أقوال علماء الإسلام في فضل الصمت يدهشنا أن الآية ترمز إليه، وأن السكوت من القوى الشريفة النفسية الحافظة لقوانا، وهذا من عجائب القرآن.

اللطيفة الرابعة: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾

اعلم أن علماءنا المفسرين قال كثير منهم: إن في قول عيسى فيما تقدّم ﴿ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ أن تلك الآية هي قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ﴾ وبينوا كونها آية مما ذكرناه من أن كل دين راجع إلى العلم والعمل، فالعلم رمز له بالوحدانية، والعمل رمز له بالعبادة. كأن المسيح عليه السلام يقول: أنا لم آت لكم ببدع، فكيف تكذبون أن ما جئت به علم وعمل، وهكذا شأن الأنبياء، أما السحرة ومستخدمو الأرواح والدجالون، فهؤلاء لا يهمهم العلم ولا العمل ولا هداية الناس، وإنّما نحن معاشر الأنبياء جئنا لهداية البشر. اهـ.

أقول: اعلم أيها الذكي أني لا أريد من هذا التفسير إلاّ ارتقاء عقلك وسموّ فكرك ونبوغ قواك وشرفك، فلتعلم أن المسيح وأمه لم يذكرا في القرآن لمجرد الإيمان ولا للتاريخ وإنما هما عظة، ومثل لنا أن عيسى ومريم قد ذكرهما الله عفيفين زاهدين مبرأين من الشيطان، ومن المادة التي غمرتنا، وكان عروجهما إلى الملأ الأعلى وإلى الله ليكون ذلك القول داعياً إلى أن تفكر في نفسك أن العالم الإنساني من أصل روحي، وجهاده في الدنيا ليخرج يوماً ما من سجنها إلى فسيح الجنان، ثم عالم الملائكة والأرواح المجردة. لذلك تراه سبحانه يذكر عيسى ومريم رمزاً لذلك، وعيسى عليه السلام رفعه الله من الأرض فصار مع الملائكة، فلتجدّ في العلم والحكمة حتى تصير فوق هذه الأرض، وتعشق الخروج من سجن المادة، فإنك يوماً ما ستكون ﴿ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴾ [القمر: ٥٥] مع عالم الملائكة، فأنت إذا كنت في الدنيا بشراً بالفعل فإن فيك القوة الملكية، وإياك أن تظن أن قولي مبالغة أو مجازفة أو خروج عن أقوال علمائنا، كلا، وإن أردت البرهان فارجع إلى ما ذكره الفخر الرازي، وأيده بأقوال الإمام الغزالي في تفسير سورة النازعات، قال: إن نفس الميت تنزع إذا كان في سياق الموت، ومعنى غرقاً: نزعاً شديداً أبلغ ما يكون وأشد من إغراق النازع في القوس، ومعنى تنشط: تخرج، ثم إنها تسبح وتسبق سبقاً، إذا كانت مشتاقة للعالم الأعلى زاهدة في العالم الأدنى. فأما الجاهلة والغافلة فهي محبوسة، فإذا وصلت إلى المنتهى ظهرت لها آثار في أحوال هذا العالم فدبرته، فهي المدبرات أمراً كما تدبر الملائكة، وضرب لذلك أمثالاً كثيرة، ضربنا عن ذكرها صفحاً مشاكلة لما ظهر في علم الأرواح الحديث القائل: إن الأرواح العالية في هذه الأرض ترتقي في عوالم الجمال طبقاً عن طبق، وفي كل عالم تصل إليه يكون عدتها فيه ما كسبت من العلم والعمل إذ يصبح غريزة فيها وتكسب غيره، وهكذا حتى تصل إلى عالم الأرواح الخالي من المادة، فتكون من المدبرات، إن العلم لعجيب، ووالله ما قصر قدماؤنا الأول، ولقد ورثونا علماً أصبحنا نأخذه عن أوروبا لجهلنا بآثار آبائنا الأولين.

واعلم أيدك الله أن قول عيسى إن آية صدقي أن الديانات كلها لغرض واحد وهو العلم والعمل أشبه بما جاء في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ [النساء: ١٣١]، فلأورد لك جملاً وجيزة من كل دين عرفناه، لتكون واقفاً على حقائقها، لأنك من أمة قال الله لها: ﴿ لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة: ١٤٣]، فلتنظر في ديانات الأمم وعلومها لتعلم أن الديانات متحدة في معناها، وإن اختلفت في مبناها، وإذن تعرف سر القرآن فلم يكن الله بغافل عن السابقين ولا بمضيع للحاضرين.

(١) كتاب الفيدا:

أصل ديانة الهنود التي هي أقدم من دين البراهمة يتركب من أربعة أسفار وهي: الريجفيدا، والسامافيدا، والياجورفيدا، والآثارفافيدا وهي أسفار الهنود المقدسة، قال فيها الله القيوم بذاته والموجود في كل الكائنات الذي لا يمكن أن تصيبه الحواس المادية بل الأرواح، وهو المنزه عن هذه المادة، وهو أزلي سرمدي وهو روح الكائنات الذي لا يمكن لعقل أن يدركه على ما هو عليه. هذا من القسم العلمي.

القسم العملي: إن الصبر ومقابلة الإساءة بالإحسان والقناعة والاستقامة والطهارة وكبح جماح الحواس ومعرفة الكتب المقدسة ومعرفة الله والصدق واجتناب الغضب هي الفضائل العشرة التي تجب على الإنسان.

(٢) دين خرستا:

خرستا ظهر سنة ٤٨٠٠ قبل الميلاد، وتاريخ حياته كالمسيح، وأمه عذراء، ورفع إلى السماء، وهكذا حذو القذة بالقذة، ودينه أشبه بمن قبله، يعلم وحدة الله، ويقول: من رام بلوغ الكمال فليطلب علم الوحدة التي هي أصل الحكم ليصل إلى الله. وقال: إن في باطنتا نوراً إلهياً، والنفس التي وحدت الله تنتشل من أسر الطبيعة وذم الغضب والحسد، وقال: إن الفضائل مقوية للنفس.

(٣) دين بوذا:

قبل ظهور الدين المسيحي بنحو ٦٠٠ سنة ظهر بوذا ساكيوماني، وهو ابن ملك، ولما بلغ من العمر عشرين سنة تأمل في شعبه، ورأى البراهمة اتحدوا مع الملوك، وأذلوا الشعب الهندي بتعاليمهم، ذهب إلى الغابات فصرف فيها سنين، وعاد وله من العمر ٣٥ سنة، وأخذ يزلزل ما بناه البراهمة من الحواجز بين الشعب، فاتبعه أهل الهند وأهل الصين واليابان وخلافهم، ويتبع هذا الدين ثلث المعمورة وتعاليمه علم وعمل.

فالعلم يقول فيه: إن الشهوة هي التي تربطنا بالمادة، والشر الأعظم هو الجهل، ومنه يصدر العذاب والشقاء، والعلم يجب أن يشمل ما نرى وما لا نرى، والبحث في الإنسان واستقصاء مصادر الأشياء وأسبابها، ولا بد من الحب مصحوباً بالعلم، فتعشق النفس العلم لتخرج من هذه المادة.

أما العمل فهو يقول في وصاياه العشر: لا تقتل، لا تسرق، كن عفيفاً، لا تشهد بالزور، ولا تكذب، لا تملق، تجنب كل كلمة نجسة، كن خالي الغرض، لا تأخذ بالثأر، لا تعتقد اعتقادات باطلة، وهو يحض على قهر النفس وعلى الشفقة على سائر المخلوقات.

ومن كلامه: «أنا بوذا الذي بكيت لبكاء إخوتي وانسحق قلبي لحزنهما، أصبحت اليوم ضاحكاً مسروراً، لأن الحرية موجودة. كل ما نحن عليه نتائج فكرنا، وأحوالنا عليه مؤسسة، ولا بد للإنسان أن يعود فيحصد ما زرع؛ وأهم ما يوصي به العلم والمحبة». اهـ.

(٤) دين قدماء المصريين:

أما ظواهر الدين المصري فمشهورة بين الناس، فهي كلها أصنام وآلهة حجرية وحيوانية، ووصاياهم العامة كانت في صلواتهم، هكذا يقولون: إن النفس يوم القيامة تقف أمام ٤٢ قاضياً سماوياً وتقول: أيها الإله العظيم ورب الحق، أتيت ملتمسة لنعمتك، وإني أعرفك وأعرف اسمك، وعرفت

أسماء الاثنين والأربعين إلهاً، الجالسين معك في ديوان الحق لمعاقبة الأشرار، ثم تقول الروح: امحوا ذنوبي، فإني لم أرتكب شراً ضد قريبي، ولا أحزنت أحداً، ولا حملت العامل من الشغل فوق طاقته، لم أكسل، لم أخطئ، لم أسبب البكاء لأحد، ولا وشيت بالأسير أمام سيده، ولا قتلت ولا أسأت أحداً لم أطفف المكيال، ولم أغبن في الوزن، ولا أخرجت اللبن من فم الرضيع، ولا اقتنصت الوحوش من مرابضها، وهذه هي الصلاة التي إن صدق فيها الإنسان أمام القضاة نجا، وإن أخطأ هوى إلى العذاب.

هذا ما عند العامة، وأما حقيقة الإله عند الخاصة فهي هذه:

رؤيا هرمس

كان عند المصريين سر لا يطلع عليه إلاَّ أكابر العلماء وأصحاب السر رؤيا منقوشة بالكتابة الهروغليفية في المعابد، وكان يتناقلها الأحبار شفهياً، وهي: رأى هرمس وقت الانخطاف الكون والعوالم وانتشار الحياة في كل صقع، فسمع قائلاً في وسط النور يقول:

إن النور الذي رأيته هو نور الله الذي أشرق على كل شيء، وأما الظلمة فإنما هي العالم المادي الذي يعيش فيه الناس، وروح الإنسان إما أن تكون أسيرة في المادة، وإما أن ترقى في النور، وجميع الأوجاع والآلام والمصائب تجعلها نيرة، فتطير إلى العلا من الظلمات إلى النور. فثبت قلبك إذن يا هرمس حين ما ترى الأرواح صاعدة في معارج الأفلاك العلوية توصلاً إلى الله، ثم سبحت الأفلاك السبعة هاتفة: الحكمة، الحب، العدل، البهاء، العظمة، العلم، الجود.

ثم يقول الحبر لمن أتم امتحانه: اعلم يا بني أن ناموساً نظامياً واحداً يدبر كل شيء، لا يجوز أن تقال الحقيقة للضعفاء لئلا يستسلموا بها للشر، فلتعلم ولتصمت. اهـ. فحينئذ يكون دينهم التوحيد عند الخاصة، والإشراك عند العامة.

(٥) **دين «يو» الكبير**: قبل المسيح بألفي سنة بالصين.

(٦) **ليونسو**: سنة ٥٩٠ قبل الميلاد بالصين، وعاش ٧٣ سنة، وكان دينه كدين بوذا.

عقائد هذين النبيين وغيرهما في الصين كما نقل عن الجريدة الفرنسية المطبوعة في مدينة ليون سنة ١٨٦٥ عن الكتب المقدسة للصينيين، نشرت قبل المسيح سنة ٢٨٠٠ «تيس» هو الرب العظيم. ذو علم غير متناه، وأينما توجهت فهو حاضر، هو غير متناه، لا يحابي بل يجود بنعمه، يحب استعمال الرحمة، يعتني بالأرض، حاضر فيها دائماً، الملائكة فوقنا وتحتنا وعن أيماننا وعن أيسارنا، نريد أن نراهم فلا نقدر، لأنهم في غاية اللطافة يتراءون للأحياء نادراً، إن الأرواح تسرّ بالقلب المخلص، إن للأموات الفضلاء مكاناً في السماء.

هذه هي الديانات المنتشرة اليوم، وفي الأيام السالفة في أهم بقاع الأرض، فانظر كيف اتفقت كلها على التوحيد، ولا إشراك إلاَّ عند العامة لأنهم لا يقدرون أن يتصوروا إلهاً لا يرى، وانظر كيف يجمع علمهم كله في كلمتين: المعرفة والعمل، وكانت الديانات كلها ديناً واحداً في جوهرها، فأما الخلاف فراجع إلى الظواهر التي تكسى بها تلك الديانات، فصح حينئذ أن يكون قول المسيح: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ﴾ آية من آيات الله تعالى، لأنها ملخص الديانات، وكذلك تفهم أيضاً قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ [النساء: ١٣١]، فهذه هي

الديانات كلها، وما اليهودية والنصرانية بخارجتين عما تقدم ﴿ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ﴾[الروم:٤]، وإني لأرى كأن النوع الإنساني يتسابق إلى ربه يعرج إليه فوجاً بعد آخر، ومن لم يدرك بقي في سجن الجهالات وجهنم الذل والهوان، ﴿ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾[النور:٤٦].

تفصيل الكلام على قوله تعالى ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ﴾الخ [النساء:١٥٧] وعلى الأناجيل وعددها

لأقدم لك مقدمة في الأناجيل، لتقف على الحقيقة التاريخية لها، ثم أخص إنجيل برنابا بالنقل لأنه يوافق القرآن فأقول:

اعلم أن المسيح اختار أتباعه من ضعاف الناس وهم الصيادون في بحيرة طبرية كأنه يقول: أيها الناس إن تعاليمي لا يعوزها ذكاء خارق للعادة، وبعد موته أخذ الرسل يبشرون بتوحيد الله وبالمحبة، ويرمزون إلى طهارة النفس من الذنوب بماء المعمودية التي أخذت عن ألسونيين، فانتصب إذ ذاك بولس وهو فرنسي يعرف اللغة اليونانية، ولم ير المسيح قط، فادعى أنه أخذ الدين عنه، وصار يخاصم بطرس ويوبخه، فانقسم النصارى فريقين: فريق يتبع الرسل وفريق يتبع بولس، وذلك بعد المسيح بعشر سنين، ثم تمرد اليهود على نيرون الروماني، فأرسل لهم «نسبا سيانوس» الروماني، ثم ابنه «طيطس» يقود الجيوش، وانتهى الأمر بافتتاح أورشليم سنة ٧٠ ب. م، وخرب الهيكل وتفرق اليهود مشتتين، ومات الرسل ما عدا «يوحنا» و«فيلبس»، وانحلت الرابطة، وتفرقوا شذر مذر، واختلطت تعاليم المسيح بالفلسفة اليونانية المنتشرة إذ ذاك لا سيما بالإسكندرية، ولما كان تلاميذ المسيح لا قدرة لهم على المجادلة، تغلبت الفلسفة اليونانية على تعاليمهم. وفي أثناء هذا الاختلاط والمشاغبة نشأت الأناجيل في أواخر القرن الأول، وما الأناجيل إلاّ مجموع روايات منقولة في الأصل عن الرسل.

وقد كانت هنالك أناجيل كثيرة في القرن الأول والثاني، واختير أربعة ورفض الباقي، وقد أحصى من المنبوذ «فابرسيوس» ٣٥ إنجيلاً مثل: إنجيل مار بطرس، وإنجيل المصريين، وإنجيل حياة يسوع، وإنجيل مار توما، وإنجيل مار اندراوس، وإنجيل مار برتلماوس، وإنجيل فالشينوس، وإنجيل السيمونيين وإنجيل يهوذا، وإنجيل برنابا، وإنجيل السريان، وإنجيل العبرانيين، وإنجيل النصارى، وإنجيل نيقوديموس ولم يبق من هذه الأناجيل إلاّ أسماؤها، ما عدا إنجيل برنابا الذي ظهر في هذه الأيام، ويرجح العارفون أن اختيار الأناجيل الأربعة المنسوبة إلى: متى ومرقس ولوقا ويوحنا الذائعة بين النصارى تمت في منتصف القرن الثاني المسيحي.

وقد قال المعلم ساباتيه رئيس الدروس العليا في مدرسة السربون: لما تعذر على الكنيسة معرفة المؤلفين الحقيقيين للأناجيل اضطرت إلى القول الإنجيل حسب متى أو حسب مرقس وهكذا.

ولقد لام «شيلسوس» الفيلسوف في القرن الثاني النصارى في كتابه المدعو الخطاب الحقيقي على تلاعبهم بالأناجيل، ومحوهم في الغد ما أدرجوه بالأمس. وفي سنة ٣٨٤ م أمر البابا «داماسيوس» أن تحرر ترجمة لاتينية جديدة من العهدين القديم والحديث تعتبر قانونية في الكنائس، وكان «تيودوسيس»

الملك قد ضجر من المخاصمات الجدلية بين الأساقفة، وتمت تلك الترجمة التي تسمى «فولكانا»، وكان ذلك خاصاً بالأناجيل الأربعة متى ومرقس ولوقا ويوحنا، وقد قال مرتب تلك الأناجيل: بعد أن قابلنا عدداً من النسخ اليونانية القديمة رتبناها، بمعنى أننا نقحنا ما كان فيها مغايراً للمعنى، وأبقينا الباقي على ما كان عليه.

ثم إن هذه الترجمة قد ثبتها المجمع «التريدنتيني» سنة ١٥٤٦ أي بعدها بأحد عشر قرناً، ثم خطأها «سيستوس» الخامس سنة ١٥٩٠، وأمر بطبع نسخ جديدة، ثم خطأ «كليمنضوس» الثامن هذه النسخة الثانية أيضاً وأمر بطبعة جديدة منقحة هي الدارجة اليوم عند الكاثوليكيين.

لعمري لقد لخصت لك أيها الذكي تاريخ الأناجيل من الكتب خالصاً سائغاً للشاربين، ولقد كنت قبل الآن أود أن أكون على علم بهذه الجملة الموجزة، لأن معرفة الحقائق سعادة، فأنا اليوم أعرفها معك لتبتهج بالعلم والمعرفة معاً، ولترى أيها الذكي كيف كان هذا الإنسان مسكيناً مسخراً للتقاليد واتباع السير على ما سمعه من أساتذته وشيوخه، وهو وهم ساهون لاهون مساكين، ولعمري إن هذه شنشنة سارت عليها الأمم قديمها وحديثها ولا تستثن أحداً، كيف لا وأنت ترانا نحن المسلمين وإن لم نغير كتابنا قد غيرنا المنهج الذي يطلبه، والصراط المستقيم الذي سنه. ألم تر رعاك الله كيف حض على النظر في العالم والتعقل والتفكر، فعرف هذا ساداتنا وآباؤنا في العصور الأولى، ثم خلف من بعدهم خلف ناموا على الوضوء والنجاسة والبيع والفرائض وأغمضوا عيونهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[الرعد: ١١].

فالمدار على تغيير ما بالأنفس لا على تغيير الكتاب المقدس، كان المسيحيون قبل ظهور بولس موحدين صادقين يدعون للمحبة، فلما جاء بولس كثر الخلاف، وبعد ذلك طرد اليهود نيرون من أرضهم، فتفرقوا شذر مذر وغير الإنجيل. فأما نحن معاشر المسلمين فإن ديننا سهل، وكان القرآن في العصور الأولى يحث على التعقل، ثم انحصرت العقول وأسدل عليها حجب من الجهالة والتعصب والعمى، فداستنا الأمم وانقدنا لها كارهين ذلك، لتغيير طرق الفكر لا لتغيير الكتاب، وسيكون هذا التفسير وتعاليم أخرى تظهر على يد فضلاء من المعاصرين لنا في الإسلام سبباً في انتشال الأمة من وهدتها ورجوع وحدتها ﴿وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[النور: ٤٦]. اهـ القول في الأناجيل والاتعاظ بما حدث فيها. فلنفصل الكلام على مسألة الصلب وإنجيل برنابا.

إنجيل برنابا ومسألة الصلب

لقد قدمت لك الكلام على إنجيل برنابا في سورة البقرة عند قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾[البقرة: ٤٠] وذكرت لك هناك أن ما ذكره أسلافنا رحمهم الله نقلاً عن التوراة قد حذف منها الآن ولم يبق له رسم ولا اسم، وقلت: إن الأناجيل الأربعة هي التي بين أيدي الناس اليوم، وإنجيل برنابا يوافق القرآن، وقد فهمت من هذا المقال الآن ما حصل من نبذ جميع الأناجيل الباقية منذ القرن الثاني، ولا يعرف الناس عنها شيئاً، أفليس من العجب أن يكون هذا التفسير أكثر حظاً وأوفر سعادة بظهور إنجيل برنابا في هذه الأيام، وأنه ربما انعدم من الوجود قريباً، لأن حكومة البلاد تحت أمر الإنجليز وهم وجميع الأوروبيين لهم السلطة في أكثر بلاد الإسلام، ولقد منع نشره بين الجمهور الآن.

فلأثبت لك ما فيه الآن أيها الذكي وهو أمامي، ولتقرأه مطلعاً على ما فيه والفرصة سانحة، فأقول:

رفع المسيح إلى السماء
وصلب يهوذا وأنه شبه به ولم كان هذا العقاب

ولألخص لك ما في الفصل الثامن بعد المائتين وما بعده من الإنجيل المذكور، قال: «الحق أقول إن إبراهيم هو إسماعيل الذي يجب أن يأتي من سلالته «مسيا» الموعود به إبراهيم أن به تتبارك كل قبائل الأرض»، فلما سمع هذا رئيس الكهنة حنق وصرخ: لنرجم هذا الفاجر لأنه إسماعيليّ، وقد جدف على موسى وعلى شريعة الله. فقام الناس ليرجموه، فاختفى يسوع عن أعينهم، وتبعه المؤمنون إلى بيت سمعان، ثم ذهب هو والذين دعاهم رسلاً فقط إلى بيت «نيقوديموس» وبستانه وراء جدول قدرون، وفي ذلك الوقت كانت العذراء مريم تصلي، فأخبرها جبريل بما أصاب ابنها وبشرها بأن الله سيحميه من العالم، فانطلقت مريم باكية تطلب ابنها فلم تدر أين هو.

فتوجه رئيس الكهنة إلى «هيرودس» وإلى الوالي الروماني متهماً يسوع أنه يريد أن يجعل نفسه ملكاً على إسرائيل، وأحضر لذلك شهود زور. وقد كان الوالي الروماني يعطف على المسيح فهدّده «هيرودس» أنه يتهمه بالعصيان أمام قيصر، في ذلك الوقت قال المسيح في بيت «نيقوديموس» لقد دنت الساعة التي أنطلق فيها من هذا العالم، ثم أخذ يدعو الله، ومن دعائه: «أيها الرب الإله، اذكر قبائل الأرض كلها التي قد وعدت أن تباركها برسولك، الذي لأجله خلقت العالم، ارحم وعجل بإرسال رسولك لكي لا يسلب الشيطان عدوك مملكته»، فأجابوا كلهم: آمين، خلا يهوذا لأنه لم يؤمن بشيء. (صفحة ٣١٠).

وجاء صاحب المنزل فأخبر يسوع بكل ما أمر «هيرودس» والوالي ورئيس الكهنة، ثم قال يسوع ليهوذا: إن وقتي قد دنا فاذهب وافعل ما يجب أن تفعله. فظن التلاميذ أنه يشتري شيئاً ليوم الفصح، ثم أخذ المسيح يقبل أرجل تلاميذه، ثم قال يسوع: إن واحداً منكم سيسلمني فأباع كخروف فذهب يهوذا وأخذ من رئيس الكهنة ثلاثين قطعة من الذهب ليدل على المسيح، وقدم الجنود مع يهوذا فلما سمعهم المسيح انسحب إلى البيت خائفاً، وكان الأحد عشر نياماً، فأخذ جبريل وميخائيل ورفائيل وأوريل يسوع من العالم، فحملوه ووضعوه في السماء الثالثة في صحبة الملائكة يسبحون إلى الأبد، فدخل يهوذا بعنف إلى الغرفة التي صعد منها المسيح، فتغير يهوذا في النطق وفي الوجه فصار شبيهاً بيسوع. قال برنابا: حتى إننا اعتقدنا أنه يسوع، أما هو فبعد أن أيقظنا أخذ يفتش لينظر أين كان المعلم. لذلك تعجبنا وأجبنا أنت يا سيد هو معلمنا أنسيتنا الآن. أما هو فقال متبسماً: هل أنتم أغبياء حتى لا تعرفوا يهوذا الأسخريوطي، فدخلت الجنود وألقوا بأيديهم على يهوذا لأنه كان شبيهاً بيسوع من كل وجه. قال برنابا: أما نحن فلما سمعنا قول يهوذا ورأينا جمهور الجنود هربنا كالمجانين، ثم قال: فأخذ الجنود يهوذا وأوثقوه ساخرين منه لأنه أنكر وهو صادق أنه يسوع، فقال الجنود مستهزئين به: يا سيدي لا تخف لأننا قد أتينا لنجعلك ملكاً على إسرائيل وإنما أوثقناك لأننا نعلم أنك ترفض المملكة. فأجاب يهوذا: لعلكم جننتم إنكم أتيتم بسلاح ومصابيح لتأخذوا يسوع الناصري كأنه لص، أفتوثقونني أنا الذي أرشدكم لتجعلوني ملكاً، فأخذوا يضربونه ويرفسونه وقادوه إلى أورشليم، ثم إن يوحنا وبطرس

تبعا الجنود، وشاهدا الجموع الذين اجتمعوا لقتل المسيح، فتكلم يهوذا كلمات جنون كثيرة، والناس يضحكون من قوله معتقدين أنه هو يسوع، وأنه يتظاهر بالجنون خوفاً من الموت، ولذلك عصب الكتبة عينيه بعصابة وقالوا له مستهزئين: قل لنا من ضربك، ولطموه وبصقوا في وجهه، وطلب رئيس الكهنة ومن معه شاهد زور على يهوذا معتقدين أنه يسوع، فلم يجدوا مطلبهم. قال برنابا: ولماذا أقول إن رؤساء الكهنة اعتقدوا أن يهوذا يسوع، بل إن التلاميذ كلهم مع الذي يكتب اعتقدوا ذلك، حتى إن حزن كل واحد كان يفوق التصديق، لعمر الله إن الذي يكتب نسي كل ما قاله يسوع من أنه يرفع من العالم، وأن شخصاً آخر سيعذب باسمه، وأنه لا يموت إلى وشك نهاية العالم، لذلك ذهب الذي يكتب مع أم يسوع ومع يوحنا إلى الصليب. فأمر رئيس الكهنة أن يؤتى بيسوع موثقاً أمامه وسأله عن تلاميذه، فكان جميع قوله يدور حول هذه الكلمة: «أنا يهوذا لا يسوع»، فأخذوا يضربونه ويرفسونه ثم ألبسوه لباس مشعوذ وأخذوا يعذبونه، ثم قادوه إلى الوالي الذي كان يحب يسوع سراً، ولما سأله أفهمه: إني لست يسوع، بل أنا يهوذا ولست بيسوع الساحر الذي حوّلني هكذا بسحره، فهمّ الوالي أن يطلقه وقال: إن لم يكن المسيح فلا حق لنا في قتله، وإن كان هو المسيح فقد جنّ ولا حق لنا في قتل المجنون. فقال القوم: إنه يسوع ولكنه خبيث، فأراد بيلاطيس وهو اسم الوالي أن يتخلص من هذه الدعوى، وقال: خذوه إلى هيرودوس، فلما حضر إليه سأله فأنكر أنه يسوع أيضاً، ثم رده محقراً إلى بيلاطيس قائلاً: لا تقصر في إعطاء العدل بيت إسرائيل، وذلك بسبب أن رؤساء الكهنة أعطوا هيرودوس مبلغاً كبيراً من النقود، ولما صار عند الوالي ألبسه الجند ثوباً قديماً من الأرجوان تهكماً قائلين: يليق بملكنا الجديد أن يلبس حلة ويتوّج، فجمعوا شوكاً وصنعوا إكليلاً شبيهاً بإكليل الذهب والحجارة الكريمة التي يضعها الملوك على رؤوسهم ووضعوه فوق رأس يهوذا، ووضعوا في يده قصبة كصولجان، وأجلسوه في مكان عال، ومرّ من أمامه الجنود حانين رؤوسهم تهكماً مؤدين له السلام كأنه ملك اليهود، وبسطوا أيديهم لينالوا الهبات التي اعتاد إعطاءها الملوك الجدد، فلما لم ينالوا شيئاً ضربوا يهوذا، ثم أعطوا الوالي أيضاً نقوداً فتناولها، وأسلم يهوذا للكتبة والقديسين كأنه مجرم، وصلبوه في جبل الجمجمة عرياناً مبالغة في تحقيره، وصرخ يهوذا قائلاً: يا الله لم تركتني فإن المجرم قد نجا، أما أنا فأموت ظلماً. قال برنابا: ولقد اعتقد التلاميذ اعتقاداً جازماً أن يهوذا هو يسوع، ولذلك ارتد كثير منهم عن دينه. أما الذين ثبتوا على دينه فهم كانوا في حزن شديد لما رأوا أنه هو المصلوب، وطلبوا جسده من الوالي ودفنوه في القبر الجديد بعد أن ضمخوه بمائة رطل من الطيوب، ورجع كل إلى بيته، ومضى الذي يكتب ويوحنا ويعقوب وأخوه مع أم يسوع إلى الناصرة، وذهب من التلاميذ من لم يخف الله، وسرقوا جثة يهوذا وخبؤوها، وأشاعوا أن يسوع قام فحصل اضطراب.

فعادت العذراء إلى أورشليم ومعها الذي يكتب ويعقوب ويوحنا، ثم صعد الملائكة فأخبروا يسوع في السماء الثالثة مع الملائكة، وقصوا عليه كل شيء، فسأل يسوع ربه أن يأذن له أن يرجع إلى أمه لتراه، فأذن له أن ينزل مع الملائكة الأربعة، فجاء محفوفاً بالسناء إلى أمه العذراء مع أختيها ومع الذي يكتب، يعني برنابا ويوحنا ويعقوب وبطرس، فخروا من إلهام كأنهم أموات، فأنهض يسوع أمه والآخرين من الأرض قائلاً: لا تخافوا لأني أنا يسوع ولا تبكوا فإني حي لا ميت، فلبثوا جميعاً

كالمخبولين، فقالت العذراء باكية: قل لي يا بني، لماذا سمح الله بموتك ملحقاً العار بأقربائك وأخلائك، وملحقاً العار بتعليمك، وقد أعطاك قوة على إحياء الموتى، الخ. أجاب يسوع: صدقيني يا أماه لأني أقول الحق، إني لم أمت قط، لأن الله قد حفظني إلى قرب انقضاء العالم، ثم ظهر الملائكة كأربعة شموس، وقصوا على العذراء كيف جعل الله يهوذا في صورة يسوع ليعذَّب جزاء وفاقاً.

حينئذ قال برنابا: يا معلم أيجوز لي أن أسألك الآن كما يجوز عندما كنت مقيماً معنا؟ أجاب يسوع: سل ما شئت يا برنابا أجبك. فقال برنابا: إذا كان الله رحيماً، فلماذا عذبنا بهذا المقدار بما جعلنا نعتقد أنك كنت ميتاً، ولقد بكتك أمك حتى أشرفت على الموت، وسمح الله أن يقع عليك عار القتل بين اللصوص على جبل الجمجمة، وأنت قدوس الله؟ أجاب يسوع: صدّقني يا برنابا، إن الله يعاقب على كل خطيئة مهما كانت طفيفة عقاباً عظيماً، لأن الله يغضب من الخطيئة، فلذلك كانت أمي وتلاميذي الأمناء الذين كانوا معي أحبوني قليلاً حباً عالمياً أراد الله البر أن يعاقب على هذا الحب بالحزن الحاضر، حتى لا يعاقب عليه بلهب الجحيم، فلما كان الناس قد دعوني الله وابن الله على أني كنت بريئاً في العالم، أراد الله أن يهزأ الناس بي في هذا العالم بموت يهوذا، معتقدين أنني أنا الذي مت على الصليب، لكيلا تهزأ الشياطين بي في يوم الدينونة، وسيبقى هذا إلى أن يأتي محمد رسول الله الذي متى جاء كشف هذا الخداع للذين يؤمنون بشريعة الله، ثم قال يسوع: إنك لعادل أيها الرب، إلهنا لأن لك وحدك الإكرام والمجد بدون نهاية، ثم أوصى يسوع برنابا، وأمره أن يكتب الإنجيل ويظهر انخداع المؤمنين بمسألة يهوذا، ثم ذهبوا جميعاً إلى جبل الزيتون، وعانق أمه على محضر من تلاميذه، وقال: السلام عليك يا أمي، توكلي على الله الذي خلقك وخلقني، ثم التفت إلى تلاميذه وقال: نعمة الله ورحمته معكم، ثم حملته الملائكة الأربعة أمام أعينهم إلى السماء.

وبعد ذلك بشر بعض الناس بأن يسوع مات ولم يقم، وآخرون بشروا بأنه مات بالحقيقة ثم قام، وآخرون بشروا ولا يزالون يبشرون بان يسوع هو ابن الله، وقد خدع في عدادهم بولس، وأما نحن فإنما نبشر بما كتبه الذين يخافون الله ليخلصوا في اليوم الأخير لدينونة الله. آمين. انتهى الإنجيل.

هذا ملخص ما في إنجيل برنابا من صفحة ٣٠٤ إلى ٣٢٥ من الفصل الثامن بعد المائتين إلى الفصل الثاني والعشرين بعد المائتين وهو آخر الكتاب.

وانظر أيها الذكي كيف وافق هذا الإنجيل القرآن موافقة صريحة عجيبة إذ يقول هنا: ﴿وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، ويقول في سورة النساء بعد هذه السورة: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾[الآية:١٥٧-١٥٨].

أفليس هذا هو نفسه عين ما قاله برنابا في الإنجيل، وأن المسيح أمره أن يعلن هذا الخ، ولولا ما ذكر العلماء المسيحيون من أن هذا الإنجيل لم يعرف عند المسلمين قط ولم يسمعوه، لظن العقلاء أنه تأليف إسلامي، فكيف وقد تقدم في سورة البقرة تاريخ الكتاب وكيفية ظهوره، فارجع إليه إن أردت الاستيعاب والصواب، ثم تعجب من العلم والحكمة، وانظر فيما ذكرت في هذا المقال أن الأناجيل الأربعة اختاروها في القرن الثاني المسيحي، ونبذوا ما سواها من الأناجيل، والمنبوذ ٣٢ ومنها إنجيل

برنابا الذي نحن بصدده، فلم يكن يعلمه الناس في زمن بعثة نبينا صلى الله عليه وسلم، وانظر كيف جاء القرآن بما يطابقه، ولا علم لأحد بما فيه إلاّ في هذه الأيام، ﴿ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[البقرة:٢١٣] . اهـ.

(١) المذاهب المسيحية قديماً وحديثاً ومذاهب أوروبا وذكر دولها واستقلالهم وتنصرهم

اعلم أن المذاهب في الدين المسيحي ثلاثة في الزمان القديم: (١) الملكانية. (٢) والنسطورية. (٣) واليعقوبية؛ فالأولون يقولون بالتثليث المسيح وأمه والله، ويقولون: إن المسيح ناسوت قديم، ومريم ولدت إلهاً أزلياً، والأب هو الله، وعيسى ابن الله بنوة حقيقية، والنسطورية يقولون بالامتزاج، فالكلمة عندهم أشرقت على جسد عيسى كإشراق الشمس على بلور، وأما اليعقوبية فيقولون: انقلبت الكلمة لحماً ودماً، فصار الإله هو المسيح، ولما تمادى الزمان وانقرضت الأجيال الأولى لم يبق إلاّ المذهب الأول وهو الملكانية، وأصحابه هم الكاثوليكية، وهي صفة مدح كأهل السنة عند المسلمين وأما النسطورية واليعقوبية فلم يبق منهم أحد الآن في بلاد الإفرنج، وربما يوجد منهم في نصارى الشام ومصر والحبشة ورئيس الكاثوليكية والبابا برومة، وهو كالقطب عند المسلمين، وقد صار البابا سنة مائة وثمانية هجرية رئيساً سياسياً، وأصبحت ملوك أوروبا تحت أمر الباباوات بعد أمد طويل، ولما ظلموا الملوك انحطوا في رياستهم إلى سنة ١٢٨٨ هـ أي سنة ١٨٧١ ميلادية، فسقط أمرهم بالكلية، ودخل الإيطاليون عاصمة البابا، ثم إنهم في القرن التاسع الهجري لما تذمروا من البابا وانشقت طائفة فلم يعترفوا برياسته سموهم «بروتستانت» أي مبتدعة، كالمعتزلة عند المسلمين، وهناك فرقة تسمى «أرثوذكس» ببلاد الروسيا فلا يعترفون بالبابا، وإن كانوا يوافقون الكاثوليك في كل ما هم عليه.

وهاك دول أوروبا ودينها القديم، وزمن استقلالها، وحالها قبل الاستقلال، وزمن دخولها النصرانية:

الدولة	أصل دينها	أول زمن استقلالها	حالها قبل الاستقلال	دخولها النصرانية
فرنسا	تشبه ديانات اليهود	٤٢٠ ميلادية	تحت ملوك اليونان فالرومان	٤٩٦ ميلادية
الإنكليز	يسجدون للحجارة والماء والصخر	٨٢٧ ميلادية	كانت تتناوبهم دول من أوروبا	٤٩٦ ميلادية
النمسا	يعبدون الأوثان	٩٨٢ ميلادية	كانت تتناوبهم دول من أوروبا	نحو السابقين أعلاه
البروسية	يعبدون الأوثان	١٣١٥ ميلادية	كانت تتناوبهم دول من أوروبا	نحو ما تقدم أعلاه
الدولة الروسية	يعبدون الأوثان	٨٩٢ ميلادية	كانت تتناوبهم دول من أوروبا	٣٧٥ هجرية
دولة إسبانيا	يعبدون الأوثان	٩٠٠ هجرية تقريباً	اليونان فالرومان وبعض ملوك أوروبا فالإسلام	كدول أوروبا غير الروسيا
البرتغال	يعبدون الأوثان	١٠٥٠ هجرية	للرومان ولمن بعدهم	كدول أوروبا غير الروسيا

ومثل من تقدم الفلمنك والدانيمارك والسويد والنورويج، وأما البلجيك وسويسرا فدخولهما النصرانية كما تقدم، وبقية أحوالهما مقاربة لدول أوروبا السابقين.

القسم السادس من سورة آل عمران

المحاورة المرتبة على قصة مريم وعيسى كمحاجة النصارى في عيسى، وإقامة الحجة على أهل الكتاب، وتكرار النداء لهم ست مرات بقوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَـٰبِ ﴾ من قوله تعالى: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ ﴾[آل عمران:٥٩] إلى قوله تعالى: ﴿ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴾ [آل عمران:٩٩]، وهذا القسم أربعة فصول:

الفصل الأول محاجة النصارى في عيسى إلى قوله تعالى: ﴿ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ﴾[الآية:٥٩].

الفصل الثاني في إقامة الحجة في أمر إبراهيم وذكر سيئات أهل الكتاب وتقريعهم إلى قوله تعالى: ﴿ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴾[الآية:٧٥].

الفصل الثالث في آداب الرسل، وأنهم يدعون إلى الحرية، وليسوا هم ولا الملائكة معبودين إلى قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَـٰسِرِينَ ﴾[الآية:٨٥].

الفصل الرابع في تقريع أهل الكتاب وتذكيرهم بإبراهيم ودعوتهم إلى اتباعه.

الفصل الأول

﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٖ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنۡ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ فَقُلۡ تَعَالَوۡاْ نَدۡعُ أَبۡنَآءَنَا وَأَبۡنَآءَكُمۡ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمۡ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمۡ ثُمَّ نَبۡتَهِلۡ فَنَجۡعَل لَّعۡنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَـٰذِبِينَ ﴿٦١﴾ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلۡقَصَصُ ٱلۡحَقُّۚ وَمَا مِنۡ إِلَـٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٦٣﴾ قُلۡ يَـٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَـٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾

قال ابن عباس رضي الله عنهما: إن رهطاً من أهل نجران قدموا على النبي صلى الله عليه وسلم وكان فيهم السيد والعاقب، فقالوا للنبي صلى الله عليه وسلم: ما شأنك تذكر صاحبنا؟ فقال: من هو؟ قالوا: عيسى تزعم أنه عبد الله، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: أجل إنه عبد الله، فقالوا له: هل رأيت له مثلاً وأنبئت به، ثم خرجوا من عنده، فجاء جبريل عليه السلام فقال له: قل لهم إذا أتوك ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ ﴾ شأنه الغريب ﴿ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ ﴾ كشأن آدم، ثم أخذ يبين وجه الشبه وهو أنه خلق جسمه من تراب فلا أب ولا أم له، فهو أغرب من عيسى المخلوق بلا أب إفحاماً للخصم، فهذا قوله: ﴿ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٖ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن ﴾ بشراً ﴿ فَيَكُونُ ﴾ فكان، فقوله: ﴿ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٖ ﴾ راجع لجسمه، وقوله: ﴿ كُن فَيَكُونُ ﴾ راجع لروحه، وهكذا عيسى قال له: ﴿ كُن ﴾ فكان بلا أب. الذي أخبرتك به من تمثيل عيسى بآدم هو ﴿ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ﴾ الشاكين، خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم

لزيادة الثبات ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ﴾ من النصارى ﴿فِيهِ﴾ في عيسى ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟﴾ هلموا ﴿نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ﴾ أي يدع كل منا ومنكم خاصته وأهل بيته وأصفياءه من ولد وامرأة ونفس، وقدم هؤلاء الأبناء والنساء مع أن الإنسان يدافع عنهم بنفسه لشدة اليقين لأن من يفديهم بنفسه قدّمهم في ذكر المباهلة، دلالة على صدق النبوة ﴿ثُمَّ نَبْتَهِلْ﴾ نتضرع في الدعاء ونلتعن بأن نلعن الكاذب منا، ثم بينه بالعطف فقال: ﴿فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾ في أمر عيسى.

قال محمد بن إسحاق في سبب نزول هذه الآية والآيات قبلها من أول السورة: قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم وفد نجران ستون راكباً، فيهم أربعة عشر رجلاً من أشرافهم وثلاثة منهم كانوا أكابر القوم، أحدهم أميرهم واسمه عبد المسيح، والثاني مشيرهم وذو رأيهم، وكانوا يقولون له السيد واسمه الأيهم، والثالث حبرهم وأسقفهم وصاحب مدارسهم يقال له أبو حارثة بن علقمة أحد بني بكر بن وائل، وملوك الروم كانوا شرّفوه وموّلوه وأكرموه لما بلغهم عنه من علمه واجتهاده في دينهم، فلما قدموا من نجران ركب أبو حارثة بغلته، وكان إلى جنبه أخوه كرز بن علقمة، فبينا بغلة أبي حارثة تسير إذ عثرت، فقال كرز أخوه: تعس الأبعد، يريد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال أبو حارثة: بل تعست أمك، فقال: ولم يا أخي؟ فقال: إنه والله النبي الذي كنا ننتظره، فقال له أخوه كرز: فما يمنعك منه وأنت تعلم هذا؟ قال: لأن الملوك أعطونا أموالاً كثيرة وأكرمونا، فلو آمنا بمحمد صلى الله عليه وسلم لأخذوا منا كل هذه الأشياء، فوقع ذلك في قلب أخيه كرز، وكان يضمره إلى أن أسلم فكان يحدّث بذلك، ثم تكلم أولئك الثلاثة: الأمير والسيد والحبر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على اختلاف من أديانهم، فتارة يقولون: عيسى هو الله، وتارة يقولون: هو ابن الله، وتارة يقولون: ثالث ثلاثة، ويحتجون لقولهم: هو الله، بأنه كان يحيي الموتى، ويبرئ الأكمه والأبرص، ويبرئ الأسقام، ويخبر بالغيوب، ويخلق من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه فيطير، ويحتجون في قولهم: إنه ولد الله، بأنه لم يكن له أب يعلم، ويحتجون على قولهم: ثالث ثلاثة، بقول الله تعالى: فعلنا وجعلنا، ولو كان واحداً لقال فعلت، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أسلموا، فقالوا: قد أسلمنا، فقال صلى الله عليه وسلم: كذبتم، كيف يصح إسلامكم وأنتم تثبتون لله ولداً؟ وتعبدون الصليب، وتأكلون الخنزير. قالوا: فمن أبوه؟ فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأنزل الله تعالى ذلك في أول سورة آل عمران إلى بضع وثمانين آية منها، ثم أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم يناظر معهم، فقال: ألستم تعلمون أن الله حي لا يموت، وأن عيسى يأتي عليه الفناء؟ قالوا: بلى. قال: ألستم تعلمون أن ربنا قيم على كل شيء يكلؤه ويحفظه ويرزقه، فهل يملك عيسى شيئاً من ذلك؟ قالوا: لا، قال: ألستم تعلمون أن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، فهل يعلم عيسى شيئاً من ذلك إلاّ ما علم؟ قالوا: لا، قال: فإن ربنا صوّر عيسى في الرحم كيف شاء، فهل تعلمون ذلك؟ قالوا: بلى، قال: ألستم تعلمون أن ربنا لا يأكل الطعام ولا يشرب الشراب ولا يحدث الحدث، وتعلمون أن عيسى حملته امرأة كحمل المرأة، ووضعته كما تضع المرأة، وغذي كما يغذى الصبي، ثم كان يطعم الطعام ويشرب الشراب ويحدث الحدث؟ قالوا: بلى، فقال صلى الله عليه وسلم: فكيف يكون كما

زعمتم؟فعرفوا ثم أبوا إلاّ جحوداً، ثم قالوا: يا محمد ألست تزعم أنه كلمة الله وروح منه؟ قال: بلى، قالوا: فحسبنا، فأنزل الله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ﴾[آل عمران:٧] الآية، ثم إن الله تعالى أمر محمداً صلى الله عليه وسلم بملاعنتهم إذ ردوا عليه ذلك، فدعاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الملاعنة.

روي أنهم لما دعوا إلى المباهلة قالوا حتى ننظر، فلما تخالوا قالوا لصاحب الرأي فيهم: ما ترى؟ فقال: والله لقد عرفتم نبوته، ولقد جاءكم بالفصل في أمر صاحبكم، والله ما باهل قوم نبياً إلاّ هلكوا، فإذا أبيتم إلاّ إلف دينكم، فوادعوا الرجل وانصرفوا، فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد غدا محتضناً الحسين آخذاً بيد الحسن، وفاطمة تمشي خلفه، وعلي رضي الله عنه خلفها، وهو يقول: «إذا أنا دعوت فأمنوا، فقال أسقفهم: يا معشر النصارى، إني لأرى وجوهاً لو سألوا الله تعالى أن يزيل جبلاً من مكانه لأزاله، فلا تباهلوا فتهلكوا»، فأذعنوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وبذلوا له الجزية ألفي حلة حمراء وثلاثين درعاً من حديد، فقال صلى الله عليه وسلم: «والذي نفسي بيده، لو تباهلوا لمسخوا قردة وخنازير، ولاضطرم الوادي عليهم ناراً، ولاستأصل الله نجران وأهله». وهذا من دلائل النبوة، ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ وليس ثالث ثلاثة ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ لا أحد يساويه في القدرة التامة، والحكمة البالغة، فإذن ليس له شريك. ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ أعرضوا ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ﴾ أي عليم بهم فيجازيهم، فوضع الظاهر موضع الضمير ليدل على أن التولي عن الحجة والإعراض عنها فساد للدين.

ولما قدم وفد نجران المدينة واجتمعوا باليهود اختصموا في إبراهيم، فكلّ يدّعي أنه على دينه، فقال صلى الله عليه وسلم: «كلاهما بريء من إبراهيم بل كان حنيفاً مسلماً، وأنا على دينه فاتبعوا دينه الإسلام». فقالت اليهود: ما تريد إلاّ أن نتخذك رباً كما اتخذت النصارى عيسى رباً. وقالت النصارى: يا محمد ما تريد إلاّ أن نقول فيك ما قالت اليهود في عزير، فأنزل الله: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ من اليهود والنصارى ﴿تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ﴾ أي عدل لا يختلف فيها التوراة والإنجيل، ثم فسرها فقال: ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ أي نوحده بالعبادة ونخلص فيها ﴿وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ ولا نجعل له شريكاً في استحقاق العبادة ﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ ولا نقول عزير ابن الله، ولا المسيح ابن الله، ولا نطيع الأحبار والرهبان فيما أحدثوا من التحريم والتحليل، لأن كلاً منهم بشر مثلنا. روي أنها لما نزلت ﴿ٱتَّخَذُوٓا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾[التوبة:٣١] قال عدي بن حاتم: ما كنا نعبدهم يا رسول الله، قال: أليس كانوا يحلون لكم ويحرمون فتأخذون بقولهم؟ قال: نعم، قال: هو ذاك ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ عن التوحيد ﴿فَقُولُوا ٱشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ مخلصون بالتوحيد لله والعبادة له، وقد لزمتكم الحجة، فاعترفوا بأنا مسلمون وأنكم كافرين بما نطقت به الكتب السماوية.

لطيفة

انظر إلى هذا الترتيب: (١) ذكر عيسى وقصته وأحواله. (٢) ثم أتى بالحجة الدامغة على أنه ليس إلهاً. (٣) ثم دعاهم للمباهلة. (٤) ولما لم يجد قال اتبعوا إبراهيم الذي أجمعت عليه الديانات الثلاث. (٥) ثم لما لم يجد أعرض عنهم وقال اشهدوا بأنا مسلمون.

الفصل الثاني

﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾ وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ ۞ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾

لما ادعى كل من النصارى واليهود أن إبراهيم على دينهم كما تقدم، قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ ﴾ على موسى ﴿ وَٱلْإِنجِيلُ ﴾ على عيسى ﴿ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ هذه المسألة التاريخية المشهورة، وكيف يكون إبراهيم على دين موسى وقد أنزلت التوراة عليه بعد إبراهيم بمدة ٥٧٥، وبين موسى وعيسى ١٦٣٢، ويقال: إن المدة الأولى ٥٦٥، والثانية ١٩٢٠، فتكون المدة بين إبراهيم وعيسى إما ٢٢٠٧، وإما ٢٤٨٥، ثم أخذ يقرعهم فقال: عجباً لكم، وأي عجب ﴿ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ﴾ بما تدعون أنكم وجدتموه في التوراة والإنجيل مكابرين معاندين، فكيف ساغ لكم المحاجة والمجادلة فيما لا علم لكم به مما لم يذكر في كتابكم، ولا يقبله العقل ولا يساعده النقل ﴿ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ﴾ أمر إبراهيم الذي حاججتم فيه ﴿ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾. أفلا يستنتج من ذلك أنه ﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا ﴾ مائلاً عن

العقائد الزائغة ﴿ مُسْلِمًا ﴾ منقاداً لله، وليس المعنى أنه على دين الإسلام وملة محمد صلى الله عليه وسلم، ولو كان كذلك لقيل إن الإسلام بعد التوراة والإنجيل، فكيف كان إبراهيم على دين محمد صلى الله عليه وسلم ولم ينزل القرآن إلا من بعده بنحو ثلاثة آلاف سنة ﴿ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ معرّضاً بأن النصارى واليهود مشركون، أي لم يكن منكم أيها المشركون ﴿ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ ﴾ أي أخصهم به، من ولي إذا قرب ﴿ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ ﴾ من أمته ﴿ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ به لموافقة شريعتهم غالباً ﴿ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ينصرهم ويجازيهم بإيمانهم. ولما دعا اليهود حذيفة وعماراً ومعاذاً إلى اليهودية نزل ﴿ وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ ﴾ بمعنى أن ﴿ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ أنهم قد أضلوا أنفسهم برسوخ العوائد المذمومة وثباتها فيهم بالمران على الإضلال، فإن للعمل أثراً في النفس دائماً ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ وهي ما جاء في التوراة والإنجيل الدالات على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴾ أنها آيات الله ويصح أن يقال: لم تكفرون بالقرآن، وأنتم تشهدون بعث محمد في كتابيكما ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ ﴾ تخلطون الحق الوارد في الكتاب المقدس الدال على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم بالباطل، وهو تحريف القول وتبديله، فيقع الشك في نفوس أتباعكم ﴿ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ ﴾ نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ بما تكتمونه.

ولما قال كعب بن الأشرف ومالك ابن الصيف لأصحابهما لما حولت القبلة آمنوا بما أنزل عليهم من الصلاة إلى الكعبة، وصلوا إليها أول النهار، ثم صلوا إلى الصخرة آخره، فإن المسلمين إذا سمعوا ذلك قالوا: هم أعلم منا وقد رجعوا فيرجعون، وقيل: إن اثني عشر من أحبار اليهود قالوا: ندخل الإسلام أول النهار، ونقول في آخره: نظرنا في كتابنا وشاورنا علماءنا فلم نجد محمداً بالنعت الذي ورد في التوراة، لما قيل ذلك نزل: ﴿ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾، وقالت تلك الطائفة أيضاً: ولا تصدقوا أن يعطى أحد مثل ما أعطيتم من العلم والحكمة والكتاب والعجائب، كفلق البحر لموسى وقلب العصا حية، أو يحاجوكم ويجادلوكم عند ربكم، كلا لا تصدقوا ذلك إلا لمن تبع دينكم من شعب الله الذين اصطفاهم على العالمين وهم بنو إسرائيل، فإذا جاء نبي فهو منهم وإلا فلا، فقال الله حاكياً: ﴿ وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ ﴾، وجملة: ﴿ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ ﴾ معترضة.

يقول الله تعالى: إن الهدى من عند الله فله أن يجعل النبوة في العرب كما كانت في بني إسرائيل وزاده إيضاحاً فقال: ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ ﴾ ذو سعة يتفضل على من يشاء ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بمن يستحق الفضل، وكأنه يقول: إن فضلي وإن كان واسعاً يصحبه علم وحكمة، فلا أعطي إلا حيث يحسن العطاء، ولا أمنع إلا حيث يحسن المنع، فلذلك ﴿ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾ على حسب الاستعداد ﴿ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ فهنا ذكر أنه واسع، وأنه عليم، وأنه ذو فضل عظيم، وأظهر هذه المواطن عند أكثر الناس ما ذكرته سابقاً عند قوله تعالى: ﴿ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾[آل عمران:٢٧] فإن الفضل هناك في المحسوسات، فهي أبين عند جميع الناس.

وأما النبوة والرسالة فالفضل فيهما لا يفهمه حق فهمه إلاّ أولو الألباب . ولقد استودع قرشي عبد الله بن سلام ألفاً ومائتي أوقية ذهباً فأداها إليه ، وفنحاص بن عازوراء استودعه قرشي آخر ديناراً فجحده ، ولقد جرت عادة النصارى أن يكونوا في الغالب مأمونين ، أما اليهود فإنهم غالباً خائنون ، لذلك نزل قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ سَبِيلٌ ﴾ أي إلاّ مدة دوامك قائماً على رأسه تطالبه مبالغاً في ذلك ، لأن اليهود يعتقدون أنهم لا يعاقبون على من ليس من دينهم ﴿ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ أنهم كاذبون في دعواهم أن من ليس على دينهم لا حرمة له ، والله عزّ وجلّ رب العالمين لا رب اليهود وحدهم ، وليست رحمته قاصرة على أحد من خلقه ، بل هي عامة ﴿ بَلَىٰ ﴾ إثبات لما نفوه بل عليهم سبيل ﴿ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ من أوفى بعهده فأدى الأمانة واتقى الكفر والخيانة ونقض العهد ، فإن الله يحب المتقين المؤدين الواجبات ، المجتنبين المنهيات .

ولقد كتب علماء اليهود في التوراة بأيديهم ما تقدم من أنهم ليس عليهم في الأميين سبيل ، وأنهم لا يطالبون بحق إلاّ إذا كان ليهودي ، وحلفوا على ذلك ، لذلك قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ ﴾ يستبدلون ﴿ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ متاع الدنيا ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ ﴾ لا نصيب ﴿ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ ﴾ كلاماً يسرهم وذلك لغضبه عليهم ﴿ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ استهانة بهم ﴿ وَلَا يُزَكِّيهِمْ ﴾ ولا يثني عليهم بالجميل ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ على فعلهم ، وهذه الآية النازلة في اليهود ليست خاصة بهم ، بل تشمل كل عهد وميثاق أوجبه الإنسان على نفسه ، فكل ذلك من عهد الله الذي يجب الوفاء به ، والمراد بالأيمان الكاذبة في أي عقد من العقود أو عمل من الأعمال ، أو رأي من الآراء . وفي الحديث : «من حلف على مال امرئ مسلم بغير حقه لقي الله وهو عليه غضبان» ، وفيه أيضاً : «أن رجلاً أقام سلعة وهو في السوق ، فحلف بالله لقد أعطي بها ما لم يعط ليوقع فيها رجلاً من المسلمين» فنزلت الآية .

وفي هذا المقام روايات كثيرة في البخاري ومسلم لا تخرج عن هذا المعنى فلا نطيل بها . وقد عرفت الحقيقة أن الآية شاملة لكل عهد ولكل يمين فاجرة في علم أو عمل فافهم هديت . فعلى العلماء في أقطار الإسلام أن يمنعوا المسلمين جميعاً من الحلف ، لأن ذلك أصبح مرضاً ، ويظهر أن الغضب الذي حلّ بديار الإسلام ناجم من جهلهم بعظمته تعالى ، فيحلفون على النقير والقطمير صدقاً وكذباً ، والمسيحيون ينزهون لسانهم عن الحلف ، فواعجبا كل العجب من جهلة المسلمين .

إن كعب بن الأشرف ومالك بن الصيف وحيي بن أخطب وأبا ياسر وغيرهم ، كانوا يعمدون إلى اللفظة في التوراة المكتوبة باللغة العبرية فيحرّفونها بتبديل حركات الإعراب فيتغير المعنى تبعاً له ، وذلك في صفات النبي صلى الله عليه وسلم وغيرها ، لذلك قال تعالى : ﴿ وَإِنَّ مِنْهُمْ ﴾ أي اليهود ﴿ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ ﴾ التوراة ﴿ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ وإنما هو المحرف الذي غيروا معناه إلى ما أرادوا ﴿ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ بل من عند أنفسهم ﴿ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ أنهم كاذبون .

الفصل الثالث

﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾ أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾

ملخص هذا الفصل

ما يجب على الأنبياء في إرشاد الخلق، وهو:

أولاً: أن لا يأمروا الناس بعبادتهم ولا بعبادة الملائكة، وإنما يأمرونهم أن يكونوا معلمين الخير لغيرهم وأمراء وملوكاً عادلين على سنن أنبيائهم.

وثانياً: على كل نبي وأتباعه أنهم إذا سمعوا أن الله عزّ وجلّ أرسل رسولاً مصدقاً لكتابهم أن يؤمنوا به وينصروه.

ثالثاً: أمر النبي صلى الله عليه وسلم أمته أن يكونوا مؤمنين بما أنزل على سائر الأنبياء لا يفرّقون بينهم. هذا ملخص الآيات.

روي أن رجلاً قال للنبي صلى الله عليه وسلم: يا رسول الله، نسلم عليك كما يسلم بعضنا على بعض، أفلا نسجد لك؟ قال: لا ينبغي أن يسجد لأحد من دون الله، ولكن أكرموا نبيكم واعرفوا الحق لأهله. وروي أن أبا رافع القرظي والسيد النجراني قالا: يا محمد، أتريد أن نعبدك ونتخذك رباً؟ فقال: معاذ الله أن يعبد غير الله، وأن نأمر بغير عبادة الله، فما بذلك بعثني، ولا بذلك أمرني، فنزل: ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ ﴾ الفهم والعلم ﴿ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ أي لا تجتمع النبوة مع قوله للناس: اعبدوني ﴿ وَلَٰكِن ﴾ يقول ﴿ كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ ﴾ منسوبين إلى الرب، ومربين فتربون الناس بصغار العلم قبل كباره، وتكونون علماء تعملون بعلمكم، جامعين بين علم البصيرة وعلم السياسة، تلون أمور الناس فتكونون ملوكهم وعلماءهم ومعلميهم الخير ومواظبين انتم على طاعة الله وعبادته. قال أبو عبيدة: أحسب هذه الكلمة غير عربية، إنّما هي عبرانية أو سريانية، وعلى كل فهي تدل على الذي علم وعمل بما علم، وعلم الناس طريق الخير الخ ﴿ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾ أي بسبب كونكم معلمين الكتاب، وبسبب كونكم دارسين

له ﴿ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا ﴾ منصوب عطفاً على «ثم يقول»، ﴿ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ الضمير في «يأمر» للبشر، وهو اسم جمع لا واحد لـه من لفظه كالقوم والرهط، ويوضع موضع الواحد والجمع فيشمل عيسى ومحمد صلى الله عليهما وسلم وغيرهما ﴿ وَ ﴾ اذكـر يـا محمـد ﴿ إِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ﴾ أي والله لئن آتيتكم كتاباً وحكمة الخ؛ فاللام للقسم، و«ما» شرطية، و«من كتاب وحكمة» بيان لـ«ما»، وقولـه: ﴿ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ ﴾ الخ جواب القسم، وجواب الشرط محذوف دلّ عليه جواب الشرط، كأنه يقول: والله إن آتيتكم الكتاب والحكمة ثم جاء رسول مصدق لهما لتؤمنن به ولتنصرنه، هذا إذا فتحت اللام، وإن كسرت يكون الجار والمجرور هكـذا لأجل إيتائي إياكم الكتاب، ثم مجيء رسول مصـدّق لـه أخذ الله الميثاق لتؤمنن به ولتنصرنه ﴿ قَالَ ﴾ الله تعالى: ﴿ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ﴾ عهدي، سمي به لأنـه يؤصر أي يشدّ ﴿ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ فليشهد بعضكم على بعض ولتشهد الملائكة بهذا الإقرار، وأنا أيضاً على إقراركم شاهد. والمعنى أن الله أخذ العهود على الأنبياء والأنبياء على أممهم أن يؤيد كل رسول وكل أتباعه من جاء بعدهم من الأنبياء مصدقاً لكتابهم، فكيف يعاند النصارى واليهود وكتابهم فيه الميثاق، بل هذا الميثاق مقرر في الفطرة الإنسانية أن من دعا إلى الخير يعضده كل داع مثله، ففي الفطرة توكيده وفي العقل تثبيته ﴿ فَمَن تَوَلَّىٰ ﴾ أعرض ﴿ بَعْدَ ذَٰلِكَ ﴾ بعد الميثاق ﴿ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ المتمردون من الكفـرة ﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ ﴾ انقاد وخضـع ﴿ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا ﴾ طائعين بالنظر والحجة ﴿ وَكَرْهًا ﴾ كارهين بالسيف وغيره ﴿ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ قُلْ ﴾ يا محمد ﴿ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ ﴾ أمر الرسول أن يخبر عن نفسـه وعـن أتباعه بالإيمان بـالله ﴿ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ ﴾ أولاد يعقوب وكانوا أنبياء وعددهـم اثنـا عشر ﴿ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ ﴾ تصديقاً وتكذيباً ﴿ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ منقادون أو مخلصـون في عبادتـه ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ ﴾ أي غير التوحيد والانقياد لحكم الله المنزل على الأنبياء ﴿ فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ الواقعين في الخسران.

الفصل الرابع

﴿ كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٩١﴾ لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾ ۞ كُلُّ

ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾ فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩٤﴾ قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾

لقد كان الفصل الذي قبل هذا في النبيين وواجباتهم وما يدعون إليه، وأنهم لا يدعون الناس لعبادة أنفسهم، وإنما يأمرون أشياعهم وأتباعهم أن يؤمنوا بما ينزل على كل نبي بعدهم. ولا جرم أن هذا منطبق على اليهود والنصارى الذين ظهر صدق النبوة المحمدية في كتبهم، لذلك أتبعه بهذا الفصل يذكر فيه أنه يستبعد أن يهدي الله قوماً كفروا بالقرآن وبالرسول بعد إيمانهم به، وقد كانوا من قبل يقرون به ويشهدون أنه حق، ويقولون: إن نبياً قد أظل زمانه، وقد ظهرت لهم الدلائل على صدقه ﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[البقرة:٢٥٨].

فهؤلاء لا هداية لهم في الدنيا، وعليهم في الآخرة لعنة الله والملائكة والناس أجمعين حتى الكافرين، فإن جميع الناس من كافر ومؤمن يلعنون منكر الحق وإن كان بعضهم يجهله ثم لا يخفف عنهم العذاب ولا هم يؤخرون. ثم استثنى التائبين الذين أصلحوا أعمالهم ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ ﴾ يقبل توبتهم ﴿ رَّحِيمٌ ﴾[البقرة:١٩٢] بهم.

ثم إن للمفسرين في هذا المقام مقالين: مقالاً في قوم من العرب أسلموا ثم ارتدوا ولحقوا بمكة، ثم تربصوا بالنبي ريب المنون، ومقالاً آخر في اليهود والنصارى كما تقدم، فقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴾ يصح في القسمين معاً، اليهود والنصارى آمنوا بموسى وعيسى، ثم كفروا بالتوراة والإنجيل بما غيروا وبدلوا، ثم ازدادوا كفراً للنبي، وهكذا المرتدون من العرب كفروا بعد إيمانهم ثم ازدادوا كفراً، إذ تربصوا بالنبي ريب المنون. ثم قال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا ﴾ أي قدر ما يملأ الأرض ذهباً ﴿ وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ ﴾ والواو زائدة لتأكيد النفي ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ مؤلم ﴿ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾ مانعين يمنعونهم من العذاب، وقوله تعالى: ﴿ لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ ﴾ أي لن تبلغوا حقيقة البر الذي هو كمال الخير الذي يترتب عليه الرحمة من الله والرضا والجنة، والبر من الله الثواب ومن العبد الطاعة يقول: لن تنالوه ﴿ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ من العلم في الهداية والجاه في منفعة الناس، والبدن في الحرب، والمال في الإنفاق، وقوله تعالى: ﴿ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا ﴾ أي حلالاً ﴿ لِّبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ أي يعقوب ﴿ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ﴾ سبب نزول هذه الآية أن اليهود لما

نزل قوله تعالى: ﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ ﴾[النساء: ١٦٠] قالوا: لسنا أول من حرّمت عليه تلك الطيبات، بل كانت محرمة على نوح وإبراهيم من بعده، حتى انتهى الأمر إلينا، فحرمت علينا كما حرمت على من قبلنا، فقال الله لهم: ليس الأمر كذلك، بل كل الطعام كان حلالاً لبني إسرائيل، أي أولاد يعقوب الذين كانوا قبل موسى، ولم يحرّم عليهم إلاَّ ما حرّمه يعقوب على نفسه لما كان به عرق النسا، فأشار عليه الأطباء بأن لا يأكل لحوم الإبل ولا يشرب ألبانها، فحرّمها على نفسه، وتبعه أولاده في ذلك التحريم، وذلك ﴿مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ﴾ التي اشتملت على تحريم كل ذي ظفر وبعض الشحوم وبعض ما حملت الظهور وما اختلط بعظم، وذلك التحريم لنبيهم، وذلك لم يكن محرماً على يعقوب ولا على أولاده ولا على إبراهيم ونوح ﴿ قُلْ فَأْتُواْ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ فيما تدّعون، أمر الله النبي صلى الله عليه وسلم بمحاجتهم بكتابهم، فلما سمعوا ذلك بهتوا ولم يجسروا أن يخرجوا من التوراة. وفي هذه الآية دلالة على النبوة، وهذه المسألة من أعجب المسائل وأدقها ولن تعرف إلاَّ بطريق الوحي.

ثم قال: ﴿ فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴾ وابتدع ﴿ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ﴾ أي من بعد إلزام الحجة ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ الذين لا ينصفون وهم يكابرون ﴿ قُلْ ﴾ يا محمد ﴿ صَدَقَ ٱللَّهُ ﴾ أي وكذبتم ﴿ فَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ﴾ أي ملة الإسلام التي هي في الأصل ملة إبراهيم ﴿ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ فيه تعريض بشرك اليهود، وكيف تتبعون غير دين إبراهيم، و﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ ﴾ لغة في مكة، والبيت الذي في مكة هو المسجد الحرام ثم بعده بيت المقدس، وأول من بنى المسجد الحرام إبراهيم فهدم، ثم بناه قوم من جرهم، ثم العمالقة، ثم قريش. ومعنى ﴿ مُبَارَكًا ﴾ كثير الخير والنفع لمن حجه واعتمره ﴿ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ ﴾ يقول المفسرون: منها انحراف الطير عن موازاة البيت. ومنها أن ضواري السباع تخالط الصيد ولا تتعرض له. ومنها أن كل جبار قصده بسوء قهره كأصحاب الفيل، ومنها ﴿ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ أي الحجر الذي كان يقوم عليه عند بناء البيت ﴿ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ﴾ أي ومنها أمن من دخله ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ ﴾ قصده للزيارة على الوجه المخصوص المعلوم في سورة البقرة، وأبدل من الناس قوله تعالى: ﴿ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴾ وقد فسر رسول الله صلى الله عليه وسلم الاستطاعة بالزاد والراحلة، وبه أخذ الشافعي والحسن وسعيد بن جبير ومجاهد وأحمد بن حنبل. وقال الشافعي في الاستطاعة: إما بالبدن واجداً ما يبلغه الحج فاستطاعة تامة فعليه الحج، وإما أن لا يثبت على الراحلة وهو قادر على من يطيعه إذا أمره أن يحج عنه، أو قادر على مال ويجد من يستأجره فيحج عنه فيجب عليه. وأما حكم الزاد والراحلة فهو أن يجد زاداً يكفيه ذهاباً وإياباً ونفقة من تلزمه نفقته وكسوتهم، وأن يكون دينه مقضياً، وأن يجد له رفقة يخرجون في الوقت الذي جرت العادة فيه بالخروج، فإن قدّموا أو أخروا لا يجب عليه، ويشترط أمن الطريق من عدوّ مسلم أو كافر أو رصدي يطلب الخفارة، وتكون منازل الماء مأهولة يجد فيها الماء والزاد بحسب العادة، فإن تفرقوا لم يجب. وقال مالك: الاستطاعة بالبدن، فيجب على من قدر على المشي والكسب في الطريق. وقال أبو حنيفة: بمجموع المال والبدن. والضمير في «إليه» للبيت أو للحج وكل ما أدى إلى الشيء فهو سبيله.

ولقد فصلت الكلام في الحج وجميع أعماله في سورة البقرة، فهناك صورة منه واضحة جلية فلا نعيده هنا. ﴿ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ كأنه قال: ومن لم يحج فإن الله غني عنه، فجعل عدم الحج كفراً، وذلك تغليظ على تاركه. قال عليه الصلاة والسلام: «من مات ولم يحج فليمت إن شاء يهودياً أو نصرانياً». ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ السمعية والعقلية الدالة على صدق محمد صلى الله عليه وسلم في الإسلام والحج وغيرهما ﴿ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ ﴾ مطلع على أعمالكم فيجازيكم عليها، ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ ﴾ هذا التكرار للمبالغة في التقريع، ذلك أنهم كانوا يفتنون المؤمنين ويوقعون الشقاق بينهم، ومن ذلك أنهم أتوا إلى الأوس والخزرج وذكروهم بالوقائع التي كانت بينهم في الجاهلية، وأنشدوا أشعارها، فأثارت حمية الجاهلية ﴿ تَبْغُونَهَا عِوَجًا ﴾ أي حال كونكم باغين طالبين لها عوجاً ﴿ وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ ﴾ أي اعوجاجاً تشهدون أنها سبيل الله، والصدّ عنها ضلال وإضلال، أو أنتم عدول عند أهل ملتكم يثقون بأقوالكم ويستشهدون بكم في القضايا ﴿ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ وعيد لهم. انتهى تفسير القسم السادس بفصوله الأربعة، وفي هذا القسم لطائف:

اللطيفة الأولى

تفصيل الكلام في قوله تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ ﴾ الآيات

اعلم أن الإنسان في جميع عصوره لا يزال يرى أن في الناس من لهم مزية ظاهرة، وعبقرية حاضرة، وعلوم باهرة، وغرائب نادرة، وعجائب ساحرة تأخذ بالألباب، وتحير العقول، فالنصارى بهرهم المسيح لما سمعوا إحياء الموتى على يديه وإبراء الأكمه والأبرص، وهناك أمم قبلهم وأمم قبلهم وهكذا تراه في سائر الأقطار والأمصار قديماً وحديثاً، لكل أمة غرام وعشق وإفراط في رجل أو رجال يرون فيهم عجائب سواء أكانت حقاً كما في المسيح أو غير معلوم كما ورد في مسيح الهند المسمى «خرستا» من قبله بنحو خمسة آلاف سنة رووا عنه ما روى المسيحيون عن عيسى، ومثله آخر في العراق من قبل المسيح، وهكذا رواية المصريين في قديم الزمان عن أوزيريس وإيزيس وما أشبه ذلك، وهكذا أهل المكسيك لما دخل عندهم أهل أوروبا رأوهم منتظرين الفادي لهم نازلاً من السماء بعد رفعه، ولقد تجد الآن في الأمة الإسلامية أكثر طوائفها مغرمين بشيوخهم، ومنهم من يرى أنهم رفعوا إلى السماء كما في بعض بلاد الغرب، وبعض بلاد الفرس، ولست أريد إطالة في القول فإني أريد التوفيق والإصلاح لا التفريق والجراح، فالقرآن أعطانا حكمة وقولاً عدلاً وكلمة لا عوج فيها، وهي أن هؤلاء الذين على أيديهم ظهرت خوارق وعجائب ليسوا إلاّ عبيداً مسخرين خلقهم الله، فإذا اختلف المسلمون في طرائق حججهم ومذاهبهم وتشاكسوا وتدابروا فليكن لهم هذا المنهاج الحق القائل: ﴿ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ ولقد علمت مما سبق أن الأحبار والرهبان كانوا يحللون ويحرّمون، فهاهو ذا كتاب الله يقول لنا: لا يجوز لحد أن يحرّم ويحلّل، وإلا لكان اتباعه عبادة له، وإنما التحليل والتحريم لله عزّ وجلّ ولرسوله ولجماعة المسلمين.

مجلس عام في الإسلام

على المسلمين جميعاً في أقطار المسكونة أن يكون لهم مجلس عام يجمع أكابر القوم من سائر المذاهب والشيع والطوائف، ويعرض فيه كل ما فيه خلاف من معاملات أو عبادات، ويكون هذا المجلس له القول الفصل، وهذا المجلس دائماً تعرض عليه المسائل كل حين، ويبقى مع الدهر ما دامت السماوات والأرض ودين الإسلام، وهنالك نكون حقاً قد عملنا بقوله تعالى: ﴿ وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ والدليل على ذلك أن الإنسان يخرج وقد وجد قومه على مذهب من المذاهب فيسير هو عليه، ولو ولد في قوم على مذهب آخر لاتبعه، فكان الأمم إقطاعات للمذاهب، ولكن وجود جماعة في أكبر عاصمة إسلامية كافل بخروج الناس من تبعة التقصير، ولست أريد أن المذاهب تترك، كلا. فكل جماعة يبقون على مذهبهم، ولكن هذه الجماعة القائمة على الحق تنظر في كل ما يعرض من الأحوال وتهذيب المسائل العلمية والإفتاء بما هو الأقرب والأنسب حتى لا يكون هناك وقوف ولا نكوص على الأعقاب، وهذه الجماعة تشير لأهل كل مذهب بما يناسبهم. اهـ.

اللطيفة الثانية

تفصيل الكلام في قوله تعالى: ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ ﴾

لقد علمت ما نقلناه فيما تقدم أن اليهود أميل إلى الخيانة، وأن النصارى أقرب إلى الأمانة. فاعلم أن اليهود لهم عقيدة خاصة، ومذهب يرجع إلى الاستئثار بالسلطة وهم لا يريدون أن يدخلوا أحداً في دينهم من غير بني إسرائيل، فهو من جهة دين ومن جهة قومية. فلذلك اشتهر عنهم قديماً وحديثاً أنهم حريصون على جمع المال من غير أهل دينهم، وهم اليوم أصحاب الحول والطول في الكرة الأرضية. لقد ذكر أحد علماء الفرنجة أنه قرأ في التلمود «وهو شرح التوراة» ما يأتي:

نحن شعب الله في الأرض، وقد أوجب أن يفرّقنا في الأرض لمنفعتنا، ذلك أنه لأجل رحمتنا ورضاه عنا سخر لنا الحيوان الإنساني، وهم كل الأمم والأجناس سخرهم لنا، لأنه تعالى يعلم أننا نحتاج إلى نوعين من الحيوان: نوع أخرس كالدواب والأنعام والطير، ونوع ناطق كالمسيحيين والمسلمين والبوذيين وسائر الأمم من أهل الشرق والغرب، فسخرهم لنا ليكونوا مسخرين لخدمتنا. فلذلك فرّقنا في الأرض لنمتطي ظهورهم، ونمسك بعنانهم ونستخرج فنونهم ونسخرهم لمنافعنا أجمعين.

لذلك يجب علينا أن نزوّج بناتنا الجميلات للملوك والوزراء والعظماء، وأن ندخل أبناءنا في الديانات المختلفات، وأن تكون لنا الكلمة العليا في الدول وأعمالها، فنفتنهم ونوقعهم في الحروب وندخل عليهم الرعب والخوف، وفي ذلك كله نحن نستفيد الاستفادة كلها.

لذلك ترى البلشفية يهودية والحرب الكبرى أشعلها اليهود ومنهم شوبنهور الفيلسوف الألماني وماركس مؤسس مذهب البلشفية ولينين رئيس البلشفية الآن في بلاد الروسيا، ولا ترى فلسفة قائمة في أوروبا إلاَّ من فلاسفة اليهود، وهم هم الذين أذاعوا في ألمانيا إنه: «لا رحمة لضعيف» حتى وقف «غليوم» ملك الألمان، وقال: «ويل للمغلوب»، كل ذلك فعل اليهود وهم الذين قاموا يسترجعون فلسطين بعد ضياعها من أيديهم نحو ألفي سنة، ولقد أخبرني أحدهم قائلاً: إن لهم جمعية دائمة

ترسل في كل عام تجوس الأقطار، وتبحث في الأمصار عن اليهود القاطنين في الأماكن المختلفة، وتحصي ما يحتاجون إليه من المعونة وترجع فترسل لهم ما إليه يحتاجون، فهذه خصال اليهود الدالة على محافظتهم على قوميتهم التي تغالوا فيها إلى الإضرار بالأمم.

علم الأخلاق واليهود

وهاك حكاية رواها علماؤنا السابقون في علم الأخلاق قائلين: إن الإنسان قد تكون أخلاقه تابعة لاعتقاده، فإذا اعتقد رأياً أو ذهب مذهباً وتصوّره وتحقق به صارت أخلاقه وسجاياه مشاكلة لمذهبه واعتقاده، لأنه يصرف أكثر همه وعنايته إلى نصرة مذهبه وتحقيق اعتقاده في جميع متصرفاته، فيصير ذلك خلقاً له وسجية وعادة يصعب إقلاعه عنها.

حكاية يهودية

والمثال في ذلك ما جاء في الخبر: أن رجلين اصطحبا في بعض الأسفار، أحدهما مجوسي من أهل كرمان، والآخر يهودي من أهل أصفهان، والمجوسي كان راكباً على بغلة وعليها أمتعته، واليهودي كان ماشياً ليس معه شيء، فبينا هما يتحدثان قال المجوسي لليهودي: ما مذهبك؟ قال اليهودي: مذهبي أن في السماء إلهاً هو إله بني إسرائيل أسأله الرزق والصحة وأن يعينني ويعين بني إسرائيل، وأن جميع بني آدم لا حرمة لهم، فمالهم ودمهم حلال لي ولأهل ديني، ويحرم عليّ نصرة من ليس على ديني والشفقة عليه. فقال المجوسي: أنا أعتقد أنه يجب عليّ أن أريد الخير لأبناء جنسي كلهم، ولا أريد سوءاً لأحد من أهل ديني وغيرهم، وإن ظلمني وتعدى عليّ، لأن إلهي في السماء إله الجميع وهو عادل. فقال اليهودي للمجوسي: إذن انصر مذهبك لأني من أبناء جنسك، فأركبني بغلتك فقد تراني متعوباً، وأطعمني فقد تراني جائعاً؛ فأركبه ساعة وأطعمه، ومشى المجوسي، فلما أعيا المجوسي حرّك اليهودي البغلة وسبقه، فقال المجوسي: قف فقد أعييت، فقال اليهودي: ألم أخبرك عن مذهبي فأنا اليوم أنصره. أنت نصرت مذهبك بإعطائي البغلة، وأنا أنصره بخيانتك، فقال له المجوسي: أتتركني هنا تأكلني الوحوش والسباع؟فمضى اليهودي، فأما المجوسي فإنه فكر في اعتقاده، وقال: قد قمت بأمر اعتقادي فأعطيته، فلأقم بآخره فأدعو إله السماء، فقال: يا إلهي أنا قد قمت بأمرك فحقق لليهودي وعدك لي بالنصرة عليه لبغيه، فما مشى قليلاً حتى رأى البغلة قد رمت اليهودي ودقت عنقه وهي واقفة تنتظر صاحبها، فلحقها وركبها وترك اليهودي في البرية للسباع والوحوش، فقال اليهودي: ارحمني لا تتركني، فقال المجوسي: قد فعلت مرة ولم تفهم ما قلت لك، إن في السماء إلهاً يجازي بالعدل، فما منعك أن تعمل به وخنتني، قال: مذهب نشأت عليه وصار طبيعة فيّ اقتداء بالآباء والأمهات والأستاذين والمعلمين، فحمله المجوسي معه حتى جاء به إلى المدينة وسلمه إلى أهله مكسوراً، وحدّث الناس بقصته، فلامه الناس على رحمته له، وكيف حمله بعد الخيانة، فقال: إنه اعتذر بأن هذا المذهب صار عادة يصعب اقتلاعها، فأنا كذلك، الرحمة عادة يصعب اقتلاعها.

واعلم أيها الذكي أن هذا المذهب اليهودي صار اليوم صفة عامة في رجال السياسة في الأمم الأوروبية، فأصبحوا خائنين يستحلون دماء أهل الشرق وأموالهم ودماء بعضهم، وإن أمم النصارى

في ديارهم محبون لبعضهم في داخلها، ولكن دولهم متقاطعة متعادية مع بعضها ومع أمم الشرق، ومعاملاتهم السياسية كمعاملة اليهود، فلله الأمر من قبل ومن بعد وهو حسبنا ونعم الوكيل.

اللطيفة الثالثة

تفصيل الكلام في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشۡتَرُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَأَيۡمَٰنِهِمۡ ثَمَنٗا قَلِيلًا ﴾

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «من حلف على يمين صبر يقتطع بها مال امرئ مسلم لقي الله وهو عليه غضبان، وأنزل الله تصديق ذلك: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشۡتَرُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَأَيۡمَٰنِهِمۡ ثَمَنٗا قَلِيلًا ﴾ الآية». ولقد قدمت لك أنه يدخل فيه العهود والمواثيق المأخوذة من جهة الرسل، ويدخل فيه ما يلزم الرجل نفسه من عهد وميثاق، فكل ذلك من عهد الله الذي يجب الوفاء به.

واجب علماء الإسلام والحلف بالله

على المسلمين في أقطار الأرض أن ينظروا في مسألة الإيمان، فإن الله عزَّ وجلَّ يقول: ﴿ وَلَا تَجۡعَلُواْ ٱللَّهَ عُرۡضَةٗ لِّأَيۡمَٰنِكُمۡ ﴾[البقرة:٢٢٤] الآية، وتقدم تفسيرها في سورة البقرة، والآية هنا قد نددت على الحالفين الكاذبين وأنهم لا نصيب لهم في الآخرة ﴿ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيۡهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾[آل عمران:٧٧] واعلم أن المسلمين قد ابتلوا بالحلف صدقاً وكذباً، ولم يجدوا من العلماء من يمنعهم، مع أن الوعيد الذي جاء على الحلف لم يكن على سواه من أمور الدين.

ولعل ما نشاهده من الذلة والهوان والجهل المطبق وإذلال الأمم للمسلمين ربما جاء من هذا الخلق اللئيم الحلف بالله والكذب في الوعد. فعلى علماء الإسلام في الأقطار أن يخيفوا المسلمين من هذا العمل الشائن والقول الكاذب والوعد المخلف، فإن هذا يرقي أخلاقهم ويعدل نفوسهم، والله هو الولي الحميد.

اللطيفة الرابعة

في الأمة العربية قديمها وحديثها

وفي وفد نجران وكيف كان ساداتهم يمتنعون عن الإسلام حفظاً للرياسة واحتراماً للعهود التي أخذها الفرنجة عليهم، واعجب كيف كانت الدولة الرومانية ذات سلطان عليهم بحيث لا يبرمون أمراً إلاّ إذا رضيته، ولا يذرون ما كرهته، واعجب للأمة العربية كيف كانت خاضعة لسلطان الأمم فكانت فارس من جهة لها سلطان، والروم من جهة أخرى لها سلطان، وهما يتجاذبان العرب وكل منهما يدلي إليهم بسبب من القوة تارة والمال أخرى، وهم كرة بصوالجة فتلقفها هذه مرة وتلك أخرى، كريشة في مهب الريح ساقطة لا تستقر على حال من القلق. حتى إذا جاء الإسلام زال الغمام واستتب السلام وترك الزمام وصينت الأمة وعظمت المنة وتوحدت القيادة وثبتت السيادة وغلبت العرب وظهر منهم العجب، وأصبحوا سادة بعد أن كانوا مسودين، وقادة بعد أن كانوا مقودين، وثبت ملكهم على الأساس ﴿ وَتِلۡكَ ٱلۡأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيۡنَ ٱلنَّاسِ ﴾[آل عمران:١٤٠].

هذا ما كان في الأيام الخالية والقرون الماضية، ثم انقلب الزمان واستدارت الأيام، وتبدّت المحن وكثرت الإحن، ودارت الدورة الشمالية في الأفلاك العلوية، فرجع بعض العرب إلى أيام جاهليتهم، وغلبهم من كان من خدامهم، فترى كثيراً من أمرائهم بالفرنجة يحتمون، وعلى مدافعهم يعولون، ويقربهم يفرحون، ولهم يتمون، وكأن الإسلام ما كان، فهم كملوك الطوائف الفارسية بعد دولة الإسكندر، وكتلك الممالك الأندلسية فـ ﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴾[البقرة:١٥٦]، وترى الشريف حسين بن علي يجعل الحرمين تحت إشراف الإنجليز، والمسجد الأقصى بفلسطين تحت إشرافهم وإشراف اليهود، ولقد طرد الأطباء الذين أرسلتهم بلادنا المصرية أن تدخل الأقطار الحجازية، ومنعهم من دخول البلاد المقدسة، فرجع المحمل المصري ومن معه من الحاجين، وذلك عند كتابة هذه الأسطر، وفي ظني أن هذه الحال لا تدوم، وأن الأمة الإسلامية ستستأنف دورها ويعظم قدرها وتحفظ كيانها وترجع مجدها وتصون بيضتها وتقيم حجتها، وتكون من أجلّ أمم العالمين كما قررناه في هذا الكتاب وقررناه في كل باب، وليكونن للإسلام شأنه، ولمجد العرب حسنه، فالدهر قلب، والزمان استدار، ولنصرن الله الشرق وأهله، ويعطي القوس من كان له، ويرجع العلم إلى نصابه، والسيف إلى قرابه، وتدخل المدينة من بابها، وتطلع الشمس من مشرقها بعد المغارب، ويظهر جمالها في تلك السباسب، فيعز من كان ذليلاً، ويذل من كان عزيزاً، وتقر النواظر، وتسر الخواطر، وتنشرح الصدور، ويظهر السرور، ويزينه النور، وتقوم دول كانت نائمة، وتخنس أمم كانت قائمة، ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾[الأحزاب:٦٢].

القسم السابع من سورة آل عمران
وهو فصلان اثنان

الفصل الأول في طلب اتحاد المسلمين وأنهم خير أمة.

الفصل الثاني في توصيف أعدائهم وإيجاب الاحتراس منهم.

الفصل الأول

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ كَـٰفِرِينَ (١٠٠) وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ (١٠١) يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٠٢) وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٠٣) وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ (١٠٤) وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخْتَلَفُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ ۚ وَأُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠٥) يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ

تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٠٧﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿١٠٩﴾ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾

بعد أن أمر الله النبي صلى الله عليه وسلم أن يخاطب أهل الكتاب تقريعاً لهم لصدهم عن سبيل الله أخذ يخاطب هو سبحانه المؤمنين بنفسه تعظيماً لهم وتكريماً وإسعاداً لهم وتشريفاً، قائلاً: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم ﴾ الخ. ذلك أن نفراً من الأوس والخزرج كانوا جلوساً يتحدثون، فمر بهم شاس بن قيس اليهودي فغاظه تألفهم واجتماعهم، فأمر شاباً من اليهود أن يجلس إليهم ويذكرهم يوم بعاث، وينشدهم بعض ما قيل فيه، وكان الظفر في ذلك اليوم للأوس ففعل، فتنازع القوم وتفاخروا وتغاضبوا وقالوا: السلاح السلاح، واجتمع من القبيلتين خلق عظيم، وغضب الفريقان غضباً عظيماً، فتوجه إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه، وقال: أتدعون الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد إذ أكرمكم الله بالإسلام، وقطع به عنكم أمر الجاهلية، وألف بين قلوبكم، فعلموا أنها نزغة من الشيطان وكيد من عدوهم، فألقوا السلاح واستغفروا وعانق بعضهم بعضاً، وانصرفوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإنما خاطبهم الله بنفسه بعد ما أمر الرسول أن يخاطب أهل الكتاب تشريفاً لقدرهم وإعظاماً لمقامهم، فتراه يقول فيما تقدم: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ ﴾[آل عمران:٦٤] الخ، ولكن يقول هنا الله عزّ وجلّ مخاطباً المؤمنين: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ يعني شاساً اليهودي وأصحابه ﴿ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴾ والكفر موجب لهلاك الدارين، ولما كان المسلمون يتلون القرآن وفيه الإرشاد والنصائح كانت حالهم داعية إلى تعجب المتعجبين، فإنه لا يليق بهم التخاذل والانقسام بعد ما سمعوا من الحكم والأحكام، فلذلك أعقبه بقوله: ﴿ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ﴾، ولما كان التعجب محالاً على الله، كان المراد منه المنع والتغليظ. قال قتادة في هذه الآية علمان بينان: كتاب الله، ونبي الله صلى الله عليه وسلم. أما نبي الله فقد مضى، وأما كتاب الله فقد أبقاه الله بين أظهركم رحمة منه ونعمة ﴿ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ ﴾ أي يستمسك بدينه في الحلال والحرام وجميع الأحكام، ويلتجئ إليه في جميع الأمور ﴿ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ طريق واضح وهو الطريق المؤدي إلى الجنة، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ تقوى الله حق تقاته أن يطاع فلا يعصى، ويشكر فلا يكفر، ويذكر فلا ينسى، كما قاله ابن مسعود، ، هذا ظاهره أنه خارج عن طاقة العبد، ولكن المحققون حملوه على ما يقدر عليه العبد، فلو كان الإنسان ساهياً أو ناسياً غفر له ذلك، وهؤلاء جعلوا قوله تعالى: ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ ﴾ في سورة التغابن[الآية١٦] مفسراً لهذه الآية، فهي محكمة لا منسوخة كما قاله ابن عباس وطاوس، وغيرهم جعل الأولى منسوخة بالثانية كسعيد بن جبير وقتادة والسدي، وقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ أي

لا تكونن على حال سوى حال الإسلام إذا أدرككم الموت، فالنهي متوجه هنا للقيد الذي قيد به الموت ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا ﴾ إذ من تمسك بالحبل المتعارف نجا من التردي، هكذا من تمسك بدين الإسلام أو القرآن نجا من الهلاك في الدنيا والآخرة، فالحبل مستعار للقرآن أو للدين، ومعنى الاعتصام هنا: الوثوق أو الاعتماد عليه، وقوله: ﴿ جَمِيعًا ﴾ أي مجتمعين عليه ﴿ وَلَا تَفَرَّقُواْ ﴾ أي لا تتفرقوا عن الحق بوقوع الاختلاف بينكم كما تفرق أهل الكتاب وأهل الجاهلية ﴿ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ بالهداية والتوفيق للإسلام الذي يهدي إلى الائتلاف، وكم لله من نعم غيرها ﴿ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً ﴾ في الجاهلية تتقاتلون ﴿ فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ ﴾ بالإسلام ﴿ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا ﴾ متحابين مجتمعين في الله، يقال: كان الأوس والخزرج أخوين لأبوين، فوقع بين أولادهما العداوة، وتطاولت الحروب مائة وعشرين سنة حتى أطفأها الله بالإسلام، وألف بينهم نبينا صلى الله عليه وسلم ﴿ وَكُنتُمْ ﴾ يا معشر الأوس والخزرج ﴿ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ ﴾ على طرف حفرة مثل شفا البئر ليس بينكم وبين الوقوع في النار إلاَّ أن تموتوا على كفركم ﴿ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ﴾ أي فخلصكم بالإيمان من الحفرة أو النار، أو الشفا بمعنى الشفة أي الطرف ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ أي مثل ذلك التبيين ﴿ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ ﴾ دلائله ﴿ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾، ثم قال تعالى: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ قوله: ﴿ مِّنكُمْ ﴾ للتبيين، أي كونوا أمة تدعون إلى الخير الخ كقوله: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ الخ، والدعاء للخير يشمل كل ما فيه صلاح ديني أو دنيوي، والأمر معروف والنهي عن المنكر أخص من الدعاء للخير، ذكرا معطوفين عليه للتنبيه على فضلهما، ويصح أن يقال: ولتقم طائفة منكم بالدعاء إلى الخير والأمر بالمعروف الخ، على أن «من» للتبعيض، ذلك لأن الدعاء للخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يقوم بهما إلاَّ من استوفوا شرائط خاصة وهي فروض كفايات، وفروض الكفايات متى قام بها قوم سقطت عن الباقين ولو تركوها أثم جميع المسلمين ﴿ وَأُوْلَٰٓئِكَ ﴾ الداعون الآمرون الناهون ﴿ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ الذين اختصوا بكمال الفلاح. روي أنه عليه الصلاة والسلام سئل: من خير الناس؟ فقال: «آمرهم بالمعروف وأنهاهم عن المنكر وأتقاهم لله وأوصلهم للرحم»، ﴿ وَلَا تَكُونُواْ ﴾ يا معشر المؤمنين ﴿ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ ﴾ وهم أهل الكتاب من اليهود والنصارى ﴿ وَٱخْتَلَفُواْ ﴾ في التوحيد والتنزيه وأحوال الآخرة وأمر الله ونهيه ﴿ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ﴾ الحجج المبينة للحق الموجبة للاتفاق عليه، والتفرق المذموم إنَّما هو في الأصول دون الفروع لقوله عليه الصلاة والسلام: «من اجتهد فأصاب فله أجران، ومن اجتهد فأخطأ فله أجر واحد»، ﴿ وَأُوْلَٰٓئِكَ ﴾ المتفرقون المختلفون ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾، وقوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾ منصوب بما في لهم من معنى الفعل، أي لهم عذاب عظيم يوم تبيض وجوه بالبهجة والسرور، وتسود وجوه بالكآبة والحزن، فالبياض والسواد كنايتان عن ذلك ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ ﴾ من أهل الكفر والردة والنفاق، يقال لهم على سبيل التوبيخ والتعجب: ﴿ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ﴾ إذ مكنتم بالفطرة من الإيمان أو آمنتم بالقرآن، ثم كفرتم أو ارتددتم ﴿ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ ﴾ أمر إهانة ﴿ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ أي بسبب كفركم ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ ﴾ من أهل الإيمان والمخلصين ﴿ فَفِي رَحْمَةِ ٱللَّهِ ﴾ أي جنة الله، وعبر عنها بالرحمة لأنها دارها، ولأن حياة

الإنسان وعمله وما يترتب عليه كله من رحمة الله تعالى، وجميع الوجود من رحمة الله، وكأنه يقال: أدائمة هذه الرحمة أم منقطعة؟ فقيل: ﴿ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٠٧﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ ﴾ الواردة في وعده ووعيده ﴿ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ﴾ متلبسة بالحق فلا شبهة فيها ﴿ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ وكيف يكون منه الظلم، ولا ظلم إلاّ حيث يوضع الشيء في غير موضعه؟ ومن وضع الشيء في غير موضعه تهدم بنيانه وزال ملكه، فليس ابيضاض بعض الوجود واسوداد الأخرى وعذاب قوم ونعيم آخرين إلاّ على أساس ونظم ثابتة بموازين صادقة لحكم معلومة عنده في كتاب مكنون، والملك لا ثبات له إلاّ على العدل والنظام، ووضع الشيء في موضعه، ولو أن ملكه أسس على غير العدل لزال، ولكننا وجدنا مثل السماوات والأرض منه منظماً دائماً، فالعدل إذن ثابت أزلاً وأبداً، ولذلك أعقبه بقوله: ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ وقد قاما على العدل ولولاه لفنيا، وهو كما أسس ملكه على العدل لا يبقى من الأمم العادلة ولا يرفع عنده إلاّ العادلون، ولذلك قال: ﴿ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴾ فيبقي الأمم ما دامت نافعة مضاهية لنظامه، ويفنيها إن ظلمت. هكذا يثيب ويعاقب الناس على مقتضى ذلك، ولما كان المسلمون العاملون بمقتضى القرآن الذين يعتصمون بحبل الله جميعاً ولا يتفرقون، الداعون إلى الخير، الآمرون بالمعروف، الناهون عن المنكر، أقرب إلى الخير والعدل، كما أن السماوات والأرض أسستا على العدل. قال الله تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ أي أظهرت لهم، أي ما أخرج للناس خير من أمة محمد صلى الله عليه وسلم، ثم بين كونهم خير أمة فقال: ﴿ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ فهذه هي المزية التي فضل المسلمون بها سائر الأمم، وهذه المزية لا تتم إلاّ بشرطها وهو الإيمان، فلذلك قال: ﴿ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾، ثم ذكر على سبيل الاستطراد أهل الكتاب فقال: ﴿ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ من اليهود والنصارى بمحمد صلى الله عليه وسلم ﴿ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ﴾ مما هم عليه من اليهودية والنصرانية ﴿ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ كعبد الله بن سلام وأصحابه الذين أسلموا من اليهود، والنجاشي وأصحابه الذين أسلموا من النصارى ﴿ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ المتمردون في الكفر طلباً للمناصب والرياسة. وبهذا تم الفصل الأول من القسم السابع.

الفصل الثاني من القسم السابع

﴿ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾ ۞ لَيْسُوا۟ سَوَآءً مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١٦﴾ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ

رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِۚ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَاۖ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔاۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾ ﴾

لقد عمد رؤساء اليهود إلى من آمن منهم فآذوهم فأنزل الله: ﴿ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى ﴾ ضرراً يسيراً كطعن في الدين وتهديد ﴿ وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴾ منهزمين فلا يضروكم بقتل أو أسر ﴿ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴾ وهذه الجملة ابتداء إخبار معطوفة على جملة الشرط والجواب، فكأنه قيل أخبركم أنهم إن يقاتلوكم يولوكم الأدبار، ثم أخبركم أنهم لا ينصرون، وهذه الآية قد تحقق ما جاء فيها من الغيب، فإن بني قريظة والنضير ويهود خيبر قد غلبوا، فمنهم من قتل ومنهم من نفي وأخرج من الديار ﴿ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ ﴾ هدر النفس والمال والأهل والتمسك بالباطل والجزية ﴿ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ ﴾ وجدوا ﴿ إِلَّا بِحَبْلٍ ﴾ عهد ﴿ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ ﴾ أي إلا بعهد وذمة من الله وكتابه وذمة المسلمين، أو إلا بدين الإسلام واتباع سبيل المسلمين ﴿ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ رجعوا به ﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُۚ ﴾ فهي محيطة بهم كما يحيط البيت المضروب على أهله، ويقال: إن اليهود غالباً أذلاء إذ ليست لهم دولة ولا ملك ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ أي ما ذكر من ضرب الذلة والمسكنة والبوء بغضب ﴿ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّۚ ﴾ بسبب كفرهم وقتلهم ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ الكفر والقتل ﴿ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴾ بسبب عصيانهم واعتدائهم حدود الله ﴿ لَيْسُواْ سَوَآءًۗ ﴾ أي ليس أهل الكتاب سواء في المعاصي ﴿ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ ﴾ جماعة مستقيمة عادلة، من أقمت العود فقام، وهم الذين أسلموا منهم ﴿ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴾ يتلون القرآن ساعات الليل «يقال إني كمعي أو أنو كقنو» وهم يصلون متهجدين ﴿ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ كالإيمان وسائر أبواب البر ﴿ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ الكفر ومنهيات الدين ﴿ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ﴾ يبادرون إليها خشية الفوت.

وهذه الصفات خاصة بمن أسلم من أهل الكتاب كعبد الله بن سلام، أما أولئك الذين لم يسلموا فهم لا يصلون بالليل ولا يؤمنون بالله إلا إيماناً مشوباً بالشرك، وهكذا بقية الصفات ﴿ وَأُوْلَٰٓئِكَ ﴾ الموصوفون بما ذكر ﴿ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ الذين صلحت أعمالهم وأحوالهم عند الله فرضي عنهم ﴿ وَمَا يَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُۗ ﴾ فلن يحرموا جزاءه ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴾ بشارة للمتقين بجزيل الثواب ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ﴾ عذاب ﴿ ٱللَّهِ شَيْـًٔاۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۚ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ .

وقوله تعالى: ﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ إلخ أي في المفاخر والمكارم وكسب الثناء وحسن الذكر بين الناس أو ما يتقرّبون به إلى الله وهم كافرون، أي مثل إهلاك ما ينفقون ﴿كَمَثَلِ﴾ إهلاك ﴿رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ﴾ برد شديد ﴿أَصَابَتْ حَرْثَ﴾ زرع ﴿قَوْمٍ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ بالكفر ﴿فَأَهْلَكَتْهُ﴾ عقوبة لهم على كفرهم ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ﴾ بإهلاك زرعهم ﴿وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

واعلم أن هذه الصفات من ضرب الذلة والبوء بالغضب والكفر وقتل الأنبياء، والعصيان والاعتداء وعدم نفع أموالهم لهم، وكونهم أصحاب النار، وأن ما ينفقونه ضائع لا تلائم صفات المؤمنين الذين يتلون آيات الله، ويسجدون ويؤمنون بالله ويؤمنون باليوم الآخر، ويأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، ويسارعون في الخيرات، وإذا فعلوا خيراً نالوا ثوابه والله عليم بهم، وهذا بشارة لهم، فهذه تسع صفات لمؤمني أهل الكتاب تقابل تسع صفات للكافرين منهم، كما يقابل الليل النهار والظلمة الضياء، والعدم الوجود، وأنت تعلم أن العداوة إنّما تنشأ من اختلاف الصفات، وتباعد الأخلاق، ومن تباعدت أخلاقهم وتنافت صفاتهم وآدابهم لا يتناصحون، بل يتنافرون، ولذلك أعقبه بما ترتب عليه من النصيحة للمؤمنين أن لا يتخذوا لهم منهم أصدقاء يفشون لهم أسرارهم فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً﴾ بطانة الرجل ووليجته صفيه شبه ببطانة الثوب، ويقال: فلان شعاري، والشعار الثوب الذي يلامس الجسم بخلاف الدثار ﴿مِّن دُونِكُمْ﴾ من دون المسلمين، أي بطانة كائنة من دونكم ﴿لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾ أي لا يقصرون لكم في فساد دينكم ودنياكم، يقال: ألا في الأمر يألو: قصر فيه، والخبال: الفساد ﴿وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ﴾ أي ودوا عنتكم أي شدة ضرركم ومشقتكم أي تمنوا أن يضروكم في دينكم ودنياكم أشد الضرر وأبلغه، وهذه جملة مستأنفة، وهم مع ضبطهم أنفسهم يتفلت من ألسنتهم ما يعلم به بعضهم للمسلمين ﴿قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ﴾:

ومهما تكن عند امرئ من خليقة وإن خالها تخفى على الناس تعلم

﴿وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ مما بدا لأن بدوّه ليس عن روية واختيار، ولما كان أكثر الناس يغفل عن كشف البواطن بفلتات اللسان أعقبه بقوله: ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ الدالة على علامات الأعداء وموالاة المؤمنين ومعاداة الكافرين ﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ ما بيناه لكم، والجمل مستأنفة، ويجوز أن تكون الثلاثة الأولى صفة لبطانة ﴿هَٰٓأَنتُمْ أُو۟لَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ﴾ أي أنتم أولاء الخاطئون في موالاة الكفار من يهود ومنافقين وغيرهم وإفشائكم الأسرار لهم إما لقرابة أو مصاهرة أو غيرهما، تحبون فتفشون لهم أسراركم ولا يحبونكم، فلا يفعلون مثل ذلك معكم، وهم في باطلهم أصلب منكم في حقكم لأنهم لا يؤمنون بكتابكم ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ﴾ ومنه كتابكم ﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا﴾ نفاقاً ﴿وَإِذَا خَلَوْا۟ عَضُّوا۟ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ من أجل الغيظ تأسفاً وتحسراً حيث لم يجدوا إلى التشفي سبيلاً ﴿قُلْ مُوتُوا۟ بِغَيْظِكُمْ﴾ دعاء عليهم بدوام الغيظ بتضاعف قوة الإسلام ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ أي بالخواطر القائمة بالقلب، ولما كانت حالة في القلب كنى عنها بذات الصدور، فهو يعلم ما يسرونه من عض الأنامل غيظاً إذا خلوا، وما هو أخفى منه وهو ما يسرونه في قلوبهم ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ﴾ من خير ومنفعة ﴿تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ﴾ من ضر وشدة ﴿يَفْرَحُوا۟ بِهَا﴾ شماتة وذلك لتناهي عداوتهم، فهم تارة حساد وتارة شامتون ﴿وَإِن تَصْبِرُوا۟﴾ على عداوتهم وعلى

مشاق التكاليف ﴿وَتَتَّقُوا﴾ موالاتهم وما حرّم الله عليكم ﴿لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ﴾ عداوتهم ومكرهم ﴿شَيْئًا﴾ لأن المتقين في كنف الله، والصابرين الذين اطمأنت نفوسهم للحوادث يقل انفعالهم لما يصيب من المكروه ﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ من الصبر والتقوى ﴿مُحِيطٌ﴾ علمه فيجازيكم بما أنتم أهله، وقد قرئ بالياء، أي بما يعملون في عداوتكم فيعاقبهم. انتهى القسم السابع وتفسيره اللفظي.

وهنا لطائف:

اللطيفة الأولى: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

اللطيفة الثانية: ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [الآية: ١٠٨-١٠٩].

اللطيفة الثالثة: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [الآية: ١١٠].

اللطيفة الرابعة: ضرب الذل والمسكنة على اليهود.

اللطيفة الخامسة: ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الآية: ١١٦].

اللطيفة السادسة: اتخاذ البطانة من الأعداء.

اللطيفة الأولى

إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الواردين في هذه الآيات قد تقدم الكلام عليهما في آخر سورة البقرة عند قوله تعالى: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ﴾ [الآية: ٢٥٢] وبينا هناك العلوم والصناعات الواجبة على الأمة، فكل علم وكل صناعة وكل فن من الفنون ووعظ وإرشاد يجب على الأمة، وبينا هناك أن الأمة الإسلامية اليوم قد تناهت في الكسل، فأحاطت بها أمم أوروبا، وهكذا قد ألفت كتاباً يسمى «القرآن والعلوم العصرية» بينت فيه أن الصناعات والعلوم واجبة على الذين لهم طاقة وقدرة من الأغنياء وغيرهم، وأرسلت ذلك الكتاب والمجلد الأول من هذا التفسير المشتمل على الفاتحة والبقرة إلى سائر الأمم الإسلامية شرقاً وغرباً، وأرسلتهما إلى ملوك الإسلام لأؤدي ما علي قبل الفوت، فكل من عنده علم وكتمه عاقبه الله عزّ وجلّ على كتمانه وتهاونه وغفلته، والذي أضر بالأمم الإسلامية ظنها أنها ليست ملزمة من العلوم إلاّ بالفقه، وهذا ضرب من الحماقة والجهل العظيم.

اللطيفة الثانية: قوله تعالى:

﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾

لما كان الكلام السابق فيه قوم ابيضت وجوههم وآخرون اسودت وجوههم، وقوم كفروا وآخرون آمنوا، وقوم يعذبون وآخرون ينعمون، وكان الخلق كلهم عباد الله وخلقه أردفه بقوله: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ﴾ [آل عمران:١٠٨] فلا شبهة فيها، وليس الله بمريد ظلماً للعالمين، وإنّما عمله عزّ وجلّ على نظام أكمل والعدل إنّما هو النظام التام، وليس العدل ما تتعارفونه بينكم، وإنّما هو نظام العالم العام، فإذن يكون العذاب والنعيم والكفر والإيمان من كمال ذلك النظام التام في السماوات والأرض، ليس في الإمكان أبدع مما كان، وإذا أردتم التثبت من هذه النظرية، فتأملوا في السماوات والأرض تجدوا العدل فيهما من ظلمة ونور، وأرض وسماء، ورفع وخفض، فلا تبتئسوا بما ترون، فذكر السماوات والأرض في هذا المقام لتبيان العدل، وهذا المقام يحتاج لإيضاح، فأقول:

(١) نظرة في العوالم المشاهدة الأرضية. (٢) نظرات القرآن فيها. (٣) لم ذكرت السماوات والأرض في مواضع كثيرة في القرآن.

(١) نظرة في العوالم المشاهدة الأرضية: إذا تأملت أيها الذكي فيما ترى فإن في الشجر والزرع والعنب مقاصد شتى، ألم تر أن النخل نقصده لمآرب شتى، فالجذع لسقوف بيوتنا، والجريد لسقائف تتفيأ ظلالها، والخوص لأسفاطنا نضع فيها أمتعتنا، والليف للحبال نشد بها ما أردنا، والتمر نغتذي ونتفكه به، هكذا التين والرمان وغيرهما لنا فيها مآرب شتى من فاكهة بثمره، ودواء بورقه، وتسوية طعام بخشبه، وتفيؤ الظلال بشجره وهو قائم، وهكذا. هذه هي الفوائد التي ننالها في حياتنا الدنيوية.

(٢) نظرات القرآن فيها: ولقد ذكر الله الزرع والنخل تارة للاستدلال على الخالق، وتارة على البعث، وتارة على فناء الناس، وتارة على قرب الارتحال، وهكذا.

(٣) فأما عالم السماوات: فقد جاء ذكره في القرآن كذلك، وفي كل موطن له مقصد جيء فيه لأجله، ألا ترى إلى ما جاء في سورة البقرة في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾[الآية: ٢٩] الخ للاستدلال على إثبات الألوهية، وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[البقرة: ١٦٤] الخ للاستدلال على الوحدانية بالوحدة في هذا الكون، وفي سورة آل عمران في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الآية: ٥] للاستدلال على سعة علمه، وفي هنا في هذه الآية للاستدلال على عدم ظلمه، يقول هنا: ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾[الآية: ١٠٨] فإن كنتم في شك من ذلك، وقد رأيتم وجوهاً ابيضت وأخرى اسودت، وقوماً كفروا وآخرين آمنوا، فلا تعتبروا هذا ظلماً، وأنتم لا تعلمون نهايات أعمالي فأنا لا أريد الظلم، والظلم يتبعه الخراب والدمار، والسماوات والأرض باقيات آماداً طوالاً، وإذا انتهت أيامها بدلت الأرض غير الأرض والسماوات غير السماوات والنظام في الحالين تام، فإذا كان هذا هو نظامي وهو لا خلل فيه، فهو عين العدل، فإذن يكون ما ترون من كفر وإيمان، ونعيم وعذاب، كله من تمام النظام، فقوم يسجنون وآخرون يكرمون. والنظام بهذا الاختلاف تام لا عوج فيه، ومع ذلك فليس لكم الخوض في هذا لأنكم لا تدرون غاياته، ولا تعرفون نهاياته، لأن عواقب الأمور ليست إليكم حتى تحكموا إليها، وإنما الأمور راجعات إلى الله، فانظروا لظاهر الكون وسلموا بأن الله عدل، فأما الحقائق ونهاياتها فلا طاقة لكم بعلمها، وإنما إلى الله ترجع الأمور. اهـ.

واعلم أن الكلام على السماوات والأرض قد تقدم في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ﴾[فصلت: ١١] فهناك مقال شاف في عدد السماوات وحقائقها وآراء المتقدمين والمتأخرين، وهكذا بيان الوحدة في هذا الوجود في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[البقرة: ١٦٤] وإيضاح الأرض وفهمها، ثم الكلام قد تقدم في أول السورة على حركات الكواكب وعجائب النظام لبيان علم الله، فارجع إليها هناك في كل مقام بحسبه، وهكذا سيأتي في آخر هذه السورة النظر في السماوات للذكر والتفكر ودوام ذكر الله في القيام والقعود، وإن هذا الخلق لم يكن باطلاً، فتعجب من غفلة بعض المسلمين الذين يقرؤون القرآن وهم عن الأرض والسماوات معرضون.

يا من يقرأ كتابي هذا ، قل للمسلمين في أقطار الأرض : إن القرآن جعل الله فيه السماوات والأرض لبيان العدل وجمال الصنعة واتساع العلم ، وكل ذلك لإرشادكم إلى النظر والتفكر والبحث والتدقيق ، فإن ذكرهن للعلم تارة ذكرهن للعمل والانتفاع أخرى . ألم يقل في سورة البقرة : ﴿ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾[الآية : ٢٩] طالت الآيات التي فيها اختلاف المسلمين والنصارى واليهود ، فأراد الله أن يقول ارجعوا لي وانظروا في سماواتي وأرضي ، ولا يشغلنكم الاختلاف الديني عن النظر الطبيعي .

ولما كان الكلام على السماوات قد أسهبنا فيه سابقاً ، وكان ذكرها لأجل العدل لم يكن إلاّ في هذه الآيات ، ناسب أن نذكر وصف العلامة «فلامريون» الفلكي المشهور فنقول :

كيف يقوى الفكر البشري على الإحاطة بما لا يتناهى من الشموس والكواكب التي لا تعرف نهاياتها . فتأمل وصف «فلامريون» له وصفاً سهلاً يشهد بالعدل في النظام والتساوي في الأحكام ، وإن سكان كل كوكب كأهل أرضنا ، يرون أقدار الكواكب وإعدادها على النحو الذي نراه نحن ، فهذا عدل تام ، وهذا مبدأ قوله : يا أيها القارئ الكريم ، إنه لو أتيح لنا أن نعيش ملايين الملايين من السنين ، وأن نكشف طريقة للمواصلات أسرع من القطرات والأوتوموبيلات والطيارات ، طريقة يمكننا السير بها بسرعة النور ، أي بسرعة ٣٠٠ ألف كيلومتر في الثانية .

فإذا تم ذلك أصبحت الكرة الأرضية ضيقة بنا ، وصرنا بطبيعة الحال نتوق إلى الطواف حول هذا الكون الواسع ، فنخرج من الأرض الضيقة غير آسفين عليها ، قاصدين أقرب الكواكب وهو القمر الذي يبعد عنا ٣٨٩ ألف كيلومتر ، ولكن هذه المسافة الهائلة نقطعها في ثانية وثلث بسيارتنا المدهشة التي تسير بسرعة النور ، ومتى وصلنا إلى القمر رأينا الأرض منه كوكباً يزيد حجمه أربعة أضعاف عن حجم البدر لما كنا ننظر إليه من الأرض .

ثم ننقل منه إلى المريخ ، وهو أقرب السيارات إلينا ، وعلى مسافة خطوتين منا حسب الاصطلاح الفلكي ، لأنه لا يبعد عنا سوى ٦٠ مليون كيلومتر . والمريخ أصغر من الأرض ، لا يزيد قطره عن نصف قطرها إلاّ قليلاً ، ومادته نحو عشر مادتها ، وجوّه أقل كثافة من جوّها ، ومتى وصلنا إلى المريخ رأينا سكانه ـ إذا كان فيه سكان ـ ينظرون إلى أرضنا التي هي نجمة الصبح عندهم ، كما ننظر نحن إلى الزهرة ، ويسألون هل هي مسكونة أم لا ؟ وقد أجمعوا على أنها غير صالحة للسكنى لأن هواءها ثقيل جداً ، فالثقل النوعي فيها أضعافه في المريخ ، وكذلك السرعة ؛ فالرجل الذي يزن في المريخ خمسة وسبعين كيلوغراماً ، يزن على الأرض أكثر من مائتي كيلوغرام ، والجسم الذي يقع من علو شاهق يقطع في المريخ متراً و٨٤ سنتيمتراً في الثانية ، وهذا منتهى ما تستطيع أن تقطعه الأجسام في عالم صالح للحياة على رأي علماء المريخ ، أما على الأرض فالجسم الذي يقع فيها من أعلى إلى أسفل ، يقطع أربعة أمتار وتسعين سنتيمتراً في الثانية ، ثم تزداد سرعته على نسبة مربع البعد . لذلك قرر علماء المريخ أن الأرض غير صالحة للحياة ، ولا سيما أن قربها من الشمس يحول دون نمو الحياة فيها . أما المريخ فهو الكرة المتوسطة الصالحة للحياة ، إذ لا برد ولا حر فيها . وهذا القول نسمع مثله في كل السيارات والكواكب الآهلة بالسكان والتي نمر بها في سياحتنا المدهشة ، ثم نبرح من المريخ إلى زحل الذي يبعد

عن الشمس نحو ٨٨٢ مليون ميل، فنصل إليه في نحو سبع دقائق إذا سرنا بسرعة النور، ويبلغ حجم زحل ٧٤٥ ضعفاً من حجم الأرض، والسنة فيه تعادل ٢٩ سنة تقريباً من سني الأرض، ولهذا السيار تسعة أقمار لا ترى من أرضنا إلاَّ بالمنظار.

وبعد ما نجتاز السيارات واحداً فواحداً نصل إلى نجم «الفا» الذي هو أقرب النجوم إلى الشمس لأنه لا يبعد عنا سوى ٢٧٦ ألف ضعف بعد الشمس، فالقطار الذي يسير إليه بسرعة ٦٠ كيلومتراً في الساعة لا يبلغه إلاَّ بعد ٧٥ مليون سنة، ولا تصل القنبلة إليه إلاَّ بعد مليون ونصف مليون سنة بعد انطلاقها، وإذا وقع فيه انفجار هائل فإننا لا نسمع صوت الانفجار إلاَّ بعد مرور ثلاثة ملايين سنة على وقوعه.

وإذا واصلنا سيرنا مسافة مائة مليار كيلومتر بلغنا نجماً يعدّه علماء الفلك من نجوم القدر الثاني عشر، ثم نجماً آخر يبعد عن الأرض ٦٥٢٠ سنة إذا سرنا إليه بسرعة النور، ثم آخر، وهكذا على التوالي.

وكلما تقدمنا في الفضاء اللامتناهي رأينا عوالم جديدة يتألف كل منها من ألوف الشموس، ويبعد الواحد عن الآخر مليارات المليارات من الأميال، إلى أن نصل إلى المجرّة التي تبدو لسكان الأرض ذرات من الرمال، كل ذرة منها شمس محرقة.

ثم نبلغ بعد ما نسير ألوفاً أخرى من السنين بسرعة النور إلى مجرة أخرى فأخرى إلى ما لا نهاية لها، فنقضي عمرنا الذي فرضناه ملايين الملايين من السنين، ونحن في وسط الفضاء اللامتناهي لم نتقدم خطوة ولم نبلغ غاية، وكثيراً ما نشاهد حولنا في إبان سيرنا في الفضاء بسرعة النور عوالم مندثرة تدلنا على أن كل شيء في الكون عرضة للموت، ولكنه ينبعث بشكل آخر. ولا يتغير منظر السماء علينا في هذه المرحلة الهائلة إلاَّ في وضع النجوم، وإذا حاولنا أن نكشف موضع الأرض اضطررنا إلى البحث عن مركز الشمس.

أما النجوم فتكون بالنسبة إلينا كما كانت ونحن على الأرض، فإذا أحصيناها من أي محل كان وجدناها ١٩ نجماً من القدر الأول، و٦٠ من القدر الثاني، و١٨٢ من القدر الثالث، و٥٢٠ من القدر الرابع، و١٦٠٠ من القدر الخامس، و٤٨٠٠ من القدر السادس «وهذا كل ما يرى بالعين المجردة»، و١٣ ألفاً من القدر السابع، ثم يزداد عددها سرعة كما لو كنا نرقبها من الأرض، حتى يبلغ عدد نجوم القدر الخامس عشر ٤٠ مليوناً. أما نجوم القدر السابع عشر والثامن عشر فلا تقع تحت حصر. فنستدل من ذلك على أننا لو سرنا في الفضاء بسرعة النور مليارات المليارات من السنين لما تغير شكله بالنسبة إلينا، ولما اختلفت مناظره كثيراً عما كانت عليه ونحن على الأرض.

ونقول الآن: إن الحياة موجودة في النظام الشمسي موجودة في الأرض بلا جدال، وموجودة في المريخ والزهرة على الغالب، وإن السيارات الأخرى كعطارد والمشتري وزحل وغيرها ليست قفراء، ولكن سكانها يختلفون عنا على ما يظن اختلافاً كبيراً في تركيبهم الكيماوي.

وكما أن للشمس ثماني سيارات يتألف منها نظامنا الشمسي، كذلك النجوم التي كل منها شمس هائلة فقد أثبت العلم أن للنجوم سيارات عديدة، ورصد العلماء أخيراً بعض هذه السيارات وعرفوا كثيراً عن أحوالها.

ولا يخفى أنه كان للعلوم الرياضية شأن كبير في الاكتشافات الفلكية، فلولاها لما اكتشف السيار نبتون، ولولاها لما عرف شيء كثير عن حقيقة العوالم السابحة في الفضاء اللامتناهي، وقد لجأ علماء الفلك إلى الرياضيات في تقدير عدد العوالم الآهلة بالسكان، فقالوا: إذا فرضنا أن لكل من النجوم المعروفة لدينا ثماني سيارات كما للشمس، وأن ثلاثاً من هذه السيارات الثماني تصلح للحياة، كان عدد العوالم الآهلة بالإحياء ٣٠٠ مليون أرض كأرضنا على أقل تقدير، لأن ما أحصي من النجوم حتى القدر الخامس عشر بلغ مائة مليون نجم إلى الآن. أما نجوم القدر السادس عشر والسابع عشر والثامن عشر الخ التي لا يحصيها عدّ ولا تقع تحت حصر، فلم تدخل في حسابنا، لأننا اقتصرنا على النجوم التي رصدها البشر ودرسوها. على أن ما قيل عن النجوم المعروفة يقال مثله عن النجوم التي لم يتوصل البشر بعد إلى معرفتها، وحينئذ يصير عدد العوالم الآهلة بالأحياء أعظم من أن يحدّه رقم أو يقع تحت حصر.

ولا ندري لماذا يكون بين سيارات النظام الشمسي سيارات تصلح للحياة، ولا يكون مثل ذلك بين سيارات النجوم، وقد ثبت أن النجوم ليست سوى شموس عظيمة لها سيارات كما للشمس، ولكل نجم منها نظام مستقل كالنظام الشمسي مرّ أو سيمرّ في مثل هذا الدور الذي تجتازه الشمس وتوابعها الآن. فكما أن النظام الشمسي كان سديماً واحداً، ثم تجزأ أجزاء عديدة، ثم جمدت هذه الأجزاء كذلك بعض النجوم، وكما أن نور الشمس يحتوي على أشعة ضرورية للحياة، كذلك نور النجوم، فضلاً عن أن المواد التي تتألف منها الشمس والسيارات هي المواد عينها التي تتألف منها النجوم كلها تقريباً. فلماذا نريد أن نحصر الحياة في نظامنا الشمسي، بل في الأرض التي نعيش على سطحها، وليست الحياة الأرضية من أرقاها «الإنسان» إلى أدناها «الإسفنج والمرجان» سوى نتيجة القوى الطبيعية العاملة في الأرض، وفي كل كوكب تتوافر لها فيه شروط العمل المتوافرة بلا جدال في جميع العوالم السماوية مهما اختلفت أحوالها.

والظاهر أن أقدم الأحياء الأرضية ظهر لما كانت المياه لا تزال حارة، ونشأ عن مزيج قوامه الكربون المتحد بالأوكسيجين والهيدروجين، ولم يكن لهذه الأحياء حينئذ سوى شعور طفيف كشعور الإسفنج والمرجان، ثم ظهرت اليابسة وظهرت معها الأحياء التي تتنفس، ومنها الأفاعي ثم الطيور والوحوش ثم الإنسان. فالكربون إذن هو العنصر الأساسي في الحياة الأرضية، وليست الكيميا العضلية سوى كيميا الكربون كما يقال، والكربون موجود في جميع السيارات التي لا بد أن تكون قد مرت أو ستمر في دور يمكنه من الاتحاد بالأوكسيجين والهيدروجين بفعل قوى الطبيعة العاملة في كل مكان، فتظهر بذلك الحياة كما ظهرت على الأرض.

وإذا لم يصح هذا القول إلاّ على سيارة واحدة من السيارات التابعة لكل نجم معروف كان لنا ١٠٠ مليون عالم آهلاً بالسكان. أما إذا صح على ثلاث سيارات كما يرجح أن يكون في السيارات التابعة للشمس فيزيد عدد العوالم المسكونة حينئذ على ٣٠٠ مليون، وإذا اتخذنا هذه النسبة أساساً للبحث فيما يحتمل أن تكون عليه السيارات التابعة للنجوم التي لم يتمكن العالم من التعرف إليها بعد. بلغ عدد العوالم المأهولة بأحياء كالأحياء الأرضية حداً لا يحصيه عدّ ولا يحده حدّ.

ولنعد الآن إلى البحث في الأحياء الذين يختلفون عن الأحياء الأرضية في تركيبهم الكيماوي.

لقد تقدم القول بأن الكربون هو قوام الأجسام الحية في الأرض، وإن للكربون خصائص ومزايا لا يظهر تأثيرها إلاّ في أحوال شبيهة بأحوال الأرض من الوجهة الطبيعية. لذلك لا يحتمل أن يكون فعله في نبتون مثلاً كفعله في الأرض، لاختلاف أحوال هذه السيارة من حيث الحرارة وكثافة النور وطبيعة المواد الموجودة فيها عنها في أرضنا، ولكن القول بأن هذه السيارة والسيارات الأخرى كالمشتري وزحل وأورانوس وغيرها غير صالحة للحياة، أبعد عن العقل والمنطق من القول بأن فيها أحياء يختلفون عنا في تركيبهم الكيماوي، لهم جهاز هضمي غير جهازنا، ورئات غير رئاتنا، وحواس غير حواسنا.

وإذا كان الكربون لا يصلح لأن يكون عنصراً جوهرياً لهذه الأحياء، ففي الطبيعة عناصر أخرى يمكنها أن تحل محله، لنأخذ عنصر السيليسيا مثلاً، فإنه شديد الشبه بالكربون، ينشأ عن اتحاده بالأوكسيجين حامض السيليسيك الموجود بكثرة في كل سيارة، وتظهر بعض تراكيبه بمظاهر غريبة منها خلايا كخلايا النبات، ونباتات كالنباتات الدنيا، على أن هذه الخلايا ليست حية، وإن تكن شبيهة بالخلايا الحية، ولكن من منا كان يعلم قبل سنوات ما نعلمه اليوم عن حياة الإسفنج، وما الذي يدلنا على أن عنصر السيليسيا ليس في العوالم الأخرى قواماً للحياة كالكربون في عالمنا الأرضي، وهو أكثر منه تحملاً للحرارة، فلا يحل في درجة شديدة الحرارة ولا يجمد في درجة شديدة البرودة.

والأحياء الذين يحتمل وجودهم في العوالم الأخرى ليسوا على شاكلتنا بلا جدال، فهيئاتهم غير هيئاتنا، وحواسهم غير حواسنا، وتركيبهم الكيماوي غير تركيبنا. ولسنا ندري لماذا يصعب على العقل التسليم بوجود حواس غير حواس البشر، وأحياء غير الأحياء الأرضيين، وكلنا يعلم أن الأرض بالنسبة إلى العوالم الأخرى أصغر من ذرة رمل في صحراء أفريقيا، وأن حواسنا قاصرة جداً عن إدراك كثير مما يقع حولنا.

خذ مثلاً اهتزازات أوتار العود، فإذا بلغت ٣٢ في الثانية أثرت في طبلة الأذن وأسمعتنا نغماً أو صوتاً، وكلما ازداد عدد الاهتزازات اختلفت الأصوات إلى أن تبلغ ١٠٣٤ اهتزازاً في الثانية، وتبدأ الأذن تتألم بعد ما يزيد عدد الاهتزازات على ٧٠٠٠ في الثانية، ومتى بلغ عددها ٣٢ ألفاً استحال على الأذن أن تسمع شيئاً، أما الاهتزازات التي يبلغ عددها ٣٤ مليارا في الثانية، فلا تقع تحت حاسة من حواس البشر لأنها تصير تموجات كهربائية. وتحدث التموجات التي يبلغ عددها بين ٣٤ ملياراً و٣٥ ملياراً في الثانية أشعة موجودة، ولكن العلم لم يعرفها بعد، وتختلف تموجات النور بين ٤٥٠ إلى ٧٥٠ تريليون في الثانية، وتبتدئ من الأحمر إلى البنفسجي مارّة بجميع الألوان، والتموجات الأقل عدداً من تموجات النور الأحمر هي أشعة الحرارة، والتموجات التي يزيد عددها على تموجات النور البنفسجي أي على ٧٥٠ تريليون في الثانية هي أشعة لا تؤثر في العين، ولكنها تؤثر في الألواح الفوتغرافية.

ومتى بلغت التموجات ٢٨٨ كترليون في الثانية نشأت عنها أشعة رنتجن، فلو أن بصرنا يحس بهذه التموجات لما كان للألوان أثر في الوجود، بل كانت الأرض تظهر لنا بمظهر غريب، فنرى البشر هياكل عظيمة، والأشجار عبادة عن سائل متجمد، وإذا شئنا حينئذ أن نتستر وجب علينا أن نرتدي لباساً من الزجاج والرصاص، وأن نجعل نوافذنا من الخشب بدلاً من الزجاج.

أما إذا استطاع بصرنا أن يشعر بتموجات أسرع من هذه التموجات، فإنه يرينا عجائب لا تخطر على بال إنسان. فهل يبعد أن يكون للأحياء غير الأرضيين حواس تجعلهم يشعرون بهذه الأشعة التي لا نشعر بها نحن لضعف حواسنا وقلتها.

إن الحركة هي أساس كل شيء في هذا الكون، فالتموجات تسع إذا كانت أقل من ٣٢ ألفاً في الثانية، ومتى زادت عن ذلك تحولت إلى ألوان ثم إلى أشعة كهربائية فنورية فكيماوية، ومعظمها لا يقع تحت حواسنا، وإن كنا نعرف نتائجه ونراها، فلماذا يصعب على العقل أن يسلم بإمكان وجود حواس غير حواس البشر تحس بهذه المظاهر وأمثالها.

إن جميع ما في الكون من عوالم ومجرات وشموس ونجوم وأقمار مرّ أو يمرّ الآن أو سيمر في المستقبل بمثل الدور الذي يجتازه اليوم عالمنا النجمي وعالمنا الشمسي، أي دور صالح لنمو الحياة، فقبل مئات الملايين من القرون كانت عوالم كثيرة كعالمنا الحالي موجودة في الطبيعة، ولكنها ليست العالم الذي نحن فيه، لأن تلك العوالم قد دمرت الآن، ولأن عالم اليوم لم يكن موجوداً في تلك الأثناء.

كانت حينئذ نجوم وشموس وأقمار وسيارات وأيام وليال وقرون وفصول وسنوات وأحياء وحوادث، ولكن غير النجوم والشموس والكواكب والأحياء الخ موجودة اليوم.

الأرض التي نحن عليها لم تكن قد تكوّنت بعد، بل كانت سديماً ليس فيه ماء ولا هواء ولا حياة ولا شيء من العناصر التي يسميها الكيماويون بسيطة كالهيدروجين والأوكسيجين والحديد والأزوت وغيرها، كانت كلها غازاً ملتهباً يحتوي على جراثيم الحياة وبذور الوجود إذا صح هذا التعبير.

الإنسانية وتاريخها والبشر ومجهوداتهم، وكل ما في الأرض من جماد وحيوان ونبات لم يكن موجوداً في هذا السديم إلا بهيئة نطفة أو جنين، ولم يكن محل الأرض سوى غاز متموّج في وسط الفضاء اللامتناهي، وقد قلنا محل الأرض وذلك خطأ، لأن الأرض كسائر النجوم والشموس والسيارات لا يمكث دقيقة في محل واحد بل تسير على الدوام في الفضاء الواسع.

لم تكن أرضنا موجودة حينئذ، بل كانت نجوم وشموس وسيارات أخرى آهلة بالسكان كما هي الحالة اليوم، كان هؤلاء السكان يعيشون ويموتون ويتألمون ويسرون ويحبون ويكرهون ويتكاثرون جيلاً بعد جيل مثلنا تقريباً، وكانت لهم حضارة وشرائع وعلوم وآداب تتناسب مع درجة رقيهم في مختلف الأدوار التي مروا بها.

وكانوا يعتقدون كما نعتقد أن الخليقة كلها تقف عندهم ولا تتعدى دائرة فلكهم، وقد انقرضوا كما سننقرض نحن، لأن الأبدية التي لا بداية ولا نهاية لها لا تجرف أمامها الممالك والدول والشعوب فقط، بل تجرف العوالم التي توالت وستتوالى إلى الأبد. أما الطبيعة فهي القوة الخالدة التي تعمل على الدوام، إنها باقية، وكل ما عداها فان، لأن الماضي والمستقبل غير موجودين في نظرنا، لأن الحاضر هو كل شيء بالنسبة إليها.

وإن محاولتنا البحث فيما كانت عليه هذه العوالم كمحاولة النملة درس تاريخ الأرض، فكما أن النملة تظن تاريخ البشرية محصوراً في تاريخ وكرها، كذلك نحن، وكما أنها تظن نفسها صاحبة الحقل الذي تعيش فيه، وتعتقد أن كل ما في الكون ملك لها، وتجهل وجود أحياء أخرى غيرها، كذلك

نحن بالنسبة إلى العوالم الأخرى، فما يمكننا والحالة هذه أن نعرفه عن العوالم المنقرضة أقل بكثير مما قد تعرفه النملة عن عالمنا الأرضي.

وليس من السهل على عقلنا المحدود أن يتصوّر الأبدية التي لا حد لها، وأن يقتنع بأن عوالم أخرى قبل عالمنا الحالي كانت تدور حول شموسها منذ الأزل، وأنه لم يكن لها بداية ولن يكون لها نهاية، ولكنها هي الحقيقة التي تدل على عظمة الخالق وجلال الخليقة.

وبعد مئات الملايين من القرون تصبح الأرض التي نحن عليها صحراء قاحلة، لأن عالمنا الشمسي لا يعود حينئذ صالحاً للحياة، بل تنطفئ الشمس وتظلم السيارات وتنقرض الأحياء منها، وستظل مواصلة سيرها في الفضاء الواسع ملايين الملايين من القرون إلى أن تصطدم بعالم آخر قد يعيد إليها الحرارة والنور والحياة بقوة هذا الاصطدام. ولكن السدم التي نراها الآن تكون قد تحولت حينئذ إلى شموس تدور حولها الكواكب، يتعاقب فيها الليل والنهار، وتنمو على سطحها الحياة، وهكذا على التوالي إلى ما لا نهاية له.

فالفضاء ممتلئ الآن بعوالم لا يحصيها عدّ، منها ما ظهر حديثاً أي منذ ملايين من السنين، ومنها ما بلغ دور الشيخوخة، ومنها ما أصبح في حالة الانحلال، ومنها ما لا يزال سدماً غازية، فهنا عوالم ممتلئة حياة، وهناك شموس منطفئة، وهنالك سدم في حالة التكوّن وقوى الطبيعة لا تنقص ولا تزيد، بل هي في حالة نشاط أبدي، تعمل على تحويل عوالم الكون من حال إلى حال، إذ لا شيء يعود إلى العدم في هذا الوجود.

إذن المستقبل كالماضي والعوالم المقبلة موجودة في الطبيعة كالعوالم المنقرضة، فإذا انطفأت شمسنا بعد ملايين من السنين، فإن الفضاء لا يكون خالياً حينئذ من شموس ونجوم وعوالم أخرى غير شمسنا ونجومنا وعالمنا، ولا من الحياة وإن تكن غير حياتنا، فما وجد قبلنا ومعنا سيوجد حتماً بعدنا في حالة لا تختلف كثيراً عن حالتنا.

ولكن كيف يمكننا أن نتصور ذلك، بل كيف يمكننا أن نستوعب الزمان والمكان إذا أخرجناهما من دائرة عالمنا المحدود، إن المكان موجود من تلقاء نفسه.

أما الزمان فلا وجود له إلاّ بالنسبة إلينا، لأن المكان يمكننا أن نتصوره فنعرف أنه فضاء خال أو ممتلئ كبير أو صغير يسع قليلاً أو كثيراً، فلو لم يكن العالم موجوداً لما عجزنا عن تصور المكان. أما الزمان فعلى عكس ذلك، إذ لو لم تكن الأرض موجودة تدور على محورها، ولو لم يكن الليل والنهار، لما وجدنا الزمان، فإذا زال الكون بقي المكان، ولكن الزمان يزول معه.

وما قولنا «اليوم» أو «غداً» إلاّ قول نسبي، لا يمكن أن يقال على إطلاقه، فإذا توقفت الأرض مثلاً في دورتها على محورها انتفى ما قصدناه بهذا القول، وإذا أسرعت الأرض في سيرها أسرع الزمان أيضاً معها، وهو لا وجود له بالنسبة إلينا ونحن نيام، فإذا نمنا مليون سنة فكأننا لم ننم سوى دقيقة واحدة، ثم إن الحاضر لا وجود له بالنسبة إلينا، فهل هو الساعة؟ كلا، لأن الساعة يمكن تقسيمها إلى ماض ومستقبل، وهل هو الدقيقة؟ كلا، لأن الدقيقة تقسم أيضاً، وكذلك الثانية والساعة والدقيقة، والثانية من مقاييس الزمن على سطح الأرض، ولا يمكن أن تتخذ كذلك في الكواكب الأخرى

حتى في أقربها إلينا، لاختلاف يومنا طولاً وقصراً عن يوم كل منها، بسبب السرعة في دورانها على محورها ودورتها حول الشمس.

فالزمان بالنسبة إلينا إما أن يكون ماضياً أو مقبلاً، أما الحاضر فإذا وجد على أرضنا فإنه يكون عشر الثانية على الأكثر، على أن الطبيعة لا تعرف إلاّ الحاضر، لأن الماضي وجد والمستقبل موجود في الماضي بالنسبة إليها، ولأن المقاييس التي نقيس بها الزمن نسبية لا يمكن إطلاقها على العوالم الأخرى، ولا تتفق مع الأبدية التي هي أهم خواص الطبيعة والوجود. اهـ.

أقول: أفلست ترى أن العدل واضح في هذا القول بحيث إن سكان كل كوكب يرون القدر الأول ١٩، والقدر الثاني ٦٠، والثالث ١٨٢، وهكذا يرى سكان كل كوكب كما يرى الآخرون. اهـ.

اللطيفة الثالثة: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾

قد تقدم الكلام على هذا المقام في سورة البقرة عند قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَـٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾[الآية: ١٤٣]، وعند قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ﴾[الآية: ١٣٠]، وأبنا هناك في هذين المقامين ما ينتظر من أمة الإسلام في مستقبل الزمان، وكيف كان أبناء إبراهيم الخليل قد أصبحوا اليوم تحت أمر الفرنجة، وأن ذلك بسبب جهلهم في الحجاز والشام ومصر وشمال أفريقيا، وأنه قد اقترب الوقت الذي يبنون فيه مجدهم، وآن أوان استيقاظهم، وأن تأخرهم لأنهم لم يقوموا بما قام به الخليل صلوات الله وسلامه عليه من الخصال الأربعين الموضحة هناك.

اللطيفة الرابعة: في الكلام على اليهود وأنهم ﴿ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾[البقرة: ٦١]

ولقد تقدم الكلام على ذلك هناك في سورة البقرة من الآيات التاليات لقوله تعالى: ﴿ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ ﴾ [البقرة: ٦٠] الخ، وهناك استبان كيف كان سقوطهم في هاوية الضلالة درجات بعضها فوق بعض بالترتيب الطبيعي، وهذا من أعجب العجب، فانظر كيف ذكر اليهود في سورة البقرة بصفات هي بعينها التي جاءت في سورة آل عمران، ولم يجعل لغيرهم كالنصارى والمجوس أو مشركي العرب. ذلك دلالة على أن الحقيقة هي هي لا تحيد عنهم شعرة.

اللطيفة الخامسة: ﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴾

لقد تقدم الكلام على الجنة والنار في سورة البقرة في قوله تعالى: ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَـٰفِرِينَ ﴾[آل عمران: ١٣١]، وسيأتي شرح أهمّ للجنة والنار في هذه السورة قريباً، ونذكر حقائق تسر الناظرين، وكيف كان الكشف الحديث مطابقاً للقرآن والحديث في بيان النار.

اللطيفة السادسة: اتخاذ البطانة من الكافرين

ولقد تقدم الكلام على ذلك في سورة البقرة في قوله تعالى: ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ ﴾[البقرة: ١٦٦] الخ.

القسم الثامن من سورة آل عمران

وفي هذا القسم أربعة فصول :

الفصل الأول : في نظام الدفاع عن البلاد الإسلامية والعقيدة الدينية والدعاية لها ، وهذا هو الجهاد الأصغر من قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ ﴾[الآية : ١٢١] إلى قوله تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[الآية:١٢٩] .

الفصل الثاني : في الجهاد الأكبر بحفظ ثروة البلاد فلا يكون الربا وبالطاعة وحسن الخلق والعفو الخ من قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً ﴾[الآية:١٣٠] إلى قوله تعالى : ﴿ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴾[الآية : ١٣٦] .

الفصل الثالث : في الاعتبار بالأمم السالفة وأنبيائهم ، فلما صبروا مع أنبيائهم نصروا وفازوا من قوله تعالى : ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ ﴾[الآية : ١٣٧] إلى قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ ﴾[الآية : ١٥٠] .

الفصل الرابع : تطبيق ذلك الاعتبار على هذه الأمة مع النبي صلى الله عليه وسلم من قوله تعالى : ﴿ سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ ﴾[الآية : ١٥١] إلى قوله تعالى : ﴿ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[الآية : ١٧٥] .

الفصل الأول

﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٢١) إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ (١٢٢) وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢٣) إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ (١٢٤) بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ (١٢٥) وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ (١٢٦) لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُواْ خَآئِبِينَ (١٢٧) لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ (١٢٨) وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٢٩) ﴾

تفسير هذا الفصل

روي أن المشركين نزلوا بأحد يوم الأربعاء ثاني عشر شوال سنة ثلاث من الهجرة ، فاستشار الرسول عليه الصلاة والسلام أصحابه ، ودعا عبد الله بن أبيّ ابن سلول ولم يدعه من قبل فاستشاره ، فقال عبد الله بن أبيّ ابن سلول : «كثر الأنصار يا رسول الله ، أقم بالمدينة ولا تخرج إليهم ، فوالله ما خرجنا منها إلى عدوّ قط إلاّ أصاب منا ، ولا دخلها علينا إلاّ أصبنا منه ، فكيف وأنت فينا ، فدعهم يا رسول الله ، فإن أقاموا أقاموا بشرّ مجلس ، وإن دخلوا قاتلتهم الرجال في وجوههم ورماهم النساء والصبيان بالحجارة من فوقهم ، وإن رجعوا رجعوا خائبين» ، وكان صلى الله عليه وسلم أميل إلى هذا الرأي ، وقال بعض أصحابه : اخرج بنا إلى هذه الأكالب لئلا يروا أنا جبنا عنهم وضعفنا وخفناهم ،

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إني قد رأيت في منامي بقراً فأولّتها خيراً، ورأيت في ذباب سيفي ثلماً فأولّتها هزيمة، ورأيت أني أدخلت يدي في درع حصينة فأولّتها المدينة، فإن رأيتم أن تقيموا بالمدينة وتدعوهم، فقال رجال فاتتهم بدر وأكرمهم الله بالشهادة يوم أحد: اخرج بنا إلى أعدائنا، وبالغوا حتى دخل فلبس لأمته، فلما رأوا ذلك ندموا على مبالغتهم، وقالوا: اصنع يا رسول الله ما رأيت، فقال: لا ينبغي لنبي أن يلبس لأمته فيضعها حتى يقاتل، فخرج بعد صلاة الجمعة، وأصبح بشعب أحد يوم السبت، ونزل في جانب الوادي وجعل ظهره وعسكره إلى أحد وصفهم، وأمر عبد الله بن جبير على الرماة، وقال: ادفعوا عنا بالنبل لا يأتوا من ورائنا، ثم قال: اثبتوا في هذا المقام، فإذا عاينوكم ولوا الأدبار فلا تطلبوا المدبرين ولا تخرجوا من هذا المقام، فلما علم عبد الله بن أبيّ ابن سلول ذلك شق عليه مخالفة رأيه، وقال لأصحابه: أطاع الولدان وعصاني، وأشار على قومه أن ينهزموا إذا رأوا العدو وحينئذ يتبعهم الجيش، وفي ذلك ما ينفي قول النبي صلى الله عليه وسلم إنهم إذا عاينوكم ولوا الأدبار وكان عسكر المسلمين ألفاً، وعسكر المشركين ثلاثة آلاف، وانخذل عبد الله بن أبيّ بثلاثمائة من أصحابه المنافقين، وثبت الله الباقين وهم سبعمائة، حتى هزموا المشركين، وحينئذ طمع المؤمنون أن تكون هذه كوقعة بدر، فطلبوا المدبرين مخالفين النبي صلى الله عليه وسلم، فرجع المشركون وكروا على المسلمين فانهزم المسلمون وبقي رسول الله صلى الله عليه وسلم في جماعة من أصحابه، كأبي بكر وعلي والعباس وطلحة وسعد رضي الله عنهم، وكسرت رباعيته صلى الله عليه وسلم، وشج وجهه الشريف، وكان من غزوة أحد ما كان.

فهذا قوله تعالى: ﴿ وَ ﴾ اذكر ﴿ إِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ ﴾ أي من حجرة عائشة رضي الله عنها ﴿ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ تنزلهم ﴿ مَقَٰعِدَ ﴾ مواضع ومواطن ﴿ لِلْقِتَالِ ﴾ فتتخذ عسكراً وتسوّي صفوفهم وتهيئهم ﴿ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ ﴾ لأقوالكم ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بنياتكم وما يصيبكم ويترككم مركز القتال لما انهزم عبد الله بن أبيّ ابن سلول. فهمت بنو سلمة من الخزرج وبنو حارثة من الأوس وهما كانا جناحي العسكر، فقوله: ﴿ إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ ﴾ متعلق بقوله: ﴿ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ فهو تعالى يقول: إني أعلم ما تقولون وما تضمرون يا بني سلمة، ويا بني حارثة هممتما ﴿ أَن تَفْشَلَا ﴾ أي تجبنا وتضعفا، وإني أعلم أن ما في قلوب هاتين الطائفتين لم يخرج عن حديث النفس، وما كان من حديث نفس فليس بذنب، فلذلك أعقبه بقوله: ﴿ وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ﴾ عاصمهما من اتباع ما خطر من حديث النفس، وناصرهما في الحرب، وحافظهما ومتولي أمورهما بالتوفيق والعصمة على ما تقتضيه الحال، فليكن جميع المؤمنين متوكلين على الله إذا فرغوا من المشاورة وأجمعوا أمرهم بينهم أن يقوموا بعمل، ولا يترددوا بعد تمام المشاورة. فهذا معنى قوله: ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ وهو إذن ينصرهم لأن يد الله مع الجماعة، فليفوّضوا أمورهم إليه في نتائج ما تمت الاستشارة فيه وتمّ العزم عليه، وليرضوا بما يأتي به القدر بعد ذلك، فإن النصر بيد الله بعد الأخذ بالأسباب المعقولة كما حصل في واقعة بدر، وبدر اسم لماء بين مكة والمدينة، كان لرجل يسمى بدراً، فسمي به. يقول تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ ﴾ ثلاثمائة وبضعة عشر أو ثلاثة عشر رجلاً ﴿ أَذِلَّةٌ ﴾ بقلة السلاح والمركوب والمال وعدم القدرة على مقاومة العدوّ، وكان الجماعة منكم يتعاقبون على البعير الواحد، وما معكم إلاّ فرس واحد، أما عدوكم من كفار

قريش فكانوا زهاء ألف مقاتل ومعهم السلاح والشوكة ، فلم يكن نصركم لضعف عدوكم أو لقوتكم وكثرتكم ، بل كان بالاتحاد والطاعة ، وما ترتب عليهما من نصر الله لجماعتكم ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾ في الثبات كما اتقيتموه في بدر ﴿ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ أي لعلكم تنالون نعم الله فتشكرون عليها ، وقوله : ﴿ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ظرف لـ« نصركم » ، يقول الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ ﴾ حين قلت للمؤمنين تقوية لقلوبهم وتثبيتاً لهم : ﴿ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴾ منكراً بالاستفهام ، ألا يكفيهم ذلك موقعاً الثبات والاطمئنان في قلوبهم ، وقد كانوا كالآيسين من النصر لضعفهم وقوة عدوّهم ، ولقد أمددناهم بألف ثم صيرناهم ثلاثة آلاف ، وقد أجاب عن هذا الاستفهام الإنكاري فقال : ﴿ بَلَىٰٓ ﴾ أي يكفيهم ذلك ، ثم وعدهم الزيادة على أجرهم وتقواهم حثاً عليهما وتقوية لقلوبهم فقال : ﴿ إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم ﴾ أي المشركون ﴿ مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا ﴾ من ساعتهم هذه ، وأصله مصدر من فارت القدر : إذا غلت ، فاستعير للسرعة ، ثم صار للحال التي لا ريث فيها ، والمعنى إن يأتوكم ﴿ يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴾ بكسر الواو ، معلمين أنفسهم وخيلهم بعلامة تعرف في الحرب ، والسومة والسيما : العلامة ، أو بفتحها ، أي : سوّمهم الله ﴿ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ ﴾ أي إسدادكم بالملائكة ﴿ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ ﴾ بالنصر ﴿ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ﴾ ولتسكن إليه من الخوف ﴿ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ لا من العدّة والعدد ، فلا حاجة في نصركم إلى مدد أو عدد ، وإنما وعدتكم بالمدد وأمددتكم ربطاً لقلوبكم ، لأن نظر العامة إلى الأسباب أكثر ، فأما الخاصة فإنهم يعلمون أن النصر من الله ﴿ ٱلْعَزِيزِ ﴾ الغالب ﴿ ٱلْحَكِيمِ ﴾ في نصره من يشاء ، وخذله من يريد على مقتضى سننه التي سنها ، وإنما نصركم ﴿ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ ﴾ بقتل بعض وأسر آخرين ، فإنكم قتلتم سبعين وأسرتم سبعين من صناديد قريش ﴿ أَوْ يَكْبِتَهُمْ ﴾ والكبت : شدة الغيظ ﴿ فَيَنقَلِبُواْ خَآئِبِينَ ﴾ فينهزموا منقطعي الآمال ، فنصركم بقتل بعض وأسر بعض وخيبة آخرين ، وإذن تكون « أو » للتنويع ، وإذا كنت أنا مالك أمرك وأمرهم ، ، النصر من عندي ، وأنا القاهر الحكيم في نصري من أشاء ، وخذلي من أشاء ، فإذن ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ ﴾ أي ليس لك من أمر خلقي شيء يا محمد ، إلاّ ما وافق أمري ، وإنّما أنت عبدي مبعوث لإنذارهم ومجاهدتهم ، وأنا أعلم بمصالحهم ، ثم عطف توبتهم وتعذيبهم ، وهما مصدران للفعلين المنصوبين بـ« أن » المضمرة على الأمر في قوله : ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ ﴾ فقال : ﴿ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ ﴾ لاستحقاقهم ذلك ﴿ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾ ، وهذه الآية تشير لأمور كثيرة : فمنها ما روي أن النبي صلى الله عليه وسلم دعا على عامر بن الطفيل لما قتل هو ومن معه سبعين رجلاً من أصحابه إذ أرسلهم إلى بئر معونة ، وهي بين مكة وعسفان وأرض هذيل في صفر سنة أربع من الهجرة على رأس أربعة أشهر من أحد ، وإنّما بعثهم ليعلموا الناس القرآن والعلم ، وكان أميرهم المنذر بن عمرو . وروى البخاري عن ابن عمر أنه كان يدعو عليهم إذا رفع رأسه من الركوع في الركعة الأخيرة من الفجر بعد ما يقول : « سمع الله لمن حمده ربنا لك الحمد » ، وروي أنه قنت في الصلوات كلها يدعو على تلك القبائل . وفي البخاري ومسلم أنه كان يقول : اللهم العن فلاناً وفلاناً لأحياء من العرب . ومنها أنه لما كسرت رباعيته وشج رأسه وجعل يسيل الدم منه جعل يقول : « كيف يفلح قوم شجوا نبيهم وكسروا رباعيته وهو يدعوهم إلى الله » . ومنها أنه قيل إن النبي صلى الله عليه وسلم كان

يدعو عليهم بالاستئصال. ومنها أنه لما قتل عمه حمزة ومثلوا به، أراد أن يدعو عليهم. فهذه الأمور وأمثالها أحزنت النبي صلى الله عليه وسلم فقال الله له: ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ ﴾ الآية، فأنا إنما ابتليت بعضكم ببعض وأمرتك بالجهاد لحكم أردتها ونتائج أعددتها، فإذا استجبت دعاءك فاستأصلتهم لم يكن ذلك موافقاً لسنني التي رتبتها، وسأجعل منهم نسلاً يدخلون دينك، ويحفظون شريعتك، ويعمرون أرضي، ويساعدون عبادي، فافعل ما تؤمر واصبر، وإذا كنت أستجيب الدعاء في مثل هذا في أعداؤك فبطل الجهاد، فمن أين تكون العزيمة والصبر اللذان لا يكونان إلا حيث يكون الأعداء أقوياء، والرجال العظماء لا سيما الأنبياء أعظم ما يتميزون به الصبر على الشدائد حتى يسموا «أولي العزم»، فذوو العزيمة هم الذين يغالبون الشدائد الطبيعية والعدو الإنساني. هذا بعض ما قضت به سنتي في خلقي، فليس لك يا محمد ولا لأحد من خلقي أن يقاومها، ﴿ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ [الأحزاب: ٦٢]. ألا وإن أعداءك يا محمد وأولياءك وجميع من في الأرض، والأرض نفسها والسماء ومن فيها، خلقي وملكي، فلي الأمر كله، فلذلك أعقبه بقوله موغلاً في نفي الأمر عن الخلق: ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ خلقاً وملكاً ﴿ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ﴾ فله الأمر لا لك، فربما هداهم فغفر لهم ﴿ وَٱللَّهُ غَفُورٌ ﴾ لعباده ﴿ رَّحِيمٌ ﴾ بهم، فلا تبادر إلى الدعاء عليهم. اهـ الفصل الأول في الجهاد الأصغر.

الفصل الثاني

في الجهاد الأكبر لحفظ ثروة البلاد فلا يكون الربا وبالطاعة وحسن الخلق والعفو

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾ ۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾ ﴾

لما فرغ من الكلام على الجهاد والمحافظة على الوطن وهي هنا المدينة، وعلى الصبر والثبات في الحرب، وأن النصر تابع لهما، وأن كل تأييد من الله لم يكن إلا على مقتضاهما، وما عدا ذلك فإنما هو غرور، شرع يذكر أصول ذلك وأساس بنيانه من المحافظة على الاقتصاد في البلاد، وحفظ الأموال حتى يتيسر للناس استثمار أموالهم، ومن الإنفاق في الأمور العامة وللفقراء والمساكين، ومن تهذيب النفوس بالصبر وكظم الغيظ والعفو فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً ﴾

لا تزيدوا زيادات متكررة، فإنهم كانوا في الجاهلية عند حلول الدين يزيدون المال ويؤخرون الأجل، فإذا كان لإنسان دين وجاء أجله ولم يكن للمديون ما يؤدي، قال له صاحب المال: زد في المال وأنا أزيدك في الأجل، ويفعلون ذلك مراراً فيصير الدين أضعافاً مضاعفة، وإنّما كرّر هذه الآية هنا وإن كان أصل الربا حراماً وإن لم يضاعف هذه المضاعفة، لأن هذا النهي عن أمر واقع كانوا يفعلونه فيما نهيتكم عنه راجين الفلاح في الدنيا والآخرة، ، كيف تفلحون في الدنيا كقتال العدوّ، وأنتم لا تعرفون طرق الحياة، ونظام الأمور والحروب لا تقام إلاّ بالمال، ولا مال إلاّ بصناعة وزراعة وتجارة وعمارة، فإذا اغتال الأغنياء منكم الفقراء فأرهقوهم بالدين والربا غلت أيديهم وشلت، ووقف دولاب الحركة الصناعية والزراعية والتجارية، ولا يظهر ذلك ظهوراً بيناً إلاّ في أيام الحروب، فإن خذلان الأمم يتبع سوء نظامها وضياع أفرادها، وماذا يفعل القوّاد إذا كان الشعب مغلول الأيدي ضعيفاً فقيراً مكسور الجناح. إن الدولة الروسية تمزقت شذر مذر في الحرب الكبرى في هذا القرن، لأن الشعب كان حسيراً ذليلاً فقيراً، فلم يقو على مقاومة الألمان، فقامت البلشفية ورأت أن الربا يجعل المال في يد الأغنياء فمنعته، بل جعلت الأمور موزعة تقريباً على الشعب، ولذلك قدرت أن تصدّ الأمم كلها عن فتح بلادها ببعض ما قامت به من نظام الأموال.

هذا الموجز يريك سر ذكر الربا في هذا المقام، وهو سر لا يكاد يفطن له الناس إلاّ لما قامت هذه الحرب فنبهتنا بل عرفتنا لماذا كسر المسلمون وشتتوا في القرون المتأخرة، ذلك لجهل ملوكهم واستبدادهم وضربهم على أيدي العلماء حتى صار المال قليلاً، وهذا القليل في أيدي الأغنياء وهم قليل أيضاً، فهزمتهم الفرنجة وغير الفرنجة. فهذا سر قوله تعالى: ﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ بعد الكلام في مسألة الربا، فتعجب من الحكمة ومن العلم المخزون في كتابنا المقدس، والمسلمون أكثرهم نائمون، ولما كانت هذه المعاني الشريفة العالية قلّ أن يتفطن لها الناس، أردفه بما يناسب العقول ويفقهه العامة والخاصة معاً، فقال: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴾ بأن تتركوا متابعتهم وتعاطي أفعالهم، فإذا عاملتم الناس بالربا كالجاهلية مستكم النار في الآخرة، وخذلتم في الدنيا في حروبكم ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ﴾ بترك المحرمات كالربا ونحوه وفعل الصدقات ﴿ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾ وَسَارِعُوٓاْ ﴾ بادروا ﴿ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ أي إلى الأسباب الموصلة إلى ذلك كالتوبة والإخلاص ﴿ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ ﴾ أي عرضها كعرضهما، وهذا كالتمثيل للدلالة على سعتها لأنه إذا كان العرض كذلك فكيف يكون الطول ﴿ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ هيئت لهم، ثم وصفهم على سبيل المدح فقال: ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ ﴾ في حالتي الشدة والرخاء، أي في جميع الأحوال، إذ الإنسان لا يخلو من مسرة أو مضرة، فهم ينفقون ما قدروا عليه ﴿ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ ﴾ المسكين عليه الكافين عنه مع القدرة، يقال: كظمت القربة: إذا ملأتها وشددت عليها، وفي الحديث: «من كظم غيظاً وهو يقدر على إنفاذه ملأ الله قلبه أمناً وإيماناً»، ﴿ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ﴾ التاركين عقوبة من استحقوا مؤاخذة، وعن النبي صلى الله عليه وسلم: «إن هؤلاء في أمتي قليل إلاّ من عصم الله» وقد كانوا كثيراً في الأمم التي مضت ﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ أي جنسهم ومنهم هؤلاء ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً ﴾ فعلة بالغة في القبيح كالزنا ﴿ أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ﴾ بأن أذنبوا أيّ ذنب كان دون الكبائر ﴿ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ ﴾ تذكروا وعيده وحقه

العظيم وحكمه والحرمان من جواره ، والطمع في مشاهدته والقرب منه ﴿ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ ﴾ بالندم والتوبة ﴿ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ أي لا يغفر الذنوب إلاّ الله ، وهذه جملة معترضة للحث على الاستغفار ، ولإطماع الناس في رحمته ﴿ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ ﴾ أي لم يقيموا على الذنوب ولم يثبتوا عليها ، بل تابوا منها واستغفروا ﴿ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ أنها معصية ، وأن لهم رباً يغفرها وأن الإصرار ضارّ ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ وهذه الجملة بيان لجملة ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ﴾ الخ ، يقول : إن لهم أمرين : تخلية وتحلية ، فالتخلية بالمغفرة ، والتحلية بالجنان ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا ﴾ في الجنات ﴿ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴾ والمخصوص بالمدح محذوف تقديره ذلك الجزاء والمغفرة .

ولعمرك كم من فارق بين جنة عرضها السماوات والأرض ينالها المرء بالمسارعة لعمل الخيرات وفعل المبرّات ، وجنة تجري من تحتها الأنهار لم يذكر سعتها ولا عجائبها ، بل اكتفى فيها بالأنهار ، فالأولى هي التي طلبت بالخيرات ، والثانية هي التي ذكرت أجراً لأولئك الذين أذنبوا ثم تابوا فغفر لهم فعدّ ذلك أجراً ، والأجر على التوبة شيء ، والثواب الواسع على الفضائل والأخلاق العالية شيء آخر ، فإحداهما جنة العارفين ، والثانية جنة الصالحين الذين يعبدون الله خوفاً لا حباً وغراماً وعشقاً للفضائل والكمال والجمال متبتلين .

الفصل الثالث

في الاعتبار بالأمم السالفة وأنبيائهم وأنهم لما صبروا فازوا

﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ (١٣٧) هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ (١٣٨) وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١٣٩) إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ (١٤٠) وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ (١٤١) أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ (١٤٢) وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ (١٤٣) وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِي۟ن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ (١٤٤) وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا ۗ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْءَاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ (١٤٥) وَكَأَيِّن مِّن نَّبِىٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ (١٤٦) وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ (١٤٧) فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْءَاخِرَةِ

﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَـٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّـٰصِرِينَ ﴿١٥٠﴾﴾

التفسير اللفظي

﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ﴾ وقائع سنها الله في الأمم قبلكم ﴿فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ لتعتبروا بما ترون من آثار هلاكهم ﴿هَـٰذَا﴾ القرآن عموماً وما جاء فيه من الاعتبار بالسير في الأرض خاصة ﴿بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى﴾ من الضلالة ﴿وَمَوْعِظَةٌ﴾ وهي ما يفيد الزجر ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾ لأنهم هم المتفعون به ﴿وَلَا تَهِنُوا۟﴾ ولا تضعفوا عن الجهاد ﴿وَلَا تَحْزَنُوا۟﴾ على من قتل منكم ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾ بالنصر والغلبة ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ مصدقين بأن ناصركم الله ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ﴾ بضم القاف وفتحها جرح يوم أحد ﴿فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ﴾ الكفار ﴿قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ﴾ يوم بدر ولم تضعف قلوبهم عن معاودتكم إلى القتال فأنتم أولى ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ نصرّفها بينهم نديل لهؤلاء تارة ولهؤلاء أخرى، كما قيل:

فيوم لنا ويوم علينا ... ويوماً نساء ويوماً نسرّ

والمراد بها أوقات النصر والغلبة، وإنما نداولها لضروب من التدبير ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي ليميز المؤمن المخلص ممن يرتدّ عن الدين إذا أصابته نكبة وشدة ومن يصبر على الجهاد من غيره، فالمراد بالعلم لازمه مجازاً ﴿وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ﴾ ويكرم ناساً منكم بالشهادة وهم من استشهدوا يوم أحد يشهدون يوم القيامة مع الأنبياء والصديقين على الأمم ويشهد الله لهم بالجنة ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ المشركين ودينهم ودولتهم فيكون نصرهم استدراجاً لا استشهاداً ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ﴾ يطهر ويصفي من الذنوب ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ إذا كانت الدولة عليهم ﴿وَيَمْحَقَ﴾ يهلك ﴿ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ إن كانت الدولة عليهم ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ﴾ بل أحسبتم؟ استفهام إنكاري ﴿أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ﴾ بلا قتال أيها المؤمنون ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَـٰهَدُوا۟ مِنكُمْ﴾ نفي العلم مجاز يراد به نفي المعلوم، أي أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يصدر الجهاد عنكم؟ ﴿وَيَعْلَمَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ معطوف على ما قبله أي ولما تجاهدوا وتصبروا ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ﴾ أيها الذين لم يشهدوا بدراً ﴿تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ﴾ بالشهادة في الحرب لتنالوا ما نال شهداء بدر فألحتم يوم أحد على الخروج ﴿مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ﴾ من قبل أن تلقوا يوم أحد ﴿فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ أي فقد رأيتموه معاينين له حين قتل دونكم من قتل من إخوانكم، وهو توبيخ لهم على أنهم تمنوا الحرب وتسببوا لها ثم جبنوا فانهزموا عنها، ولما رمى عبد الله بن قمئة الحارثي رسول الله صلى الله عليه وسلم بحجر فكسر رباعيته وشج فذبّ عنه مصعب بن عمير، وكان صاحب الراية، حتى قتله ابن قمئة وهو يرى أنه قتل النبي صلى الله عليه وسلم، فأعلن ذلك في الناس فانكفأ الناس وانهزموا، وجعل الرسول يدعو: إليّ عباد الله، نزل قوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ فسيخلو كما خلوا بموت أو بقتل. ولقد بقي أتباع الرسل على أديانهم بعد ما خلت أنبياؤهم، ثم أخذ يوبخهم بالاستفهام الإنكاري قائلاً: أتجهلون سنن الأنبياء السالفين ﴿أَفَإِي۟ن مَّاتَ﴾ محمد ﴿أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ﴾ ارتددتم عن الدين إلى دينكم الأول لخلوه بموت أو قتل يقال لكل من رجع إلى ما كان

عليه رجع وراءه ونكص على عقبيه ﴿ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ﴾ بارتداده بل يضر نفسه ﴿ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ على نعمة الإسلام بالثبات عليه كما فعل أنس بن النضر عم أنس ابن مالك، إذ قال: يا قوم إن كان قتل محمد فإن رب محمد حي لا يموت، وما تصنعون بالحياة بعده؟ فقاتل حتى قتل ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ بمشيئته كتب ذلك ﴿ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا ﴾ مؤقتاً لا يتقدم ولا يتأخر فلا الفرار ينجي منه ولا الإقدام يجلبه، ولقد تقدم أن الرماة خالفوا أمر النبي صلى الله عليه وسلم وأقبلوا على النهب وخلوا مكانهم، فانقض المشركون عليهم فكانت الهزيمة، فقال تعريضاً لهم: ﴿ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ﴾ ثواباً ﴿ وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ لنعم الله تعالى فلم تشغلهم الغنائم عن الجهاد ﴿ وَكَأَيِّن ﴾ أصله أيّ، دخلت عليها الكاف وصارت بمعنى كم، والنون تنوين أثبت في الخط على غير قياس ﴿ مِّن نَّبِيٍّ ﴾ بيان لـ «كأين» ﴿ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ ﴾ جماعات، والربي من الربة وهي الجماعة ﴿ فَمَا وَهَنُوا۟ ﴾ فتروا ﴿ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ ﴾ عن العدو ﴿ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ﴾ وما خضعوا للعدو، وهو من السكون، لأن الخاضع يسكن لصاحبه ليفعل به ما يريده ﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ لينصرهم ﴿ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ (١٤٧) فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ﴾ بالاستغفار والالتجاء إليه تعالى ﴿ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا ﴾ بالفتح والغنيمة ﴿ وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾ في الجنة ﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ الذين يفعلون مثل ما فعل هؤلاء ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ المنافقين ﴿ يَرُدُّوكُمْ ﴾ إلى الكفر ﴿ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴾ ذلك أن المنافقين قالوا للمؤمنين عند الهزيمة: ارجعوا إلى دينكم وإخوانكم ولو كان محمد نبياً ما قتل ﴿ بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ﴾ ناصركم ﴿ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ ﴾ فاستغنوا به عن ولاية غيره ونصره. انتهى التفسير اللفظي.

كأن الله تعالى يقول: إذا كنتم ذوي مبادئ شريفة وسنن قويمة فكيف تحزنون، وليست الحياة إلا بثمراتها ولا هذه الدنيا إلا بالأعمال فيها، فإذا أصاب امرأ الضراء لأجل المناقب الشريفة فكيف يهن وهو من الأعلين؟أو يحزن الفضلاء وقد امتلأت أفئدتهم بالإيمان بمبادئهم وأشربت قلوبهم العمل للفضيلة؟ فإما حياة عالية وإما موتة عاجلة، على أنني قد قسمت الأمر بين عبادي وجعلت الأيام دولاً فمن سره زمن ساءه زمن، وكيف لا يكون ذلك، ألم أجعل الحياة جهاداً، ألم أجعل بعضكم لبعض فتنة ثم قلت لكم أتصبرون؟ أولست قادراً أن أخلقكم نائمين على فراش الراحة تأكلون كما يأكل الدود، ولكن كلا، إن سنتي أن أجعل السعادة تابعة للأعمال، ولذلك خلقت البغضاء والحسد والغيرة والمنافسة، فلم أذر الوحش في وجاره، ولا الظبي في كناسه، ولا الأعرابي في باديته، ولا النبي الموحى إليه في قومه، بل سلطت كلاً على كل، ليكون ذلك سائقاً لأعمالهم، باعثاً على فضائلهم، مستخرجاً ما كمن في غرائزهم، وليس يكون هذا الوجود على غير هذا النظام. ألم تر إلى أهل قرطاجنة، وهي مدينة قرب تونس كانت على شاطئ البحر الأبيض يسكنها أناس نزحوا من سواحل الشام يسمون الفينيقيين، وقد حصلت بينهم وبين الرومانيين حروب متطاولة، وكان من قوّاد القرطاجنيين «أنيبال المشهور» فذاق منه الرومانيون طعم الموت، وقد أصلاهم ناراً حامية وأذاقهم العذاب الهون، فانقضّ الرومانيون على نفس قرطاجنة وخربوها، وفرّقوا أهلها شذر مذر، وانتصر الغرب على الشرق، فقال

حكيم من حكمائهم : إن موت أعدائنا موت لنا ، وستذهب دولتنا ، فقالوا له : لماذا؟ فقال : لأن الأمة التي لا عدو لها يناوئها تصبح ساهية لاهية نائمة على وساد الراحة ، فتهلكها الشهوات وتموت بالحسرات ، وكيف يظهر في أبنائها المواهب ، أو ينبغ من بنيها الشجعان الجحاجيح إلاّ بالعدو المغير ، فذلك هو الذي يستخرج منها الفضائل وينفي عنها الرذائل باستعدادها لمناوءته واستبسالها لمحاربته . ولقد كان ما قاله ، وسمنت رومة وعظم أمرها وترفت فمزقت كل ممزق في الأزمان القديمة ، وقامت على أنقاضها أوروبا الحديثة . فهذا كله سر قوله تعالى : ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ ﴾ فإذا لم تكن مداولة وتم الأمر لبعض الناس أطغاهم العيش الهنيء ﴿ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾[الشورى:٢٧] ومتى بغوا وطغوا هلكوا بالبطنة والجهالة والترف والنعيم ، ثم قال : أتحسبون أن السعادة تنال بغير الأعمال أو الجنة في الآخرة بمجرد الإيمان؟ ثم قال : كيف تجهلون سنن الأمم السالفة في الأيام الخالية والدول الفائتة ، وما الأنبياء إلاّ قوّاد الأمم في العلم والدين ، والأمم ترث ذلك عنهم ، فالأمر ليس إلى الأنبياء ، إنّما هم مبلغون ورسل ، والرسول عليه البلاغ وعلينا الحساب ، وكيف تعصون المرسل إذا مات الرسول ، وكيف تذرون رسالتي التي أرسلتها وأوامري التي أمرتكم بها إذا مات رسولي أو قتل ، وهل ذلك شأنكم فيما بينكم أن تعلقوا صلتكم بمن يكاتبونكم من الذين تودونهم من أمثالكم على حياة الرسل الذين يرسلونهم إليكم ، فكيف تجعلون صلتكم بي وعبادتي وطاعتي معلقات على بقاء رسولي ، فإذا مات الرسول فأنا الحي الذي لا يموت . أيها الناس إنّما هي سنن أنزلتها ، وآيات أحكمتها ، وعلوم فيكم أفشيتها ، وحكم أبدعتها ، فكيف تعكسون الأمور وتضلون الجمهور وتذرون النور ، وأنا الذي هديتكم ، فليس إيمانكم بي لأجل حياة محمد ، بل للسنن المسنونة ، والأحكام المنصوبة ، العلوم الفاشية ، والآيات القائمة ، وكيف يضلون بعد أن جاءهم الهدى فيعتمدوا على العظماء وكبار الدولة ، فإذا كان هذا في حق الأنبياء فكيف بغيرهم؟ فإياكم أن تكونوا أسرى الأوهام فتعتمدوا على قوّادكم أو تهنوا بموتهم ، فلتكن الحمية في المرؤوسين كالرؤساء . أقول : ولعمري ما أضل أمة الإسلام ولا أخل بنظامها إلاّ الاعتماد على الرؤساء والخضوع التام لملوكهم ، فاستبدوا بهم خاضعين وأذلوهم مخدوعين وقتلوا رجالهم واستحيوا نساءهم وهم خاضعون ، ألم تعلموا أن العالم سائر على نظام محدود وسنن ثابتة ، وأن الآجال مقدّرة في كتاب ، وليس ما أنتم فيه إلاّ لترقية أنفسكم وتعليمكم وتهذيبكم ، فكيف تجبنون ولا ينالكم إلاّ ما سيكون وثمرات الأعمال تابعات لها ، فمن كانت همته للحيلة وغنائمها أو لارتقاء النفوس للحياة الآخرة أوتي كل منهما على حسب نيته في همته . ألم تروا إلى الأنبياء قبلكم مع أممهم وجموعهم العظيمة ، كيف صبروا على القتال وفازوا بالنوال ، ولم يهنوا لمصيبة ، ولم يضعفوا لعظيمة ، ولم يستنيموا لأعدائهم بل ظلوا ثابتين ، ولو أني أيها الناس جعلت الفوز الدائم مكرمة ، والنعمة والعافية غاية هذه الحياة الدنيا ، لكان الأولى بها رسولي ، فإني منعته أن يدعو على الأعداء ، وقلت له : ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ ﴾ ولم يفعل من الأمر إلاّ ما أوحيته إليه ، فأما ألا يكون له عدو فلا ، فأنا الذي خلقت الأعداء والعداوة وأمرتكم بالمحاربة لظهور الفضائل .

فكأنه سبحانه لما أمر رسوله بالصبر حتى منعه من الدعاء على الأعداء ، فلا يدعو باستئصالهم خاطب الشعب كله آمراً لهم بالثبات ، فلا يفرون من عدوهم ، كأنه يقال : لا مناص من العداوة والأعداء

للأنبياء وأتباعهم. انظر إلى حكم الله عزّ وجلّ في القرآن، وكيف كان الصبر على مقاومة الأعداء وغيرهم أجلّ شيء.

ولهذه المناسبة أذكر هنا قطعتين من الشعر نظمتهما: الأولى مترجمة من كلام «شكسبير» الشاعر الإفرنجي، والثانية تخميس لأبيات عربية.

القطعة الأولى

فوائد الآلام الطبيعية للإنسان من شعر شكسبير الشاعر الإنجليزي

يا صاحبيّ تقصيا نظريكما ... في حال منفانا وبعد الدار
أو ما ترون البدو في قفر وفي ... شظف الحياة هنا وخبز قفار
أصفى وأهنا من معيشة حاضر ... كالقبر مطلياً بذوب نضار
بل هذه الشجرات في الفلوات أبـ ... ـهج منظراً في الصبح والإسحار
من ساحة الملك الرفيع عماده ... ما بين حساد وبين ضواري
إنا وإن كانت خطيئة آدم ... حقت علينا سنة الأقدار
فتتابعت نوب الحوادث خلفة ... والصيف يتلوه الشتاء العاري
والثلج عضّ بنابه والريح تـ ... ـزجرنا ببطش الصرّ والإعصار
فأظل مرتعداً وتنذرني فما ... ذاكم سوى التعليم والتذكار
عريت عن الملق الذميم وإنّما ... آيات وعظ فصلت للقاري
إن المواهب كالمعاطب صوّرت ... شوهاء أقذت أعين النظار
إن النوائب حية رقطاء في ... أنيابها السمّ الزعاف الساري
لكن في فيها جواهر أخفيت ... تزهو على التيجان يوم فخار
هذي الحياة وإن تكن في قفرة ... فالعلم فيها صفوة الأسرار
فصوامت الأحجار فيه نواطق ... والكتب في شجر ونهر جاري
فبأيّ آلاء الإله تكذبا ... ن وأنها قبس من الأنوار

القطعة الثانية

قال بعض القدماء:

عداي لهم فضل عليّ ومنة ... فلا أبعد الرحمن عني الأعاديا
همُ بحثوا عن زلتي فاجتنبتها ... وهم نافسوني فاجتنيت المعاليا
فلست بهياب لمن لا يهابني ... ولست أرى للمرء ما لا يرى ليا
كلانا غنيّ عن أخيه حياته ... ونحن إذا متنا أشدّ تفانيا

فقلت مخمساً هذه الأبيات:

إذا ما اعترتني في الحوادث محنة ... تبدّت لنفسي في المعارف سنة
وإن يحسد الأعدا بدت لي فطنة ... عداي لهم فضل علـي ومنة

فلا أبعد الرحمن عني الأعاديا

لقد علموا آداب نفس سبرتها وهذبتها حتى استقامت وصنتها
ولم ألم الأعداء لا بل شكرتها هم بحثوا عن زلتي فاجتنبتها
وهم نافسوني فاجتنيت المعاليا
ولي همة فوق الثريا تقلني فأثني عناني للفتى حين يثنني
وأضرب عنه الذكر صفحاً ولا أني فلست بهياب لمن لا يهابني
ولست أرى للمرء ما لا يرى ليا
وإني امرؤ بالعلم أكمل ذاته فلا طمع في الصحب إلا أماته
ولست أداري المرء إلا تقاته كلانا غني عن أخيه حياته
ونحن إذا متنا أشد تفانيا

هذا، ولنرجع إلى أصل الموضوع فنقول:

قال الله تعالى: أيها الناس لا تطيعوا الذين كفروا وهم المنافقون إذ قال بعضهم: استكينوا لأبي سفيان وأشياعه واستأمنوهم، فإن تطيعوهم يردوكم إلى دينهم، وهكذا كل كافر، فإن مطاوعته تدعو إلى النزول على حكمهم وموافقتهم.

ولعمري إن هذا هو ما عليه المسلمون الآن، فإن الله يقول هنا: ﴿إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ﴾ ولقد صدق الله وعيده، وحقت الكلمة على المسلمين الذين في زماننا والذين قبلهم، إذ طاوعوا الفرنجة فاستذلوا لهم، وشربوا خمرهم، ولبسوا اللباس الذي ينسجونه في بلادهم، ومن الجهل الفاشي في أمة الإسلام اليوم الغفلة المستحكمة، والنذالة الفاشية، والجهالة الغاشمة، والموتة العمياء، والداهية الدهياء، أن الفرنجة ضحكوا على العقول، وبصقوا في الوجوه، وأخمدوا النفوس، فماذا فعلوا؟ زينوا للمسلمين كل فسوق وفجور، وأولع بهم المترفون والشرفاء والمتعلمون في المدارس، ولا يزالون يقلدونهم ويشربون في حاناتهم ويأكلون في مطاعمهم ويذرون بيوتهم، وإذا احتفلوا بعظمائهم لا يهنأ لهم ذلك إلا فيما بناه الفرنجة في ديارهم، كأنهم لا عقول لهم ولا أسماع ولا أبصار، وهم لا يعلمون أن ذلك إخضاع لهم، واستنزاف لثروتهم، وشين لسجيتهم، ألا ساء ما يعمل الجاهلون.

فهذه من طاعة المسلمين العمياء وجهالتهم، حتى صاروا عبيداً خاضعين وأذلاء مسخرين، وما تفطن لذلك إلا الرجل الحازم «غاندي» الزعيم الهندي. فهو الذي أمر أهل الهند أن يلبسوا ما يصنعونه في بلادهم، فقد عمل بمقتضى هذه الآية، وإن كان لا يعلم ذلك، والمسلمون في الشرق الأدنى غافلون، وسيقوم فيهم مرشدون وسيعلمون ويعملون. انتهى تفسير الفصل الثالث.

درس على ما حصل في أحد وتطبيق حال الأمم على هذه الأمة والاعتبار بذلك كله

الفصل الرابع

﴿سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا ۖ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۚ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥١﴾ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا

فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا
وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى
ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾ ۞ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ
فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ
﴿١٥٣﴾ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ
يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ
لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ
قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى
صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ
ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟ ۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ
﴿١٥٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ
أَوْ كَانُوا۟ غُزًّى لَّوْ كَانُوا۟ عِندَنَا مَا مَاتُوا۟ وَمَا قُتِلُوا۟ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ
يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ
وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ
ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ
وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ إِن يَنصُرْكُمُ
ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ
ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾ وَمَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَغُلَّ ۚ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ
مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾ أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۚ
وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾ هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى
ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ
وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾ أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم
مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾ وَمَآ أَصَٰبَكُمْ
يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟
قَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ
مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ ٱلَّذِينَ
قَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُوا۟ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا۟ ۗ قُلْ فَٱدْرَءُوا۟ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ

صَٰدِقِينَ ﴿١٦٨﴾ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾ ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾ ﴾

التفسير اللفظي

لما قذف الله تعالى في قلوب الكفار يوم أحد الرعب، نادى أبو سفيان: يا محمد موعدنا موسم بدر لقابل إن شئت. فقال صلى الله عليه وسلم: إن شاء الله، ولما رجعوا وكانوا ببعض الطريق ندموا وأرادوا أن يرجعوا، فألقى الله الرعب في قلوبهم وهو قوله تعالى: ﴿ سَنُلْقِى ﴾ نقذف ﴿ فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ ﴾ الخوف ﴿ بِمَآ أَشْرَكُوا۟ بِٱللَّهِ ﴾ بسبب إشراكهم به ﴿ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا ﴾ أي آلهة ليس على إشراكها حجة لهم، وأصل السلطنة القوة ﴿ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۚ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ النار ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ ﴾ إياكم بالنصر وشرط التقوى في ذلك، والصبر فصبرتم واتقيتم وضربتموهم فانهزموا على آثارهم ﴿ إِذْ تَحُسُّونَهُم ﴾ تقتلونهم، من حسه: إذا أبطل حسه ﴿ بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ ﴾ جبنتم لما لم تتقوا فخالفتم وانطلقتم من أمكنتكم إلى الغنيمة ﴿ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ﴾ فقال قوم من الرماة منكم: ما موقفنا هنا وقد انهزم المشركون، وقال آخرون: لا نخالف أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم، فثبت أمير الرماة عبد الله بن جبير في نفر يسير دون العشرة ونفر الباقون للنهب، فلما رأى خالد بن الوليد وعكرمة بن أبي جهل ذلك حملوا على الرماة الذين ثبتوا مع عبد الله بن جبير فقتلوا عبد الله بن جبير وأصحابه وأقبلوا على المسلمين فانهزمتم ﴿ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ﴾ من الظفر والغنيمة وانهزام العدو، وجواب الشرط وهو «إذا» محذوف: أي امتحنكم فكنتم عند الامتحان فريقين ﴿ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا ﴾ وهم التاركون مراكزهم ﴿ وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ﴾ وهو أمير الرماة ومن معه ﴿ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ ﴾ كفكم عنهم فغلبوكم ﴿ لِيَبْتَلِيَكُمْ ﴾ على المصائب ويمتحنكم أتصبرون؟ ﴿ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ﴾ تفضلاً لما علم أنهم ندموا على المخالفة ﴿ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ في الابتلاء بالمصائب كإغداق النعم، كلاهما فضل منه، وقوله: ﴿ إِذْ تُصْعِدُونَ ﴾ من الإصعاد: وهو الذهاب والإبعاد في الأرض، متعلق بقوله: ﴿ لِيَبْتَلِيَكُمْ ﴾، ﴿ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ ﴾ ولا يقف أحد لأحد ﴿ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ ﴾ من خلفكم يقول: «إليّ عباد الله أنا رسول الله، من يكرّ فله الجنة»، وكان إذ ذاك فوق الصخرة، وأول من عرفه كعب بن مالك رضي الله عنه. قال: عرفت عينيه تزهران تحت المغفر فناديت بأعلى صوتي: يا معشر المسلمين

أبشروا هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم فأشار إليّ أن اسكت فانحازت إليه طائفة من أصحابه فلامهم صلى الله عليه وسلم على الفرار، ثم عطف على قوله: ﴿ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ ﴾ قوله: ﴿ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا ﴾ بما فاتكم من الظفر والغنيمة بما ذقتم من القتل والجرح وبما سمعتم من الإرجاف بموت الرسول ﴿ بِغَمٍّ ﴾ بسبب اغتمام أذقتموه الرسول بعصيانكم له، وإنما أثابكم أي جازاكم هذه المجازاة لتتمرنوا على الشدائد ولتقووا على النوائب، ومن عركه الدهر وأصلت ناره الحامية جسمه بلهيبها وذاق ألوان الشدائد وحلب شطري الدهر أصبح صلباً قوياً، بل لا سعادة لمن لم تقوّه الحوادث الجسمية، ولا راحة لمن لم تعركه الحوادث عركاً، ولم تذوّب نار الحوادث جوهره في بوائق الآلام، فيكون إذ ذاك معدناً نقياً خالصاً خلصته نار الحوادث ونفخ عليه الدهر في كيره فصار ذهباً إبريزاً فكان ذلك التمرين ﴿ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ ﴾ من منافع ترجونها ﴿ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ ﴾ من مضار ذقتم آلامها ﴿ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ فلذلك جعل عملكم بين السار والضار ابتلاء بالنعم وامتحاناً بالنقم في سائر أطوار حياتكم، ولكن هذه الحادثة أعظم الحوادث أثرا في حياتكم، فهي جديرة أن تجعلكم مستصغرين كل عظيمة من المصائب، فإنها أقل منها خطراً وأضعف أثراً ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً ﴾ أمناً ﴿ نُّعَاسًا ﴾ بدل من أمنة. عن أبي طلحة رضي الله عنه قال: «كنت فيمن يغشاهم النعاس يوم أحد حتى سقط سيفي من يدي مراراً، يسقط وآخذه يسقط وآخذه»، وقال: رفعت رأسي يوم أحد فجعلت أراهم وما منهم يومئذ أحد إلاّ يميد تحت حجفته من النعاس.

وقال نحوه الزبير بن العوام، ومن قوله: إني لأسمع قول معتب بن قشير والنعاس يغشاني ما أسمعه إلا كالحلم، يقول: لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا هاهنا، وهذا قوله تعالى يصف لفظ نعاساً ﴿ يَغْشَىٰ طَائِفَةً مِّنكُمْ ﴾ وهم المؤمنون المخلصون ﴿ وَطَائِفَةٌ ﴾ وهم المنافقون ﴿ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ ﴾ لا يهتمون إلا بخلاصها ﴿ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ ﴾ صفة ثانية لطائفة الذين يزعمون أن الأنبياء متحكمون في قضاء الله وقدره، وأنه إذا أرسل نبياً فكأنما أخرجه من طور البشرية، وأبعده عن كل فتنة وبلية، وأصبح يقول للشيء كن فيكون، وكيف يكون كذلك؟ألم يرد في هذه السورة لنفس نبيكم صلى الله عليه وسلم: ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ﴾[آل عمران: ١٢٨] وحرّمت عليه أن يدعو على أعدائه بالاستئصال، بل قلت فوق ذلك: إن ما في السماوات وما في الأرض لي فلي الغفران ولي الرحمة ورحمتي وسعت كل شيء، فربما أسلم منهم قوم، وربما أسلم أبناؤهم، بهذا يخاطب رسولكم ثم ترجعون إلى سيرة الجاهلية فيقول قائل منكم: ﴿ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ ﴾ أي ما لنا معاشر المسلمين من أمر النصر والغلبة على العدو شيء ﴿ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ ﴾ أي النصر والغلبة ﴿ كُلَّهُ لِلَّهِ ﴾ فليس لكم من الأمر شيء، كما لم يكن لنبي من الأنبياء ذلك، وإنما يعطيه الله للصابرين المؤمنين من فضله على حسب الاستعداد ومقتضى الحكمة، وهذه الجملة المعترضة بين صاحب الحال في «يقولون» وبين الجملة الحالية وهي: ﴿ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ﴾ لأن هذا القول فاتحة الشك وظن السوء والرجوع للجاهلية الأولى، كبعض عامة الأمم الذين يرون أن الله متى اصطفى عبداً من عباده أغدق عليه النعم الدنيوية، وأزاح عنه العلل البدنية، وأرسل على أعدائه كل قاصمة للظهر قاطعة للعمر، فأبعده من الوجود كعاد وثمود، أو قضى حياته في خمود.

ذلك رأي الجاهلين من أهل مكة الذين قالوا كما في سورة الإسراء: ﴿ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴾[الآية: ٩٠] أي تفجر لنا من أرض مكة وهي قاحلة ينبوعاً ﴿ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴾[الآية: ٩١] أي يكون لك بستان يشتمل على ذلك ﴿ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا ﴾ أي قطعاً ﴿ أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴾[الآية: ٩٢] أي كفيلاً بما تدّعيه أو شاهداً على صحته ضامناً لدركه، وهكذا إلى آخر المسائل الست التي اقترحوها، كما ستراه هناك إن شاء الله تعالى.

فهذا نوع آراء الجاهلية الأولى في الأنبياء؛ فالرسل والأنبياء في نظرهم فوق القدر مسلطون على السماوات العلى والأرض وما حوت؛ وهم أشبه بالعظماء في الممالك المستبدة، الذين يأمرون فيطاعون، وإذا كان هؤلاء مقربين من ربهم. فهذا معناه أنهم مسلطون على ملكه متى طلبوا أجيبوا، فهؤلاء لا يألمون من شيء إلا أهلكه الله ولا يطلبون شيئاً إلا أحضره الله.

هذا رأي الجاهلية بل هذا رأي العامة في زماننا وفي كل زمان، يرون أن العابدين الصالحين أمرهم كذلك، وأن المقرب من الله هكذا يكون، فيتملقون للصالحين العابدين لأجل أن يزيحوا عنهم البلايا ويخرجوهم من مضض الشقاوات في الحياة. هكذا هؤلاء الذين يقولون: هل لنا من الأمر من شيء، أي أليس نبينا محبوباً لله، والله هو المالك لهذا العالم؟ وكيف يكون المصطفى المختار عنده مهزوماً بجيشه مقهوراً من أعداء الله وأعداء الرسول؟ فلو كان نبياً ما سلط الله عليه هؤلاء الأعداء، فهذا هو الذي أخفوه في مضمون قولهم: ﴿هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَيْءٍ﴾ ثم أبان ذلك أشد إبانة وأوضحها فقال على سبيل الاستئناف: ﴿ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ﴾ أي لما غلبنا وقتل من قتل منا، فأجابهم الله على لسان رسوله يقول: أنا لم أخلق العالم بلا نظام، وإنما أنا أبدعته بسابق علم وأحكمته أشدّ إحكام، فلكل امرئ مصرعه ولكل أجل كتاب، ولكني جعلت الأسباب مقدمات المسببات، لأربي فيكم الإرادة وأقوي العزيمة، وأستخرج من هذه المادة المظلمة نفوساً مشرقة أفعل معها كما يفعل المختبرون، فإذا أخرجتكم للحرب وحكمت عليكم بالهزيمة في أحد فذلك لأبين لكم قويّ العزيمة وضعيفها، وأميز الخبيث من الطيب، وهل يمتاز الذهب الإبريز إلا بإيقاد النار، كما لا يمتاز الشجعان الصادقو الإيمان والعزيمة إلا بالنوازل العظيمة والفوادح العميمة. فهذا قوله تعالى: ﴿ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ ﴾ في المدينة ﴿ لَبَرَزَ ﴾ لخرج ﴿ ٱلَّذِينَ كُتِبَ ﴾ قضى ﴿ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ﴾ أي إلى مصارعهم بأحد، وإنما حكم الله بالحرب والقتال لحكم عنكم أخفاها وعجائب علمها ﴿ وَلِيَبْتَلِيَ ٱللَّهُ ﴾ ويختبر ﴿ مَا فِي صُدُورِكُمْ ﴾ أي يظهر ما اختبأ في صدوركم، حتى يتبين لكم وللرسول، القوي إيمانه والضعيف في دينه ﴿ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ يطهرها من الشك والارتياب بما أعطاكم من الأمنة وما غشاكم به من النعاس وما أنعم عليكم به من صرف العدو عنكم، فهذه دروس الإيمان ليثبته في قلوبكم ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ بخفياتها وأنتم لا تعلمون، فلذلك أظهرها لكم بهذه الامتحانات التي ألقاها عليكم في أحد، فالله عالم من الأزل وأنتم تعلمون الآن بما يظهر من العمل.

واعلموا أيها المؤمنون أن الذنوب يتبع بعضها بعضاً، فلاحقها تابع لسابقها حذو النعل بالنعل، وكل ذنب يستتبع ذنباً فيكون اللاحق عقاباً على السابق كما يكون اللاحق من المبرّات كالثواب للسابق

منها، وهذا معنى قوله مبيناً السبب في ترك الرماة مراكزهم وانطلاقهم إلى الغنيمة ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟﴾ انهزموا ﴿مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾ جمع محمد صلى الله عليه وسلم وجمع أبي سفيان بأحد ﴿إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ﴾ دعاهم إلى الزلة وحملهم عليها ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ تجاوز عنهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ للذنوب ﴿حَلِيمٌ﴾ لا يعجل بالعقوبة؛ ثم إن هؤلاء الذين تركوا مراكزهم تبعهم أكثر المحاربين ولم يبق مع النبي صلى الله عليه وسلم إلا أربعة عشر رجلاً، سبعة من المهاجرين وسبعة من الأنصار، وكان فيهم أبو بكر وعمر وعلي وطلحة بن عبيد الله وعبد الرحمن بن عوف والزبير وسعد بن أبي وقاص ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ﴾ لأجل إخوانهم في النسب أو المذهب ﴿إِذَا ضَرَبُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ سافروا فيها وأبعدوا للتجارة أو غيرها فماتوا ﴿أَوْ كَانُوا۟ غُزًّى﴾ جمع غاز كعاف وعفيّ فقتلوا ﴿لَّوْ كَانُوا۟ عِندَنَا مَا مَاتُوا۟﴾ كما ماتوا في سفرهم ﴿وَمَا قُتِلُوا۟﴾ كما قتلوا في غزوهم، هذه الجملة مفعول «قالوا»، وإنما قالوا ذلك لتكون عاقبته أن يكون حسرة في قلوبهم، فهذا قوله: ﴿لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ﴾ فاللام لام العاقبة مثلها في قوله تعالى: ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص: ٨] فرد الله عليهم قائلاً: ليس السفر والغزو هما سبب الموت، ولا الإقامة سبب الحياة ﴿وَٱللَّهُ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ﴾ في سبيله، وجواب القسم قوله: ﴿لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ من الدنيا ﴿وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ﴾ على أي وجه اتفق هلاككم ﴿لَإِلَى ٱللَّهِ﴾ لا إلى غيره ﴿تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ فبما ﴿رَحْمَةٍ﴾ فبرحمة، و«ما» زائدة ﴿مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا﴾ سيئ الخلق جافياً ﴿غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ﴾ قاسيه ﴿لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾ تفرقوا عنك ولم يسكنوا إليك ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ﴾ فيما يختص بك ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ فيما لله تعالى ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ أمر الحرب وفي كل ما يصح أن يشاور فيه ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ﴾ وطنت نفسك على رأي بعد ما شاورتهم ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ في إمضاء أمرك على ما هو أصلح لك ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ الذين لا يترددون في أمورهم بعد إتمام المشورة واتفاق الرأي فينصرهم ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ﴾ كما نصركم يوم بدر ﴿فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾ فلا أحد يغلبكم ﴿وَإِن يَخْذُلْكُمْ﴾ كما خذلكم يوم أحد ﴿فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ﴾ من بعد الله ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ بإمضاء ما عزموا عليه بعد التفكير وأخذ سائر أسباب الحيطة كما حصل يوم أحد من صف الصفوف في الحرب وإقامة كل في مركزه وبالمخالفة انهزم الجيش.

قيل إنه لما ترك الرماة مراكزهم قال صلى الله عليه وسلم لهم: ألم أعهد إليكم ألا تتركوا المراكز حتى يأتيكم أمري؟ قالوا: تركنا بقية إخواننا وقوفاً، قال النبي صلى الله عليه وسلم: بل ظننتم أنا نغل فلا نقسم، فلذلك قال الله: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَغُلَّ﴾ وما صح لنبي أن يخون في الغنائم، والنبوة تنافي الخيانة ﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي بالشيء الذي غله بجمعه على ظهره، وقد جاء في الحديث المتقدم في سورة البقرة عند الكلام على الشفاعة كالذي ورد في البخاري ومسلم: «لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته بعير له رغاء، يقول يا رسول الله أغثني فأقول لا أملك لك من الله شيئاً قد أبلغتك. لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته فرس له حمحمة، فيقول يا رسول الله أغثني فأقول لا أملك لك من الله شيئاً قد أبلغتك. لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته شاة

لها ثغاء، فيقول يا رسول الله أغثني فأقول لا أملك لك من الله شيئاً قد أبلغتك. لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته نفس لها صياح، فيقول يا رسول الله أغثني فأقول لا أملك لك من الله شيئاً قد أبلغتك. لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته رقاع تخفق، فيقول يا رسول الله أغثني فأقول لا أملك لك من الله شيئاً قد أبلغتك. لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته صامت، فيقول يا رسول الله أغثني فأقول لا أملك لك من الله شيئاً قد أبلغتك». اللفظ لمسلم. الرغاء: صوت البعير. والثغاء: صوت الشاة. والرقاع: الثياب. والصامت: الذهب والفضة.

وهذا القول كالتمثيل لتلك الحال التي يكون عليها الخائنون بعد الموت. وفي يوم القيامة ﴿ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ﴾ تعطى جزاء ما كسبت ﴿ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ لا ينقص ثواب عملهم ولا يزاد في عقاب العاصين منهم ﴿ أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ ﴾ بالطاعة ﴿ كَمَنْ بَاءَ ﴾ رجع ﴿ بِسَخَطٍ مِّنَ اللَّهِ ﴾ بسبب المعاصي ﴿ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ الحال التي يصيرون إليها مخالفة لحالهم الأولى ﴿ هُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ اللَّهِ ﴾ ذوو درجات ﴿ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ عالم بأعمالهم ودرجاتهم فيجازيهم ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أنعم عليهم نعماً خاصة بالهداية فوق النعم العامة للكافر والمؤمن ﴿ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ من نسبهم وجنسهم ليفهموا كلامه بسهولة ﴿ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ ﴾ القرآن ﴿ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾ يطهرهم من سوء الطباع وفاسد العقائد ﴿ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾ القرآن والسنة ﴿ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ إن للتأكيد مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن، أي الشأن كانوا من قبل مبعثه لفي ضلال ظاهر ﴿ أَ ﴾ تظنون بالله ظن الجاهلية الأولى وتفعلون كذا وكذا ﴿ وَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ ﴾ يوم أحد بأن قتل منكم سبعون ﴿ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا ﴾ يوم بدر بأن قتلتم سبعين وأسرتم سبعين من كفار مكة ﴿ قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ﴾ من أين هذا أصابنا؟ ﴿ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ﴾ مما اقترفته أنفسكم من الذنوب السابقة باختياركم الفداء يوم بدر واللاحقة بترك مراكزكم ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ يقدر على الضر ومنعه ﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ ﴾ جمع المسلمين وجمع المشركين ﴿ فَبِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ فهو كائن بقضائه وقدره ليبتليكم ﴿ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا ﴾ وليتميز المؤمنون والمنافقون، ثم عطف على قوله: ﴿ نَافَقُوا ﴾ قوله: ﴿ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ للآخرة ﴿ أَوِ ادْفَعُوا ﴾ عن أنفسكم وأهليكم وأموالكم إن لم تكونوا موقنين بالآخرة ﴿ قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّاتَّبَعْنَاكُمْ ﴾ أي لو نعلم ما يصح أن يسمى قتالاً لاتبعناكم مستهزئين بالقتال لما في قلوبهم من الغل. كما روى أن عبد الله بن أبيّ ابن سلول لما انخذل بأصحابه يوم أحد كما تقدم وهم ثلث القوم وقال: ما ندري علام نقتل أنفسنا، تبعه جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام الأنصاري من بني سلمة وهو يقول: يا قوم أذكركم الله أن لا تخذلوا نبيكم عند حضور عدوه، أجابه قائلاً: لو نعلم قتالاً لاتبعناكم، فقال الله: ﴿ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ ۚ ﴾ لتوليهم وكلامهم ﴿ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ يظهرون خلاف ما يبطنون ﴿ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴾ من النفاق وما يخلو به بعضهم إلى بعض، ثم أبدل من فاعل يكتمون وهو الواو قوله: ﴿ الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ ﴾ أي لأجل إخوانهم الذين قتلوا يوم أحد ﴿ وَقَعَدُوا ﴾ أي وقد قعدوا هم عن القتال، أي حال كونهم قاعدين، ومقول القول: ﴿ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا ﴾ كما لم نقتل نحن لما قعدنا، وهؤلاء هم عبد الله بن أبيّ وأمثاله ﴿ قُلْ فَادْرَءُوا ﴾

ادفعوا ﴿ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ ﴾ الذي سيأتيكم لا محالة ﴿ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ أنكم تقدرون أن تدفعوا القتل عمن كتب عليه ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ﴾ كالذين قتلوا في أحد والذين قتلوا ببدر ﴿ بَلْ ﴾ هم ﴿ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ ذوو زلفى منه ﴿ يُرْزَقُونَ ﴾ من الجنة، وهذا تأكيد لكونهم أحياء ﴿ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ وهو شرف الشهادة والفوز بالحياة الأبدية ﴿ وَيَسْتَبْشِرُونَ ﴾ يسرون بالبشارة ﴿ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم ﴾ أي بإخوانهم المؤمنين الذين لا يزالون أحياء ولم يقتلوا فيلحقوا بهم ﴿ مِّنْ خَلْفِهِمْ ﴾ أي الذين من خلفهم في الزمان ﴿ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾ من وقوع محذور ﴿ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ على فوات محبوب، والمعنى أنهم يستبشرون بما تبين لهم من أمر الآخرة، وأمر من تركوا من إخوانهم المؤمنين الباقين في الدنيا أنهم إذا ماتوا أو قتلوا كانوا أحياء حياة لا يكدر صفوها، فلا يخافون من مصائب تحل بهم ولا يحزنون لفوات منافع لهم، بل لا نصب هناك ولا حزن، فقوله: ﴿ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾ بدل من ﴿ ٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم ﴾، ولما ذكر استبشارهم بسعادة إخوانهم الذين هم أحياء سيموتون، أخذ يذكر ما يستبشرون به هم لأنفسهم فقال: ﴿ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ ﴾ ثواب لأعمالهم ﴿ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ ﴾ زيادة ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ عطفاً على فضل، وقرئ بالكسر على الاستئناف.

روي أن أبا سفيان وأصحابه لما رجعوا فبلغوا الروحاء ندموا وهموا بالرجوع فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فندب أصحابه للخروج في طلبه، وقال لا يخرجن معنا إلا من حضر يومنا بالأمس فخرج صلى الله عليه وسلم مع جماعة حتى بلغوا حمراء الأسد وهي على ثمانية أميال من المدينة، وكان بأصحابه القرح فتحاملوا على أنفسهم حتى لا يفوتهم الأجر، وألقى الله الرعب في قلوب المشركين، ففي ذلك يقول الله تعالى واصفاً المؤمنين: ﴿ ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾.

وروي أيضاً أن أبا سفيان نادى عند انصرافه من أحد: يا محمد موعدنا موسم بدر لقابل إن شئت، فقال صلى الله عليه وسلم: إن شاء الله، فلما كان القابل خرج في أهل مكة حتى نزل بمر الظهران فأنزل الله الرعب في قلبه وبدا له أن يرجع، فمر به ركب من عبد قيس يريدون المدينة للميرة، فشرط لهم حمل بعير من زبيب إن ثبطوا المسلمين، وهكذا لقي نعيم بن مسعود وشرط لهم عشراً من الإبل، فلما التقى هؤلاء بالمسلمين يتجهزون قالوا لهم: إن أتوكم في دياركم لم يفلت منكم أحد إلا شريد، أفترون أن تخرجوا وقد جمعوا لكم؟ ففتر المسلمون لما سمعوا ذلك، فقال عليه الصلاة والسلام: «والذي نفسي بيده لأخرجن ولو لم يخرج معي أحد، فخرج في سبعين راكباً وهم يقولون: حسبنا الله ونعم الوكيل» وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ﴾ بدل من ﴿ ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ ﴾، ﴿ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ ﴾ أي الركب من عبد قيس أو نعيم بن مسعود الأشجعي ﴿ إِنَّ ٱلنَّاسَ ﴾ أي أهل مكة ﴿ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ ﴾ هذا القول ﴿ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ ﴾ كافينا الله، من أحسبه إذا كفاه ﴿ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾ ونعم الموكول إليه هو ﴿ فَٱنقَلَبُوا۟ ﴾ رجعوا من بدر ﴿ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ عافية وثبات على الإيمان ﴿ وَفَضْلٍ ﴾ في التجارة، فإنهم لما أتوا بدراً وجدوا بها سوقاً فاتجروا وربحوا، وكانت بدر سوقاً في الجاهلية يجتمعون إليها كل عام ثمانية أيام، فانتظروا ببدر أبا سفيان. أما هو فقد انصرف من مجنة

إلى مكة، وكان مع الصحابة نفقات فباعوا فأصابوا بالدرهم درهمين وانصرفوا إلى المدينة غانمين ﴿ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴾ تفضل عليهم بالثبات وزيادة الإيمان والتوفيق ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ المثبط لكم كنعيم بن مسعود المذكور ﴿يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ ﴾ القاعدين عن الخروج مع النبي ﴿ فَلَا تَخَافُوهُمْ ﴾ لا تخافوا الناس الذين خوّفكم منهم المثبطون ﴿ وَخَافُونِ ﴾ في مخالفة أمري ﴿ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ . انتهى القسم الثاني بفصوله الأربعة، وفي هذا القسم اثنتا عشرة لطيفة :

اللطيفة الأولى : الشورى والتوكل

الشورى : استشار صلى الله عليه وسلم أصحابه أيخرجون من المدينة فيلاقون العدو أم ينتظرونه وكان تأويل الرؤيا أدعى إلى البقاء بالمدينة، فلما رأى أكثر أصحابه أميل إلى الخروج من المدينة أطاع الأغلبية وحكم بأمرهم في القضية، فلما أن لبس لأمته وعزم الأمر أرادوا منه عدولاً، فقال لهم : لا، وكيف يرجع الأنبياء عن عزمهم، وقد لبسوا آلات حربهم، فاستمعوا لأمره، وقيل له هناك : ﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ . فهاهنا أصبحت الشورى من الواجبات، وإذا كان صاحب شرعنا صلى الله عليه وسلم يستشير قومه، والوحي ينزل عليه فينزل على حكمهم ويسير بأمرهم .

فيا ليت شعري كيف استبد ملوك الإسلام، وكيف تركوا الشورى في غابر الأيام؟ألا إنما القوم كانوا نياماً، ووالله لقد عجبت العجب كله، فكيف ترك بعض المسلمين الشورى واستبدوا بأمورهم وظلموا في حكمهم ألا ساء مثلاً القوم الجاهلون . لذلك فاجأهم الغربيون وأذلوهم صاغرين وانقضوا عليهم طامعين فجعلوهم حصيداً خامدين في القرون الأخيرة لما أفل نجمهم وتفرق جمعهم ﴿ فَنَقَّبُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴾[ق : ٣٦] وقد آن أن يرجعوا لمجدهم وينالوا عزهم ويوفوا حظهم وهم سالمون .

التوكل

أما التوكل : فهاهو ذا معروف في نفس هذه القضية، فإن الله أمره بالتوكل بعد أن استشار القوم ورضي القوم، ولم يبق إلا العمل . فهناك يكون التوكل والسير إلى الأمام والإقدام لا الإحجام، والرضا بما سيكون . فإما الموت وإما النصر فيرضى العاقل إذ ذاك بما يأتيه . فأما أولئك الجهال الذين يذرون التفكير والتدبير ويقولون هل من مجير، وقد تركوا حبل الأمور على غاربها، فهم المغرورون لا المتوكلون .

إن التوكل بعد العزم، فهذا قول الرسول الأمين وهذا قول رب العالمين، فمن أين للناس بعد هذا تبيان؟ولقد فسر الإمام الغزالي ما روي في هذا المقام من أن سبعين ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب من هذه الأمة، وذكر منهم الذين لا يسترقون ولا يتطيرون ولا يكتوون .

فجعل الرقيا من الأمور التي من عادة الشفاء بها أن يكون موهوماً لا مظنوناً ولا محققاً، وكذلك الكيّ ليس طباً لكل مرض، بل لكل داء دواء جرت به العادة وغلب على الظن نفعه، هكذا الطيرة والتفاؤل بالشر، فذلك ليس دليلاً على الشر، وإنما أمر موهوم . فأما الأمور المظنونة المعتادة التي يغلب على الظن نفعها فهي التي يصح معها التوكل : كالطب المعلوم، والزراعة، والتجارة، والصناعة، والإمارة، وما أشبه ذلك .

فهذه يكون التوكل معها مشروعاً والسير على سبيلها محموداً، ولعمرك ما أجهل أكثر أهل العلم بالدين، وما أبعدهم عن التحصيل، وكيف يكون ديننا يأمر بالأسباب المقبولة ويعلق الدخول في الجنة ـ في تلك الرواية ـ بغير حساب على الأمور المقبولة المظنونة. فأما ما هو موهوم النتائج كما يفعل الدجالون، فحكمهم أنهم لا يدخلون الجنة إلا بحساب، لأنهم لم يحاسبوا أنفسهم في الدنيا، بل ظلوا على البلاهة عاكفين وبالجهالة قانعين وبالتواكل راضين، وقد انخلعوا عن عقولهم ونزلوا عن نفوسهم وعاشوا بحواسهم ومحسوساتهم، ونامت عن المعقول قواهم الناطقة فماتوا وهم غافلون، فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين.

اللطيفة الثانية

إمداد المؤمنين بخمسة آلاف من الملائكة بعد ثلاثة آلاف أو بألف

الإمداد بالملائكة يألفه الذي عكف على قراءة الديانات، فأما أهل النظر فأكثرهم يظنون ذلك مجازاً أو لا يصدقونه، ولقد ذكرنا في سورة البقرة الأدلة التي أدلى بها حكماء الأمم من ظنية وجدلية ووجدانية عند قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾[البقرة: ٣٠] فلا نطيل هنا بإعادتها، فأما معاونتهم للناس ومشاركتهم لهم في أعمالهم في هذه الحياة، فهو الذي يحتاج إلى زيادة النظر وتدقيق الفكر، فنحن في هذا المقام بين أمرين: إما أن نجتزئ بالدين ونكتفي بالإيمان ونقول فوق ما نطيق، ولا نقول إلا بالتحقيق. وإما أن نجد سبيلاً للبحث وطريقاً للتنقيب ووسيلة للبرهان، ولقد ذكرت في كتاب الأرواح ما ورد عن أجلّة العلماء من أسلافنا والمعاصرين من الفرنجة، ولست أذكره على سبيل البرهان، ولكن لأطلعك على ما وصل إليه البحث البشري، ولتدلي دلوك في الدلاء ثم تنظر كما نظروا. فاعلم أن العلامة الرازي قال في سورة إبراهيم ما ملخصه: إن النفوس بعد الموت تساعد النفوس المشاكلة لها وتعلمها، فإن كان في باب الخير سمي إلهاماً، وإن كان في باب الشر سمي وسوسة.

وهكذا نقلت فيه عن إخوان الصفا أن النفوس المتجسدة الشريرة في هذه الحياة شياطين بالقوة، والنفوس المتجسدة الخيرة ملائكة بالقوة، فإذا فارقت أبدانها صارت الأولى شياطين بالفعل، والثانية ملائكة بالفعل أي كالملائكة والشياطين، ولقد نقلت فيه عن الجمعيات النفسية المنتشرة في أوروبا شيئاً كثيراً من الأسئلة التي وجهوها للأرواح التي ظنوا أنهم قد أحضروها بطرق علمية، وسألوها أسئلة كقولهم: هل ينال المخترع والعالم العون من الأرواح؟ فكان الجواب يأتيه متى عمل كل ما في وسعه فإنها تلهمه بعض إلهامات فكرية ليكون الفضل إليه منسوباً والعمل له بكسبه، ولو أن العون أعطي له بلا عمل منه ولا فكر ولا تنقيب، لتساوى الجاهل والعليم والخامل والعامل.

فانظر كيف يرى بعض الفرنجة وأهل أمريكا وهم يعدون بعشرات الملايين «آلاف الألوف» إن هناك عالماً روحياً يعين الناس في الأعمال الشريفة، ولقد ذكرت ذلك في كتاب الأرواح، وأتيت بآية إمداد الملائكة للنبي وأصحابه، وعجبت كيف أصبح العلم الحديث يقول مثل ما في القرآن بل القدماء والمحدثون معاً.

إني لا أطيل القول بنقل محادثات الأرواح، فإن ذلك شرحه يطول، ولكن أذكر لك ما كتبته تعليقاً على ذلك، وهذا نصه: حينئذ قلت يا شير محمد تأمل في هذا الحديث، ألم تجد فيه علماً جديداً

في فهم القرآن؟ قال: وما ذاك؟ قلت: قال تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾[سبأ: ١٤] فإن الجن أيام سليمان عليه السلام بقوا أمداً طويلاً مسخرين، وكان سليمان عليه السلام متكئاً على عصاه، فلما أكلت دابة الأرض تلك العصا خرَّ على الأرض، فلو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب، ولعلموا أن سليمان ميت، ولا جرم أن هذه القصة ثمرتها ألا يثق الإنس بأخبار الجن. هذا هو المقصد الحقيقي منها، ولقد تجلى واضحاً في هذا الحديث. ألا ترى أنهم لما سألوا الروح: هل تستطيع الأرواح أن تكشف أمر المستقبل، فكان الجواب كلا؟ إذ لو عرف الإنسان المستقبل لأهمل الحاضر.

ولما سألت الأرواح أليس مع هذا من حوادث يتنبأ الأرواح عنها وتتم في حينها؟. فكان الجواب قد يتفق أحياناً أن الروح يستشعر حدوث بعض أمور يرى من الفائدة كشفها، وهذا لا يمنع الأرواح الماكرة عن نشر النبوات الكاذبة، ثم أفاد أن الأرواح الرصينة قد تستشعر بأمر يكون في الغالب متعلقاً بحوادث لم تتم، ولا يعلمها إلا الله، فلا تقطع في جوابها.

أما الأرواح الطائشة: فلا يهمها أمر الحقائق، فتنشر الأخبار الكاذبة، ولا جرم أن ذلك مغزى قصة سليمان عليه السلام، وشرح ما انطوت عليه من العلم وبرهان صدق لما فيها من التوقف عن تصديق ما تلقي الجن من الأكاذيب. اهـ.

ثم انظر يا شير محمد إلى قول الروح: إن بعض الناس يستدلون على قرب موتهم، ويحددون زمن وقوعه، وإن هؤلاء الذين انطلقت أرواحهم من قيود الجسد لا يهولهم أمر الموت. ألست ترى يا شير أن هذا مصداق قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ۝ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾[فصلت: ٣٠-٣١].

فتعجب يا شير كيف يقول: تتنزل عليهم الملائكة ليلهموهم السرور والبهجة ويخاطبوهم. وانظر إلى قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ۝ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[يونس: ٦٢-٦٤] فقد قال صلى الله عليه وسلم لما سئل عن البشرى، قال: «هي الرؤيا الصالحة يراها الرجل أو ترى له».

وتعجب يا شير محمد من قول الروح في هذا: إن الطبيب إذا انكب على درسه بالاستقامة، لا بنية حشد المال وكسب المعارف بدون جد ولا عناء ينال مساعدة الأرواح العلوية، أوليس هذا من مساعدة الملائكة للمجدين، وقد قال صلى الله عليه وسلم: «إنما العلم بالتعلم، وإنما الحلم بالتحلم» فلا علم بلا جد ونصب، ولا حلم بلا تكلف وتصبر وجد، وقال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾[الحجر: ٢١] وقال: ﴿وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾[الرعد: ٨].

وقد علمت فيما مضى أن الأرواح لا تخص من مضوا من عالم الأرض، بل هناك من هم أعظم وهم الملائكة المكرمون، ثم انظر قوله تعالى في سورة النحل: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ

أنفسهم فألقوا السلم ما كنا نعمل من سوء بلى إن الله عليم بما كنتم تعملون ﴾[النحل: ٢٨] ثم قال: ﴿ وقيل للذين اتقوا ماذا أنزل ربكم قالوا خيرا للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة ﴾[النحل: ٣٠] ثم قال: ﴿ الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون ﴾[النحل: ٣٢].

أليس هذا يا شير يومئ إلى ما يقوله الروح هنا: إن أرواحهم تطلع على ذلك عند انطلاقها من قيود الجسد، ويبقى فيها ذكره عند اليقظة، فهؤلاء لا يهولهم أمر الموت، ولا يرون فيه إلا انتقالاً من حال إلى حال، أو تغيير كساء خشن بكساء لطيف، وهل يعطى من لا يستحق الحكمة؟ كلا. اهـ.

ثم انظر إلى قوله: فالأرواح الصالحة تساعدكم على تحمل المحنة، ولكنها لا تدرؤها عنكم لأن بها خيركم الروحي ونجاح مستقبلكم، وهذا قوله تعالى: ﴿ وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم ﴾[البقرة: ٢١٦]، وقوله: ﴿ ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير ﴾[الحديد: ٢٢] وقوله: ﴿ ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين ﴿١٥٥﴾ الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون ﴿١٥٦﴾ أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون ﴾ [البقرة: ١٥٥-١٥٧].

ثم تأمل قول الروح، وهذا بدء القصاصات التي ستنوبهم من تعلقهم المفرط بالخيرات، وقوله: إن العدل قائم بخيبة آمالهم، فتعجب كيف كان مطابقاً أشد المطابقة لقوله تعالى: ﴿ فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون ﴾[التوبة: ٥٥] وقوله تعالى: ﴿ المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا ﴾ [الكهف: ٤٦] فجعل الله المال في الدنيا وفي الآخرة لمن تعلق بهما، ولم يجعلهما وسيلة لارتقاء روحه، ثم جعل المال والبنون زينة الحياة الدنيا، ولا خير إلا فيما بقي من الصالحات الباقيات.

وأما قول الروح: إن العلوم الأرضية ليست بشيء بالنسبة إلى العلوم السماوية. فهذا قوله تعالى: ﴿ قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مددا ﴾[الكهف: ١٠٩]، وقول الروح: لا يخفى أن غاية الروحانية هي إصلاحكم الروحي، والغرض من كل الأمثلة والمقالات التي تأتيكم هو وقوفكم على حقائق ما بعد الموت لتتجردوا من الأرضيات وتسعوا وراء السماويات. هذا وكثير من أمثاله يفهم من قوله تعالى: ﴿ إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط وكذلك نجزي المجرمين ﴾[الأعراف: ٤٠] ومفهومه أن الذين صدقوا ولم يستكبروا تفتح لهم أبواب السماء، وقوله تعالى: ﴿ إن الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون ﴿٧﴾ أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون ﴾[يونس: ٧-٨] ومفهومه أن الذين يرجون لقاء الله، ولم يرضوا بالحياة الدنيا وجعلوها لجة، واتخذوا صالح الأعمال فيها سفناً ولم يطمئنوا لها، ولم يغفلوا عما أودع فيها من آيات الله، فأولئك مأواهم الجنة بما كانوا يكسبون. اهـ.

حكمة ومعجزة

يا شير محمد إن قول الروح هنا أيضاً: إن الطبيب ينال المساعدة من الأرواح العلوية، وقوله في العالم والمخترع إنهما ينالان المعاونة من الأرواح العالية إذا آن وقت الاختراع، دالّ على مداخلة الأرواح

في أعمالنا عند الاستحقاق. أليس هذا مطابقاً لقوله تعالى في سورة آل عمران: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ۝ بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ [الآية: ١٢٣-١٢٥].

ألا فانظر كيف رتبت الأرواح المعونة للمخترع والعالم على الجد والمثابرة، وهي لا تطابق الآية إذ جعل مساعدة خمسة آلاف من الملائكة موقوفاً على الصبر والتقوى وهجوم العدو، أولست ترى أن بيان الأرواح معجزة للقرآن. لقد كنا نسمع هذا ونكل علمه إلى الله تعالى فأصبحنا نروي نظائره عن الأرواح العالية أنفسها، وقال في سورة الأنفال: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ۝ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ۝ إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ﴾ [الآيات: ٩-١٢].

فانظر كيف أمر الملائكة أن يثبتوا الذين آمنوا، وأنه سيلقي في قلوب الذين كفروا الرعب، فترى أن ما قاله الروح هنا من إلهام الأرواح الأحياء ومساعدتهم وإنارة بصائرهم موافق للآيات، ومعجزة في هذا الزمان فتأمل. اهـ.

الحياة بعد الموت

خطبة للسير أوليفر لودج العالم الإنجليزي المشهور في الحياة بعد الموت نقلاً عن مجلة المجلات الإنجليزية منقولة من كتاب الأرواح للمؤلف، وقد حذف منها ما تقدم ذكره في السورة، منها: إذا صح أن الله موجود فعلاً وأنه يوحي إلى البشر ويساعدهم، وأن الإنسان ليس منفرداً على هذه الأرض السابحة في الفضاء بل حوله كثير من الأعوان يعطفون عليه ويساعدونه، وأن الله تعالى آخذ بيده في سيره إلى الحقيقة والكمال الأدبي؛ إذا صح ذلك كان حقيقة تتضاءل في جنبها جميع الحقائق، وقد يكون من الحضور من يعتقد أن الإنسان أرفع الكائنات وليس في الكون أعلى منه، وأنه نشأ على هذا السيار أي الأرض، وإذا مات اضمحل، وأن ليس في الوجود من يعينه ولا من يفهم أسرار الكون أكثر منه، وأنه أرفع الكائنات طراً لأنه أرقى ما وصل إليه النشء على هذه البسيطة في هذا العصر، ثم قال: وقد عرف الآن أن في الكون أراضي غير أرضنا هذه، وقد يكون فيها من يقابل الإنسان من الكائنات، ولكن أليس في الكون كائنات تختلف عنا، وهل يجوز أن يعتقد أن كل كائن مدرك يجب أن يكون له جسم مادي مثل أجسامنا، إن اعتقاداً مثل ذلك لا مسوغ له ولا قام عليه دليل.

قد أظهر العلم ما في الكون من الانتظام وأن فيه عوالم كثيرة لا عالماً واحداً، ولنا في الأجرام الفلكية مثال على أنه قد يكون في الكون كائنات كثيرة لا نعلمها، إذ لو كان الهواء الجوي غير شفاف لما رأينا من الأجرام السماوية شيئاً ولا علمنا بوجودها، وليس احتجاب الأجرام الفلكية عن بصرنا أمراً يعز حدوثه، فإن الضباب والغيم يحجبانها عنا أوقاتاً كثيرة، ولكن اتفق لنا أن كان في إمكاننا رؤية ما وراء الهواء، فرأينا شيئاً من عظمة الكائنات وأنها غير متناهية، ولست سارداً عليكم ما عرف من

الحقائق الفلكية فإنكم تعرفونها وهي كثيرة غير محدودة، وإن عقولكم لتقصر دون تصوّر حقيقة هذا الكون المؤلف من عالم وراء عالم إلى ما لا نهاية له، وجميع هذه العوالم خاضعة لنواميس واحدة لأن عناصر النجوم مثل عناصر الأرض وخصائصها في النجوم مثل خصائصها هنا. فهل الإنسان هو سيد هذا الكون العظيم؟ إن الإنسان حديث العهد بالوجود على الأرض، فما كان حال الكون قبل وجوده، ليس الإنسان سيد الكائنات بل هو درجة من الدرجات في النشء، ثم قال: إن الإنسان لا يسود الكون ولا يفهم أسراره، ولكنه يتلمس فيه الحقائق تلمساً، وقد كشف حديثاً «الراديوم» الأرغون «أشعة رنتجن» و«بعض طبائع الكهربائية»، وقد بدأ الآن يعرف شيئاً عن بناء الجواهر الفردة، وتظهر هذه الأمور كأنها وجدت وهي غير جديدة، بل كانت موجودة قبل أن نكشفها، ولو لم نكشفها لكانت موجودة أيضاً ونحن لا نعرفها، وفي الطبيعة أيضاً أمور كثيرة لم نكشفها حتى الآن.

ولكن كم عمر العلم؟ليس عمره إلا قرونا قليلة بل قرناً واحداً، لأنه لم يتقدم تقدماً يذكر إلا في القرن التاسع عشر، وقد عرفنا شيئاً من حقائق الكون إلا أن ما عرفناه جزء من كل، فلا يجوز لنا أن ننفي وجود الكل، لنا أن نبحث عن الحقائق، والموجود موجود سواء عرفنا وجوده أم لم نعرف، واعتقادنا بوجود شيء أو عدم وجوده لا يؤثر في الكون ولكنه يؤثر فينا.

نحن لا نعرف تركيب الجواهر الفردة، ولكنا قد بدأنا نعرف شيئاً عنه، فكل جوهر يشبه النظام الشمسي في تركيبه، وله نواة تقابل الشمس والكترونات تدور حولها مثل السيارات حول الشمس، وهذه الإلكترونات خاضعة في دورانها لنواميس مثل النواميس التي تخضع لها السيارات، ثم إن الجواهر الفردة غير محصورة في الأرض، بل توجد في الشمس والسيارات، وكل كواكب السماء تتألف منها الأرض ولا تعلم كل النواميس الجارية هي عليها حتى الآن، ولكننا سائرون في السبيل الموصل إلى ذلك، ثم قال: ليس منكم إلا من رأى النمل يخرج من قريته ويعود إليها، ولا نعرف كثيراً من أمور النمل في ذهابه وإيابه، وأنا أظنه يدرك ما يعمله بعض الإدراك، وهو يدب بين أقدام الناس الذين مداركهم فوق مداركه بكثير، وماذا يعرف النمل عن اعتقادات الناس وأعمالهم ومداركهم؛ إن لنا عبرة في أن الحيوانات التي مثل النمل تعيش بيننا ولا تعرف شيئاً عنا، وعندي أن في الوجود كائنات نسبتها إلينا كنسبة النمل إليها، ونحن نتسكع بين أرجلها غير عارفين شيئاً عنها.

إن حواسنا تعيننا على التوصل إلى إدراك بعض الأمور، ولكنها قاصرة جداً، ولذلك نقويها بذرائع عديدة كالتلسكوب والمكرسكوب، ورغماً من ذلك لا نعرف عن الكون إلا القليل، ولم تزل حولنا أمور كثيرة لا ندركها ولكننا ندرك بعضها عن طريق غير الحواس، وبقية الخطبة قد تقدم في هذه السورة.

هذه خطبة السير أولفير لودج، نقلتها لك من كتاب الأرواح بحذافيرها ولم أختصرها، وتركتها بطولها لأغراض ثلاثة: الأول أنه أثبت فيها أن أرواحنا باقية بعد الموت. الثاني أنه أثبت أن هناك عوالم أعلى منا، وأن نسبتنا إليهم كنسبة النمل إلينا وأنهم محيطون بنا. الثالث أنه أثبت أن هؤلاء يساعدوننا ويفكرون في أمرنا، هذه أمور ثلاثة جاءت في الخطبة؛ لذلك أثبتها كلها. إن الله في هذه السورة ذكر فيما يأتي أن الأرواح باقية بعد الموت. قال تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ

رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ [آل عمران: ١٦٩] وهذا هو الأمر الأول، وذكر في الأمر الثاني والثالث أن له ملائكة وأن هؤلاء الملائكة يساعدون الناس المخلصين في أعمالهم.

عجيبة في أمر الأمم الإسلامية اليوم

قد قرأت خطبة اللورد أوليفر لودج، وهذا العالم عالم طبيعي. بل هو أكبر علماء الطبيعة في أوروبا، وهذه الخطبة خطبها أيام الحرب الكبرى كما تراه مصرحاً بذلك فيها.

يخطب أوليفر لودج في مجمع من قومه، وقنابل الألمان تتساقط في أنحاء بلادهم، والعذاب واقع بأمتهم، والغازات الخانقة محيطة بهم، يقف فيقول: إن أرواحنا باقية وإن لله عوالم أرقى منا، وإن هذه العوالم الروحية تساعدنا وتعاوننا. هذه أعمالهم في بلادهم.

أما بعض الذين تعلموا في بلادنا المصرية وبعض البلاد الشرقية، فماذا يقولون؟ يقولون: نحن علماء عظماء، لماذا؟ لأننا قرأنا الإنجليزية أو الفرنسية أو الألمانية أو الإيطالية، أو لغتين من ذلك، وقرأنا بعض العلوم، ونحن نحمل الشهادات، فنحن أسمى نظراً وأعقل وأرقى فكراً من جميع المسلمين الجاهلين الذين يؤمنون بأمور لا يقبلها العقل. يقولون: نحن نبقى بعد الموت، أو أن هناك ملائكة، أو أن هناك إمداداً من السماء بأولئك الملائكة، إن القرآن والكتب السماوية لم تنزل إلا لأمم أقل منا علماً ومدنية، فلنفعل كما فعلت أوروبا، ولنكفر بهذا كله، ومتى كفرنا به انطلقت عقولنا من عقلها، وعرفنا هذه الدنيا، وحينئذ نستقل، وتكون لنا جيوش جرارة.

هذا ما يسره كثير من أهل العلم اليوم وبعضهم به يجهرون، فمثل هؤلاء يقال لهم: إن ادعاءكم أن هذه الأمور خرافات واستنادكم على تكذيب أوروبا لها وادعاءكم أن التكذيب بها رقيّ للعمران، وسعادة للبلاد كلها قضايا لا يقول بها الصبيان.

فإن أوروبا التي تدعون أنكم عرفتم علومها، هذه الخطبة نموذج لعلماء الطبيعة فيها، ولو كان القوم مغفلين مثل المغرورين من صغار المتعلمين في الشرق لقالوا للخطيب السابق: نحن الآن في حرب فدع الخرافات وائتنا بما يفيدنا في هذه الحياة، وليس هذا الوحيد في هذا العمل، بل هناك آلاف وآلاف أفضل منه في هذا الشأن، فهذه الطائفة من المتعلمين في الشرق مغرورة جاهلة مخدوعة ظنت أن تعلم اللغة إدراك للعلم، وهذه أيضاً فضيحة، فإن اللغة ليست علماً وإنما هي مقدمة للعلم، وهؤلاء قرؤوا اللغة وما قرؤوا العلوم التي ألفت فيها، ولو قرؤوها ما فهموها، لأنهم لا دراية لهم بتلك العلوم، كما أن الإنسان الذي يجهل الهندسة أو علم الجبر، وهما علمان مؤلفان باللغة العربية لا يعرف مقصودهما ولا يعقلهما، وكيف يعقلهما وهما محتاجان إلى الموقف والعلم، فاللغات شيء والعلوم شيء، فاعرف بهذا الميزان أهل زمانك وادرس أخلاق الأمة الإسلامية، ونبه المغرورين منها إلى طريق الرشاد.

اللطيفة الثالثة: ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ ﴾

لقد ذكر في تفسيرها ما يفيد أن الرسل يجري عليهم القدر كما يجري على العالمين، فالخير والشر مقرونان في قرن يجريان على البر والفاجر والعالم والجاهل، ولكن أرباب النفوس العالية من الأنبياء والحكماء يكون الشر مصباحاً يضيء لهم، والخير سلاحاً يجاهدون به في سبيل الإصلاح،

ومفاتيح كل شيء بيد الله، ولم يستثن من الإصابة أحداً، وتراه كلف الآساد باقتناص السابحات البارحات من الغزلان، وحكم على النمور والصقور أن لا تتناول غير اللحوم، فكل لكل رابض وله مجاهد، إنماء للقوى وإسعاداً للنفوس والأجسام، فالخير من الشر وهما متلازمان صنوان لا يفترقان.

اللطيفة الرابعة: ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾

قد قدمت في هذه السورة أن ذكر السماوات والأرض يختلف باختلاف المواضع كالاستدلال على وجود الله بآية: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾[البقرة: ٢٩] وآية: ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ﴾ الخ [البقرة: ١٦٤] للدليل على الوحدانية، إلى آخر ما قدمناه هناك. ونزيد الآن أن قوله هنا: ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ ذكره ليفيد البرهان على أنه ليس للنبي صلى الله عليه وسلم من الأمر شيء كأنه يقول: وكيف يكون لك يا محمد شيء حتى تدعو على أعدائك بالاستئصال، ولي ما في السماوات وما في الأرض، فكيف تطلب مني إماتتهم أو تحاول إزهاقهم وإرهاقهم؟ وكيف يكون ذلك وأنا الغفور الرحيم، فلي أن أرحمهم فأغفر لهم بأن يصبحوا مسلمين، فإن رحمتي وسعت كل شيء بطرق أخفيها، وأعمال محجوبة أخبارها عن العالمين.

اللطيفة الخامسة: تحريم الربا

لقد مرّ شرحه في سورة البقرة عند آية الربا، وكيف كان تحريمه أعجوبة الدهر وغريبة العصر، وكيف أصبحت الدول تحرم استعماله وتريد إهماله، وأنه سبب انتقاص العمران وهدم البنيان، وفساد هذا الإنسان، وضياع البلاد وذلّ العباد، فقامت البلشفية وقبلها الاشتراكية، وكل ينادي بالويل والثبور وعظائم الأمور، وانظر كيف كان تحريم الربا في هذا المقام مسطوراً، وبعد الحرب في أحد مذكوراً، ولعمري ما علاقة الربا بالحروب. إن العلاقة واضحة جلية ظاهرة بهية، ألا ترى أن الحرب لا قوام لها إلاّ بالسلاح، ولا فوز لها إلاّ بالكراع، ولا بد من جند لها يعملون، ، فلاحين للأرض يزرعون، وصناع للآلات يقوّمون، ومهندسين للمساقي والمدن يصلحون، وطرق بالبخار يسلكونها، وقطرات عليها وعلى الفلك يحملون. فإذا فشا الربا في البلاد افتقر العاملون، وذلّ الفلاحون، ويئس من الرواج التجار، وبارت صناعة الحداد والنجار، فهذا سر ذكر الربا في هذا المقام، وقد وفيت المقام حقه في سورة البقرة عند آية الربا.

اللطيفة السادسة: الجنة والنار

اعلم أن الجنة والنار قد أفضنا الكلام عليهما في سورة البقرة عند قوله تعالى: ﴿ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ﴾[البقرة: ٢٥] واليوم نعيد الكرّة لهما بتحقيق أجلى، وإيضاح أكمل، وأحاديث مرفوعة، وآراء مشروحة، وعلوم حديثة، واكتشافات صريحة فنقول:

(١) قد أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه رأى أرواح الأنبياء صلى الله وسلم عليهم ليلة أسري به في السماوات سماء سماء، آدم في سماء الدنيا، وعيسى ويحيى في الثانية، ويوسف في الثالثة، وإدريس في الرابعة، وهارون في الخامسة، وموسى وإبراهيم في السادسة والسابعة. قال ابن حزم: فصح ضرورة أن السماوات هي الجنات.

(٢) عن صفوان بن يعلى عن أبيه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «البحر من جهنم أحاط به سرادقها»، وقال تعالى: ﴿وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ﴾[الطور: ٦] أي الموقد. روي: «أن الله تعالى يجعل يوم القيامة البحر ناراً تسجر بها نار جهنم».

(٣) عن ابن عباس عن كعب: «والبحر المسجور يسجر فيكون جهنم».

(٤) قال عبد الله بن سلام: «إن الجنة في السماء، والنار في الأرض».

(٥) قال علي بن أبي طالب ليهودي: أين جهنم؟ قال: في البحر. قال عليه الصلاة والسلام: ما أظنه إلاّ قد صدق. وعن ابن مسعود قال: «الأرض كلها يومئذ نار، والجنة من ورائها، وأولياء الله في ظل العرش».

(٦) أخبر تعالى أن أرواح الكافرين لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة، فإذن من فتحت لهم أبواب السماء دخلوا الجنة، كما قاله بعض القدماء.

(٧) أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن شدة الحر من فيح جهنم، وأن لها نفسين: نفساً في الشتاء، ونفساً في الصيف، وأن ذلك أشد من الحر والبرد، وأن نارنا أبرد من نار جهنم بتسع وستين درجة.

(٨) وعنه صلى الله عليه وسلم: «أن آخر أهل الجنة دخولاً فيها بعد خروجه من النار يعطى مثل الدنيا عشر مرات»، وقال أيضاً: «إن الدنيا في الآخرة كأصبع في اليمّ»، وقال الله تعالى: ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾[آل عمران: ١٣٣]، وقال أيضاً: ﴿عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾[الحديد: ٢١].

(٩) عن ابن عباس قال: «ليس في الدنيا مما في الجنة إلاّ الأسماء».

(١٠) قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾[إبراهيم: ٤٨]، وقال تعالى: ﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا﴾[النبأ: ١٩]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ﴾[المعارج: ٨-٩]، وقال تعالى: ﴿وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا﴾[الحاقة: ١٤-١٧] وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا﴾[الأنبياء: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾[هود: ١٠٨].

هذه الآيات والأحاديث هي التي أردت جمعها لتكون أساساً لما نبني عليه من العلوم الحديثة التي كشفها علماء العصر الحاضر في أوروبا، لتعجب من أمة الإسلام النائمة نوماً عميقاً، والأمم من حولها باحثون منقبون عارفون نظام الكائنات، وعجائب الآيات، وغرائب المصنوعات، وهم عن العلم معرضون، وعن البحث ساهون لاهون، وقد يعلم المرء ثم يجبن أن يدلي بعلمه للناس لقصور في نفسه، وخور في عزيمته، وجهل بأطراف الموضوع، فاسمع لما ألقي إليك، وتعجب من العلم وهيبته، والعرفان وصولته، والحكمة وجمالها، وآيات الله وكمالها.

الأرض كرة نارية

لم يدر أحد من العصور السالفة والأمم الغابرة أن الأرض التي نحن عليها نار، ولم يكن في تصوّر أحد منهم أننا على قشرة كقشرة البطيخة أو كقشرة البيض في الثخن، داخلها نار متأججة. فانظر كيف ورد في الأحاديث أن البحر نار، وأن البحر من جهنم أحاط بها سرادقها، ولم يكن أحد

يعلم أن فوق الهواء برداً قارساً حتى لو دخلت فيه رأس آدمي لصارت ثلجاً في جزء صغير من الثانية. نحن الآن بمقتضى الكشف الحديث بين زمهرير فوق كثرة الهواء البالغة نحو ٦٠ كيلومتراً، وبين نار في باطن الأرض، وقد ورد في الأحاديث السالفة أن النار تشتمل على أشد البرد وأشد الحر، وانظر كيف تجد جبال النار القائمة في العالم، وأقربها إلينا في مصر جبال إيطاليا، ومن عجب أني قرأت في الجرائد أيام تأليف هذا التفسير أن بركان «اتنا» قد غلا وفار، فلأسمعك ما قالته الجرائد ووصفته الكتب.

بركان اتنا

هذا البركان واقع إلى الشمال الشرقي من جزيرة صقلية «سيسيليا» والبركان جبل مخروطي الشكل على الغالب، له قمة عالية تحيط بها جبال وهضاب نارية، وفي قمته فوّهة تخترقه إلى باطن الأرض، فتقذف منها المواد المختلفة من نار ودخان ومقذوفات ملتهبة أو سائلة، وقد يكون في الجبل أكثر من فوّهة واحدة كما في بركان اتنا الذي أحصي فيه أكثر من ٨٠ فوهة.

وتكون البراكين غالباً في الجزر الصغيرة أو على شواطئ البحار، وقلما تجد بركاناً في وسط القارات، وإذا وجد كان دليلاً على أن ذلك المكان كان بحراً أو شاطئ بحر في الأزمنة الغابرة.

أما علة البركان فهي الحرارة الشديدة المستبطنة للأرض، التي تصهر المواد، وتبخر المياه، وتحوّل الجوامد إلى سوائل، والسوائل إلى أبخرة وغازات، فتتمدد هذه المواد بتأثير الحرارة، ويضيق عليها المكان فتمزق القشرة الأرضية، وتفتح فيها منفذاً تندفع منه إلى الخارج. وتقذف المواد الذائبة والغازات والحمم من باطن الأرض إلى علو شاهق، وتتحول الأبخرة إلى أمطار غزيرة، ثم إلى سيول عظيمة تكتسح البلاد كما هو واقع الآن في جزيرة سيسيليا.

ويحسن أن نشير في هذا المقام إلى ثخن القشرة الأرضية بالنسبة إلى باطنها المشتعل، ليتبين ضعف هذه القشرة ومطاوعتها للعوامل، فقد ذهب العلماء إلى أن ثخنها لا يزيد على ٩٠ كيلومتراً، مستدلين على ذلك بما عرفوه بالاختبار من الآبار الارتوازية وغيرها من أن حرارة الأرض ترتفع درجة واحدة بميزان سنتيغراد كلما تعمق فيها الإنسان ثلاثين متراً، فعلى عمق ٣٠٠٠ متر لزم أن تكون هذه الحرارة ١٠٠ درجة، وعلى عمق ٩٠ كيلومتراً لزم أن تكون ٣٠٠٠ درجة بميزان سنتيغراد، وهي الحرارة التي تصهر جميع المعادن والصخور. لذلك يجزم العلماء بأن القشرة الأرضية لا يمكن أن يزيد ثخنها على ٩٠ كيلومتراً، أي أنها أقل من جزء واحد من مائة وأربعين جزءاً من قطر الأرض، وأقل من ثخن قشرة البيضة بالنسبة إلى البيضة عينها. والمقادير التي تقذفها البراكين من الحمم والسوائل المحرقة أعظم مما يتصوره العقل، وفي سيول الحمم التي تتدفق من اتنا الآن، وتقول التلغرافات الأخيرة إن عمقها زاد على ٨٠ قدماً، وعرضها على ٦٠٠ متر أعظم دليل على ذلك. وقد ذكر التاريخ أن المواد التي خرجت من بركان «تمبو» في جافانا سنة ١٨١٥ غطت سطح البحر في دائرة بلغ قطرها ٢٠٠ ميل، هذا ما يكفي لأن يغطي بلاد إيطاليا كلها بطبقة من المواد البركانية علوها قدمان ونصف قدم.

ومن عجب أن تكثر الزلازل العظيمة أيام هذا التفسير، أوَلم يكن ذلك تدريباً على التفكير وتذكيراً بالعلم؟ بلى، فلم يقف الزلزال في هذه السنة عند حد إيطاليا، بل تجاوزها بعد ذلك إلى اليابان فقامت فيها قيامة الزلازل وأذكرتنا بما في القرآن من تدمير المدن وهلاك الأمم فجأة والناس لا يشعرون.

وليس يهمنا إلاَّ المباحث العلمية والعجائب الكونية والنار الكروية في باطن الأرض، فقد جاء في البرق والبريد أنه حدثت زلزلة تقشعر من هولها الأبدان، وذلك في ٣ سبتمبر سنة ١٩٢٣. فجاء فيها أن اليابان نكبت اليوم بأعظم ما تنكب به الأمم، مما لم يسمع به البشر إلاَّ في أقدم العصور التاريخية الذي يقال له الانقلاب الجيولوجي، لما كانت القارات تتحول بفعل الزلازل إلى بحار، والبحار إلى جزر، والجزر إلى قارات. زلزال غارت به الجبال فصارت وهاداً، وارتفعت البحار فصارت أطواداً، وصهرت الصخور فصارت رماداً؛ فما شعر السكان به حتى أصبحوا حمماً، وهوت منازلهم فوقهم فكانت لهم رجماً، فأصبحت كمدينة «يوكوهاما» خراباً و«توكيو» وهي العاصمة الجميلة صارت طعمة للنار، وقد قتل في يوكوهاما وحدها أكثر من مائة ألف نسمة غير من قتلوا في توكيو.

والزلزال اهتزاز في الأرض دفعة أو دفعات متوالية بالقوة الطبيعية يحدث قبل وقوع الانفجارات البركانية، وفي أثنائها وبعدها، وتارة يكون بغيرها. وقد أحصى علماء طبقات الأرض ستة آلاف وستين زلزالاً إلى الآن، وأعظم الزلازل ما نكبت به اليابان، فقد قتل فيها خمسمائة ألف إنسان، ودمر القسم المتوسط من الإمبراطورية على مدى ستمائة كيلومتر تقريباً، وطفت المياه على مدينتين فدمرتهما تدميراً، وعلى شواطئ البحر فدمرت كل مدينة على شاطئه.

واعلم أن جميع بقاع الأرض معرّضة للزلازل، ونحن ربما لا نشعر بزلزلة تكون في ديارنا مثلاً، مع أن عدد الزلازل التي تحدث كل سنة تبلغ ٣٠ ألفاً، أي نحو مائة زلزال كل يوم، وأكثرها هزات لطيفة. وقد تحدث في البحار فلا يشعر أحد بها، وذلك لأننا فوق كرة نارية مضطربة دائماً، وليس يحجزها عنا إلاَّ تلك القشرة التي ترى مستعدة دائماً للاهتزاز والاضطراب بما يحصل فيها من الانكماش والاعوجاج في كل حين.

فوازن أيها الذكي أوصاف هذه البراكين بما جاء في الأحاديث، فاقرأ كلام ابن عباس، وكيف يقول: البحر المسجور يسجر فيكون جهنم، وكيف يقول عبد الله بن سلام: إن النار في الأرض، وكيف يروى أن البحر من جهنم أحاط به سرادقها، وكيف يقول الكشف الحديث كما ترى: إن البراكين لا تكون إلاَّ في الجزر الصغيرة أو على شواطئ البحار، وكيف يقول نبينا صلى الله عليه وسلم: إن نارنا هذه أبرد من نار جهنم ٦٩ درجة، ثم ترى فيما قرأت أن عمق ٩٠ كيلومتراً تكون النار فيه ٣٠٠٠درجة بميزان سنتيغراد، وأن هذه الحرارة تصهر جميع المعادن والصخور، وبيننا وبين تلك النار قشرة الأرض التي لا يزيد ثخنها على ٩٠ كيلومتراً، فهي أقل من جزء واحد من مائة وأربعين جزءاً من قطر الأرض، وأقل من قشرة البيضة بالنسبة إلى البيضة.

فعلى هذا تكون النار هناك في باطن الأرض وفق ما في الحديث، فإذا كانت فيما يلي قشرة الأرض تبلغ ٣٠٠٠ درجة أعني قدر النار التي تغلي الماء ٣٠ مرة، فكم يكون مقدار ما بعد ٩٠ كيلومتراً أخرى وهكذا. فإذا قال صلى الله عليه وسلم: «إن نار جهنم قدر نار الدنيا ٦٩ مرة»، فإنا نقول قد كشفه العلم الحديث، وإذا قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾[العنكبوت: ٥٤] فذلك أصبح معروفاً؛ فالزمهرير من فوقنا، والسعير من تحتنا، وكلاهما من جهنم كما في الحديث المتقدم، وتعجب من قوله تعالى: ﴿لَمُحِيطَةٌ﴾ والإحاطة أقرب ما تكون في الدوائر والكرات، ولا جرم أننا بين كرتين: كرة زمهرير

يفصلها عنا الهواء، وكرة النار تحجبها عنا القشرة الأرضية، وقوله تعالى: ﴿ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾ ربما يثقل عليك، فتقول: هي محيطة بالكافرين والمؤمنين، نقول: ما تقوله حق، ويكون نظيره ما قاله تعالى في القرآن: ﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ [التوبة: ٥٥] فإنه قيل هناك: إن الأولاد والأموال معذبة الكافر والمؤمن، ولكن المؤمن الذي أدرك الحقائق يرى أن هذا العذاب مع الصبر يورث الأجر في الآخرة، فكأنه بهذا ينجو من العذاب باعتبار مآله. هكذا هنا إنها تحيط بالجميع ولكن المؤمن يعمل للنجاة.

وتعجب أيها الذكي كيف ترى أن ما فوق القشرة الأرضية من المعادن والنبات والحيوان تصير ناراً، وتنقلب سعيراً متى أحاطت بها النار، وترى النار متى لامست الخشب والثياب والقش اتقد فصار ناراً، وذلك كله يشبه أن يكون مؤيداً لقول علماء العصر الحاضر: إن الأرض من الشمس، والشمس ملتهبة ناراً، والكواكب في مبدأ أمرها تكون ناراً، والسيارات كانت ناراً، ثم أخذت تبرد شيئاً فشيئاً، والقمر من الأرض، وبرد قبلها لصغر حجمه. أفلست ترى أن العالم الذي نحن فيه تحيط به النار من سائر أطرافه، وهذه النار مغمورة في الزمهرير.

الماء يكون ناراً

والماء مركب كما تقدم من الأوكسوجين والأودروجين، وقد علمت فيما تقدم أن الأوكسوجين وهو الجسم المحرق ٨ أتساع، والأودروجين تسع واحد في الوزن، فكأن الماء ٨ من ٩ منه نار، فالبحر يكاد يكون ناراً، وتحت البحر القشرة الأرضية وتحتها النار المحرقة العظيمة.

قلة علمنا بهذه العوالم

اعلم أني قبل اطلاعي على هذه الأحاديث، ونظري في هذه الآيات ما كان ليخطر لي أن أذكر مثل هذا القول، بل كنت أعدّه كفراً وجهلاً، وهكذا أنت أيها الذكي قبل أن تقرأ هذه الآيات والأحاديث كنت تعده كفراً، فإن الجنة والنار مرجعهما أنهما مجهولان جهلاً عاماً، ومن فتح باب الكلام فيهما بمثل هذا عدّ كافراً أو مبتدعاً أو فاسقاً، ولكن لما رأيت هذه الآيات والأحاديث التي رأيت ابن حزم جمعها، وذهب إلى أن الجنة في السماء، والنار في الأرض، ثم اطلعت في العلم الحديث فرأيت العجب العجاب، وأن هناك تطابقاً غريباً بين الدين وبين العلوم العصرية، أردت أن أطلعك عليها وأقرّب المعاني بغاية ما يمكنني، ثم أحذرك أن تقف عند ما رأيت مما ذكرت في النار، وما سأذكر في الجنة، فأنا لست أقول: إن هذا هو العلم الذي تقف عنده، فربما جاء المستقبل بما نجهله نحن، وجاء علم لم نعهده، والقرآن يجب ألا يقف عند كشف ولا يقطع بأن هذا معناه.

فانظر كيف يقول ابن حزم بأن الجنة قسمان: قسم هو السماوات السبع، وهي الجنات السبع، وقسم هو الجنة التي عرضها كعرض السماء والأرض، وهو الكرسي، ، القسم الأول وهو السبع عرضها السماوات والأرض وأن الأبواب الثمانية في كل سماء باب، وفي الكرسي باب، وأن العرش فوق أعلى الجنة، وهو محل الملائكة، وليس من الجنة في شيء، وقوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ ﴾ [غافر: ٧] بيان جليّ بأن على العرش جرماً آخر فيه الملائكة، وقال: إن البرهان قام على ذلك من علم الهيئة.

هذا قول العلامة ابن حزم، وأنت خبير أن هذا مبني على الفلك القديم وقد ظهر بطلانه. فانظر كيف طبقه العلامة ابن حزم عليه، ولما ظهر بطلانه واطلعنا عليه أردنا أن نطلعك على العلم الحديث في النار وفي الجنة، ولكنا نقول لك حذار حذار أن تجعل ما نقوله هو نفسه معنى القرآن والحديث، بل هو احتمال نقوله وعليك أنت أن تترقب العلم الحديث والبحث والتنقيب فإنك لو جعلت القرآن لا يحتمل إلاّ هذا، وأتى العلم بما لم نعرفه في زماننا، انقلب علم الناس جهلاً، فيكون التعليم ضلالاً والعلم وبالاً والجزم به خبالاً، ولكن ما لا يدرك كله لا يترك كله، فلأسمعك ما اطلعنا عليه في الحديث.

الجنة

سأسمعك ملخص ما جاء في كتابي المسمى «الأرواح» من تعاليم الأرواح، فقد أحضروا في أوروبا روح العلامة «غاليليوس» الشهير بالعلوم الفلكية على يد الوسطاء للجمعية الباريسية الروحانية في خلال سنتي ١٨٦٢ و١٨٦٣.

قال غاليليوس: أفضل تحقيق أطلق على الفضاء أنه مسافة تفصل ما بين جرمين، فاستنتج بعض المغالطين من هذا التحديد أن لا وجود للفضاء حيثما انتفى وجود الأجرام، وإلى هذا المبدأ أسند بعض اللاهوتيين رأيهم في ضرورة تناهي الفضاء، وعدم إمكان تسلسل أجرام محدودة إلى ما لا انتهاء له. الفضاء لفظة تدل على معنى مفهوم بذاته لا يحتاج إلى التعريف، وما قصدي بهذه المقالة إلاّ أن أبين لكم عدم حده وتناهيه.

أقول: إن الفضاء لا حد له بدليل أنه من المستحيل تصور حدوده، إلى أن قال: وإن شئنا أن نمثل في ذهننا المحدود عدم تناهي الفضاء فلنتصور أنفسنا طائرين من الأرض نحو إحدى جهات الكون بسرعة الشرارة الكهربائية التي تقطع في الثانية ألوفاً عديدة من الفراسخ. فبعد طيراننا بثوان قليلة لا تعود الأرض تتراءى لنا إلاّ ككوكب حقير ضعيف النور جداً، وبعد قليل تتوارى عن نظرنا بالكلية، والشمس ذاتها لا تلوح لنا إلاّ كنجم حقير متوغل في أقاصي الفلا وعوضها تتجلى لأعيننا نجوم عديدة لا نكاد نميزها في المحطة الأرضية، وإذا لبثنا طائرين بالسرعة ذاتها نقطع في كل هنيهة عوالم متجمعة، وسيارات ساطعة، وبقاعاً زاهية، نثر الله فيها العوالم كما نثر الزهور في مروجكم الأرضية.

على أنه لم يمض على سفرنا إلاّ دقائق قليلة، وقد نأينا عن الأرض ملايين في ملايين من الفراسخ، ورأينا ألوفاً في ألوف من العوالم، ولكن لدى التحقيق لم نخط بعد ولا خطوة واحدة في الكون وإذا استقام سفرنا البرقي لا دقائق وساعات بل سنين وأجيالاً وألوفاً وملايين في ملايين من العصور والدهور، فإنا لا نكون مع هذا قد خطونا خطوة في طريقنا، وذلك إلى أي صوب اتجهنا وأية نقطة انتحينا من تلك الذرة الحقيرة التي بارحناها وأنتم تدعونها أرضاً. هذا ما عندي من تعريف الفضاء.

وأما الزمان فهو كالفضاء لفظة معبرة بنفسها غنية عن التحديد، وقد يسوغ أن ندعوه تعاقب الأشياء باللانهاية. فلنتصورن أنفسنا في بدء عالمنا أي في عصر بدأت فيه الأرض تتبخر تحت النفخة الإلهية، وبرز الزمان من مهد الطبيعة السري، فقبلها كانت الأبدية سائدة ساكنة، والزمان يجري مجراه في عوالم أخرى، ولما برزت الأرض إلى حيز الوجود استبدلت فيها الأبدية بالزمان، وأخذت السنون والقرون تتعاقب على سطحها حتى اليوم الأخير، أي ساعة تبلى الأرض وتمحى من سفر

الحياة، ففي ذلك اليوم تتعاقب الأشياء، وتزول الحركات الأرضية التي كانت مقياساً للزمان أيضاً. فينتج من هذا أن الزمان يتولد من تولد الأشياء وينقضي بانقضائها، وهو بقياس الأبدية كنقطة سقطت من عباب الجو في البحر فتختلف الأزمنة على اختلاف العوالم، وخارج هذه التعاقبات الفانية تسود الأبدية وحدها، وتملأ بضيائها فلوات الفضاء التي هي غير محدودة، فضاء لا حد له وأبدية لا قرار لها، هما الخاصيتان العظيمتان للطبيعة العامة؛ وإذا كان الزمان تعاقب الأشياء الزائلة ومقياسها، فإذا جمعنا ألوفاً في ألوف من القرون والأحقاب، لا يكون هذا العدد إلاّ نقطة زهيدة في الأبدية، كما أن الألوف في الألوف من الفراسخ تعدّ نقطة حقيرة في الفضاء، وإذا مضى على حياتنا الروحية عدد من القرون يوازي قدر ما يكتب على طول خط الاستواء، فإنه ينقضي هذا العدد الجسيم والنفس كأنها اليوم ولدت.

وإذا أضفنا إلى العدد المذكور سلسلة أخرى من الأعداد ممتدة من الأرض إلى الشمس وأكثر، فإنه ينقضي هذا العدد الذي لا يدرك قياسه من القرون، والنفس لا تقدم يوماً واحداً إلى الأبدية، ذلك لأن الأبدية لا حدّ لها ولا قياس، ولا يعرف لها بدء ولا نهاية، فإن كانت القرون المذكورة كلها لا تعد ثانية بقياس الأبدية، فما أهمية عمر الإنسان على الأرض؟.

إذا ما ألقينا النظر إلى ما حولنا رأينا اختلافاً جسيماً وتمييزاً جوهرياً في كل المواد المؤلف منها العالم. فانظر إلى كافة الأشياء طبيعية كانت أو صناعية، وانظر ما أعظم التغاير في صلابتها وضغطها ووزنها وسواها من الخصائص التي يتميز بها الهواء مثلاً من عرق الذهب، والنقطة المائية من الحجارة المعدنية، والأنسجة النباتية المتنوعة من الأنسجة الحيوانية على اختلاف طبقاتها، ومع هذا نستطيع أن نثبت بوجه الإطلاق أن كل المواد المعروفة والمجهولة مهما عظم تباينها وكثر تنوعها، إن هي إلاّ أشكال وأنماط متفننة تظهر فيها مادة أصلية واحدة تحت فعل القوى الطبيعية المتعددة.

إن الكيمياء التي بلغت اليوم عندكم درجة رفيعة من التقدم، وقد كانت تعد في أيامي من متعلقات العلوم السحرية، قد قوضت مسألة العناصر الأربعة التي أجمع الأقدمون على تركيب الطبيعة منها، وأثبتت أن العنصر الترابي إن هو إلاّ تركيب مواد متنوعة في تفنناتها إلى ما لا انتهاء له، وأن الهواء والماء قابلا التحليل، وهما متركبان من بعض الغازات، وأن النار ليست بعنصر أصلي، بل حالة من المادة ناتجة عن نوع من الحركة العامة يصحبها احتراق حسي أو كامن، وبمقابلة ذلك كشفت الكيمياء عدداً وافراً من العناصر المجهولة، منها تتألف كل الأجرام المعروفة، وسمتها عناصر بسيطة، إشارة إلى أنها أولية غير قابلة للتحليل إلى ما هو أبسط، ولكن فعل الطبيعة لا يقف حيثما وصلت تقديرات الإنسان وحكم إرادته، بل المتتبع بنظره إلى ما تجاوز حد المعرفة البشرية لا يرى في كافة العناصر المركبة والبسيطة إلاّ مادة واحدة أصلية، تتجمع في بعض النواحي لتنشأ منها العوالم، وتتفنن أشكالاً وأنواعاً في مدار حياتها، وتعود إلى مأوى الفضاء بعد انقراضها.

من المسائل ما نعجز نحن الأرواح المغرمين بالعلوم عن التعمق فيها، فلا نأتي لحلها إلاّ بآراء شخصية مبني أكثرها على أقيسة افتراضية. أما مسألة وحدة المادة فلا شبهة فيها ولا تخمين، ومن يأخذ قولي على محمل الافتراض أقول له: استوعب إن أمكن بنظرك تفننات أعمال الطبيعة كلها،

فتحقق يقيناً أنه بدون وحدة المادة يتعذر عليك شرح نبات أصغر بذرة ونتاج أحقر دويبة. وأما الباعث على تنوع ما تراه في المادة فهو تباين القوى التي تولت أمر تحولاتها، والظروف التي كانت عليها قبل نشأتها إنَّما جوهرها في الأصل واحد، وكل ما يقع أو لا يقع تحت نظرك من الأجرام والسوائل فهو صادر من مادة أصلية واحدة مالئة الكون الذي لا يحد.

إذا كانت إحدى الدويبات الحقيرة التي تقضي حياتها الوجيزة في قعر البحار، ولا تعرف من الطبيعة إلاَّ أسماك وغابات المياه، نالت فجأة من العقل ما مكنها من درس عالمها، وأخذت تقيس أفكارها في الكائنات، فما عسى يكون تصورها للعالم الأرضي الذي لا يقع تحت نظرها إذا بمعجزة أخرى بها انتقلت هذه الدويبة من القعر إلى ما فوق المياه بالقرب من جزيرة غناء اكتست بمروج زاهية، فأي تغيير يطرأ على أفكارها السابقة، وكم تتسع دائرة تصوراتها، ولكن ما زالت هذه دون الحقيقة. هذا بيان حال علومكم النظرية في الحاضر يا بني البشر.

إن سيالاً عاماً يملأ الفضاء الذي ليس بمحدود، ينفذ في الأجرام بأسرها، يدعى الأثير أو المادة الأصلية، ومنه تتولد كافة العوالم والكائنات. فهذا السيال تلازمه أبداً القوى أو النواميس الطبيعية المتولية تقلبات المادة ومسرى العوالم.

وهذه النواميس المختلفة على اختلاف تركبات المادة، والمتفننة في أنواع فعلها على مقتضى الظروف والمراكز تعرف في أرضكم بالثقل والتلاصق والمناسبة والتجاذب والمغناطيسية والكهربائية، ثم حركات العامل الاهتزازية تدعى عندكم صوتاً وحرارة ونوراً الخ.

وأما العوالم الأخرى فتظهر هذه النواميس تحت أوجه أخرى، وبخاصيات مجهولة عندكم، وإن في سعة السماوات التي لا تحدّ، تفننات من القوى نعجز نحن عن إحصائها، وتقدير عظمتها، كما تعجز الدويبة في قعر البحار عن استيعاب كافة الحوادث الأرضية.

وكما أنه لا وجود في الأصل إلاَّ لمادة واحدة بسيطة تتولد منها كافة الأجرام والتركبات الهيولية. هكذا كل القوى الطبيعية صادرة عن ناموس أصلي واحد متفنن في مفاعيله مما لا انتهاء له، فرضه الخالق منذ الأزل ليقوم به نظام الخليقة وبهاء الكائنات، إن الطبيعة لا تضاد ذاتها، وشعار الكون هو ذا الوحدة في التفنن، فإن صعدت في سلم العوالم وجدت وحدة النظام والخلقة مع تفنن لا يعرف حدّه في تلك الأجرام الفلكية، وإن أجلت بنظرك في مراتب الحياة من أحقر الكائنات إلى أعلاها وجدت وحدة التناسب والتسلسل. كذلك القوى الطبيعية كلها صادرة بالتسلسل عن قوة أصلية واحدة تسمى بالناموس العام. يتعذر عليكم في الحاضر استيعاب هذا الناموس في شمول اتساعه، لأن القوى الصادرة عنه والداخلة في دائرة أبحاثكم محدودة مقيدة، إنَّما قوتا التجاذب والكهربائية تفصحان لكم نوعاً من الناموس العام الأصلي الشامل السماوات والكائنات.

فكل هذه القوى الثانوية أزلية عامة كالخلقة، وبملازمتها للسيال العام تعمل ضرورة في كل شيء وفي كل مكان، وبتنوع عملها بالمقارنة والتعاقب تتغلب في مكان وتمحى من آخر، يظهر فعلها هاهنا عاملة أبداً في تجهيز العوالم وإدارتها وحفظها وملاشاتها، متولية أعمال الطبيعة ومعجزاتها حيثما قامت ضامنة على هذه الصورة بهاء الخلقة الأزلية ونظامها الأبدي.

بعد أن تأملنا بوجه عام في تركيب الكون ونواميسه وخصائصه، بقي علينا أن نشرح كيفية تكوين العالم والبرايا، ثم ننتقل بعدها إلى تكوين الأرض ومركزها الحالي في المبروءات. لقد أبنا سابقاً ما الزمان، وما نسبته إلى الأبدية، وأن هذه وحدة ثابتة، وبالتالي لا بدء ولا نهاية، ثم إذا لاحظنا من جهة أخرى عدم تناهي القدرة الإلهية حكمنا ضرورة بوجوب أزلية الكون، لأنه منذ وجد الله كملت كمالاته القدسية، وبما أن الله من ذات طبعه أزلي سرمدي، اقتضى أن يكون عمله أزلياً سرمدياً، أي لا بدء له ولا نهاية، فإذا تصورنا لعمل الله بدءاً، ومهما كان هذا البدء في مخيلتنا بعيداً قاصياً، يسبقه دائماً أزلية - زنوا جيداً ذلك بعقلكم - أزلية لا قرار لها لبثت فيها إرادة الله القدوس ميتة عن العمل، وكلمته بكماء ووحيه عقيماً. إن الله شمس الكائنات ونور العالم، فكما أن ظهور الشمس يصحبه ضرورة انتشار النور، هكذا الله يصحبه ضرورة فعل الخلقة وظهور البرايا.

أي لسان يستطيع أن يصف تلك العظائم الباهرة المستترة في دجى الدهور التي تلألأ سناؤها في عهد لم يكن قد ظهر بعد فيه شيء من عجائب الكون الحالي، تلك الدهور القاصية التي أسمع الرب فيها كلمته، فاندفعت تيارات الهباء والذرات لتشيد بتجمعها المهندم هيكل الطبيعة الذي لا يحدّ. ذاك الصوت السري الكريم الذي تجله وتهواه كل خليقته وبريته المرموقة به ارتجت الأفلاك وسبحت عجائب الرب.

إذا انتقلنا بالفكر إلى بضعة ملايين من الأجيال قبل العصر الحالي لنجد الأرض لم تبرز بعد إلى حيز الوجود، والكواكب لم تتولد من النظام الشمسي، في حين أن شموساً لا عدد لها كانت تسطع في أقاصي السماوات، وترسل أشعتها إلى كواكب لا يحيط بها إحصاء، وعاش بها من سبقنا من الأحياء في مضمار الإنسانية وأنظار أخرى تمتعت بعجائب طبيعية وغرائب سماوية لم يبق لها اليوم من أثر، وقلوب وعقول لا عدد لها كانت تسجد وتعظم قدرة البارئ التي لا تتناهى، ونحن أولاء الحاضرين الذين برزنا إلى الوجود بعد أزلية من الحياة نريد أن ندعي معاصرتنا للخلقة لندركنّ أمر الطبيعة جيداً.

أحبائي لتعلمن أن الأبدية وراءنا كما هي أمامنا، وأن الفضاء مرسح تعاقبت وتتعاقب فيه خلقات لا عدد لها ولا انتهاء. فتلك المجرات التي تميزونها في أقاصي السماوات إن هي إلاّ تجمعات شموس منها ما هي في بدء تكوينها، ومنها آهلة بالأحياء، ومنها ما بلغت دور الانحطاط.

وبالاختصار كما أننا قائمون في وسط غير متناه من عوالم، هكذا نحن عائشون في دوام أزلي سابق وأبدي لاحق لوجودنا الحاضر، وأن فعل الخلقة ليس بمقصور عليكم ولا على كرتكم الحقيرة.

إن المادة الأصلية تحوي في ذاتها العناصر الهيولية والسيالة والحيوية التي تألفت منها كل العوالم المنتشرة في كل ساحات الفضاء. فهي أمّ تثور لكل الكائنات، والوالدة الأزلية لكل الأشياء، فلا يمكن أن يعتريها نقص أو تلاش، إذ تعطي الوجود من دون انقطاع عوالم جديدة، وتستقي بلا فتور من الأصول التكوينية من العوالم التي بدأت تمحى من سفر الحياة، وهي المادة الأثيرية أو السيال العام المالئ الأجرام، وفيه مستقر العنصر الحيوي الذي به تحيا كل خليقة عند ظهورها على سطح سيار، فما من خليقة معدنية أو نباتية أو حيوية أو غيرها، إذ توجد مواد أخرى ليس في وسعكم أن تتصوروها. ألا تأخذ عند نشأتها نصيباً من هذا العنصر الحيوي، وبنفاده ينقضي أجلها، فالسيال العام إذن لا يحوي في

ذاته فقط النواميس القائم بها حفظ العوالم، بل به تنشأ في كل عالم المواليد الغريزية الأولية التي نبتت من غير زرع، وذلك عند سنوح الظروف الملائمة للحياة على سطح الكرة.

لقد ضربنا إلى الآن صفحاً عن ذكر العالم الروحي، الذي هو أيضاً قسم من الخلقة العامة، ويتمم ما رسمه عليه المبدع العظيم من التقادير الأزلية، على أني لا أستطيع أن أتوسع في كيفية خلقة الأرواح نظراً لجهلي بالمسألة، وعدم إجازتي بأن أبوح بأمور تيسر لي التعمق فيها فقط. أقول لمن تطلب الحق بخلوص النية وتواضع القلب: إن الروح لن يشرق عليه النور الإلهي لينال به مع الاختيار المعتوق معرفة ذاته ونصيبه من الاستقبال، إلاّ بعد أن يكون قد جاز بقضاء محتوم في مسحبة النسمات السفلية من البرايا، وفيها أنجز ببطء فروض شخصيته، ففي ذلك اليوم يسم الله جبهته بوسم مثاله، وينخرط الروح في سلك الإنسانية فقط. حذار من أن تبنوا على مقالي استدلالاتكم النظرية إذ أحب إليّ ألف مرة أن أطوي كشحاً عن مسائل تفوق حد نظري من أن أعرّضكم لإفساد تعليمي واستنتاج أقيسة وقواعد لا أس لها.

فحدث مرة أنه في نقطة من الفضاء، وفي وسط مليارات من العوالم تكاثفت المادة الأصلية، فتولد عنها مجرة أي سحابة نيرة لا يكاد يدرك قياسها، وبقوة النواميس العامة المستقرة فيها، وخصوصاً التجاذب في الدقائق أصابت الشكل الكروي، وهو الشكل الذي تصيبه في البدء كل مادة تجمعت في الفضاء، ثم تغير شكلها الكروي بقوة الحركة الدورية الناتجة من التجاذب المتساوي من كل المناطق في الدقائق نحو المركز وأصابت الشكل العدسي، وتولد عن حركتها هذه الدورية قوات أخرى أخصها قوة الجاذبة والدافعة، فالأولى تميل بالأجزاء إلى المركز، والثانية تبعدها عنه، وتعاظمت سرعة حركة المجرة على قدر تكاثفها، واتسع نصف قطرها على قدر تقربها من الشكل العدسي إلى أن تغلبت القوة الدافعة على الجاذبة، واقتلعت من المجرة الدائرة المحيطة بخط الاستواء؛ كما أن حركة المقلاع تقطع الحبل بتزايد سرعتها، وتدفع القذيفة إلى بعد، ثم انقلبت تلك الدائرة المنقطعة عن المجرة إلى كتلة قائمة بنفسها، ولكنها خاضعة لولاية المجرة الأولى، وبقي لها حركتها الاستوائية، فتغيرت إلى حركة انتقالية حول الجرم الأصلي وأكسبها حالتها الجديدة. هذه حركة أخرى دورية حول مركزها الذاتي.

ثم عادت المجرة الأصلية إلى شكلها الكروي بعد أن ولدت عالماً جديداً؛ ولما كانت الحركة الأصلية المتولدة عن حركاتها المختلفة لا تضعف إلاّ ببطء كلي، كان الحادث الذي أتينا على ذكره يتكرر مراراً متعددة وفي مدة مديدة إلى أن تبلغ المجرة درجة من الكثافة تحول بمتانتها دون التغيرات الشكلية الصادرة عن حركة دورانها حول مركزها، فليس جرماً واحداً بل مئات من الأجرام ستقلع على النسق المذكور من المجرة الأصلية، وكل من هذه العوالم لاحتوائه على القوى الطبيعية ذاتها المستقرة في الجرم الأصلي، سينتج أجراماً ثانوية تدور حوله كما يدور حول المجرة الأصلية بصحبته سائر الأجرام المتفرعة منها، وكل من هذه الأجرام الثانوية سيكون أيضاً شمساً أي مركزاً لكواكب جديدة تتفرع منه بالطريقة التكوينية ذاتها، وما الأرض إلاّ إحدى هذه السيارات كتبت في حينها في سفر الحياة، وأصبحت مهداً لخلائق ضعيفة تكلؤها عين العناية الربانية اليقظة، وجاءت وتراً جديداً تعزف في عود الطبيعة العامة المسبحة لعجائب الله.

وقد تفرع من السيارات قبل تجمدها أجرام أخرى صغيرة اقتطعت من دائرة خط الاستواء، وأخذت تدور على محورها وحول الجرم الأصلي بقوة النواميس العامة ذاتها، فتولد القمر من الأرض وجمد قبلها لصغر حجمه، إنَّما القوى التي تولت اقتلاعه من خط الاستواء الأرضي وحركته الانتقالية في هذا الخط فعلت فيه ما جعلته يصيب الشكل البيضي بدلاً من الكروي، فأصبح على شكل بيضة مركز ثقلها في أسفلها وفي وسطها، لهذا لستم ترون في هذا الجرم إلاَّ جهة واحدة، وهو أشبه بكرة من الفلين، قاعدتها من رصاص وهي الناحية المتجهة دائماً إلى الأرض. فينتج من ذلك أن على سطح العالم القمري طبيعتين في غاية التباين والاختلاف: الأولى وهي الناحية المتجهة دائماً إلى الأرض لا ماء فيها ولا هواء، وفيها تجمعت كل الأجزاء الجامدة الغليظة لوجود مركز الثقل فيها، والثانية التي لا يقع عليها قط نظر أرضي حاوية كل السوائل والمواد الحقيقية، وهي متجهة أبداً إلى الناحية المخالفة لعالمكم الأرضي.

واختلفت الأجرام المتفرعة من السيارات عدداً وأحوالاً، ومن السيارات ما لم يتفرع منها شيء كعطارد والزهرة، ومنها ما ولدت قمراً أو أكثر، كالأرض والمشتري وزحل الخ، وهذا الكوكب أي زحل ولد عدا الأقمار حلقة منيرة، وهذه الحلقة عبارة عن منطقة انفصلت في البدء عن خط الاستواء في زحل، كالمنطقة الاستوائية التي انفصلت عن الأرض فصارت قمراً. إنَّما الفرق أن منطقة زحل متكوّنة عند انفصالها من دقائق متجانسة الجوهر، وربما كانت متجمدة بعض التجمد، فلهذا بقيت تدور حول الجرم الأصلي بسرعة تكاد تعادل سرعة الجرم ذاته. فلو كانت المنطقة متكاثفة في إحدى جهاتها أكثر من سواها، لتجمعت حالاً كتلة واحدة أو كتلات متعددة، تصبح أقماراً جديدة تضاف إلى ما كان لزحل من الأقمار الأخرى

وأما النجوم ذوات الأذناب فقد توهمها البعض عوالم في بدء نشأتها، يجهز فيها بواعث الوجود والحياة كما في السيارات، وافترضها غيرهم عوالم آخذة في الدروس والتلاشي، حتى المنجمون أنفسهم كانوا يتشاءمون بها كدلالة النحس والبلايا. على أن المطلع على تفننات وأعمال الطبيعة يعتريه العجب لأقيسة افتراضية بناها الطبيعيون والفلكيون والفلاسفة، ليؤيدوا بها أن المذنبات سيارات حديثة أو عتيقة في حين أنها ليست هي إلاَّ كواكب متنقلة كرواد في الممالك الشمسية، وما أعدّت لتكون كالسيارات مساكن آهلة بالبشر، بل اختصاصها أن تنتقل من شموس إلى شموس لتستقي منها الأصول الحيوية المنعشة فتفيضها فيما بعد على العوالم الأرضية

فلنتبعن بالفكر أحد النجوم المذنبات عند بلوغه البعد الأقصى من الشمس، ولنقطعن تلك السعة المديدة الفاصلة ما بين الشمس وأقرب النجوم، ولنتأملن في سير هذا المذنب المتنقل، فنجد فعل النواميس الطبيعية ممتداً إلى بعد لا تكاد المخيلة أن تصيبه، فهناك يبطؤ سيره إلى حد لا يتجاوز بعض الأذرع في الثانية، بعد أن كان يسير الألوف من الفراسخ في كل لحظة عند قرب دنوّه من الشمس، ولا يبعد أن تتغلب عليه عند هذا الحد شمس أخرى أشد قوة ونفوذاً من التي بارحها فتجذبه إلى دائرة فلكها وتحصيه في عداد أتباعها، وعبثاً ينتظر بعدها بنو أرضكم رجوعه في وقت عينته أرصادهم الناقصة. أما نحن فنجوز معه بالفكر إلى تلك الأقطار المجهولة فنجد فيها من العجائب ما لا يتوصل قط إليه تصوّر أرضي.

قلّ منكم من لم يلحظ في الليالي الصافية الخالية من القمر سحابة نيرة منتشرة من أقصى السماء إلى أقصاها تدعونها درب التبانة أو المجرة ، وقد كشف لكم عنها مؤخراً المرصاد ، فرأيتم فيها ملايين من الشموس معظمها أبهى نوراً وأوسع حجماً وأهمية من شمسكم ، إن المجرة هي بالحقيقة حقل فسيح زرعت فيه زهور شموس وكواكب تتلألأ في أرجائها الرحبة ، فالشمس وكافة السيارات والأجرام التابعة لها زهرة واحدة من تلك الزهور المنثورة في حقل المجرة ، وعدد هذه الزهور أي الشموس لا يقل عن الثلاثين مليوناً ، تبعد كل منها عن الأخرى أكثر من ثلاثة آلاف ألف ألف ألف فرسخ ، فمن هذا يستدل على سعة تلك المجرة الممتنع تصورّها ، وصغر شمسكم بالنسبة إلى باقي الشموس ، ثم إن حقارة بل عدم أرضكم ليس بالنسبة إلى حجمها وسعتها المادية فحسب ، بل فوق ذلك إلى أحوال سكانها الأدبية والعقلية .

ثم إن المجرة ذاتها مع ملايين شموسها ليست شيئاً بالنسبة إلى الألوف من المجرات المنتشرة في أقاصي الفضاء ، إنّما تظهر أوفر سعة وسناء من سواها لإحاطتها بكم ووقوعها تحت دائرة نظركم ، في حين أن المجرات الأخرى متوغلة في أقاصي السماوات ، فلا يكاد يستشفها مرصادكم ، فإذا علمتم أن الأرض ليست بشيء في عامة المجرات ، وعامة المجرات أيضاً ليست بشيء في سعة الفضاء الذي لا يتناهى عاد سهلاً عليكم إدراك حقارة الأرض ، وعدم أهمية الحياة الجسدية .

إن الملايين من الشموس المؤلفة منها مجرتكم يحيط بأكثرها سيارات وعوالم تستمد منها النور والحياة ، فمنها نجم سريوس مثلاً الذي يربو حجمه وبهاؤه على شمسكم ألوفاً من المرار ، والسيارات المحيطة به تفوق سيارات الشمس كبراً وسناء ، ومنها شموس مثناة أي نجوم توائم تختلف وظائفها الفلكية عن وظائف شمسكم ، ففي السيارات المحيطة بتلك الشموس المثناة لا تعد السنين والأيام كما في أرضكم ، وأحوال الحياة فيها يتعذر عليكم تصورّها .

ومن الشموس ما لا سيارات لها ، إنّما أحوال سكانها خير الأحوال ، وبالإجمال إن تفننات هذه النجوم واختلاف أحوالها ووظائفها مما يقصر الإدراك البشري عن تخيلها .

إن كل ما ترون من النجوم والأجرام في القبة الزرقاء يختص بمجرة واحدة وتدعى كما قلنا درب التبانة ، ولكل منها سير مخصوص مصدره قوة الجاذبية ، فتسير سيراً ليس على سبيل العرض والصدفة ، بل في طرق معينة مركزها الجرم الأصلي . فقد تحقق لكم مؤخراً أن الشمس ليست بنقطة مركزية ثابتة ، بل تسير في الفضاء ساحبة معها موكبها الحافل بالسيارات والأقمار والمذنبات ، وليس سيرها بعرضي ، بل طريقها محدود تسير فيه بصحبة شموس أخرى من طبقتها حول جرم آخر عظيم تولدت منه . إنّما حركة وسير باقي الشموس رفيقاتها لا تصيبها أرصادكم السنوية ، إذ يقتضي عدداً عظيماً من الأجيال لإتمام إحدى هذه السنوات الشمسية .

ثم إن هذا الجرم العظيم الذي تدور حوله الشمس مع سائر الشموس رفيقاتها ليس بجرم أصلي بل يدور هو أيضاً بصحبة أجرام أخرى من طبقته حول نجم آخر أعظم منه ، وهكذا قل عن هذا النجم الثاني إلى أن يحل العجز بمخيلتنا عن تصور هذه السلسلة المرتبة القائمة ما بين شموس مجرتكم التي لا يقل عددها عن الثلاثين مليوناً ، كل هذه الشموس مع سياراتها مرتبطة ببعضها في نظام واحد

كمجموع دواليب آلة واحدة، فتظهر لعين الحكيم الناظر إليها عن بعد كحفنة من اللآلئ الذهبية نثرتها النفحة الإلهية في الفضاء، كما تنثر الريح الرمال في بلقع الصحارى. إن فلاة يكاد لا يحدها قرار تمد إلى كل جهة حول المجرة التي أتينا على ذكرها لأن مجمعات المادة الأصلية أي المجرات منثورة في الفضاء كجزر عزيزة الوجود في بحر لا حد لسعته، فالمسافة التي تفصل ما بين كل مجرة وأخرى تفوق مسافة قطر المجرة ذاتها بما لا حد له، فمعلوم أن قياس مجرتنا يعد بمئات ألف ألف ألف ألف ألف فرسخ. أما قياس بعدها عن باقي المجرات فلا يمكن لعقل أن يدركه، بل المخيلة وحدها تستطيع أن تقطع تلك الفيافي السماوية الخالية من مظاهر الحياة.

وتتجلى فيما وراء هذه الفلوات عوالم أخرى تتبختر في بحر الأثير، وتظهر الحياة فيها تحت مجالي غريبة، يستحيل عليكم تصورها، فالمنتقل من مجرتكم إلى تلك المجرات يعاين ضروباً من الحياة وقوى طبيعية لم تكن قط لتخطر على ذهنه، فيدرك هنا قدرة الخالق ويسبح عجائب أعماله.

رأينا أن ناموساً أصلياً واحداً يتولى تكوين العوالم وخلود الكون، وأن هذا الناموس العام يظهر لحواسنا تحت ضروب مختلفة ندعوها قوى طبيعية، وبفعلها تتجمع المادة الأصلية وتنجز تقلباتها الدورية، أي تكون في البدء مركزاً سيالاً للحركة، ثم تتفرع منها العوالم، وتصبح بعدها جرماً كثيفاً يدور حوله ما تولد منه من الأجرام.

والآن أريد أن أبين أن هذه النواميس ذاتها التي تولت نشأة العالم ستتولى أيضاً أمر انحلالها، لأن منجل الموت لا يحصد ذوات النسمة فحسب، بل المادة الجمادية أيضاً بانحلال تراكيبها، فحين يقضي العالم سني حياته تخمد منه نار الوجود وتفقد عناصره قواها الأصلية، وتزول منه الحوادث الطبيعية بزوال القوى.

هل تظنون أنه سيلبث دائراً في الفضاء كجرم لا حياة به، ويبقى مكتوباً في سفر الحياة بعد أن أصبح حرفاً ميتاً لا معنى له؟ كلا، إن النواميس ذاتها التي انتشلته من ظلمة العدم وجملته بمظاهر الحياة، ودرّجته من أجيال الصبوة إلى الهرم، ستتولى أمر دثوره، وإرجاع عناصره الجوهرية إلى معمل الطبيعة العام ليتكون منها فيما بعد عوالم جديدة إلى ما لا انتهاء له.

فأبدية الكون تقوم بالنواميس ذاتها المتولية أعمال الزمان، أي تعقب الشموس الشموس والعوالم العوالم، دون أن يصيب قوى الكون أدنى كلل أو خمود، فما ترون في أقاصي السماوات من نجوم نيرة ربما محتها من أمد مديد أصبع الموت، وأعقبها العدم وخلقة جديدة تجهلونها بعد.

إنّما البعد الشاسع القائم بينكم وبين الأجرام القاصية الذي لا يقطعه النور إلاّ في ألوف الألوف من السنين، يجعل أشعتها تصل اليوم إليكم. مع أنها ربما انبعثت قبل خلق الأرض بأمد مديد، ففي هذه كما في غيرها تظهر حقارة الإنسان وعدم دنياه. إنّما سيأتي يوم فيه يبقى ذكر الأرض في ذهننا كظل بخاري، بعد أن نكون قد تدرّجنا أجيالاً لا عدد لها إلى العوالم العليا.

وحين نتأمل في المستقبل عند بلوغنا هذا الحد، لا نرى نصب أعيننا إلاّ تعاقباً سرمدياً من العوالم أو أبدية ثابتة لا انقضاء لها. اهـ.

هذا ملخص ما جاء في العلم الحديث، وفي علم الأرواح موازناً به ما جاء في القرآن والحديث:

موازنات

العلم الحديث	القرآن والحديث الشريف
(١) الأرض انفصلت عن الشمس والقمر انشق منها.	(١) ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ﴾[الأنبياء: ٣٠]
(٢) الأرض إذا جاء أجلها تمور وتصير هباء، ثم تصير عالماً جديداً، وكذا بقية الكواكب.	(٢) ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ [إبراهيم: ٤٨]
(٣) الأرواح في الأرض تنقل إلى عوالم أرقى سماوية.	(٣) أن الجنة في السماء، وأن النبي صلى الله عليه وسلم رأى أرواح الأنبياء في السماوات، وآية: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ ﴾[الأعراف: ٤٠]
(٤) الأرواح تنتقل من عالم إلى عالم سماوي على حسب استعدادها.	(٤) ﴿ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٢١]
(٥) بعد الهواء برودة شديدة في الخلاء، وفي باطن الأرض حرارة.	(٥) إن شدة الحر من فيح جهنم، وإن لها نفسين: نفساً في الشتاء، ونفساً في الصيف.
(٦) نار جهنم أقوى من نارنا عشرات المرات.	(٦) إن نارنا هذه أبرد من نار جهنم بتسع وستين درجة.

هاأنا ذا لخصت لك ما جاء في العلم الحديث في الجنة ودرجاتها والنار وإحراقها، وإياك أن تظن أني أرى أن جوف الأرض والزمهرير الذي فوق الهواء هما جهنم، وإن كان ظاهر الأحاديث يوافق ذلك، والكشف الحديث يؤيده، فقد يكون ذلك مماثلها أو يكون قطعة منها، لأن في العالم أراضي غير أرضنا كثيرة، وفيها نار أشد من نار أرضنا، فربما ضمت يوم القيامة كلها فصارت ناراً واحدة، وقد يكون هناك من العلم ما لم نصل له، وكذلك لا تظن أني أرى أن هذه النجوم التي هي مسكونة كما ذكرته روح غاليلي، وأن أهلها في سعادة ونعيم، وأن الأرواح الأرضية ترتقي فيها بحسب استعدادها، وأن الروح كلما صفت وخلصت ارتقت إلى عالم ألطف. الخ. لا تظن أني أقطع بأنها هي الجنة، وإن كانت الآيات والأحاديث تكاد تصرح بها كقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ﴾[الأعراف: ٤٠]، وكقول عبد الله بن سلام: إن الجنة في السماء، وإنما لم أقل هي الجنة، لأن الكشف لم يبين لنا حقيقة، هل في السماء سكان، وإنما ذلك كلام الأرواح التي يناجونها، وهذا الكشف لم يتم الآن. فإذا ثبت واتضح وظهر حقاً أن الأرواح هكذا ترقى في الدرجات، فلنقل هذه هي الجنة، بل نقول فوق ذلك: إن تلك الدرجات ما كان منها فيه تكليف وإذلال فهو من جهنم، وما كان فيه سعادة فهو من الجنة، وكل هذا إلى الآن لم يقم عليه دليل.

ثم إذا قام عليه دليل تكون تلك جنات حسية، وليست مقصودة العارفين، ولا محط رجال الحكماء الصالحين، لأنهم يرون الخلوص من المادة خيراً، وأن يكونوا في مقعد صدق عند مليك مقتدر، ويكونون ملحقين بالملائكة الذين في جوار ربهم، كما أوضحت ذلك نقلاً عن الإمام الغزالي في سورة

البقرة عند قوله تعالى: ﴿ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ ﴾ الآية [البقرة: ٢٥]، وبالجملة، إن العلم الحديث يكاد يقترب من الآيات والأحاديث، ومحصل ما أراه أننا نعرف هذا ونتربص حتى تتكشف الحقائق، ولا نقطع بذلك، فإن العلم آخذ في الرقي، وعلى المسلمين أن يبحثوا في الفلك، وفي علم الأرواح، حتى يصلوا للحقائق، وقد ذكرت هذا ليكون باباً يلج منه الباحثون، ومفتاحاً وسلماً ومبدأ ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴾[النجم: ٤٢]. ومن عجب أن البرد الشديد تحت الصفر بدرجات كثيرة يحرق الأجسام كالنار، كما جاء في الكشف الحديث، وهذا من أعجب العجب. اهـ.

عجائب العلم والدين وواجب المسلمين

إن ظهور هذه الحقائق من أعجب ما أتى به الإسلام. فكيف يقال: إن باطن الأرض نار، وإن الكواكب عظيمة جداً، وفيها سكان ـ وإن كان لم يحقق ـ وكيف يتفق العلم الحديث مع الدين في ارتفاع حرارة جهنم، وسواء قلنا إن هذه النار الأرضية وأمثالها هي التي يعذب فيها الناس، أم هي مماثلة لأماكن أخرى شديدة العذاب، وإن هذه الكواكب إن صح أن فيها سكاناً أو هي الجنات، أو قلنا إنها أماكن تشبهها، فعلى كل حال ظهور هذه الحقائق من عجائب الإسلام وغرائبه.

فعلى عقلاء المسلمين أن يتعلموا ويقرؤوا علوم الطبيعة والفلك وطبقات الأرض وعلم الأرواح، فوا حسرتاه على أمة الإسلام، وا أسفاه على دين تركه أهله وضيعه معتنقوه، ونسي العلوم التي يطلبها مدرسوه، وجهله متبعوه، ولم يؤمن به إلا من أهملوه. فإليك اللهم المشتكى، ولك الأمر، ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ ﴾[الأنعام: ١١٢] والله هو الولي الحميد.

الدار الآخرة في القديم والحديث: اللذات الحسية والخيالية والعقلية

أنت تعلم أن ما ورد في شريعتنا المطهرة هي اللذات الحسية من الجنات والحور والولدان وما أشبه ذلك، وهذه اللذات الحسية أنكرها قوم وقالوا: هذه يتعاطاها الإنسان بجسمه والجسم قد بلي، وإنما يكون الإنسان في الآخرة بروحه، وإنما اللذات والآلام بالروح لا بالجسد، وهي أمور معنوية. هذا ملخص ما يقولون.

وقالت طائفة كالإمام الغزالي: إن اللذات على ثلاثة أقسام: حسية وخيالية وعقلية، فالحسية معلومة، والخيالية ما يتخيلها الإنسان وتخطر في نفسه كما تتصور نهراً جارياً أو حوراء أو جنات وأعناباً، وهذه الصور التي يتخيلها الإنسان لذتها ضعيفة كالتي يتصورها في المنام، ولو أنها دامت تلك الصور المنامية لكانت لذتها تامة، إنَّما المانع من تمام لذتها أنها مقطوعة باليقظة.

وليس للإنسان من اللذات إلاَّ ما انطبع في حسه كالصور الجميلة في العين، والمسموعات في السمع، والمشمومات في الشم، والنواعم في اللمس، والحلو في الذوق؛ ولو أن امرأ كانت أمامه صورة من أجمل الصور وهو أعمى، أو كان مبصراً ولكنه غافل عنها لاشتغاله بأمر مهم، لم يستلذ بالصورة فإذن لا لذة في الصور المشاهدة. إنَّما اللذة في الإحساس بصورها المنطبعة في الشبكية، فالمدار في اللذة على ذلك الانطباع. فأما الصور الخارجة في أنفسها فليست فيها لذة، بل الأمر قاصر على تلك الصور المطبوعة في النفس، هكذا سمّ الحيات، وإن أجسام الحيات ليست مؤذية، إنَّما المؤذي الآثار الناشبة في الأجسام من سريان السم، فلو لدغت الحية إنساناً ولم يسر السم أو سرى ولكن الترياق أبطل فعله،

كما يقولون: إن جسم كل ذي سم مبطل لفعل سمه، كجسم الحية إذا وضع على موضع اللدغ أبطل فعل السم، والإنسان لو شرب سم الحيات لم يضره، وإنما الذي يضره أن يسري في الدم كما تفعل الحية، إذ تدخل نابها في الأجسام فيدخل السم في الدم فيسري، فإذن المدار على تأثير السم لا على السم ولا على الحية.

فثبت إذا أن الجسم لو حلّ فيه أثر كأثر السم لحصل المقصود من الضر بدون حاجة إلى الحية ولا إلى السم، ولو حصلت في الأبصار والأسماع صوت النغمات اللذيذة والصور الجميلة بدون أن تكون تلك الصور وتلك النغمات في الخارج، لكانت اللذات دائمة لا مقطوعة ولا ممنوعة، ولأصبحت اللذات تحت تصرف الإنسان، فمتى تخيل صورة أو نغمة أو فاكهة أو ظلاً أو نهراً حضر لديه، وهذا أشرف وأرقى من اللذات المحسوسة الخارجة، لأن هذه إذا تمتع بها زيد حرم منها عمرو كما في هذه الدنيا. أما تلك التخيلية فإن الصورة الواحدة يتمتع بها آلاف في زمن واحد تمتعاً تاماً غير منقوص، ولو اشتهى مشاهدة النبي صلى الله عليه وسلم ألف شخص في ألف مكان في حال واحد لشاهدوه، كما خطر ببالهم في أماكنهم المختلفة، وأما رؤيته صلى الله عليه وسلم وهو موجود خارج الحس، فلا تكون إلاّ في مكان واحد، وحمل ما في الآخرة على ما هو أتم وأوسع أولى. اهـ ما قاله بتصرف وإيضاح.

قال: وأما الوجه الثالث العقلي فهو الوجود العقلي أن تكون هذه المحسوسات أمثلة اللذات العقلية التي ليست بمحسوسة، والعقليات أقسام كثيرة مختلفة كالحسيات، فتكون الحسيات أمثلة لها، وكل واحد يكون مثالاً للذة أخرى مما رتبته في العقليات توازي رتبة المثال في الحسيات؛ فلو رأى في المنام الخضرة والماء الجاري والوجه الحسن، والأنهار الجارية باللبن والعسل والخمر، والأشجار المتزينة بالجواهر واليواقيت واللآلئ، والقصور المبنية من الذهب والفضة، والأسرّة المرصعة، لكان المعبر لا يحمله على نوع واحد، بل يحمل كل واحد على نوع آخر من السرور وقرة العين، يرجع بعضه إلى سرور العلم وكشف المعلومات، وبعضه إلى سرور المكنة ونفاذ الأمر، وبعضه إلى قهر الأعداء، وبعضه إلى مشاهدة الأصدقاء، وإن شمل الجميع اسم اللذة والسرور، فهي مختلفة المراتب مختلفة الذوق لكل واحد مذاق يخالف الآخر، وكذلك اللذات العقلية ينبغي أن تفهم كذلك، وإن كانت مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

فجميع هذه الأقسام ممكنة، فيجوز أن يجمع بين الكل، ويجوز أن يكون نصيب كل واحد بقدره واستعداده، فالمشغوف بالتقليد والجمود على الصور الذي لم ينفتح له طرق الحقائق يمثل له الصورة، والعارفون ينفتح لهم لطائف السرور واللذات العقلية كما يليق بهم، وينفي شرهم وشهوتهم إذ حد الجنة أن فيها لكل امرئ ما يشتهيه، فإذا اختلفت الشهوات لم يبعد أن تختلف العطيات واللذات والقدرة والسعة، والطاقة البشرية عن الإحاطة بعجائب القدرة قاصرة، والرحمة الإلهية ألقت بواسطة النبوة إلى كافة الخلق القدر الذي احتملته أفهامهم.

هذا ما قاله الإمام الغزالي في الرسالة المسماة بـ«المضنون به من غير أهله»، فأنت ترى أنه أثبت اللذة الخيالية، وجعلها أفضل من الحسية، وجعل فوقها لذة عقلية، وهي إدراك الحقائق، وجعل لكل من الناس ما وصل إليه إدراكه وفهمه، وانظر إلى ما قاله ريمند بن اللورد أوليفر لودج المائت في الحرب

الكبرى العامة، وأوليفر لودج من كبار الطبيعيين في أوروبا وبلاد الإنجليز. فانظر كيف يقول له ابنه لما أحضرت روحه، فيما نقلته من كتاب الأرواح:

أما ثيابي أنا فيظهر لي أنها مصنوعة من خيوط ثياب بليت عندكم، والبعض هنا يقولون عن الثياب إنها روحية مصنوعة من النور، يكوّنها الفكر على الأرض. فانظر كيف تقول الأرواح المائتة إنها تكون ثيابها بصنع أفكارها، وهذا عينه ما قاله الإمام الغزالي، فتعجب من نوع الإنسان، وكيف ما كان يظنه الغزالي ظناً أصبحت تقوله الأرواح في مخاطباتها، وقال أيضاً: وهنا معامل تعمل كل شيء لا من مواد جامدة بل من مواد روحية، وترى في الكتاب كثيراً مما يدل على أن الأرواح تصوغ ما تشاء أسرع من لمح البصر، فما قاله الإمام الغزالي وأدركه بعين البصيرة قد اشتهر الآن وشاع بين علماء الأرواح في أوروبا، وقد يقول بعض الإخوان: إن كتاب الغزالي المذكور ليس له حقيقة، فنقول نحن الآن في مقام الجمع بين آراء علماء الشرق والغرب، فهو كتاب شرقي.

فإذا اعتبرنا هذا جنة خيالية، واعتبرنا ما تقدم في مقال روح غاليلي جنات حسية في الكواكب العظيمة، وانتقلنا إلى عالم الأرواح في جناتها العقلية، رأينا مطابقة بين كلام علمائنا وكلام علماء العصر الحاضر، فأما أنت فلا تكن مقلداً ولا تقف عند حد، بل اقرأ وزد علماً، واعلم أن الله لم يرد بهذا إلاَّ زيادة العقل، ورياضة الفكر، فغموض هذه المسائل يوجب التفكير، والتفكير يزيد العلم، والعلم هو المقصود الأعظم من الحياة.

واعلم أني أطلت الآن في الجنة والنار، ولست أعيد الكرّة عليهما في التفسير إلاَّ قليلاً، بل أكتفي بما كتبته الآن، والله المستعان. اهـ.

ولعلك تقول كيف تثبت أن ريمند وهو مسيحي يدخل الجنة، وكيف تحكم بذلك؟ أقول: على رسلك، أنا إنَّما ذكرتها على سبيل النقل، ولم أحكم بصحتها، وربما صحت بأن يكون أسلم قبل موته، فليس في ديننا ما يجعلنا نقطع بكفر أحد، لا يعلم الغيب إلاَّ الله.

ولا ترين في الأرض دونك كافراً ولا مؤمناً حتى تغيب في القبر

فربما نجا ريمند، ولم ننج نحن، وربما كان معدوداً من أهل الفترة، كما تراه في كتاب «فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة»، وهل بلغ إليه الإسلام على وجهه؟ نحن نشك في ذلك، وإذا كنا لا نزال نرى أن المسلمين يجب أن يكونوا أعلم بكتابهم مما هم عليه، فكيف بمن هم غير مسلمين، ومن دخلت هذه الشبهة عقله وقفت حجاباً بينه وبين العلم، وعاش مفتوناً بالجهالة، محروماً من الحكمة، محكوماً عليه بوقوف العقل وركود الذهن، وموت الفؤاد، والانقطاع عن الأنداد. اهـ الكلام على اللطيفة السادسة.

اللطيفة السابعة: ﴿ وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ﴾

يقول علماء النفس في الجمعيات الأمريكية: إن النفس كلما حبست عواطفها وحفظت خطراتها زادها ذلك قوة، وأنالها بأساً وحكمة، وأنار بصيرتها، وعلى ذلك يأمرون التلاميذ أن يكونوا على جانب من التؤدة والثبات، ويقولون: إن ذلك يحفظ المغناطيسية الحيوانية أن تفيض من النفس، فتبقى محفوظة ليصرف منها الإنسان في الأعمال النافعة بدل الآراء الضائعة.

وانظر كيف أمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يكفّ عن الدعاء على أعدائه، حفظاً لتلك القوة النفسية العالية، وكيف ذكر بعدها تعليماً للأمة ما يجب عليها من العفو والمغفرة وكظم الغيظ، لتحفظ النفوس وتقوي القلوب وتكمل الكمال الأوفى، ومن مقال هذه الجمعيات الذي ترجم حديثاً:

ليس الرجل القوي الإرادة الماضي العزيمة، هو ذاك الذي يكشر عن أنيابه، ويقبض حاجبيه، ويصرّ أسنانه ويقلص عضلاته ووجهه وينظر نظر الغاضب الحانق، كلما أراد أن يتغلب على الصعاب. ليس هو الذي يتذمر من عمله اليومي، فإن ذلك قد أضاع قواه، ومتى صادفه رجل هادئ مطمئن واثق بنفسه صرع الأول وغلبه، ومتى حفظ امرؤ قواه وحبسها بإرادته ولم يأذن لها بالإفلات منه، كان ذلك وحده كافياً أن يأتي له بالفوائد الجليلة، من جذب النفوس إليه وقبول الناس له، والإقبال عليه واحترامه فهذه الصفة كنز ثمين لا يقدّر بذهب ولا فضة، به تفتح الطرق المادية والمعنوية، ومن حرم هذه الصفة ضاعت حياته هباء منثوراً، وإنّما كانت أغلى من الذهب والفضة، لأن النفوس لما أحست بفطرتها وغريزتها وأن نفسه مملوءة روحانية ومغناطيسية لشدة محافظته على السكينة والتزام الاحتراس، أقبلت بفطرتها عليه غير عالمة بالسبب، ولا مدركة ماذا دفعها إلى ذلك الاحترام والحب، وإن لم يكن في الوجه جمال، ولا في الحبيب مال، وإنّما ذلك شأن النفس التي ملأها الجمال، وحفظت من ضياع روح الحياة وهي المغناطيسية النفسية، كالنهر حفظت ماءه السدود والعرم. ذلك قول العلماء.

فانظر كيف مدح الله الكاظمين للغيظ، وقال لنبيه: ﴿ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَٱعْفُ عَنْهُمْ ﴾ مدح نبيه بهذا الوصف وأمر المؤمنين به، ورتب عليه عدم انفضاض الناس من حولنا، وهذا تعلله الجمعية النفسية بحفظ القوى، وبقاء الروح في حرز حصين من الإسراف في مواهبها.

اللطيفة الثامنة: ترتيب درجات الطائعين

انظر كيف رتبت درجات الطائعين، فكان أعلاهم:

(١) النافعين لنوع الإنسان القائمين بشأن الجمعية الإنسانية، وهم خلفاء الله على الحقيقة، وأشار إليه بقوله: ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ ﴾[آل عمران: ١٣٤]، فهؤلاء خلفاؤه على عباده متشبهون بملائكته ولذلك جعل جنتهم كملكه فهيأها لهم: ﴿جَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾[آل عمران: ١٣٣] والخليفة أحق بالاطلاع على ملك من استخلفه، فبوأهم جنة تضارع ملكه، وذلك هو الجمال والكمال.

(٢) الدرجة الثانية الذين يصبرون على أذى الناس. فهؤلاء وإن لم يقوموا بأمر الأمة ويساعدوا المجموع، فإنهم زكوا نفوسهم وطهروها وقوّوها، فاستعدت إلى المعالي، وهي المشار إليها بقوله: ﴿ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ ﴾ الخ [آل عمران: ١٣٤].

(٣) الدرجة الثالثة درجة التائبين، ليس هناك أحط منها، وإليها الإشارة بقوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ﴾[آل عمران: ١٣٥]، وهؤلاء جنتهم ليست كعرض السماء والأرض وليسوا متمتعين بحقيقة الخلافة ورعاية الأمة، ونظام المجموع، فجنتهم إنّما تجري تحتها الأنهار، فإياك أن تنزل عن المرتبة الأولى، وجاهد في الحكمة والعلم، ولا تقصر في نفع الأمة وإزالة الغمة، وكن أباً رحيماً مقلداً لله في رحمته للناس ورعايته للخلق.

اللطيفة التاسعة

﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾

لعلك تذكر ما قدمناه في سورة البقرة عند قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ﴾[البقرة:١٥٥-١٥٦] الآية، فاعلم أن هذه الآيات تنحو نحو ما ذكرناه هناك فراجعه، وليس في الإعادة هنا إلاّ التكرار الذي يجب أن تتجنبه.

ولقد استبان هناك أن لا سعادة في الحياة، ولا في الممات، إلاّ بعوارض الدهر وقوارع المصائب وتربية الله للناس بالخطوب، ولقد ظهرت كتب كثيرة في ذلك مثل «لغز قابس» الذي لخصته هناك، وكتاب «الكوخ الهندي» لعالم أوروبي كبير، وهذه الآيات التي نزلت في غزوة أحد كلها دروس وتطبيق على ذلك.

اللطيفة العاشرة: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ﴾ الخ

هي كسابقتها حث على الصبر والثبات، وبابهما واحد.

اللطيفة الحادية عشرة: ثواب الدنيا والآخرة

إن القرآن يدعو إلى الكمال الدنيوي والأخروي، والله يعطي الثواب الدنيوي والأخروي، فالثواب في الدنيا والآخرة معاً، فإن المسلم وهو يجاهد في سبيل الله قد نال ثواباً في الدنيا بالغنيمة وفي الآخرة بالجنة.

اللطيفة الثانية عشرة
كيف تعطي الدروس على حوادث الإنسان وآلامه

لم تمر غزوة أحد بلا درس، فأنت ترى كيف ظهر المنافقون وامتاز المخلصون، وكانوا وقت الشدة أشد اطمئناناً، وكان الصبر نعمة، والثبات كمالاً، وذكر أن الحرب سجال، وأن الهزيمة من أسبابها ذنوب سابقة ألجأتهم إلى ارتكاب مثلها، وأن التوكل والشورى مطلوبان تعليماً لنا، لئلا نشذ عن الجماعة فنسير مع الأمة ونطأطئ للإجماع، كما هو القانون المسنون في الأمم الحاضرة، ويا ليت شعري كيف يكون رأي الجماعة مطاعاً في الإسلام ولا ينفذ أمره إلاّ في الأمم الأوروبية، كما لم يعرف نتائج الخمر إلاّ الأمم الأجنبية، ويظهر أن الأمم الإسلامية بعد القرون الأولى لم يكونوا أهلاً لهذا الدين؛ ومن الدروس أن المصائب العظيمة كالهزيمة يوم أحد، نقمة تنسي المصائب الصغيرة، فلا يحفل بها الإنسان وهذا أعظم ما عرفه الحكماء قديماً وحديثاً، ومنها أن يشعر الإنسان بالروح والعزم وعناية الله، ومنها أن يوازن مصائبه بما أصاب عدوه، ومنها أن يتذكر أن هذه المصيبة بفعل سابق قد كان منه، ومنها أنها عدّة له بها يستنير في أمثالها، ومنها أن يرجع إلى الله وأن القضاء والقدر سابقان، ليقل الحزن ومنها أن لا يرجع الإنسان في رأيه بعد أن أحكمه، وهكذا من الحكم التي جاءت في هذه السورة درساً على أحد.

إن هذا درس لك أيها الذكي، فإذا أصابك شئ أو أقبلت نقمة فاجعلها من مسائل الدراسة، وحافظ على الاستنتاج كما استنتج في القرآن ليعلمنا الله كيف نبحث في كل ما يصيبنا، ونستخرج منه الحكمة والعلم. ألا إنما مثل المصائب كمثل النار تصيب الفحم فيكون منه دخان فنار، أما الدخان فالغمام، وأما النار فالعلم.

أولا ترى أن الدخان ينقطع وتبقى النار مضطربة مضيئة، أوليس الذي نفهمه في الحوادث التي تلم بنا يعطينا علماً وحكمة، فأما الغم والحزن فإنه منقطع. اهـ.

القسم التاسع من سورة آل عمران

ذكر المنافقين واليهود وكيدهم، وأن ذلك ابتلاء من الله للنبي صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين ليصبروا فتقوى قلوبهم وترفع نفوسهم إلى العلا.

وهذا القسم كسابقه يرجع إلى الصبر وحفظ القوى العقلية من الضياع حتى تستأهل النفس للعلوم والمعارف الآتية في القسم العاشر المتمم للسورة.

إنك قد علمت كلام علماء النفس أنهم جعلوا حفظها بالصبر والصيانة، والعفة والعفو، وحفظ قواها لتكون كالنهر حفظ ماؤه فتسقى به المزارع، ولن يكون الزرع بلا ماء، ولا العلوم بلا فكر نقي ونفس كاملة، وفي هذا القسم بعد ذم الكفر وتقبيحه:

(١) أن النعم لن تكون أس الكمال. فكم من الخيرات كانت سبب الشقاء.

(٢) وأن هذه الدنيا جعلت ليمتاز فيها المسيئون من المحسنين بما يتتابعهم من الحوادث المؤلمة.

(٣) وأن المواهب والنعم إذا بخل بها الإنسان أصبحت شراً عليه ووبالاً، وأورثته نكالاً، وأصلته نار الطمع والجشع والحرص فأصبح مبغضاً مكروهاً.

(٤) وأن الكبرياء والفخر من أسباب الشقاء.

(٥) وأن الأكاذيب على الأنبياء والتعنت عليهم من أشد الكبرياء مقتاً.

(٦) وأن الحياة الدنيا غرور.

(٧) وأن القضاء حتم علينا أن نسمع أذى كثيراً، ونبتلى بنقص الأنفس والثمرات، وأهل العزم هم الذين لا يبالون، وعند هذه الشدائد يسمون.

(٨) وأن البخل بالعلم أشد من البخل بالمال ضرراً، كما حصل من علماء اليهود في زمن الرسالة.

(٩) وأن من فرح بمدح ما ليس فيه فأحب أن يحمد بما لم يفعل، آثم لخلوه من الكمال وانتحاله ما لا حقيقة له إلا في الخيال.

فهذه تسع خصال بعضها يقترب من بعض، وبعضها متميز أشد التمييز. فلأذكر الآيات ثم يتلوها تفسيرها.

﴿ وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ

مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾ لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ۘ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ ۗ قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٨٣﴾ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾ ۞ لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾ ﴾

التفسير اللفظي

﴿يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ يقعون فيه سريعاً حرصاً عليه، وهم المرتدون المنافقون المتخلفون ﴿إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ أي لن يضروا أولياء الله كالنبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه بأن يعينوا عليهم كما هو شأن الصديق إذا انقلب عدوًّا ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ نصيباً من الثواب ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أي منضماً إلى حرمانهم من الثواب. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ الآية، تأكيد لما قبله لعظم الأمر، فإن كيد العدو الذي كان صديقاً عظيم لعلمه بما عند صاحبه الأول، فلذلك زاد التأكيد بأنه لن يضر رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه. ﴿نُمْلِى﴾ نمهل ونؤخر، و«ما» اسم «أن» و«خير» خبرها، و«ما» اسم موصول، و﴿إِثْمًا﴾ ذنباً. وقوله تعالى: ﴿يَجْتَبِى﴾ يختار.

وقوله تعالى: ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ بيان لكونه شراً لهم، أي سيلزمون وبال ما بخلوا به إلزام الطوق، وعنه صلى الله عليه وسلم: «ما من رجل لا يؤدي زكاة ماله إلاَّ جعل الله له شجاعاً في عنقه يوم القيامة»، وفي رواية أبي هريرة: «من آتاه الله مالاً فلم يؤدّ زكاته، مثل له يوم القيامة شجاع أقرع له زبيبتان ـ أي نكتتان سوداوان يكونان فوق عين الحية ـ يطوّقه يوم القيامة يقول: أنا مالك، أنا كنزك، ثم تلا: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ الآية»، أخرجه البخاري. وقوله تعالى: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ هم اليهود لما سمعوا: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾[البقرة:٢٤٥]، وروي: «أنه عليه الصلاة والسلام كتب مع أبي بكر إلى

يهود بني قينقاع يدعوهم إلى الإسلام وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وأن يقرضوا الله قرضاً حسناً، فقال فنحاص بن عازوراء: إن الله فقير حين سأل القرض، فلطمه أبو بكر على وجهه وقال: لولا ما بيننا من العهد لضربت عنقك، فشكاه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وجحد ما قاله، فنزلت» ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ جعل الاستهزاء بما جاء في الإسلام، وقتل الأنبياء، في نمط واحد، كأنهم بما استقر في نفوسهم من الرذائل الفاشية وعظائم الذنوب قد استعدوا لمثلها، وقوله تعالى: ﴿وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ أي ننتقم منهم بأن نقول لهم: ذوقوا العذاب المحرق، وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ الخ أي ذلك العذاب بما قدمتم من قتل الأنبياء وسائر المعاصي. وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ﴾ الذي قال هذا هو: كعب بن الأشرف ومالك وحيي وفنحاص ووهب بن يهوذا من اليهود، و﴿عَهِدَ إِلَيْنَآ﴾ أي في التوراة ألا نؤمن لرسول إلاَّ بمعجزة خاصة، فيقرب النبي القربان ويدعو الله فتنزل نار سماوية فتأكله، ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ الدلالات الواضحات والمعجزات، ﴿وَٱلزُّبُرِ﴾ الكتب، واحدها زبور، وهو كل كتاب فيه حكمة، من الزبر وهو الزجر، ﴿وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾ الواضح المضيء، ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ يوم قيامكم من القبور، وفي الحديث: «القبر إما روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار» ﴿زُحْزِحَ﴾ أبعد. وقوله تعالى: ﴿فَقَدْ فَازَ﴾ أي بالنجاة ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ﴾ أي لذاتها وشهواتها وزخارفها ﴿إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ المتاع كل ما استمتع به الإنسان من مال وغيره، ، الغرور ما يغر الإنسان بما لا يدوم، أي: إن منفعة الإنسان بالدنيا كمتعته بهذه الأشياء التي يستمتع بها، ثم تزول عن قريب. ﴿لَتُبْلَوُنَّ﴾ لتختبرن ﴿فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ﴾ بالإنفاق وما يصيبها من الآفات كدودة القطن ببلاد مصر ﴿وَأَنفُسِكُمْ﴾ بالجهاد والقتل والأسر والجراح والخوف والمرض ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَذًى كَثِيرًا﴾ كهجاء الرسول والطعن في الدين وإغراء الكفار على المسلمين، وإنما أخبرهم بذلك لتتوطن أنفسهم على الصبر والاحتمال ﴿وَإِن تَصْبِرُواْ﴾ على ذلك ﴿وَتَتَّقُواْ﴾ مخالفة أمر الله ﴿فَإِنَّ ذَٰلِكَ﴾ أي الصبر والتقوى ﴿مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ أي معزوماتها التي يجب العزم عليها أو مما عزم الله عليه، أي أمر به وبالغ فيه. ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي اذكر وقت أخذه، والذين أوتوا الكتاب هم العلماء، كعلماء اليهود والنصارى الذين كتموا دلائل النبوة المحمدية في التوراة والإنجيل، وأخذ الميثاق هو التوكيد والإلزام أن يبينوا ما أوتوا من الكتاب، وهو قوله تعالى: ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ﴾ أي الكتاب أو الميثاق ﴿وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ﴾ طرحوه وضيعوه ﴿وَٱشْتَرَوْاْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ من حطام الدنيا ﴿فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ يختارون لأنفسهم، وعنه صلى الله عليه وسلم: «من كتم علماً عن أهله ألجم بلجام من النار»، وعن علي رضي الله عنه: «ما أخذ الله على أهل الجهل أن يتعلموا حتى أخذ على أهل العلم أن يعلموا». ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَواْ﴾ فعلوا من التدليس وكتم الحق ﴿وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُواْ بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ﴾ من الوفاء بالميثاق وإظهار الحق والإخبار بالصدق ﴿بِمَفَازَةٍ﴾ بمنجاة ﴿مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾ فائزين بالنجاة منه ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ بكفرهم وتدليسهم. ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فهو يملك أمرهم ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ فيقدر على عقابهم، وليس فقيراً وهم أغنياء كما قالوا. انتهى التفسير اللفظي.

يقول الله تعالى: لا تحزن يا محمد لأولئك الذين غادروا دينك، وسارعوا إلى أعدائك فإنك بأعيننا، ونحن لا ندعك لهم بل نحفظك من كيدهم ونؤمنك من شرهم، وكيف يؤذونك ونحن ننصر الذين ينشرون الفضائل ويزيلون الرذائل ويكونون للناس نافعين معلمين. فأما ما ترى من إغداق النعم عليهم وإظلالهم بظلال الأمن والسلامة، وما أمددناهم به من مال وبنين، فلم نفعل ذلك لنسارع لهم في الخيرات، وإنما ذلك ليزدادوا إثماً؛ كما أننا جعلنا وفرة الطعام والشراب والمآكل الدسمة للشرهين ليمتلئوا لحماً وشحماً، ثم نميتهم لجهلهم بقوانين الصحة في مطعمهم ومشربهم. هكذا هؤلاء نعطيهم الأموال والبنين إلى أجل معدود، ثم نوردهم مورداً لا مرجع منه، وكيف أذر المؤمنين على ما هم عليه؟ فلأسلطن عليهم التكاليف والمشاق، ولأوردنهم موارد الحرب ومواقع الضرب، حتى يمتاز الشجاع من الجبان، والمنافق من المخلص، وكيف تفرقون بين زيد وعمرو، وتعرفون الشجاع من الجبان، والمخلص من المنافق؟ وهل أطلعتكم على غيبي أو أنبأتكم بعلمي، وإنما أرسلت الرسول لقيادتكم، وبهذه التكاليف يمتحنكم فيكون التمييز ويظهر ذو الورم من السمين، والمحق من المبطل.

وهل أولئكم الذين أغدقت عليهم النعم إلى أجل محدود فبخلوا بها وأعطيتهم مالاً فمنعوا حقه ينالون خيراً، وإنما هو شر لهم، سيكون ذلك المال غلًّا في أعناقهم وسجناً لنفوسهم. إن كل ما اشتهاه الإنسان وأنس به ولازمه من مال أو منصب أو جاه، ولم يعالج نفسه بإنفاق المال، والتفكر في أمر هذه الحياة وزوالها، سيكون معلقاً بها وهو لا يراه طالباً له ولا يلقاه مغرماً به وقد أخطأه.

ومن ذلك الأقوال الجارحة والكبرياء بغير حق، وقول الزور والجهل والغرور كقول من يقول: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ﴾، وأمثال هذا القول يردي صاحبه لأنه يكتب في صحائفه، ويكون وبالاً عليه لأنه يربي فيه ملكة القول الزور والتطاول الممقوت والتعالي، والملكات السيئة العالقة بالنفس تكون وبالاً على صاحبها، فهو كحاطب ليل يحتطب الشوك فيؤذيه، ولا يعلم ماذا يأتيه، فليس العذاب إلاَّ بما قدمت الأيدي، ومن لم يهد الله فما له من مهد.

ولقد كذبك هؤلاء فلا تبتئس بالتكذيب، واذكر الأنبياء السابقين والرسل الماضين، فقد كذبهم التابعون وقد أرسلوا بالمعجزات والآيات الواضحات، فصبروا على ما أوذوا واستعاذوا بي فأعيذوا، فاصبر كما صبروا، فلأعيذنك كما أعذتهم، ولأنصرنك كما نصرتهم، ولأذيقن المكذبين سوء النكال لأني أنصر الهداة وأخذل الغواة إذا بلغ الكتاب أجله، وأتم كل عمله بحيث يكون الأنبياء أدوا ما عليهم، والمكذبون بلغوا النهاية في النكاية، فيكون الجزاء على مقدار العمل فأحسن للمحسنين وأسيء للمسيئين فلتصبر حتى تستوفي مدة المحنة ويتمادوا في الفتنة، فيكون الجزاء لك ولهم عدلاً، والقصاص منهم والإفضال لك حقاً جزاء وفاقاً.

على أن هذا وذاك سيزول والدنيا ذاهبة مهما تطاولت الأيام ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ﴾ والأعمال بخواتيمها، والعذاب القليل في جانب النعيم محتمل، ومن ذاق ألوان الأذى قليلاً ثم استمتع بالبهجة دائماً فأمره جلل. فلذلك بلوتكم في الأنفس بالقتال، وفي الأموال بالإنفاق والآفات، وسلطت عليكم الأعداء فسلقوكم بألسنة حداد؛ فإن صبرتم على البأساء وثبتم في الضراء، وكنتم ذوي عزم حين البأس، كنتم عندي من ذوي النفوس العالية وبوأتكم منازل الصابرين.

ولا يظن امرؤ أني أجتزئ بظواهر الأمور كالقتال والإنفاق، بل هناك ما هو أعلى مقاماً وأعز شأناً وأرفع مكاناً ألا وهو العلم، فإذا عاقبت الأغنياء على شحهم وبلوتهم في أموالهم فلست مخلياً العلماء من التعذيب، ولا الحكماء من التأديب، بل البخل بالعلم أدهى وأمرّ وأجلب للضر، وأبعد عن العدل وأقرب للإثم، وكيف لا يكون كذلك وقد أخذت على العلماء الميثاق، فإذا نبذوه وراءهم وناموا عن نشره للناس كنت خصمهم، العلم أصل وما عداه تابع له، فلذلك أخذت الميثاق على العلماء، وما الأغنياء إلاّ تلاميذ العلماء، وما المجاهدون إلاّ صدى صوت المعلمون ومنفذو أوامرهم في الدين، فكيف أعطف على العالم البخيل بعلمه، إنه لأشد عذاباً من البخلاء، وأقرب إلى النار وبئس القرار، فهل تحسبهم بمفازة من العذاب، كلا بل لهم عذاب أليم، إن العلم هو الأس للنظام ومدار الاجتماع. فكيف أعفو عن عالم أضاع علمه؟ أليس العلم به يعرف جلال الله، وأنه يملك السماوات والأرض، وأنه على كل شيء قدير، فالعلم أمره عظيم جليل.

لطيفة في قوله تعالى:

﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾ الآية التي نحن بصددها

قال قتادة: هذا ميثاق أخذه الله تعالى على أهل العلم، فمن علم شيئاً فليعلمه، وإياكم وكتمان العلم فإنه هلكة. وقال أيضاً: مثل علم لا يقال به كمثل كنز لا ينفق منه، ومثل حكمة لا تخرج كمثل صنم لا يأكل ولا يشرب. وقال أيضاً: طوبى لعالم ناطق ومستمع واع، هذا علم علماً فبذله، وهذا سمع خيراً فقبله ووعاه.

واعلم أنه لما كان هذا القول يستدعي طلب العلم والتفكر في أصوله وفروعه، ناسب أن يؤتى بعده بدرس في المعارف العامة، وبنظرة في السماوات والأرض، وأيضاً لما كانت الآيات السابقة في شؤون غزوة أحد وكان فيها القتال ومجاهدة الأعداء وقصص المنافقين والضالين والكافرين، ورد الأباطيل والدروس الأدبية كالصبر والثبات والغنائم والفوز والهزيمة والتوبيخ، وكان من عادة القرآن أن يأتي بعد ذلك بما يخرج النفس من أمثال هذا المقام إلى التفكر في أمور شريفة وعجائب وبدائع لتتفرج على الجمال، وتنشرح به بعد ما سمعت من مختلف الأحوال، فقيل: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[البقرة:١٦٤] الخ، وأيضاً إن غزوة أحد مملوءة من الدروس الأدبية والعظات التأديبية والحكم الخلقية والقوارع الزجرية، ، كل ذلك ليس نهاية المقصود من الحياة، ولا هو نهاية مقاصد النبوات، وإنما هذه أشبه بالتخلية، والمعارف الطبيعية أشبه بالتحلية، فإذا تخلى الإنسان عن الرذائل فلم يشذ عن المجموع وثبت في حروبهم وصبر في النوائب كملت نفسه، وعظمت قيمته، وإذن تستعد النفس للرقي في العلياء والعروج إلى أبواب السماء، فالأخلاق مقدمات، والعلوم نهايات، والأخلاق بالتجارب العملية كغزوة أحد. فلذلك أعقبه بآية: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾[البقرة:١٦٤]، وكذلك أول سورة آل عمران كان فيه ذكر الله وعلمه بكل شيء، وأنه لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، وتصوير الناس في الأرحام كيف يشاء، فختمت بمثل ما ابتدئت به، ليكون المبدأ بالجمال العلمي والمنتهى بالنظر في العالم العلوي والسفلي، كأنه يقال: أيها الناس إن رسالة الأنبياء والحرب

والقتال والتكاليف والإنفاق، كل ذلك لكمال نفوسكم وجمال عقولكم؛ فلذلك ابتدأت السورة بعلم الكائنات، وختمتها بالحكم الكليات، وما كان غير ذلك فإنما هو مقدمات لتلك المقاصد، ومبادئ لتلك الغايات، كذلك كانت سورة البقرة فإنها مبدوءة بالتوحيد مختومة بأن ما في السماوات وما في الأرض لله، وبدعاء المؤمنين أن ينصرهم الله على أعدائهم ويغفر لهم، وترى سورة آل عمران مبدوءة بما ابتدئت به سورة البقرة من التوحيد، وختمت بالدعاء بالغفران، وذلك في:

القسم العاشر

وهو: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَأَيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾﴾

التفسير اللفظي

سأل أهل مكة النبي صلى الله عليه وسلم أن يأتيهم بآية فنزلت: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَأَيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ لدلائل واضحة على وجود الصانع ووحدته، وكمال علمه وقدرته لذوي العقول الخالصة النيرة من شوائب الحس والوهم، وورد عن النبي صلى الله عليه وسلم: «ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها»، ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ يداومون على ذكر الله في غالب الأحوال في القيام والقعود، وفي حال نومهم على جنوبهم، وليس المراد الاختصاص بهذه الأحوال، بل المراد أن يعم الذكر سائر الأحوال، وعن عائشة رضي الله عنها قالت: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر الله تعالى في كل أحيانه»، وعن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «من قعد مقعداً لم يذكر الله فيه كانت عليه من الله ترة، ومن اضطجع مضطجعاً لا يذكر الله فيه كانت عليه من الله ترة، وما مشى أحد ممشى لا يذكر الله فيه إلا كانت عليه

من الله ترة » أخرجه أبو داود . والترة : النقص ، والمراد به هنا التبعة ، ومن الذكر الصلاة ، ولما سأل عمران بن حصين النبي صلى الله عليه وسلم عن الصلاة وقد كانت به بواسير ، قال : « صلّ قائماً ، فإن لم تستطع فقاعداً ، فإن لم تستطع فعلى جنب تومئ إيماء » ، وقد أخذ الشافعي بظاهره ، وأن المريض يصلي على جنب ويومئ برأسه . وأبو حنيفة يرى أن يصلي مستلقياً على ظهره ، فإن وجد خفة قعد ، ﴿ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ استدلالاً واعتباراً ، وذلك أفضل العبادات . قال عليه الصلاة والسلام : « لا عبادة كالتفكر » ، وذلك مخصوص بالقلب ولأجله خلق الإنسان ، قال عليه الصلاة والسلام : « بينما رجل مستلق على فراشه إذ رفع رأسه فنظر إلى السماء والنجوم ، فقال : أشهد أن لك رباً وخالقاً ، اللهم اغفر لي ، فنظر الله إليه فغفر له » . وهذا العلم أشرف العلوم ، بهذا وأمثاله يتفكرون قائلين : ﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا ﴾ أي ما خلقت هذا الخلق ، أي المخلوق من السماوات والأرض عبثاً ضائعاً من غير حكمة ، وإنّما خلقته لحكمة عظيمة ، ومن هذه المخلوقات الإنسان ، فلا بد أن يكون خلقه لأمر عظيم ، فإذا جهل الحكمة التي خلق لها فإنه لا بد صائر إلى عذابك ﴿ سُبْحَٰنَكَ ﴾ تنزيهاً لك من العبث وخلق الباطل ، وإذا كنا نعلم أننا خلقنا لحكمة ، فجهلنا بها وإخلالنا بما خلقنا له يردينا ويوردنا النكال لأنك لا تخلق إلاّ لحكمة ﴿ فَقِنَا ﴾ يا ربنا ﴿ عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ الذي نستحقه إذا أخللنا بالحكمة التي خلقنا لها ، وغفلنا عن النظر ففاتتنا الحكمة وحرمنا العلم والتوفيق ، ولم ندر ما في السماوات والأرض من العجائب ، ولا جرم أن الناس في الدنيا يحسون بالعذاب من طريقين : طريق أجسامهم كالسجن والضرب والتعذيب ، وطريق الإذلال والإهانة والافتضاح ، والناس يشعرون بهما في الدنيا ، فنرى الوزراء والأمراء ورجال الحكومات وذوي النفوذ إذا عزلوا أو أهينوا أو طردوا من مجلس رؤسائهم أو قيلت لهم كلمة لا تليق بمقامهم تؤلمهم أشد الإيلام ، وربما مرضوا أو ماتوا ، وافتضاح الإنسان وسط الجمهور وإسقاطه أشد عليه من كل ضرب وسجن ، بل هو العذاب الحق ، وليس أضرّ على الإنسان من جهله وخزيه في المجالس الشريفة ومقام الملوك والعلماء والأدباء . ولما كان موقف أولي الألباب عند ربهم يقتضي أن يكونوا على نور وعلم يوافي مواقفهم ويناسب مراتب الملائكة ، ويلتئم مع ما لتلك الحضرة من الجمال والإجلال . قال تعالى : ﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ﴾ أهنته وأذللته وأهلكته وفضحته وأبلغت في إيذائه والاستخفاف به من الانكسار الذي يلحق الإنسان وهو الحياء المفرط فالفضيحة ، وإنّما عبر بالإخزاء لما فيه من مضي الانكسار الذي يعقب الافتضاح ، وهو نوع من العذاب كما قدمنا ، وأيّ افتضاح أشد هولاً وأقوى من ظهور الجهل في موطن العلم . فالعذاب بالنار المطلعة على الأفئدة بخزي الجهالة لا تنقص عن نار الجسم المحرقة للهياكل المشاهدة ، فهؤلاء لما ظلموا أنفسهم بذنوبها وجهالتها عذبوا وافتضحوا ﴿ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ ﴾ أنفسهم ﴿ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَٰنِ ﴾ وهو النبي صلى الله عليه وسلم والقرآن ﴿ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ ﴾ أي بأن آمنوا بربكم ﴿ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا ﴾ كبائرنا ﴿ وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا ﴾ صغائرنا ﴿ وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴾ مخصوصين بصحبتهم ، والأبرار : جمع بر أو بارّ كأرباب وأصحاب ﴿ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ ﴾ ألسنة ﴿ رُسُلِكَ ﴾ من الثواب لأننا نخاف أن لا نكون من الموعودين بذلك الثواب لقصور في امتثالنا فندعوك بذلك تعبداً واستكانة عسى أن لا نكون من

المقصرين ﴿ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ لا تفضحنا أمام الأشهاد حين تظهر الخبايا والنيات، ويتضح ما غمض من السيئات و﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا ﴾ منشراً ﴿ وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ ﴾[آل عمران:٣٠] حصناً مشيداً، وتقول: يا ليتني كنت عنه مبعداً، وكيف لا تجيب دعاءنا أو تخيب رجاءنا، وأنت قد أمرت بالدعاء ووعدت بالإجابة وناديت للإيمان ووعدت بالإثابة، وما علمناك تخلف الوعود فيما رأينا من المخلوقات كالنجوم الطالعة والشموس المتألقة، فإن مواعيدها محسوبة وأوقاتها معلومة، فوعدك في شروقها وغروبها غير مكذوب، فإذا كان هذا دأبك فإنا بوعدك مصدقون ﴿ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴾ في كل شيء: في البعث وفي الثواب وفي كل ما له أدوار في هذا الوجود، ﴿ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ ﴾ إلى طلبتهم ﴿ أَنِّى ﴾ بأني ﴿ لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ﴾ بيان عامل ﴿ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ﴾ جملة معترضة بيّن بها شركة النساء مع الرجال فيما وعد للعمال من الأجر لما بينهما من اتصال واجتماع واتفاق في الدين، ثم أخذ يفصل تلك الأعمال فقال: ﴿ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ ﴾ الشرك والأوطان والعشائر للدين ﴿ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى ﴾ أي بسبب إيمانهم بالله ومن أجله ﴿ وَقَٰتَلُوا۟ ﴾ الكفار ﴿ وَقُتِلُوا۟ ﴾ في الجهاد ﴿ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ﴾ لأمحونّ عنهم سيئاتهم ﴿ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ أي أثيبهم بذلك إثابة من عند الله، أي تفضلاً منه، وهذا مصدر مؤكد ﴿ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴾ على الطاعات قادر عليه ولما كان هذا القول يدل على إقبال الله على عباده، وأنه يعطيهم ما سألوا في الدارين بدليل قوله فيما تقدم في هذه السورة: ﴿ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾[الآية:١٤٨]، وقوله هنا: ﴿ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴾ فإذا كان ما عنده حسن الثواب في الآخرة ويؤتيهم أجرهم في الدنيا، فكيف يرى المؤمنون تقلب الكافرين في الأرض بالتجارة، ولا يختلج في صدورهم الوسواس ويداخلهم الريب فيما يسمعون مما يعارضه ما يرون. ولقد روي أن بعض المسلمين كانوا يرون المشركين في رخاء ولين عيش، فيقولون: إن أعداء الله فيما نرى من الخير، وقد هلكنا من الجوع، فأجابهم بقوله: ﴿ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴾ والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ولأمته ولكل أحد، فإن ذلك سحابة صيف عما قليل تقشع، أو كسراب بقيعة أو كالزبد يذهب جفاء. فذلك التقلب ﴿ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ﴾ بلغة فانية قصيرة المدة. قال عليه الصلاة والسلام: «ما الدنيا في الآخرة إلاّ مثل ما يجعل أحدكم أصبعه في اليم فلينظر بم يرجع» ﴿ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾ ما مهدوا لأنفسهم ﴿ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ النزل ما يهيأ للضيف عند نزوله من طعام أو شراب. قال الضبي والنزل أيضاً بالسكون:

وكنا إذا الجبار بالجيش ضافنا جعلنا القنا والمرهفات له نزلا

وقد نصب على الحال من جنات ﴿ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴾ مما يتقلب فيه الفجار لقلة الثاني وكثرة الأول وسرعة زواله وكثرة الأول ودوامه. إن أصحمة النجاشي لما نعاه جبريل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج فصلى عليه، فقال المنافقون: إن هذا يصلي على علج نصراني لم يره قط، ولقد أسلم عبد الله بن سلام اليهودي وأصحابه أربعون من نجران، واثنان وثلاثون من الحبشة، وثمانية من الروم، فأشار الله إلى هؤلاء وأمثالهم فقال: ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ ﴾ من القرآن

﴿ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِمۡ ﴾ من الكتابين: التوراة والإنجيل ﴿ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ ﴾ حال من الضمير في ﴿ يُؤۡمِنُ ﴾ باعتبار المعنى ﴿ لَا يَشۡتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلًاۚ ﴾ من عرض الدنيا كما يفعل الأحبار إذ يبدّلون صفة النبي صلى الله عليه وسلم حفظاً للرياسة ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡۗ ﴾ أي ما خصوا به من أنهم يؤتون أجرهم مرتين ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ لا يخفى عليه شيء من الأعمال، ولا يعوزه تأمل وتفكر واحتياط، ولا جرم أن سرعة الحساب تستدعي سرعة الجزاء. ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ ﴾ على مشاقّ الطاعات، وعلى الدين الذي أنزلته فلا تصدنكم عنه الشدائد وعلى ما يصيبكم من الشدائد فلا تشكوا للناس، وعلى القضاء فلا تجدوا في أنفسكم حرجاً منه، وعلى صدق الرضا فلا تسخطوا، وعلى الفرائض فلا تتركوها، وتلاوة القرآن فلا تهجروها، وعلى الجهاد لئلا يفجأكم الأعداء، وعلى أحكام الكتاب فلا تتعدوها ﴿ وَصَابِرُواْ ﴾ وغالبوا الكفار بالصبر على شدائد الحرب والشيطان بمخالفة الهوى، وهذا من ذكر الخاص بعد العام للاهتمام ﴿وَرَابِطُواْ﴾ وداوموا على الجهاد واثبتوا عليه، وأصل المرابطة أن يربط هؤلاء خيولهم وهؤلاء خيولهم بحيث يكون الفريقان مستعدين للنزال فيحارب كل منهما الآخر، ثم أطلق على كل مقيم بثغر يدفع عمن وراءه مرابط، وإن لم يكن له ما يربط من الخيل أو غيرها، وفي الحديث: «رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها، وموضع سوط أحدكم من الجنة خير من الدنيا وما عليها، والروحة يروحها العبد في سبيل الله أو الغدوة خير من الدنيا وما عليها» يقول: رابطوا أبدانكم وخيولكم في الثغور مترصدين للغزو وأنفسكم على الطاعة، ويلحق بالرباط في الثغور انتظار الصلاة، ففي الحديث: «من الرباط انتظار الصلاة بعد الصلاة» ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾ بترك المعاصي ﴿لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ بنيل المقامات الثلاثة التي هي: الصبر على مضض الطاعات، ومصابرة النفس في رفض العادات، ومرابطة السر على جنات الحق لرصد الواردات، وهي المعبر عنها بالشريعة والطريقة والحقيقة.

ولنا أن نقول: إن تكرار هذا ثلاث مرات: صبر ومصابرة ومرابطة داع حثيث إلى المحافظة على الأوطان وصد العدو المغير. فلعمرك لا دين ولا دنيا ولا حياة لمن لم يصابروا ولم يرابطوا، وكأن هذه الغزوات وذكرها والوصايا بالمرابطة لنأخذ حذرنا من الفرنجة الذين هم ذئاب الشرق وآساده. نعم، نظر الله لنا وعرف ما سنقع فيه فكرّر الأمر بالصبر والحرب في مواطن كثيرة من القرآن، ولعمرك ما أفظع دول الغرب على الشرق، فهل أحدثك عن أعمالهم؟ إنهم يلقون القنابل النارية من الطيارات على الشبان والشيوخ والأطفال والبهائم في طرابلس ومراكش والعراق والهند.

قال الأستاذ الزعيم الهندي المشهور المسمى «غاندي» منقولاً من مجلة الجامعة الهندية:

(١) إن ألوفاً مؤلفة من الإنجليز لا يمكنهم أن يتحملوا أن يدعي هندي واحد المساواة، أو أن يعيش عيشة مساوية لهم إذ سيادة اللون الأبيض أصبحت ديناً لهم.

(٢) لا شيء يستطيع صد الوطني عن القيام بوظيفته، ولو كان قوة الحكومة.

(٣) ليس هناك مسلم ولا وثني بل الله الواحد الأب الرحيم للجميع، والأبوّة هنا مجاز.

(٤) إن مقاطعة المنسوجات الأجنبية من الانتقام، ولكنه لا مفر منه لأنه لازم للوطنية لزوم النفس للحياة، إذ بدونه لا يكون الاستقلال، وإن جاء لا يؤمن عليه.

(٥) إن الولوع بالمنسوجات الأجنبية يجلب العبودية الأجنبية والفقر المدقع وما هو أقبح من هذا، ألا وهو العار على كثير من العائلات.

(٦) إني أجزم بأن أوروبا اليوم لا تمثل روح المسيحية بل تمثل روح الشيطان، وما أعظم نجاح الشيطان إذا ظهر ولسانه يردد اسم الله.

(٧) إن النجاح يتوقف على الشجاعة والنصيحة والمحبة والإيمان، لا على المهارة القانونية وكثرة العدد والحيل السياسية وكره الناس وعدم الإيمان.

(٨) إن اضطراب البلاد لا يمكن معالجته إلاّ بإزالة الأسباب، لا بتقديم حلويات الوظائف ولا بألعوبات أخرى.

(٩) إن المدافع البريطانية ليست مسؤولة عن عبوديتنا أكثر من مسؤولية مساعدتنا الاختيارية لبريطانيا. اهـ كلامه.

أقول: إن أهل الهند يقرون لـ«مهاتما غاندي» بالزعامة. انتهى التفسير اللفظي للقسم العاشر من السورة وهو آخرها.

ولننظر الآن نظرتين: نظرة عامة في سورة آل عمران، ونظرة خاصة في آخر السورة.

النظرة العامة في سورة آل عمران

ولنقدّم لهذه النظرة العامة مقدّمة فنقول:

اعلم أن التربية في العالم الإنساني اليوم لا تعدو أمرين اثنين: الأول التربية الجسدية، الثاني التربية العقلية، ولا ثالث لهما، فإن الإنسان ما هو إلاّ جسم وعقل، وما مثلهما إلاّ كمثل الأعمى والمقعد المذكورين في الأقاصيص في القرون الغابرة والأيام الخالية والحكم المروية والعلوم الحكمية، وقد أباح لهما الملك الدخول في بستانه والتفيؤ في ظلاله، فسرقا معاً أجمل الفاكهة الخاصة بالملك، فالأعمى بقوته، والمقعد بإرشاده، بحيث كان الأعمى يحمل المقعد وهو يدله على الفاكهة النادرة الوجود الخاصة بالملك؛ فلما علم الملك أمرهما من البستاني طردهما في العراء، فتخطفتهما السباع وأكلتهما الوحوش والضباع، وهما قد كانا في الجرم شريكين فأصبحا في الجزاء متفقين فالأعمى تمثيل للجسم، والمقعد البصير تمثيل للنفس، فالنفس يحملها الجسم كما يحمل الأعمى المقعد.

فلذلك درجت الأمم المعاصرة لنا على تربية الأجسام بالاستحمام والرياضة البدنية، والسفر على الأقدام، والإيغال في الجبال، والسير في البر والبحر، والصناعات الشاقة، والحدادة والبرادة والنجارة وقطع الأخشاب وما أشبه ذلك. وقد كان الأمويون يرسلون أبناءهم إلى البادية حتى تقوى أبدانهم في إبان صغرهم، ثم يرجعونهم إلى المدن ليتعلموا، هكذا أهل الممالك المتحدة يعلمون أبناءهم الشجاعة فيربونهم عند الأمريكيين الحمر، كذلك إخواننا الفرس كما قدمنا في سورة البقرة يعلمون أبناءهم الرماية وركوب الخيل وهم في السادسة من عمرهم، ويجيعونهم بعض الزمن تقوية لأبدانهم وتشجيعاً لهم، وتعويداً لهم على الصلابة والقوة والعفة والصبر، وهكذا ترى نظار المدارس يربون التلاميذ بالألعاب الجنبزية بالحركات المختلفات، ولم تجسر أمتنا المصرية أن تعلم الشبان في المدارس تعليماً عسكرياً لتقوى أبدانهم، كما قال الله تعالى: ﴿وَزَادَهُۥ بَسۡطَةٗ فِي ٱلۡعِلۡمِ وَٱلۡجِسۡمِۖ﴾ [البقرة:٢٤٧]

لأن الأمة الإنجليزية اليوم محتلة بلادنا فهذا ممنوع منها لا يحمل أحد سلاحاً في بلادنا إلاّ نادراً، ولكن الآن وأنا أكتب هذا قد حصلت أمتنا على مجلس نيابي، وعسى الله أن يجعله فاتحة خير، فيتعلم الشبان الأعمال الجندية في المدارس لتقوى أبدانهم وتصح عقولهم. ولقد أطنب في هذا المقام الفيلسوف «أفلاطون» في كتابه «الجمهورية» إذ أوجب كثرة الرياضة البدنية، كما أوجب الرياضة العلمية والموسيقى الغنائية، وعلق أعظم الآمال على رياضة الأبدان. وهكذا الإمبراطور «غليوم» الذي أثار الحرب الكبرى التي قلبت العالم الإنساني اليوم، رأيت له خطبة قبل الحرب يحث فيها دولته أن يأمروا التلاميذ فيتعلموا الجندية في المدارس العالية علماً منه أن رجال الحكومة لن يكونوا نافعين لأوطانهم إلاّ إذا كانوا ذوي أجسام قوية.

ولقد اطلعت على ما نقل عن الولايات المتحدة منذ سنين، أنهم جربوا التلاميذ في المدارس فأرسلوهم إلى الحقول عند العطلة أيام الصيف، فماذا رأوا؟ رأوا أن الذين أمروهم بالعمل في الحقول ومساعدة الفلاحين، رجعوا وهم أصح أبداناً وأقوى عقولاً وأكثر درجات في الامتحان، وأحسن أخلاقاً مما كانوا قبل ذلك، وهم مع ذلك شاهدوا جمال الطبيعة وخبروا مختلف النبات، وتمتعوا بالهواء النقي، وصاروا قدوة الفلاحين، ورغبوهم في أعمالهم، وشاركوهم في صناعتهم، وشرحوا صدورهم بمشاركتهم، فعلت بذلك منزلتهم في أنفسهم. هذه شذرة من تربية الأجسام.

أما الأمر الثاني: فهو التربية العقلية، فإذا استكمل التلميذ التربية الجسمية وحسن غذاؤه، وروعيت العفة في مآكله وملابسه ومشاربه وجميع أحواله، هناك يعطى العلم من الرياضي والطبيعي، والعلم الديني والأخلاق، وما أشبه ذلك على مقتضى البنية والأحوال العامة.

هنالك يقبل العقل ما يهدى إليه ويقبل عليه، ويا ليت الناس يقدرون هذا حق قدره، فانظر كيف يرى الإنسان نفسه وهو في الهواء الطلق، كيف تقبل المعاني عليه أيّ إقبال، وتشرق نفسه بالحكمة ويزدان بالجمال والبهاء والصفاء. هذا ملخص التربية في الأمم الحالية. انتهى الكلام على المقدمة.

النظرة العامة لسورة آل عمران

إذا عرفت هذه المقدمة فاعلم أن القرآن إنّما جاء لتربية الأمة الإسلامية تربية جسمية وعقلية، فمن قرأ هذه السورة وظن أنها عبارة عن حكاية سيدنا عيسى وغزوة أحد ونبذة من غزوة بدر، وبعض أوامر ونواه، وهو نائم هائم فلا حظ له من فهم القرآن، فلننظر في هذه السورة نجد أنها قامت بالأمرين معاً: تربية الجسم وتربية العقل.

أما التربية الجسمية فإنها قد وضحت فيها في غزوة أحد، ولا تظن أن ذكرها لمجرد التاريخ أو الدلالة على النبوة، بل هي للتربية.

إن الإنسان لا بد في تربيته من كبح جماح الشهوات من المآكل والملابس والتزاوج، وهكذا كبح جماح الغضب والتوسط فيه، فلن يكون جباناً كما لا يكون متهوراً، فإذا انتهى من ذلك وجب عليه تنمية قواه العقلية والتحلي بالحكمة والعلم، هذا هو الإنسان أوله ومنتهاه، وبالتأمل في هذه السورة نرى أنهم أمروا بالاقتصاد في الشهوات أثناء الغزوات، ألم تر كيف وبخهم على انتقالهم من مراكزهم في مصافّ القتال حرصاً على الغنيمة. فهذا وأمثاله من تهذيب النفس الشهوية وتلطيف

شهوتها وتكميلها، فأما انتظام الصفوف في الجهاد وصبرهم على لقاء الأعداء يوم أحد وطعنهم وقتلهم أعداءهم، فكل ذلك رياضة بدنية، وطاعة إلهية، وقوة بدنية، وهمة عالية، وأشرف ما يقوي به الإنسان بدنه، ويهذب به نفسه، الإقدام في الحرب والكفاح والقتال، فذلك خر الرياضات وأفضل مقوّ للبدن، ومتى قوي البدن قويت الروح. ولقد أخذت غزوة أحد مقداراً عظيماً من هذه السورة، وكلها في الشجاعة والشهامة والمروءة والنجدة، وذلك واضح كل الإيضاح.

وأما التربية العقلية فحسبك أن ترجع إلى أولها لتنظر ذكر علم الله بما في السماء والأرض، وأنه يصوّرنا في الأرحام كيف يشاء، والمحاجة مع عيسى، وقيام الله بالقسط في خلقه، وحسن نظامه جل جلاله في هذا الوجود، ثم اختتامها بالقسم العاشر الذي فيه عجائب خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار.

ومن عجب أن يكون أسلوب القرآن جارياً على أحسن الأساليب المعروفة في التربية، فإنك ترى أن سورة يوسف ابتدئ فيها بالتربية الأخلاقية من نفسية إلى منزلية إلى سياسية مدنية، ثم انتهى في آخرها إلى أن طلب من الله أن يلحق بالصالحين، هكذا سورة البقرة، فإنه ختمها بذكر السماوات والأرض، وكيف يدعو المؤمنين في قوله: ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾[البقرة:٢٨٦] الخ، ثم طلب المغفرة والرحمة، هكذا في سورة آل عمران التي نحن بصددها، نرى السورة تحث على مكارم الأخلاق من الصبر والثبات والجهاد والإخلاص في الأعمال والطاعات، حتى إذا انتهى إلى آخرها وقد تمت قصة غزوة أحد وفيها حوادث الحرب وما فيها من العبر، أخذ يشرح عجائب السماوات والأرض، وختم السورة بالدعاء كأن يقول العبد: ﴿ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴾[آل عمران:١٩٣] كما قال تعالى في سورة البقرة: ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ أَنتَ مَوْلَىٰنَا ﴾[البقرة:٢٨٦] الخ.

فكأنه يقول في هذه السورة: أيها الناس ليس مقصد الحياة والديانات هذه الأعمال الظاهرة، ولا ظواهر الدين من الجهاد والصلاة والحج، إنّما هذه مهذبات لعقولكم، مربيات لنفوسكم، سلم إلى فهم دروسكم النافعات من الحكم العاليات، كالتفكر في النجوم ومعرفة العلوم. انتهى الكلام على النظرة العامة في سورة آل عمران.

النظرة الخاصة بالقسم العاشر منها
وهو آخر السورة الذي نحن بصدد الكلام عليه

لقد علمت أن ما جاء في سورة يوسف وهي أحسن القصص، يناسب ما جاء هنا وما جاء في سورة البقرة، وأنه بعد أن أتم دروس الحياة من تهذيب نفسه في السجن، وحسن الأخلاق مع المعاشرين فيه، ونظامه للحكومة المصرية، وهو تمام الحكمة العملية، أي: تهذيب النفس وسياسة المنزل وسياسة الأمة، وبعد أن أفيض عليه العلم لتكميل القوة الناطقة بالحكمة، جمع ذلك كله في قوله تعالى: ﴿ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ﴾[يوسف:١٠١]، فإتيان الملك إشارة إلى الثلاثة الأول، وتعليم الأحاديث إشارة إلى الحكمة والنبوة، ثم قال تعالى: ﴿ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾[يوسف:١٠١]، فذكر خلق الله للسماوات

والأرض أولاً ، ثم طلب أن يلحق بالصالحين بعد الوفاة مسلماً في جوار ربه الذي فطر السماوات والأرض حتى يتمتع بنعمة العلم واللذات النفسية بعد الخروج من هذا النظام الجسمي وهو المقام المحمود ، وموقف السعادة ، وموطن الكرامة ، والمشاهدة لإبداع فاطر السماوات والأرض ومشاهدة الأنوار القدسية .

انظر أيها الذكي كيف كانت نهايات الأنبياء أن يلحقوا بالعالم الجميل ، عالم العلم والحكمة ، وأن يتخلصوا من هذه المادة بعد أن هذبوا أنفسهم بها ، فيخرجون من الظلمات إلى النور . وتأمل في هذه السورة وانظر أيضاً كيف كان في أولها الإشارة إلى غزوة بدر ، فأما غزوة أحد فقد أخذت منها قسطاً كبيراً ، واستغرقت منها جزءاً وافراً ، وفيها درسوا نظام الحرب وحفظ المروءة وشرف النفس ، ومرّنوا أجسامهم فقويت أبدانهم ، وقد رجع من لم يمت منهم سالماً .

ولما انتهى القول فيها أخذ يتدرج من العمل الجسمي إلى العلم الحكمي ، أفلا تعجب كيف أخذ يذكر العلماء بالميثاق الذي أخذه عليهم قبل الشروع في الدروس العلمية ، وكيف قال تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ ﴾[آل عمران:١٨٧] الخ ، وأخذ يقرعهم ويوبخهم ، ولعمرك ما أضر بأمة الإسلام إلاّ الجهل بمواقع الكلام ، ظن كثير منهم أن المسألة قصص تاريخية أو منازعات يهودية ، ومنافرات حزبية ، وما دروا أن هذا تعليم عام ونظام شامل ؛ إن الله تعالى لما أتم القول في الغزوات ، أخذ يهيئ النفوس للدروس والعقول للفهم ، فابتدأ يقرع العلماء ويوبخ الرؤساء قائلاً لهم : كيف نسيتم ميثاقي ونبذتم عهدي؟ أوَلستم تعلمون مغبة فعلكم وعاقبة مكركم وسوء طويتكم وحرصكم؟ ألم تذكروا ما جاء في سورة البقرة من معاقبة الكاتمين منكم باللعنات من الله والملائكة والناس أجمعين ، كما أني جعلت للمسلمين منكم الناشرين لعلمهم أن العالم أجمعه يستغفر لهم ، حتى حيتان البحر ، فالعالم أعظم ذنباً وأعظم جرماً ، كما أنه أعظم ثواباً وأقرب زلفى إذا وفى بالعهد وقام بالأمر .

وبعد أن انتهى من وعظ العلماء أخذ يسوق الناس من مواطن القتال والجهاد ، ويدفعهم إلى حظائر العلم ومواطن الحكمة ، ويأمرهم بدراسة العالم العلوي والسفلي بعد أن أتموا نظام الملك بالجهاد ، فإذا قال يوسف : ﴿ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ﴾[يوسف:١٠١] ، بعد نظام الملك هكذا هنا أخذ يعلم المسلمين الحكمة بعد الانتهاء من ذكر الحرب ، وإذا طلب يوسف الوفاة بعد العلم والحكمة ، هكذا هنا قالوا بعد أن ذكروا الله كثيراً وتفكروا في خلق السماوات والأرض : ﴿ وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴾.

أوَلست ترى النظام هنا كالنظام هناك ، وأن الأمر يرجع إلى ثلاث : نظام جسمي وتربية علمية ، ولحوق بالملأ الأعلى في بهجة علمية وسعادة عالية ، وروح وريحان ، فهل لك أن أحدثك ماذا كان من أمر نبينا صلى الله عليه وسلم في هذه الآيات .

دروس علم الطبيعة لصاحب الشريعة صلى الله عليه وسلم

عن ابن عباس رضي الله عنهما : «أنه بات عند ميمونة أم المؤمنين وهي خالته ، قال فقلت : لأنظرن إلى صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فطرحت لرسول الله صلى الله عليه وسلم وسادة فاضطجعت في عرض الوسادة واضطجع رسول الله صلى الله عليه وسلم وأهله في طولها ، فنام رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى منتصف الليل أو قبله بقليل أو بعده بقليل ، ثم استيقظ رسول الله صلى

الله عليه وسلم فجعل يمسح النوم عن وجهه بيده، ثم قرأ العشر الخواتيم من سورة آل عمران، ثم قام إلى شنّ معلقة فتوضأ منها فأحسن وضوءه، ثم قام يصلي. قال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: فقمت فصنعت مثل ما صنع، ثم ذهبت فقمت إلى جنبه، فوضع رسول الله صلى الله عليه وسلم يده اليمنى على رأسي وأخذ بأذني ففتلها فصلى ركعتين، ثم ركعتين، ثم ركعتين، ثم ركعتين، ثم ركعتين ثم أوتر، ثم اضطجع حتى جاء المؤذن فقام فصلى ركعتين خفيفتين، ثم خرج فصلى الصبح. وفي رواية: فقمت عن يساره فأخذني فجعلني عن يمينه. وفي رواية: بتّ في بيت خالتي ميمونة فتحدث رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أهله ساعة ثم رقد، فلما كان ثلث الليل الأخير قعد فنظر إلى السماء فقال: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾». انتهى الحديث.

أفلست ترى أيها الذكي اللبيب كيف كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقوم بالليل فينظر إلى السماء ويقرأ الآيات، فلماذا هذا النظر للنجوم لماذا وهو مؤمن بربه؟ أللاستدلال على وجود الله؟ كلا، فإنه ليس مؤمناً فحسب، بل هو نبي ورسول يدعو إلى الله، وإنّما ذلك درس علم الطبيعة واستفتاح لباب السعادة، وكأنه يقول لنا: هاأنا ذا أيها المسلمون قبل أن أقوم لمحرابي أنظر إلى السماء، ثم أتعبد لربي أي أعلم وأعمل، فهو بهذا يرشدنا إلى أن نعاود درس الفلك وعلوم الطبيعة ونتجه بالأفئدة إلى الملأ الأعلى بالعلم والحكمة.

أوَلست ترى ذلك أشبه بالتحلية بعد التخلية، يقول الله تعالى لرسوله: ﴿ إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ﴾[المزمل:٧] ويأمره بقيام الليل لتستعد النفس للإشراق، إن العلم نهاية العقول البشرية، والحكمة مرمى أولي الألباب، ألم تر كيف كان العلم بالطبيعة والرياضة من الحساب والهندسة والجبر عليها نظام الأمم وسعادتها، والرياضة الفكرية فيها جنة الحكماء والعلماء. نبينا صلى الله عليه وسلم ينظر في السماء ليستجلي الجمال، والمؤمنون ينظرون العوالم ثم يقولون: ﴿ وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴾، سعادات الأمم بالعلوم وسعادات الأفراد بالعلوم. وكأنهم بعد أن أتموا دروس الأخلاق نالوا مراتب الإشراق. أوَلست ترى أن هذا الترتيب مقصود الوضع لنقرأه ونعمل به، وأن غزوة أحد لم تذكر ويعقبها العلم إلاّ لنجدّ في الأمرين: تربية الأجسام، ونظام العقول بالعلوم، لهذا جاء القرآن.

خطاب إلى علماء الإسلام في الأرض

أيها العلماء أليس ما ذكرته الآن من النظام والحكمة والإبداع من مقتضى البلاغة، نعم إن البلاغة ليست قاصرة على الأساليب الكلامية، ولقد عكف كثير من العلماء على الألفاظ فشرحوها، وعلى الأساليب فبينوها، وقالوا للشبان اعرفوا المعاني والبيان والبديع وكلام العرب تعرفوا بلاغة القرآن، وهذا حق من وجه، ولكن الوقوف عند هذا الحدّ جهالة عمياء وشنشنة بتراء.

القرآن يا قوم قد جاء لتربية الأجسام بالاخشيشاب ـ تقوية الأجسام فتصير كالخشب متانة وقوة ـ والتمرين لتقوى العضلات بالحرب والمدافعة والرياضة الجسمية، ثم التحلي بالمعارف الطبيعية والفلكية حتى تستكمل الأفراد ويقوم النظام في الدولة، فقرآن يكون ترتيبه على هذا النسق يدعو أتباعه لكمال الأجسام والعقول، كما في قوله تعالى: ﴿ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ﴾[البقرة:٢٤٧].

وضع حد للماضي

قولوا أيها العلماء لتلاميذكم : إن القرآن جاء للقدوة ، ولا تقصروهم على دلالة الألفاظ ، بل انقلوهم منها إلى المعاني ، وبعبارة أصرح : مرّنوا أجسامهم عملاً وعقولهم علماً ، خذوهم إلى الحقول فأروهم نظام المزارع وبهجة الزهر وجمال الشجر ، خذوهم إلى الفلوات والجبال والخلوات وأروهم صنع ربهم ، أيقظوهم في جوف الليل وصلوا معهم التهجد وأروهم النجوم وشوّقوهم لعلم الفلك ، ولا تعطوهم درساً فيه حتى يعشقوا جمال النجوم ، ويطلبوا ذلك منكم حثيثاً ، هذا هو دين الإسلام .

لما كان الصحابة والتابعون يعرفون مغزاه على سبيل الإجمال أطار نومهم وأيقظ أجفانهم فهجروا أوطانهم واستعذبوا العذاب ، وساروا في الأرض شرقاً إلى الصين ، وغرباً إلى أرض فرنسا . كل ذلك لأنهم كانوا يعرفون معنى القرآن ، وكانت بلاغته في نظرهم غير ما تدرسون فغاصوا على لبه لا على الألفاظ .

ألا ترى إلى قوله تعالى هنا : ﴿ لَأَيَـٰتٍ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾[آل عمران : ١٩٠] ، والعلوم إما قشور وإما ألباب : جمع لب . هكذا العقول منها القشرية ومنها لبية ، وأكثر النفوس في الأمم الإسلامية تربت تربية لفظية ، والألفاظ قشور ، وقد آن أيها العلماء أن تربوا الألباب ، فتخاطبوا الوجدان والعقل ، وليقف العلماء عند هذا الحد ، وليصلوا الجد بالجد .

القرآن والبلاغة والمفسرون

إن دراسة القرآن في العصور الخالية كانت تكلفية ، وقراءة سطحية ، وعلوماً لفظية ، فعكف الناس على الألفاظ وكثر الحفاظ ، وقلّ المفسرون ، فجمدت القرائح وماتت العلوم ، لا سيما لما تولى أمر هذه الأمة الأمم الأعجمية الذين يجهلون العربية في القرون المتأخرة ، فطمست الحقائق ، ونامت البصائر ، وماتت النفوس ، وفرّ العلم إلى الغرب ، وخلى الشرق قاعاً صفصفاً وصعيداً جرزاً .

فلنجعل اليوم حداً بين الماضي والمستقبل ، وليفطن العلماء بعدنا إلى ما ذكرناه ، وليدرسوا القرآن بنحو الأسلوب الذي بيناه ، وليفتحوا للمعاني بصائرهم ، وليضموا إلى تربية الأجسام ترقية العقول ، إن لم يفعلوا ذلك لم تعش الأمم الإسلامية قرناً واحداً ، بل تفنيها الأمم الأجنبية .

أيقظوا العقول أيها العلماء . هاأنا ذا أقول : نحن أمة عربية فلندرس القرآن الذي ورثناه درساً يناسب الجيل المقبل ، ولنأخذ بأيدي أبنائنا إلى مقام الكمال .

لطائف في هذه الآيات

اللطيفة الأولى : ﴿ ٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ﴾ .

اللطيفة الثانية : ﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا ﴾ .

اللطيفة الثالثة : ﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ۖ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾ مع قوله : ﴿ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾ .

اللطيفة الأولى

هل لك أن أتحدّث معك ساعة في اختلاف الليل والنهار ، وعجائب السماوات والأرض بعد ما قرأته في تفسير سورة البقرة من عجائب الليل والنهار في الأقطار الجنوبية والشمالية ، وطول النهار وقصره

باعتبار الأقاليم، ففي هذا اليوم أحدثك حديثاً آخر غير ما تقدم، أتدري في ماذا؟ ذلك في حساب السنة الكبيسة والبسيطة، وإنما أردت ذكرها هنا لاختصارها خيفة التطويل، ولأريك من جمال العلم والحكمة ولأعاود ذكرى جمال السماء كما كان النبي صلى الله عليه وسلم يعاود النظر كل ليلة ليجتلي الجمال.
فهاأنا ذا أعاود ذلك لأريك لب العلم، ولأنك من أولي الألباب بدليل سيرك في هذه المقالات مع تشابه القلوب وتجاذب النفوس وتعاشق الأفئدة، فلأزدك علماً ليكون مفتاحاً لسعادتك ونبراساً لرقيك في مستقبل حياتك، وليجعلك لا تهدأ في طلب العلوم، ولتكون نوراً وسعادة لبلادك ولدولتك، ولا تتكل في ذلك على أبناء جنسك بل ساعد أيدك الله على ارتقاء نوع الإنسان، وانشر العلم ليحصلوه، فإن حال الأمة يستوجب البكاء بالدمع، فامدد يدك لتتعاون على إنقاذها من هاوية الشقاء في بلاد أفريقيا وآسيا، فإن الفرنجة أذلوهم، ليكن هذا مقصد حياتك ومرمى آمالك لتكون من خلفاء الله المصلحين.

واعلم أنك مسؤول كما أني مسؤول، فسر معي وانشر العلم بين أمتك، واحفظ الوديعة التي استودعتها، والأمانة التي اؤتمنت عليها، وأدها إلى أهلها. وهاأنا ذا أدلي إليك بمسألة الحساب السنوي، وبالكلام على الليل والنهار، وعلى الفصول الفلكية، وعلى نبذة لطيفة من العجائب الأرضية ولأبدأ بالكلام على الحساب السنوي فأقول:

السنين الكبيسة والبسيطة
ونظام أوائل الشهور والسنين العربية

إن لها أدواراً كبيرة وأخرى صغيرة، وكل دور من الأدوار الكبيرة تابع لما قبله بلا خلل في السير ولا خطل في النظام.

إن السنة الحسابية (٣٥٤) يوماً وخمس وسدس يوم، والدور الصغير (٣٠) سنة، والدور الكبير (٢١٠) من ضرب (٣٠) في (٧)، وأيام السنة البسيطة (٣٥٤) يوماً، لأن الكسر إذا نقص عن النصف ألغي في الحساب التقريبي، والسنة الكبيسة (٣٥٥) يوماً بإكمال ما زاد عن النصف من الكسر والكبيسة من الكبس وهو الجمع.

فإذا أردت معرفة أول سنة من السنين الهجرية فأسقط التاريخ العربي التام (٢١٠) مرة بعد أخرى، ولا تخلو الحال بعد ذلك الإسقاط، فإما أن لا يبقى شيء، وإما أن يبقى أقل من ثلاثين، وإما أن يبقى ثلاثون فأكثر، فإن لم يبق شيء وهي الحال الأولى، فإن أول السنة التي بعدها يوم الخميس، وهو أول التاريخ كما في سنة ١٢٦١، لأنها مقسومة على (٢١٠) غير السنة المطلوبة.

وإن زادت عن ذلك وهي الحال الثانية فليمرّ بما زاد على هذا البيت:

كف الخليل كفه ديانه   عن كلّ خل حبه فصانه

أو هذا البيت:

إن رمت مجداً فلا ترقد دجى أبداً   خوف الفوات لما ترجو من الشرف

والمطلوب (٣٠) حرفاً منها (١٩) حرفاً مهملة و(١١) حروفاً معجمة؛ فالحروف المعجمة تقابل السنين الكبيسة، والمهملة تقابل البسيطة، ففي كل دور من الأدوار الصغيرة (١٩) بسيطة و(١١)

كبيسة، لأن الخمس والسدس الذي يهمل في حساب البسيطة ويجبر في حساب الكبيسة، يجمع في (٣٠) سنة (١١) يوماً، فالثلاثون مركبة من عددين في هذا المقام أوليان، أعني لا يقبلان القسمة كما في علم خواص الأعداد، وهما (١١) و(١٩).

فإذا مررت بالباقي بعد إسقاط التاريخ على هذا البيت، ووصلت إلى حرف منه مثل الكاف في كفه مثلاً وهو التاسع، فاجعل لكل سنة بسيطة (٤)، ولكل كبيسة (٥)، واجمع الحاصلين، وزد على الحاصل واحداً دائماً، واقسم المجموع على سبعة، وما بقي فابتدئ به من يوم الخميس.

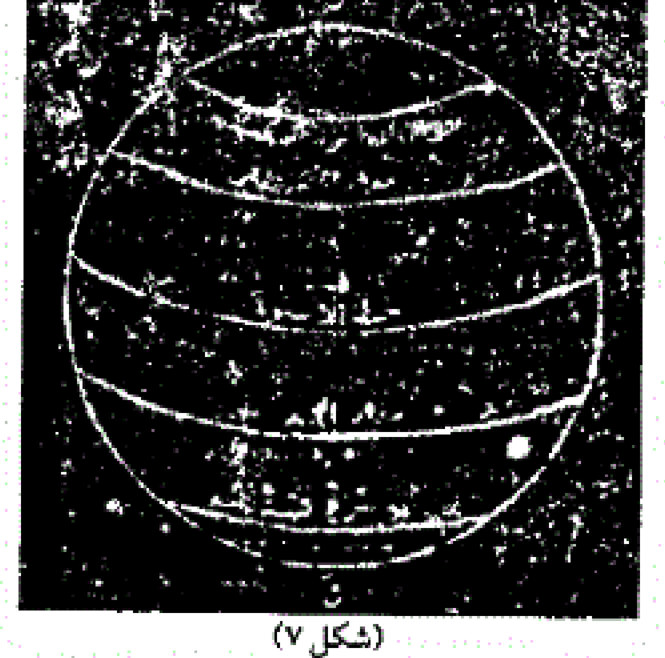
الحالة الثالثة أن يكون العدد (٣٠) فأكثر، فاجعل لكل دور صغير (٥) ثم افعل بما هو أقل من (٣٠) ما فعلته في الحال الثانية، وضم واحداً أبداً واجمع تلك الحواصل واقسمها على سبعة، وما بقي ابتدئ به من يوم الخميس، فيكون مثلاً سنة ١٣٣٩ بقسمة ما قبلها على عدد (٢١٠) يكون الباقي (٧٨) منها (٣٠) في (٦)، وهذان دوران صغيران نضربهما في (٥) تساوي (١٠)، وهذا حاصل أول، والباقي بعدهما (١٨) فيها سبع سنين كبيسة و(١١) بسيطة و(٧) في (٥) تساوي (٣٥) و(١١) في (٤) تساوي (٤٤)، ويضمهما إلى (١٠) يكون المجموع (٨٩) فضم إليه واحداً لأجل السنة المطلوبة يكن المجموع (٩٠) فقسمه على (٧) يكن الباقي (٦) نبدأ به من يوم الخميس يكون أول السنة يوم الثلاثاء نظرناه في التتائج المصرية فوجدناه كذلك، وهكذا إذا فعل مثل ذلك سنة تأليف هذا التفسير أي سنة ١٣٤٢ وجدنا أول السنة يوم الاثنين لأن الباقي خمسة، نظرنا في التتائج المصرية فوجدنا أول السنة يوم الثلاثاء، فالفرق يوم واحد، بحثنا فوجدنا أن الهلال مكث بعد الغروب ٤٩ دقيقة، وهذا دليل على أن اجتماع النيرين كان في ليلة الاثنين حتماً لأن القمر يتأخر كل ليلة ستة أسباع الساعة، فالشهر الحقيقي أوله يوم الاثنين، والشرعي يوم الثلاثاء. فانظر إلى هذه القاعدة التقريبية كيف وافقت الجداول التي استخرجت من الزيجات، وتعجب كيف كانت الأدوار الصغيرة والكبيرة لا تختلّ أمد الدهر في الماضي والحال والاستقبال، فهي كالكسر الأعشاري الدائر، فكل سنة من الدور الكبير تطابق نظائرها من الأدوار التي قبلها والتي بعدها في الأيام، فنجد سنة تأليف هذا الكتاب تطابق نظيرتها في الدور المقبل بعد (٢١٠) سنة ١٥٥٢، فإن القاعدة تقتضي أن يكون أولها يوم الاثنين تحقيقاً، ويوم الثلاثاء شرعياً.

فانظر اختلاف الليل والنهار والسنين القمرية والشمسية وتقلب الأحوال كيف كانت منظمة لا خلل فيها ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾[الملك:٣] أي تناقض واختلال ﴿وَٱللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[النور:٤٦].

الكلام على الليل والنهار

(١) النهار هو الزمن الذي يمضي من شروق مركز الشمس من الأفق الحقيقي إلى غروبه بالأفق المذكور.

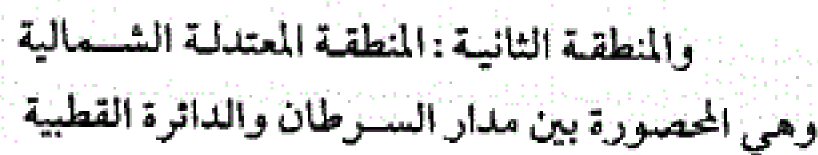
(٢) تغيرات مدة اليوم ـ المناطق الأرضية مدة النهار ومدة الليل ـ تتغير في المحل الواحد وفي العرض الواحد لتغير الوقت من السنة، ولهذه التغيرات نهاية عظمى ونهاية صغرى من ستة أشهر إلى صفر، كما تقدم في سورة البقرة، ولما كانت مدة الليل والنهار تنقسم الأرض بالنسبة لها إلى خمس مناطق ينفصل بعضها عن بعض بالمدارين وبالدائرتين القطبيتين، وجب أن نرسمها هنا إذا أغفلنا



(شكل ٧)

الرسم في سورة البقرة ، فهاك شكلها .

فالمنطقة الأولى : المدارية يحدها من الشمال مدار السرطان وعرضه ٢٧ ثانية و٢٣ درجة عرضاً شمالياً ، ومن الجنوب مدار الجدي وعرضه ٢٧ ثانية و٢٣ درجة عرضاً جنوبياً ، ويقسمها خط الاستواء إلى قسمين متساويين ، وتسمى المنطقة الحارة أو المدارية .

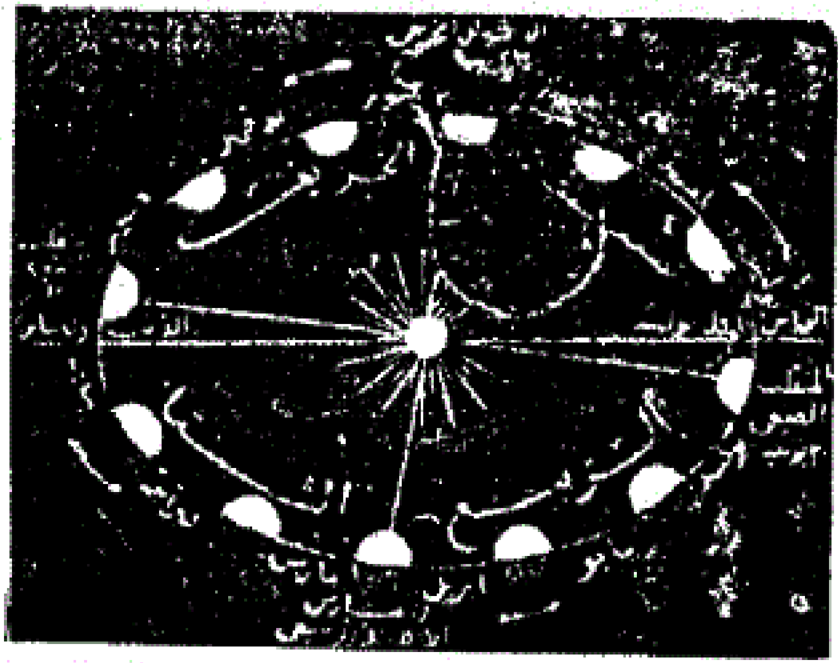


والمنطقة الثانية : المنطقة المعتدلة الشمالية وهي المحصورة بين مدار السرطان والدائرة القطبية الشمالية ٣٣ دقيقة و٦٦ درجة . الثالثة : المنطقة المعتدلة الجنوبية ، وهي المحصورة بين مدار الجدي والدائرة القطبية الجنوبية ٣٣ دقيقة و٦٦ درجة . الرابعة والخامسة : المنطقة المتجمدة الشمالية والمنطقة المتجمدة الجنوبية ، وهما المحصورتان بين القطبين والدائرتين القطبيتين ، فالمنطقة الحارة والمنطقتان المعتدلتان فيها جميع النقط الأرضية التي فيها مجموع مدتي النهار والليل ٢٤ ساعة . وأما المنطقتان المتجمدتان فتشتملان على النقط التي فيها مجموع مدتي الليل والنهار يزيد عن ٢٤ ساعة ، ويبلغ سنة كاملة ، ويمكنك معرفة ذلك التفصيل في الجدول المذكور في سورة البقرة .

الكلام على الفصول الفلكية

تنقسم السنة إلى أربعة فصول يحدها الاعتدالان والمنقلبان ، وهي : الربيع ، ويبتدئ من الاعتدال الربيعي وينتهي بالمنقلب الصيفي ، والصيف ، ويبتدئ من المنقلب الصيفي وينتهي بالاعتدال الخريفي ، والخريف ، ويبتدئ من الاعتدال الخريفي وينتهي بالمنقلب الشتوي ، والشتاء ، ويبتدئ من المنقلب الشتوي وينتهي بالاعتدال الربيعي ،

هذه أوائل الفصول على وجه التقريب ، وهي تختلف من سنة إلى أخرى اختلافاً يسيراً جداً أول فصل الربيع ١٩ مارس . أول فصل الصيف ٢٠ يونيه . أول فصل الخريف ٢٢ سبتمبر . أول فصل الشتاء ٢٠ ديسمبر .



(شكل ٨)

مدة الربيع تقريباً ٢٠ ساعة و١٩ دقيقة و٩٢ يوماً . مدة الصيف تقريباً ٨ ساعات و٤٤ دقيقة و٩٣ يوماً . مدة الخريف تقريباً ١٨ ساعة و٩ دقائق و٨٩ يوماً . مدة الشتاء تقريباً ٤٨ دقيقة و٨٩ يوماً .

انظر هذا الشكل تعرف به انتقال الأرض حول الشمس وترتيب الفصول بالنسبة لبعضها .

في بعض أرقام أوائل الفصول في هذا الرسم ما يخالف ما تقدم، ذلك لأنها تختلف من سنة إلى سنة في حدود ضيقة جداً كما قدمنا.

أيها الذكي تأمل فيما ذكرته لك من علم الفلك، إن عادة الناس غالباً أن يقرؤوا في الآيات القرآنية الخاصة بالأحكام وهي قليلة جداً اختلاف الأئمة رضي الله عنهم في المسائل، ثم إذا ذكروها يقولون: وتفصيل هذه المسائل في كتب الفقه، فيحيلون قارئ التفسير على كتب الفقه، ولقد أحسنوا لأن التفسير للإجمال لا لدرس الفروع، ومن العجب أن لا تكون العناية موجهة بهمة أشد إلاَّ إلى علم الفقه، وهذا هو الخطأ العظيم والداهية القاصمة التي حلت بالأمم الإسلامية، فمن أين جاء هذا الخطب للإسلام. اللهم إن كل العلوم مطلوبة، فهي جميعها فرض كفاية، وإن العلوم التي يظهر بها آثار جمال الله وحكمه لا غنى للناس عنها، بل تركها أضرّ بأمة الإسلام، فلماذا لا يذكر الإجمال لجميع العلوم في التفسير. ويحال القارئ على كتب تلك العلوم، فيقال في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَأَيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.

انظر ما هنا وارجع إلى التفصيل في علم الفلك الذي هو من فروض الكفاية في علوم الدين، وإنه يجب أن تقوم حكومات الإسلام بتخصيص طائفة لهذا العلم، وإحضار جميع الآلات والمراصد لهم، حتى يرجع المجد القديم ونقوم بواجبنا في هذا العلم، كما تفعل ذلك في سائر العلوم لا في الفقه وحده، فإن القرآن قد شوّق إلى علوم الفلك والطبيعة تشويقاً كثيراً بآيات كثيرة.

نبذة في عجائب الأرض

هاأنت ذا اطلعت على بعض الجمل في حساب السنين، وكيف كانت لها مقادير محصورة بجداول منظمة، والقاعدة التي ذكرناها في أوائلها تنطبق على كل زمان وإن كانت تقريبية.

فهاأنا ذا أذكر لك نبذة لطيفة من عجائب الأرض التي لا تتناهى، وأقتصر على مادة لا يعبأ بها الناس لأنها مبذولة لهم في كل مكان، يأكلها الغني والفقير والعالم والجاهل والفاسق والصالح، كلهم يأكلون ولا يعلمون، ويضعونها في طعامهم وهم لا يدرسون، فكأن الناس في هذا العالم مغمورون في الألغاز، محبوسون في الأقفاص، أو يأكلون وهم مغمضون، وكأننا في هذه الأرض نيام، وكأن جمال هذه العوالم لا يظهر لنا إلاَّ إذا فارقنا هذه الحياة، ولعل الأمم الإسلامية ستستيقظ لذلك قريباً فيرون النور، ويشاهدون الكتاب المسطور في رق هذا العالم المنشور، ويدركون سر ما يأكلون وما يشربون وهم غافلون. لعمري لم يحوجنا الله للطعام ولا للشراب ولا للباس إلاَّ ليوقظنا إلى ما حولنا فنعلمه، وإلاَّ فالله يرزق الدود بلا نصب ولا تعب، ألكرامته ولامتهاننا؟ كلا بل الله كرّم الإنسان، وتكريمه أن يطلع على عجائب هذه الدنيا وهو خلق جهولاً، فلا بد له من وازع يزعه، وقاهر يقهره، ومسيطر يجبره، وما ذلك إلاَّ أن تكثر حاجاته ومطالبه فيستحث الركاب للطلب. فبينما هو يجد لملء البطن طعاماً وشراباً إذا هو قد ملأ عقله من عجائب الحكمة وبدائع الخلقة.

لهذا خلقك الله أيها الذكي، وإلاَّ فبالله قل لي، فكر في نفسك: ما فائدة وجودنا، وأي مفارقة بين الحيوان والإنسان؟ كلاهما يأكل وأحدهما موفر للغذاء والآخر كتب عليه الجد والنصب، لماذا هذا كله؟ ذلك لعناية الله بالإنسان، ولما كان المسلمون معرضين عن هذا الجمال في القرون الأخيرة فمن

عناية الله بهم وحبه لهم، وأنه يريد أن يرقيهم سريعاً. أرسل الفرنجة علينا، لماذا؟ ليوقظونا، فإننا تركنا مواهبنا، فإذا كانت أغذية الحيوان موفرة أكثر من أغذية الإنسان، وكان ذلك عناية بالإنسان ورحمة به ليتعلم.

فهكذا تكون الأرزاء المسلطة على أمم الشرق، ومنهم المسلمون من الأمم الفرنجية، لم تكن إلاّ للعناية بهم ليوقظهم الله حتى يتأملوا في كل شيء، فيعلموا أنهم مغمورون في وسط النور والجمال وهم لا يعلمون. أتدري ما هي المادة التي أنبأتك بها؟ هي:

ملح الطعام

أنا قلت لك إننا نأكله، وقلت لك إننا لا نعرف ما فيه من الحكمة والجمال والعلم والبهجة والنور. هذه المادة تسمى في علم الكيمياء «كلور الصوديوم» وقد يضعها الطبيب في مذكرته بهذا الاسم، فهل تدري ما معنى «كلور الصوديوم»؟ ربما كنت قرأته في المدارس، ولكن قارئ هذا العلم يمرّ عليه مرور أكثر المسلمين على آيات القرآن، لا ينظر إلى الجمال الذي ستراه، سمي الملح بذلك لأنه مركب من عنصرين: الكلور والصوديوم. أما الكلور فهو جسم غازي لونه أصفر مخضرّ، أثقل من الهواء، يؤثر تأثيراً كبيراً في أعضاء التنفس، فيحدث سعالاً وتهييجاً في الأغشية المخاطية، وإذا استمر تأثيره أحدث الموت.

وأما الصوديوم فهو فلز لين ذو لمعان فضي، إذا ألقيته في الماء اصطهر فيه وتحرك بعضه على بعض فوق سطح الماء، وينتهي بفرقعة، وإذا ألقيته في الماء المسخن فإن حرارة الصوديوم تحدث التهاباً في الأيدروجين، فيلتهب لهباً أصفر.

هذان العنصران هما اللذان تركب منهما الملح فأحدهما يحدث أثراً في الرئة وما والاها وينتهي بالموت، وثانيهما يلتهب في الماء. فهذان الجوهران المزعجان هما نفس الملح الذي نأكله، وهذا الملح قسمان: قسم في ماء البحار بنسب مختلفة، ويستخرج بالتصعيد في الملاحات المعروفة، كما في الإسكندرية ورشيد ودمياط والبرلس بمصر، فيترك ماء البحر في حوض مدة إلى أن يروق، ثم ينقل لغيره ويرسب الملح فيرفع ويجف.

وقسم هو الملح الجبلي فيستخرج من أماكنه كما تستخرج الأحجار، وتارة يستخرج بتوجيه المياه في دهاليز متسعة مدة حتى يؤثر الماء في كتلة الملح، ثم تنقل بواسطة آلات إلى قدور من الصاج وتصعد فيها، وهذا الملح هو الذي قصدنا أن نبحث في عجائبه أنه قد يكون ملوناً بالصفرة أو بالسمرة بسبب مواد غريبة ضارة، وإذن لا يعرّض للبيع إلاّ بعد تبلوره وخلوصه من المواد الغريبة. أتدري ما عجائبه التي شوّقتك إليها؟ ذلك أنه يكون عبارة عن أجسام صغيرة مكعبة، وهذه المكعبات باجتماعها والتصاق بعضها ببعض، تريك هرماً مجوّفاً بديع النظام. فانظر كيف كانت تلك الأجسام الصغيرة مكعبة، وكيف بني بعضها على بعض فأصبحت هرماً، ولم تكون هذه قاعدة مطردة فيه؟ وهل هذا وأمثاله هو الذي علم المصريين بناء الهرم الأكبر حتى جعلوه أصلاً للمكاييل المصرية والموازين، وجعلوه على نمط الدائرة الفلكية، واستخرجوا منه الذراع البلدي والرطل والإردب كما ستقرؤه في سورة الرحمن عند قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ﴾[الرحمن:٧].

ثم أي حكمة جعلت اجتماع هذين الجسمين الضارين بالإنسان نافعاً للإنسان، محدثاً أجمل بنيان وأبدع نظام وأجمل أشكال. ذلك كله في الملح الذي نأكله. أفلست ترى هذا عجيباً؟. وهذه صورة الشكل المذكور الهرمي:



(شكل ٩)

وسترى في سورة الشعراء إن شاء الله صورة الزهرة مرسومة، وكيف كانت باختلاف أوضاعها وأشكالها قد استخرج منها العلماء رتب النباتات كلها البالغة مئات الألوف، مع أننا نتمتع بمنظرها وبرائحتها ولا علم لنا بأنها مفتاح علوم النبات، فسترى هناك إن شاء الله العجب العجاب، وبعضه يأتي في سورة الأنعام. انتهى الكلام على اللطيفة الأولى.

اللطيفة الثانية: ﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا ﴾

هذه الآية ليس يدرك حقائقها إلا من اطلع على علم الطبيعة وعلم الفلك ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾[الروم:٦-٧] وهم عن عقولهم معرضون.

ولكن لأقص عليك من العجائب الدالة على النظام جملاً بهية، ولعمري إن هذا العلم غاية علم العلماء، ونهاية حكم الحكماء، ولكن لست أتعمق فيما صعب من العلوم الطبيعية، بل أقص عليك نبأ ما تراه حولك أو تعرفه في نفسك.

(١) أنت ترى الدجاج والبط والإوز، ترى هذه الحيوانات داجنة في بيوتنا، وترى الدجاجة والبطة والإوزة يبضن ويفقسن ويربين أولادهن، وترى الديك ونظائره في الإوز والبط لا يتعرف بأبنائه، ولا يتحنن عليهن، ولا يبالي بتعليمهن. فلم هذا؟ ذلك لأن الفرخ إذا خرج من البيض تراه كامل الزغب، وموفور القوة، يجري وراء أمه كأنه كان حياً بالأمس.

(٢) وترى على نقيض ذلك الحمام يساعد أنثاه في تربية صغارهما، فلم حصل التباين بين ذكرانهما ما السبب؟ السبب أن أفراخ الحمام ضعاف ليس عليهن وقاية تقيهن، فإن أفراخه تخرج ليس عليها ريش، ثم يخرج بعد أيام فلزم معاونة الذكر للأنثى. فتعجب.

(٣) وترى أن النمل والنحل اللذين جرت العادة أنهما لا يموتان زمن الشتاء، ألهمهما أن يجمعا القوت ويدخراه.

(٤) فأما الزنابير الحمر والسود والصفر والجراد وأضرابهما، فإنها لما جرت العادة أنها لا تعيش سنة كاملة لم تلهم الجمع والادخار، بل تركت وشأنها، فإن الزنابير بأنواعها الثلاثة زمن الشتاء تسكن في أماكن نائمة بلا أكل ولا شرب، حتى إذا جاء فصل الربيع استيقظت من مراقدها مرة أخرى. فأما الجراد فإنها بعد وضع بيضها في أرض صالحة له تتقاذفها حوادث الجو والبرد ولواذع الحر، فيموت ويبقى البيض في الأرض مدفوناً حتى إذا جاء فصل الربيع فقس في الوقت المعلوم وكما كان أبواه.

(٥) ترى الجمجمة الإنسانية مركبة من سبعة عظام، فواحدة هي قاعدة، وهي عظم صلب يحمل سائر العظام، وأربعة جدران: أحدهما عظم الجبهة ممتد من طرف القحف إلى آخر الحاجب،

والثاني مقابله مؤخرها، وهو أصلب الجدران، والآخر يمنة ويسرة وفيهما الأذنان. وعلى هذه الأربع القحف كالسقف للدماغ، وهو عظمان، وشكل كل منهما مستدير. وقد اتصلت هذه العظام بالشؤون جمع شأن، تشبه لسان المنشار دخل بعضها في بعض، وأحد الشؤون تراه في مقدّم الرأس عند الجبهة ويسمى الإكليلي، لأنه في موضع الإكليل من الرأس والآخر عند نقرة القفا وهو شبيه بالدال في الخط العربي، والثالث في وسط الرأس من الدال إلى الإكليل ويسمى المستقيم، فتكون صورته هكذا)-(
وإنما تعددت هذه العظام في الرأس لأنها لو كانت عظماً واحداً إذا حلّ بأحدها كسر اختل العضو بتمامه. فأما الآن فإن الخلل لا يجاوز موضعه فيمكن علاجه.

(٦) أقول: أعد نظراً في العين المذكورة في أول السورة وتأمل في أن الزجاج الذي يستعمله الناس وينتفعون به إنَّما هو مواد رملية قد مزجت بالقلي وبالمغنيسيا حتى صارت شفافة تستقبل ضوء الشمس ولا تحجبه فهي كالهواء، فالهواء الجوي شفاف، والماء شفاف، والزجاج شفاف، والماس شفاف. وهذه كلها لا تحجب ضوء الشمس عما وراءها، فتعجب كيف كان الرمل المذكور أو ما يقوم مقامه قد دخل في النبات والحب وسائر ما نأكله بطرق مختلفة فتناولته أعضاؤنا الهاضمة، وسرى في العروق والشرايين وأخذت القوى التي في داخل أجسامنا تصطفيها وتلتقطها من الدم الجاري في العروق وتؤديها إلى العين فتضع في معملها ما هو كالزجاج الشفاف منوّعاً بأنواع ثلاثة تقدمت لتشاكل الهواء الحامل للضوء الجاري من الكواكب، الحامل للصور والأشباح والألوان، الداخل من غطاء العين المسمى بالقرنية التي هي كالقرن الأبيض، وهي شفافة كالهواء، ثم يدخل على تلك الصور الزجاجية الثلاثة، فتعجب معي وقل لي رعاك الله: كيف اتفق أن كان الهواء شفافاً والقرنية والبيضية والجليدية والزجاجية، وكيف انتخبت المادة الزجاجية لتوضع في العين، وكيف جعلت مناسبة الوضع والحجم لرسم الصور فيها، بحيث تكون الجليدية محدبة الوجهين لترسم الصور عليها، موافقة لما تقرر في علم المناظر قديماً، وفي علم الطبيعة حديثاً، هل كان كله اتفاقاً؟ أما أنا فأقول: كلا، فهل أنت معي؟ وأنا لم أخاطبك الآن إلاَّ بالعقل والفهم، ووكلت الفهم لعقلك. أوَلست ترى أن هذا الوضع لم يكن عبثاً وباطلاً ولغواً، بل كل ذلك قد عرفت أنه لنتيجة ظاهرة واضحة، ولكن أكثر الناس من العامة وصغار أهل العلم ينظرون ولا ينظرون ويقرؤون وهم نائمون، ومن هنا فلتفهم: ﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا ﴾ ومن هنا يكون علم التوحيد، ومن هنا يفهم القرآن. فأما ما عدا ذلك فإنما يتسلى به الجاهلون، ويفرح به الغافلون.

(٧) تأمل في فقرات الظهر وادرس فقرة واحدة منها، فإنك تجد عليها أربعة أشياء: غشاء غضروفياً يغشيها، وشوكة نابتة من خلفها، وجناحين من يمينها ويسارها. أما الغشاء الغضروفي ـ أي الذي هو أصلب من اللحم وأسهل من العظم ـ فلأجل أن لا تنكسر بسهولة عند مصادمتها. وأما الشوكة من خلفها فلتكون وقاية لها بارزة كالمجن تتلقى بها الصدمات فلا تصل لها. وأما الجناحان فإنهما مدخل لرؤوس الأضلاع وتقي الفقرات من جوانبها، كما أن الشوكة تقيها من ورائها.

أفلا تكفيك دراسة الفقرة ودراسة العين حتى تعرف: ﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا ﴾. هذا هو مقصود القرآن ولهذا أنزل القرآن، وبهذا يرتقي المسلمون، وبهذا يكونون خير أمة أخرجت للناس.

انتهى الكلام على اللطيفة الثانية.

اللطيفة الثالثة

في قوله تعالى: ﴿ سُبْحَـٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾، وقوله تعالى: ﴿ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَـادَ ﴾، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ﴾.

لقد كان من عادتي أن أجعل القول محاورة في الأمور العظيمة العلمية بيني وبين صديق تسهيلاً للفهم، ولكني الآن أخالف هذه الطريقة لأحادثك أنت.

أريد أن أحادثك دقائق على شريطة أن تخلي بيني وبين قلبك لأجاذبه الحديث، فدع عنك كل ما علق به من الآراء التي سمعتها بلا روية ولا تحقيق، وارفع الحجب المسدولة والأستار المنصوبة، لئلا تحول بيني وبين صفاء قلبك ونور عقلك المرسل من الله إليك، فهو الذي سيفهم ما أقول الآن، فهل فهمت صفاء العين وجمالها في النبذة المتقدمة؟ فاعلم أن عقلك أصفى من عينك، العين جسم والنفس غير جسم، فهي أجمل وأقبل للعلم، لعلك الآن استعددت لسماع قولي، فأقول:

خذ العلم مما حولك في دارك وجارك وأهل بلدتك، خذه مما تراه وتسمعه كل يوم، وانظر أيها الذكي ألست ترى أن في الناس حياء يوليهم ذلة وانكساراً وخجلاً عند وقوع الأمر الذي يورثهم الفضيحة والعار. ولأضرب لك مثلاً بالملوك والمماليك أولاً، والسوقة ثانياً، والفتيات ثالثاً.

(١) لقد تعلم أن الدول إذا أهين سفيرها في ممالك أخرى أو تاجر من تجارها تعلن الحرب على المهينين لها، وقد يكون ذلك خراباً عليها ودماراً، لماذا؟ لأنها تأبى أن تفتضح ويقال لها قدمت بالسوء فرضيت، ولست أطيل في الأمثال على ذلك، فأنت تراه وتسمعه كل يوم.

(٢) ولقد تعلم أن في دول الغرب عادات المبارزة، وما هي المبارزة؟ هي أن يذم زيد عمراً، فيقول عمرو لزيد: لماذا أهنتني؟ لا بد أن تبارزني، فيتفقان على موعد، وكل منهما يحمل سلاحاً مثل ما مع الآخر، والطبيب حاضر والشهود واقفون، ويتبارزان بالسلاح، ومتى جرح أحدهما أو مات قضي الأمر وانتهى بسلام، فإن جرح ولم يمت قام وصافح عدوه الذي كان ينازله وحفظ شرفه وإذا لم يبارز أصبح مهيناً عند قومه فلا يجالسه أصدقاؤه ولا يحييه الأولياء ولا يأبه له أحد، بل يصبح طريداً شريداً ذليلاً، ولذلك يفضل أن يبارز الذي أهانه، ولو كان الآخر أقوى جسماً وأقدر على استعمال السلاح منه، ألا ترى أن الموت أو الجرح أفضل من الذلة والعار وانكسار النفس.

(٣) وهكذا نرى أن الفتيات في غالب الأمم إذا شعرن بخلل في عرضهن أو زلل في سيرتهن اعتراهن من الحزن والألم ما لا آخر له، فيقدمن أنفسهن للموت قائلات: الموت خير من العار. وتأمل قول السيدة مريم: ﴿ يَـٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَـٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴾[مريم:٢٣]، وهكذا نرى هذا النوع الإنساني يسعى كله في كل زمان للشرف ورفعة النفس بين الناس، هذا مغروس في الفطر، مكتوب في الطبيعة الإنسانية بحروف بارزة.

أفلست ترى من هذا وغيره أن الناس جميعاً يحافظون على الشرف، ويخافون الفضيحة وكشف السر وإذاعة السوء عنهم، وأن النفوس الشريفة تأبى الذلة، وتقدم أجسامها قرباناً لذلك المقام الجليل، مقام الشرف والكرامة، وأن الناس أكثرهم يقولون كما تقول العامة في بلادنا: «النار ولا العار» فأحط الناس منزلة كأرفعهم مقاماً متفقون في تلك الفطرة. ولقد سمعنا أن التعايشي لما قدم على بلدة

من السودان وقد أمر الرجال أن يتنحوا عن نسائهم ليدخل بعسكره إلى النساء فيه، وكان جمعه عظيماً ورجال البلدة قليل، فماذا فعلوا؟ تقدم الرجال للحرب فماتوا. أما الفتيات الأبكار فإنهن أخذن بأيدي بعضهن صفاً واحداً ونزلن في نهر النيل ومتن غرقاً، وهن في ذلك أشرف من «كيلوباترة» التي قالت: بيدي لا بيدهم، لأن كيلوباترة قالت ذلك لما علمت أن عدوها سيقتلها، ولو علمت أنه سيستحييها ويتعشقها كالقائد الذي كان معها من الرومانيين لرضيت وقبلت. أما هؤلاء الفتيات السودانيات فإنهن علمن أن العدو سيستحييهن ويقضي على عفتهن ففضلن الموت، ولست أطيل في ذلك، فالشرق أقوى حباً للشهامة وأكثر غراماً بالشرف من الغرب وكلهم على الشرف والكرامة متفقون.

أفلست تفهم من هذا معنى هذه الآية، ولماذا ذكرت هنا بعد خلق السماوات والأرض والتفكر فيهما، وأي مناسبة بين نار جهنم وبين الخزي والفضيحة والعار، إنه يبدو للمتأمل أول وهلة أن لا مناسبة بينهما. فأصغ لما أقول السمع، وخل الحجب والأستار مزاحة عن القلب دقائق، حتى نفهم الآية من هذه الطبائع الإنسانية، إن الأمور التي تشين الناس ترجع إلى أمور يستنكرها العرف، كهتك الأعراض، ونهب الأموال، وما أشبه ذلك. وهذه معروفة مقررة بين الناس، ومع ذلك تختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة والأمم، فإنك ترى الإفرنجي يجالس امرأة غيره في غيبته وحضوره، ولا يجد زوجها في نفسه حرجاً من ذلك، لأن العادة هي التي أطلقته. ولو فعل شرقي في بعض الأحوال كذلك لعدّ ذلك ماساً بكرامته، وهكذا عادة الرقص مع الأجانب يستنكرها الشرقي ولا يستنكرها الغربي، وهكذا. وإنما الأمر الذي يتعالى على جميع العادات وتألفه جميع النفوس إنّما هو العلم. فقل لي رعاك الله أي امرئ لا يحب العلم؟ أولست ترى أن المتوحش والغبي وأجهل الجهلاء يفرحون بالخرافات والأحاديث عن العفاريت والجان، ويغنون بالأقوال ذات المعاني المناسبة لأذواقهم. أولست ترى أن كل أمة عندها دين يقرؤه جهالهم فيفرحون بذكر أشياخهم وأنبيائهم، وبكل خرافة يوردها الشيوخ الجاهلون، وقد نسبوها لذلك الدين ظلماً وزوراً، والناس بصدق الأحاديث وكذبها فرحون مستبشرون. فهل ترى الناس اتفقوا على شيء أكثر من اتفاقهم على استحسان العلم؟ إنهم في عاداتهم مختلفون و﴿ كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾[المؤمنون: ٥٣]. أما القوى العاقلة فإنها تحب المعارف والصور التي ترسم في أذهانهم حقاً أو باطلاً، كما أن المعدة تهوى الطعام ضاره ونافعه، والعالم بقانون الصحة يجتذب الضار، وهكذا المتعلمون المفكرون يستمعون القول فيتبعون أحسنه، كما اجتنب أولئك الأغذية الضارة فأكلوا أصحها.

أفلست ترى بعد هذا البيان أن الخزي والفضيحة والعار في جهل الناس أشد وأقوى من انكشاف العورات الجسمية وظهور السوءات الطبيعية، لأن السوءات الطبيعية كالأعراض قد اختلفت فيها الأوساط ونوّعت. أما العلم والمعرفة فقد اتفقت عليها الفطر، ولم تر أحداً من الناس إلاّ وهو يأنف أن ينسب إلى الجهل، ويود أن ينسب للعلم، وكأن الفطر قد غرس فيها أن النفوس تموت بجهلها كما ماتت الأجسام بمنع أغذيتها، وكما أن المعدة إذا خلت من الطعام مدة معلومة فنيت الأجسام. هكذا النفس الإنسانية إذا خلت من أغذيتها بالصور التي تحل فيها، فإنها تكون ميتة لا محالة معدودة في ذوي الجهالة، فتلخص من هذا:

(١) أن الناس مفطورون على الشرف والحرص على العرض والكرامة.

(٢) الملوك والدول يقدّمون أموالهم ورجالهم لحفظ الكرامة.

(٣) الرجال والنساء في الأمم الغربية يفضلون الموت والجرح على العار.

(٤) أهل الشرق وأخسهم درجة وأدناهم مرتبة أشد حرصاً على العرض والشرف من بعض أهل الغرب.

(٥) العادات مختلفات في ذلك، وتكون المحافظة على مقتضى الاصطلاح في البيئة.

(٦) كل امرئ يحب العلم، أي الصور التي ترسم في الذهن حقاً أو باطلاً، وهي كالأغذية الضارة والنافعة تقبلها المعدة.

(٧) أن كل امرئ يأنف من الجهل إذا نسب إليه.

(٨) أن العلم أقوى ما يرغبه الناس؛ فالفضيحة في الجهل أشد من الفضيحة في سواه لاتفاق الفطر على استحسان العلم بين الناس.

(٩) فلنفهم إذن قوله تعالى هنا: ﴿ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ﴾، وفي آية أخرى يقول: ﴿ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴾[فصلت:١٦].

فالخزي من معانيه الافتضاح، وهذا المعنى هو الشائع اليوم على ألسنة أبناء العرب في مصر وفي سائر البلاد العربية، وهو ظاهر في قوله تعالى: ﴿ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴾[طه:١٣٤] فالخزي راجع للعار والافتضاح، وهتك السر، وهذا هو الذل الأعظم لا سيما في العرف العربي، وقد كان العرب أشد الأمم خوفاً من الخزي وهو مشهور، ولا يزال معروفاً لليوم، فالرجل يقدم للضيف في البادية كل ما يملك، وأبناؤه جياع فلا نطيل به.

فهاهنا لما ذكر الله تعالى خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار، وأن الناس يجب أن يذكروا الله في كل الأحوال ليجتلوا من صنعته صور العلم والحكمة، ويتفكروا في خلق السماوات والأرض، فإذا قرؤوا منه مثل ما كتبنا اليوم من عالم الأرض والسماء في هذه الآيات، يخجلون من نفوسهم ويحزنون ويبكون على عقولهم التي ضيعوها ويقولون: ربنا لقد ظهر لنا مما درسناه أن هذا العالم منظم، ولم نجد فيما درسناه مخلوقاً عبثاً، حتى إن الفقرة التي هي إحدى فقرات ظهورنا، وجدنا فيها كل شوكة لحكمة، وكل جناح لحكمة، وغطاؤها لحكمة، والنخاع الذي هو داخلها لحكمة فإنه يغذيها وله حكم أخرى، فواخجلنا أنعيش في الدنيا ونموت ونحن نجهل ما بين أيدينا، وأي عار أعظم من أن نعيش ونحن نجهل أنفسنا وأجسامنا وما حولنا من نبات وحيوان، وما فوقنا من سماوات وما تحتنا من أرضين.

سبحانك أنت يا الله، منزه عن هذه المادة رفيع، فإنك تعلم كل شيء، وملابستنا للمادة وشهواتها، سترت العلم عنا فغاب، ولم نعرف بدائع الحكم فأنر بصائرنا وعرّفنا أنفسنا وما حولنا، فإن الجهل خزي وعار، والنار المشهورة أسهل لأنها تطلع على الأجسام، أما نار الجهل فإنها ﴿ تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ﴾[الهمزة:٧] والمطلعة على الأفئدة دائمة وخزيها دائم، فهذه هي النار العميقة الداخلة في

أنفسنا، وهذه هي النار التي يحس بها الإنسان إذا أخرج من في القبور، وحصل ما في الصدور، وهي التي بها تحترق الأفئدة ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾[الطارق: ٩] و﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾[آل عمران: ٣٠] وهي التي يلتهب القلب بها يوم يقال: ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾[الإسراء: ١٤].

فقل لي أيها الذكي كيف يكون الإنسان إذ ذاك، وقد انخلع من جسمه، وحرم مما كان عنده من المجد والمنصب والمال، وخلي بينه وبين عقله، ونظر فرأى الناس حوله قد طاروا في العوالم بأجنحة العلم، وربض في مكانه جاثماً كالجماد بجهله، فقوم كالطائر في الجو بالجناح، وآخرون كالحجارة والحديد بما نابهم من الإثم، وما انتابهم من الجهل وما حلّ بهم من الخزي بالصور التي اطلع عليها إخوانهم، وقد كانت أعينهم في الدنيا عنها في غطاء، من عيوب اقترفوها في حياتهم، وسيئات اجترموها ومن جهالة وغفلة وعمى عن جمال العالم وعجائب الخلقة وبدائع الجسم الإنساني. هذا هو معنى قوله تعالى: ﴿فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾، وقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ﴾.

وهذا كما يقول الرجل الشريف لمن ضربه بعصا على رأسه مثلاً أمام الناس: هذه العصا ألمها أقل من ألم نفسي، ومن ضرب بعصا فقد أهين أمام الجمهور، والإهانة هي التي أبالي بها. ربنا إنك من تدخل النار فتحرق جسمه الظاهر فقد فضحته، والفضيحة والعار هي العذاب الذي تتحاشاه النفوس وتخشى ما فيه من بؤس؛ فالعذاب إذن عذابان: عذاب جسمي وعذاب روحي، والثاني أقوى وعليه إجماع المفسرين.

ولولا خيفة السآمة من التطويل لبسطت القول في عذاب جهنم بالنار الجسمية، وهل هو منقطع أم أمده لا يزول، وما جاء فيه من الأحاديث النبوية، وآراء العلماء وأكابر الحكماء والصوفية، وسأرجئ الكلام فيه إلى سورة هود عند ذكر الأشقياء والسعداء، وجهنم والجنة في آخر السورة إن شاء الله وطال الأجل، ولكني قبل أن أفرغ من هذا المقال أذكر عجيبة من عجائب القرآن هنا. ذلك أني نقلت عن الإمام الغزالي في كتاب الأرواح ما ملخصه: أن العذاب بعد الموت ينقسم أقسام ثلاثة:

الأول أن تحس النفس بعد الموت بفراق ما اشتهته من المآكل والملذات والصيت والشهرة والعزة فتحزن حزناً شديداً، وهذا أول عذاب تلقاه، وهو فراق المألوف، وهو أشد من العذاب الجسمي، فإذا رأى الإنسان فجأة أنه قد قسم ماله، وأخذت زوجته، وحيل بينه وبين ما يشتهي فذلك أشد من الموت بل هو العذاب الأليم ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍۭ﴾[سبأ: ٥٤].

الثانية أنه إذا تطاول الزمن واستقرت النفس بعض الاستقرار نظرت في أعمالها فترى صورتها قبيحة من الظلم والذنوب التي اجترحتها في الحياة وهي تعاينها مواجهة، فإذا طال الأمد في هذه الفضيحة والعار تبدّى للنفس أنها ناقلة العلم والعرفان، وأنها تجهل ما يجب أن تتحلى بعلمه، وترى غيرها قد ارتفع بعلمه إلى الدرجات العلى، حصل لها ألم لا يطاق، ولسنا الآن في مقام الرد عليه أو تعضيده ولكنا نقول: تعجب من القرآن كيف ذكر العذاب هنا ثلاث مرات، فقيل أولاً: ﴿فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾. ثانياً: ﴿إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ﴾. ثالثاً وهي الأخيرة منها: ﴿وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾

فالعذاب الأول جسمي لأنه لم يذكر إلاَّ النار الجسمية، والثاني جسمي وعقلي، والثالث عذاب نفسي وهو الخزي الذي هو أشد العذاب، ويظهر أن ما في الآية بحسب تدرجه بالعذاب أشبه بالخشب إذا أحرق، فإنه أولاً يكون الاحتراق مصحوباً بالدخان والدخان أكثر، ثم تصير النار أكثر، ثم يصير ناراً صرفة.

فلعل الناس في أول الأمر بعد الموت يكون الإحساس والشعور فيهم بالفضيحة أقل، ثم يزيد الإحساس والشعور بها، ثم يكون العذاب أقوى لإدامتهم فيه ولاستغراق النفس في عارها وشؤمها. فيا أيها الذكي اجعل أول عملك الأخلاق وتهذيبها، وتقوية الجسم بالنظافة والرياضة، ثم كملها بالعلوم الشريفة كما رأيت في سورة آل عمران من الغزوات ثم العلوم.

وكان عذاب النار الخالد في مقابلة تراخيهم عن تهذيب النفس بالأعمال الظاهرة كمثل حركات الدفاع عن الوطن والحرم، وعذاب الخزي الفاضح الذي لم تذكر فيه النار راجع إلى العلم الذي أمرنا بالتفكر فيه، فكأنه يقال لا تدعوا أجسامكم بلا عمل يقوّيها كالدفاع بالتمارين العسكرية والأعمال الحربية والتهذيبات الخلقية.

وإياكم وترك العلوم فإنها فضيحة وخزي وعار في الدنيا والآخرة. أما في الدنيا فإن الذين لا علم عندهم تدوسهم دول الاستعمار في أوروبا، وترسل عليهم شواظاً من نار حامية من الطيارات، فيصبحون خامدين. إن احتراق الأفئدة بالخزي يوم القيامة يلازمه احتراق الجسم بالنار، فإنك ترى من فوجئ بخبر محزن أو فارقه معشوقه يتقد قلبه ناراً وحزناً والجسم يناله من ذلك نصيب فيقع في الحمى فالنيران النفسية تتبعها الجسمية. السعادة الروحية تؤثر الدر في الأبدان. وهذا آخر المقال في تفسير سورة آل عمران.

تَمَّ الجزء الثاني من تفسير الجواهر

ويليه الجزء الثالث وأوله سورة النساء

فهرس الجزء الثاني من تفسير الجواهر